الأمير

حمزة البهلوان

حمزة العرب



دار الكتب العلمية

الأمير
حمزة البهلوان

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

يطلب من : دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ — ٨٠٥٦٠٤ — ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤-١١ — تلكس : NASHER 41245 Le

الأمير حمزة البهلوان

المعروف

بحمزة العرب

الجزء الثاني

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

الجــزء الثانــي

من قصة الأمير حمزة البهلوان

قال وكان عمر العيار في تلك الليلة خاف من أن الأعجام يباكروا إلى الهجوم على البلد فأسرع إلى عياريه وجاء بهم إلى الجهة المقيم بها زوبين الغدار وفرق عليهم النبال الكثيرة ودعا أيضاً برجال أخيه الثمانمائة الأخصاء وأوصاهم بأن كل واحد منهم يأخذ قوساً ونبالاً وعين لهم مكاناً حصيناً وقال لهم اعلموا أننا لا نقاتل العجم الآن إلا بعد أن يأمر أخي حمزة ويأتي الزمان الموافق للقتال غير أننا إذا هجموا علينا ندافع عن المدينة لأن الله يساعدنا ولا يقبل بأن تصاب المدينة المطهرة بسوء من الكافرين والمعتدين ومتى رأيتم الأعداء وقد هجموا علينا فصوبوا نبالكم عليهم وارموهم بها فهي لا ريب تصيب مقاتلهم ويعمي الله بصائرهم ففعلوا كما أمرهم وأقاموا على الانتظار إلى أن كان الصباح ورأوا جيوش زوبين تتقدم إلى ناحية المدينة وباقي الجيوش مستمكنة في خيامها فأسرع عمر إلى رجاله وأوصاهم بالمحافظة التامة على المدينة في مقدمتهم وهم ينتظرونه أن يرمي نبلة ليتبعوه وبقي صابراً على زوبين ورجاله حتى قربوا جداً من المدينة وهم بأمان من أفعال عمر العيار وبكل فكرهم أن العرب لا يباشرون القتال وفيما هم يتقدمون على مثل ذلك لم يشعروا إلا وعمر العيار قد صاح من الأعالي وصوب سهمه وأطلقه عليهم وفي تلك الدقيقة انطلق من جماعة العيارين ورجال حمزة نحو ألف سهم ثم تكرر ذلك وكلها تقع بين العجم وقد أخذوا بغتة واضطربوا ببعضهم وظنوا أن العرب بأجمعهم يطلقون النبال فارتبكوا وماجوا من الخوف يميناً وشمالاً وقد عميت أباصرهم ونشئت أفكارهم ونزل الله عليهم البلاء وما من سهم اطلق من العرب إلا ووقع بمقتل رجل فأرداه هذا والعرب مداومة إطلاق النبال لا تفتر ولا يأخذها كلل وعمر العيار يتطاير من حولهم من مكان إلى مكان لا يدع أحداً يرجع إلى الوراء كأنه عزرائيل قابض الأرواح أو إسرافيل ينفخ بالبوق لتفريق شمل الأعداء وما برحت العرب على مثل هذا العمل حتى أهلكت نحو عشرة آلاف من عساكر زوبين وسار الباقون بالفلا خوفاً من الهلاك والدمار وكان من جملة الهاربين زوبين الغدار وقد تكدر مما جرى وصار وما صدق أن خلص من ساحة الهلاك وبعد أن أبعد عن المدينة وأمن على

نفسه أمر بأن تجتمع إليه رجاله وأن يعودوا إلى خيامهم وهو غالب العقل والصواب على ما حل به من الوبل والتأخير ونزل في صيوانه حزينا وفيما هو على مثل ذلك وإذا ببختك وكسرى وصلا إليه لأنهما كانا قد رأيا ما حل برجال زوبين ونظرا تبديد شملهم وعند وصولهما إليه سلما عليه وهنآه بالسلامة وقال له بختك إن العرب على ما يظهر مستعدون للقتال وقد استعملوا هذه الحيلة أي يقابلوا بالسهام ولا يقربوا منا وما ذلك إلا عن عجز وخوف قال إني كنت أظن أن هذا فعل العرب بأجمعهم مع أني تأكدت بعد رجوعي ونظري من بعد أنه فعل نحو ألف نفس منهم قال بختك إن هذا بدون شك فعل عمر العيار وقد دبر هذا التدبير ليوهمنا أن العرب بأجمعهم يفعلون ذلك مع أنهم معتمدون على الحصار والبقاء داخل المدينة . فقال كسرى إني أريد وأحتم بإرادتي أن لا نباشر حرباً مع العرب بل من الواجب واللازم أن نسد عليهم كل المنافذ ونمنع كل الطرقات حتى لا يأتيهم نجدة من مكان ولا يصل إليهم أحد بمؤ ن وذخائر ومتى فرغ طعامهم يلتزمون إلى الخروج وهم جياع فنتمكن منهم ونذيقهم العذاب ونجعل طعامهم إذ ذاك الموت الأحمر يخصب من أسنة رماحنا وافرند سيوف رجالنا فأجاب بختك ذلك وقال هذا هو الصواب ونحن غرباء في هذه البلاد فإذا أضعفت قوتنا أو فقد من جيشنا قسم فلا نقدر أن نعتاض عنه من هذه النواحي وتم الرأي الحسن أن نحافظ على دم رجالنا وأبطالنـا إلى أن يتضايق العرب ويفعل بهم الجوع .

ثم اتفق كسرى وبختك وزوبين أن لا يكون كل تلك المدة بل يجتهدون بالحصار وأقام العرب ينتظرون هجومهم مدة أيام فلم يروا منهم هجوماً فعلموا أنهم عاملون على حصرهم وكان حمزة قد سر من عمل عمر العيار وشكره الشكر العظيم وكذلك باقي العرب وما منهم إلا من وهبه شيئاً من المال ليفرقه على جماعته العيارين - ففي ذات يوم دعا حمزة أخاه وقال له أريدك أن تذهب إلى بزرجمهر وتسأله عن القتال أهل يوافق في هذه الأيام أم لا ؟ لأننا إذا لبثنا على مثل هذه الحال عدة أيام لقينا البلاء بحيث يكون قد فقد من عندنا المؤ ن ولم يبق لنا ما نأكله وما نعال به ويكفي لهذه الجموع المتجمعة عندنا فنلتزم أن نأكل من المال الذي أتينا به من جمع الأخرجة وربما فرغ وهذا لا أريد أن أمدد إليه يداً الآن مع أن صدري قد ضاق من التقاعد والأعداء محدقين بنا وهذا عار لا أقبله علي قال سأعود إليك بالأمر من بزرجمهر فإذا أشار بالقتال فعلنا وإذا أمرنا بالتربص فعلنا أيضاً لأن لا نجاح لنا إلا بإذنه وعنايته وخبرته وصبر عمر إلى أن اسود الليل وغفل كل رقيب عن مراقبة من مثله فتزيا بزي الاعجام وخرج على تلك الحالة حتى وصل إلى صيوان بزرجمهر فدخل عليه وقبل يديه وسأله عن حمزة فقال هو بخير وعافية وقد رجع كما كان وهو على الدوام يطلب القتال وأنا أمنعه لحين صدور أمرك به حيث أعرف ويعرف هو أيضاً أنك محب للعرب ولا سيما الأمير إبراهيم وقد حذرتنا قبل هذه الأيام من النحوس فلم ننتبه إلى ذلك حتى لقينا ما لقينا من نتائج مخالفتنا فهل زالت هذه الأيام أم لا تزال باقية . قال بلغ

سلامي لأخيك حمزة وقل له أن يصبر على الحرب والقتال مدة أيام آخر إلى أن يأتيه الفرج من عالم الغيب قال ومن أين يأتينا الفرج ومن أي ناحية قال إن على الأمير حمزة أسفار وأهوال لا بد أن يرسل الله من يبدد شمل العجم ويكون على وجهه نجاحكم وهو لا أعرفه ولا أعرف اسمه لكن أعرف أنه ليس من الإنس بل من الجان قال أن الأمير يخاف من التطويل فتفرغ منا المؤ ن والمأكل وليس عندنا ما يكفينا إلى زمان طويل مع أن الأعجام طرقهم مفتوحة فيحصلون على الزاد من أي ناحية كانت قال لا يمكن أن يحصلوا على الزاد من هذه البلاد غير أن ما معنا يكفي لأيام قليلة وقد أعد كسرى كثيراً من المؤ ن والأطعمة تكفينا لعدة سنوات وسلمها لعبيد زوبين الغدار وهم آتين بها وبعد يوم أو يومين يكونون هنا لا بد لي من سلب هذه الأطعمة والاستيلاء عليها وسوف ترى ما أفعل بها فهي غنيمة باردة ثم عاد إلى أخيه وأخبره بما سمعه من بزرجمهر وانه لا يأذن لهم بالقتال في تلك الأيام فلم يسع الأمير المخالفة وصبر الى حين يأتي الله بأيام السعود وأما عمر فإنه دعا بعياريه وأوصاهم أن يكونوا على استعداد وتقدم من اندهوق بن سعدون والمعتدي وباقي الفرسان وقال أريد منكم أن تكونوا على حذر واستعداد فإني أريد أن أذهب بكم في هذه الليلة الى غنيمة عظيمة تنفعنا وتضر بأعدائنا فقالوا إننا بانتظار إشارتك ثم أنه لبس ملابس عبيد كسرى ووضع على رأسه قبعة مدورة وعلق بها بعض أجراس وسار بين الأعجام ولا أحد منهم يعي إليه وكل من رآه لا يظن إلا أنه عجمي حتى قطع جيوشهم وسار مبعداً عنهم إلى أن كان النهار فدخل في واد متسع الجنات كثير الفسحات فيه وإذا بالأحمال محملة وسائرة الى جهته فتقدم نحوهم وهو فرحان يصفق بيديه ويغني من الفرح ويرقص ولا زال حتى اقترب من العبيد ووقف أمام كبيرهم فقال له من أنت وقد يظهر لي أنك من الأعجام قال نعم أنا عبد كسرى وسخريته وقد بعثني لاكتشف أخباركم وأعرف هل أنتم بعيدون عنهم فسرت بجد عجيب حتى وصلت إلى هنا ولا يخفاك يا ابن الخالة أن لا شيء يسرني إلا الاجتماع بأبناء جنسي سود الألوان ولا يطيب العيش إلا معهم وإني أؤ كد لك إني فرحت جداً بهذه الخطة حيث يتيسر لي أن أسكر معكم وأرقص وأصرف ليلة حظ وسرور قبل وصولنا إلى المعسكر . قال بارك الله فيك فإن جنس العبيد يحب بعضه جداً وكلنا أولاد خالة فسر بنا قليلاً حتى إذا صار بيننا وبين معسكرنا ثلاث ساعات نزلنا بالأحمال وصرفنا ليلة من أحسن الليالي نحن وكل العبيد وفي الصباح نكون صحونا من سكرتنا فنسير إلى كسرى وزوبين ونسلمهما الأحمال والمؤ ن قال بورك فيه وجعل يغني ويرقص ويمشي أمام كبير العبد حتى سر منه سروراً عظيماً وأكثر من الضحك لكثرة أعماله السخرية وشغل به العبيد وتركوا الأحمال واجتمعوا إليه وحينئذ أمر كبير العبيد أن ينخوا الجمال ويبقوا الأحمال على ظهورها حتى يسيروا بعد نصف الليل وضرب صيوانه بالأول ومد الطعام فأكل مع عمر العيار وهو مسرور منه مزيد السرور وبعد أن فرغ من الطعام قال أريد منك يا ابن الخالة أن تأتينا بزق خمر وتأمر كل العبيد

والسائقين أن يأتوا إلى هنا لنصرف هذه الليلة على ما يرضيك فيضربون لي بالطنبورات ويصفقون بأياديهم وأنا أرقص إرضاء لك قال مرحباً بك سأفعل كل ما تريده ثم أمر أن يؤ تى بزق خمر ويجتمع العبيد جميعاً إلى عمر فصفهم دائرة الواحد مقابل الآخر وفي صدرهم كبيرهم وأخذ بزق الخمر فوضعه في الوسط وقال عليكم في هذه الليلة أن تضحكوا من أعمالي وتصفقوا من فرحكم وعلي أن أسقيكم من الخمر وأرقص لكم وأسركم وسوف ترون . ثم جعل يرقص ويقلب بالهواء ويمشي على يديه حتى كاد العبيد أن يهلكوا ضحكاً ثم أخذ الطاسة وجعل يسقيهم وقد قبض بخفة كلية من جبينه قبضة من البنج ووضعها في الزق فشربوا دوراً ثم أعاد عليهم ثانياً وثالثاً ورجع إلى عمله نحواً من نصف ساعة ثم سقاهم حتى قربوا من الثمول فقال لهم هيا بنا يا أولاد الخالة نرقص بأجمعنا رقصة الدبكة فمثل هذه الساعة ما عاد لنا ولا عدنا نجتمع فهبوا بأجمعهم وأخذوا أيادي بعضهم وجعلوا يرقصون ويضربون الأرض بأرجلهم ويهتزون ويميلون يميناً وشمالاً حتى تمكن البنج منهم جيداً ومن ثم أخذ في أن يقع إلى الأرض واحد بعد واحد حتى بمدة خمس دقائق وقع الجميع نياماً فعرف أنهم لا يقومون إلا بعد أربعة وعشرين ساعة أو أكثر ولم يقبل أن يضيع الفرصة فأسرع عائداً حتى دخل بين الأعجام ومن ثم جاء المدينة فوجد العيارين بانتظاره فدعاهم إليه وجاء من الأمير أندهوق والفرسان وحكى لهم كل ما كان من أمر العبيد والمؤ ن التي كانت معهم وقال لهم إن جميعها صارت بأيدينا ولم يبق علينا إلا أدخلها إلى البلد وأريد منكم بعد أربع ساعات أي قبل الصباح بساعات أن تصيحوا وتفاجئوا الأعداء من الجهة الفلانية فيميلوا لنحوكم وهم يظنوكم كثيرين واعملوا فيهم السيف ولا تتفرقوا وأنا أذهب الآن برجالي وجماعة من العبيد تحت الليل الدامس فأمر بهم من ظهر أكمة أعرفها وأنساب معهم ولا أحد يرانا حتى إذا رأيتكم وأنتم مقيمين الحرب ومفاجئين الاعداء مررت بالجمال والأحمال وليكن المعتدي وأنت في حمايتهم وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان بحمايتنا ولا سيما وقد أخذوا بغتة والليل شديد الظلام فلا يرون منه ما تحته.

قال سر أنت وسوف تشاهد ما يرضيك وللحال أخذ عيارته ونحو ثلثمائة عبد وأوصاهم أن يفعلوا كفعله وينسابوا من خلفه واحد بعد واحد دون أن يبدوا حركة أو صوتاً ولما صار في الخارج عرج عن الطريق وتسلق اكمة قريبة من الحفر وفعل رجاله وباقي العبيد كفعله وجعلوا يتقدمون شيئاً فشيئاً واحد خلف واحد حتى قطعوا الاعجام ولم يرهم أو يشعر بهم واحد منهم ومن ثم أخذ عمر خنجره وتقدم من العبيد مع عياريه فأوقعوا بهم وأماتوهم بمدة نصف ساعة ولم يتركوا أحداً حياً وبعد ذلك أخذ يفرقهم ويرتبهم على الجمال وصف الجمال خلف بعضها وسلم أزمتها إلى العبيد ووضع في كل ثلثمائة جعل عياراً من عياريه مسلحاً وأوصاه أن يكون عمله على الدوام الانتقال في تلك الفسحة حتى إذا وجد من يعارض أو يدنو من الجمال نحره بضربة من خنجره وتقدم هو بالأول كأنه الريح في سرعة الانتقال يكاد لا يظهر للعيان وأقام

ينتظر هجوم رجاله على الأعجام من الجهة التي أوصاهم بالهجوم منها ليمر بسرعة البرق الخاطف .

وفي تلك الساعة خرج أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي والأمير عقيل والثمانمائة بطل رجال حمزة الاخصاء ولما قربوا من معسكر الأعجام دخلوا بينهم وقد تفرقوا على عدة جهات واتفقوا أن يجتمعوا إلى جهة واحدة واشغلوا ضرب السيف فيهم وهم نيام وبدأوا في تقليب الخيام ودوس الرجال فاضطرب جيش الأعداء من تلك الجهة وظنوا أن الأرض قد انطبقت عليهم من كل الجهات فخرجوا هائمين على وجوههم ومن قدر منهم على حمل السلاح لم يتمكن أن يعرف من أي ناح كبستهم الأعداء فطلب العزلة ينتظر قدوم النهار وبهذا تسهل لعمر العيار أن يمر بالجمال وحالما صار بين الأعجام لقي الأمير اندهوق والفرسان تتجمع إليه تطلب منه أن يسير على جانب الجمال ذهاباً وإياباً مع باقي الفرسان ولا يدع أحد من الأعداء يعرف بهم أو يقرب من الجمال ففعل .

وكان عمر العيار كأنه البرق الخاطف من ناحية إلى ناحية والعبيد العيارون تسوق بالنوق والأحمال عليها وهي سائرة دون معارض والقتال واقع عند جانبها وكلما صادفوا أحداً في طريقهم كان جزاءه الإعدام والهلاك أما من عمر العيار الذي كان يحرسها من أولها إلى آخرها ويرعاها بأنظاره أو من خناجر عياريه أو سيوف الفرسان وما مضى نصف ساعة حتى بدأت الجمال بأن تدخل المدينة يتبع بعضها بعضاً وقد دعا إلى ذلك فرسان من المدينة فتناولوها ودامت الحال على هذا المنوال مدة ثلاث ساعات حتى دخلت كل الجمال والأحمال ومن ثم دخل من خلفها العيارون والفرسان جميعاً وهم مسرورون وفرحون بنجاح أعمالهم وفوزهم وحرمان الأعداء من طعامهم ومؤنهم وكان الصباح قد بدأ أن يتقدم فخرج الأمير حمزة من صيوانه ولاقى عمر فشكره على فعله ومدح من أعماله وأعمال الفرسان وقال الحق يقال أن هذا العمل يصعب على كل عيار وبطل وقد فعلتم بالأعداء فعلاً يؤثر فيهم لأنهم لا يمر أيام قليلة حتى يروا أنفسهم باحتياج شديد إلى الطعام ويشعروا بالمجاعة ونحن بأمان منها لأن هذه الذخائر تكفينا إلى زمان طويل .

وكان قد وقع الاضطراب بجيش الأعجام وهم لا يعلمون سبباً لفعل العرب غير أنهم ظنوا أنهم كبسوهم جميعاً وفي نيتهم الهرب والبعد عن المدينة ولذلك كانوا ينهضون من مراقدهم فأما يتسلحون ويتقدمون وإما يعتزلون وكثيراً ما يصادف العجمي عجمياً فلا يعرفه ويظنه عربياً فيبطش به أو يفر من أمامه غير أن القتال واقع من جهة واحدة فقط ودامت الحال إلى أن أشرق الصباح فلم يروا أحداً من العرب غير أنهم رأوا أنفسهم يتقدم الواحد من الآخر ليوقع

به فسكن اضطرابهم وتعجبوا وإذ ذاك نهض كسرى غضباناً واجتمع عنده كل من وزيريه بختك وبزرجمهر وزوبين الغدار وسكاماً وورقا وباقي الأعيان فقال لهم أريد أن تعيدوا إلى الواقعة وماذا جرى فإنني لا أرى الأمر مهماً مع أن عند الليل ظننت أن الأرض انطبقت على بعضها لكثرة الصياح وما ظننت إلا أن جموع العرب قد ضربتنا من كل جهة فقال له يا سيدي غير أنه عند طلوع الفجر ما وجدت إلا جماعة قليلة من الفرسان داخلة من الباب بعد أن دخل أمامها حبل طويل من الجمال التي عليها الأحمال ولا أعلم أوله وعندي ان تلك الليلة حيلة فعلتها العرب لتدخل بعض النجدات الى المدينة أو لتدخل تلك الجمال حيث أنهم بحاجة إلى الطعام وقد قتل من عساكرنا نحو ثلاثة آلاف فارس فقط فلما سمع زوبين هذا الكلام قال أخاف أن تكون هذه الجمال هي جمالنا التي تركناها مع العبيد وعليها أحمال المؤ ن والذخائر ولا ريب أن وصولها سيكون في هذا النهار فعلموا بهاواحتالوا على الاستيلاء عليها ونحن غافلون عنهم .

قال بختك لا بد من كشف هذا الأمر ومن الواجب أن نرسل من يكشف لنا الحال لأن إذا كان الجمال جمالنا والأحمال أحمالنا يكون العرب قد قتلوا عبيدنا وأبقوا آثارهم في الطريق ثم بعث بالعبيد لتكشف لهم الأخبار فما غابوا إلا القليل حتى وصلوا إلى الوادي الذي لقي به عمر العبيد فرأوا الصيوان مضروباً والعبيد مع كبيرهم مقتولين ومطروحين إلى الأرض وما من جمل في تلك الأرض سوى الآثار فعادوا في الحال إلى كسرى ونعوا العبيد وأخبروه أنهم جميعاً أموات فتكدر وتكدر زوبين وبختك وقالوا لقد فاز العرب فوزاً عظيماً في هذه المرة ونالوا ما يكفيهم لأشهر وأيام وقال بختك إني أعرف حق المعرفة أن هذا العمل هو عمل عمر العيار ابن الزنا والحرام فلعنه الله ولعن يوماً ولد به ووجد بهذه الدنيا واني أسأل النار أن ترميه بأيدينا لأقدمه ذبيحة لها بعد أن أذيقه أشد العذاب فقال كسرى إني أعرف أن هذا عمل عمر العيار غير أني سأصبر على وقوعه بيدي ومن اللازم الآن أرسل الرسل بأسرع ما يكون حتى تصل إلى المدائن وتأتينا الأطعمة والمؤ ن بمدة قريبة ولا أبرح عن هذه الأرض حتى أهلك العرب ولا بد أن الأحمال التي كسبوها بالحيلة تفرغ وتنتهي فيحتاجون إلى غيرها ثم دعا بالرسل وبعثهم إلى المدائن وأوصاهم بالعجلة والإسراع بالاتيان بالمؤ ن واحتياج الجيش إلى مدة أشهر وأن يبقى الإرسال متواصل حتى يعودوا وأما بزرجمهر فإنه سر في فؤ اده عظيم السرور وفرح مزيد الفرح ومدح في قلبه من عمر العيار وتعجب من كثرة احتياله وسهره على نجاح العرب وعرف مؤكداً أنهم لولاه لا ينفعون بشيء وهكذا بقي العجم على حالهم وهم يحاصرون مكة المشرفة ويحيطون بها إحاطة السوار بالمعظم وقد تصوروا أن العرب لا يخرجون ولا يقاتلون حتى تنتهي المؤ ن منهم فإما يطلبون التسليم فيسلمون وإما ينفرون بطلب الحياة ويهجرون المدينة .

قال وكان العرب في هرج ومرج وقد تيقنوا أن ما عندهم يكفي إلى زمان طويل بينما يكون قد جاءهم الفرج وانتهت أيام النحوس وأمرهم بزرجمهر بالقتال والنزال وبقوا على ذلك عدة أيام إلى أن كان ذات يوم أراد عمر العيار حسب عادته أن يدخل على أخيه حمزة لأنه كان في كل يوم يدخل إليه قبل أحد وينظر في صحته واحتياجه ويرى إن كان له من غرض يأمره بإجرائه وكان يحرسه طول الليل وهو يعلم أن لا أحد عنده فسمعه يقول هذه الألفاظ : إن كان كلامك صحيح وما تزعمه صدق فأنا أعدك أني أسير وأقتل عمك وأعيد الملك لك فاطرب عمر ومد رأسه فلم ير أحداً فزاد اضطرابه وظن أن الأمير اختل شعوره أو أصابه عارض فأسرع إلى اسطون الحكيم وهو باكي العين حزين القلب وجمع سائر الفرسان وقال لهم إننا وقعنا بمصيبة عظيمة وبلية جسيمة وخسرنا كل نجاح وتوفيق ثم جعل يبكي فقالوا له أخبرنا الواقعة أهل مات الأمير أو أصابه أمر مكدر قال إن نتيجة ذاك المرض الطويل الناتج عن الجرح كان الجنون فإني دخلت عليه في هذا الصباح فوجدته يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع كأنه يكلم أحد ولا أحد عنده ومن الصواب مداركته في هذه الساعة فإن المرض مبتدر به فنهضوا جميعاً وساروا مضطربين إلى صيوان الأمير حمزة ودخلوا وكان ينتظر قدوم عمر عليه حسب العادة وقد شغل باله لغيابه وترك عادته فلما رأى الفرسان والأمراء وقد دخلوا جميعاً قام اليهم وترحب بهم وهو ينظر إليهم بتعجب وبعد أن جلسوا ورأوه حسب العادة إرتابوا بأمرهم وأراد أندهوق أن يمتحنه فقال له هل تعرف بأي شهر نحن الآن قال نعم في محرم .

قال وهل تعرف ماذا نعمل في هذه الأيام وما ننتظر واسم كل واحد منا وجعل يسأله الأسئلة التي نظير هذه حتى وعى الأمير إلى سبب مجيئهم وأدرك أن عمر العيار قد حضر ووجده يتكلم ولا يرى عنده أحد فذهب وأخبرهم بأنه خسر عقله فالتفت اليه وقال له يا وجه القرد ماذا رأيت مني حتى أشغلت بال الفرسان علي وأخبرتهم أني خسرت عقلي فقال له لم يسمع قط أن إنسانا يتكلم مع نفسه وبه عقل ثم أن أندهوق أخبره بما سمعوه من عمر فقال لقد أصاب فإني كنت أتكلم وليس مع نفسي بل مع آخر وسوف ترونه وتعلمون حديثه . ثم أنه صاح هلم يا واعد فاظهر لفرساني وأخبرهم بواقعة حالك وما أخبرتني به .

وفي تلك الساعة ظهر للفرسان فرخ من الجان مدور العينين أصلع الرأس طويل الأيدي قصير الأرجل ووقف بين يدي الفرسان وسلم عليهم فتعجبوا من منظره وهيئة تركيبه وقال له المعتدي من أنت وما هي قصتك وما الذي دعاك للاتيان إلى الأمير حمزة وما تريد منه قال إني أتيت به مستجيراً وبأذياله متمسكا طالباً إغاثتي منه ومعونتي وذلك إني من جبال قاف وهي بلاد بمنتهى الدنيا كبيرة تجمع ثلاث مقاطعات تحت نصر ثلاثة ملوك فالمقاطعة الأولى هي تخص شاه ياقوت الأزرق والثانية كانت تحت ملك أبي معدن شاه والثالثة لعمي أليون شاه فتوفي منذ أيام

أبي فطمع عمي بقطيعة وجاء إلي وطردني منها وأمر أن كل من رآني يقتلني فالتزمت أن أهرب وأختفي عند كهين كان أبي يستخلصه وطلبت معونته فقال لي إن عمك شيطان ولا قدرة لي عليه ولا يمكن أن يقدر عليه إلا فارس واحد من العرب موفق بعناية إلهه وهو في برية الحجاز اسمه الأمير حمزة ابن الأمير إبراهيم وقد وقع بيده سيف يقتل به الإنس والجن فيفعل بهم على حد سوى وهذا وحده هو الذي يقدر على قتل عمك ونزع الملك منه فلما سمعت كلامه أسرعت إلى هذه الجهات حتى دخلت اليه في هذا الصباح وعرضت عليه حالي وقد وعدني بالذهاب معي إكراما لخاطري ولا ريب أن وعد الحر سريع الانجاز فقال له حمزة أني وعدتك بالذهاب معك لكن بعد كسر عساكر كسرى وتفريقهم عن مكة المطهرة وإلا ما زالوا مقيمين على حصارنا والحرب لم تنته بيننا لا أقدر على الذهاب فابق عندنا أنت إلى أن يأتينا الله بالفرج وتنتهي أيام النحوس فقالوا الراعد أعلم يا أمير أني أقاتل معكم في حرب العجم وترون فعلي وأني أعدكم بتفريق هذا الجموع بثلاثة أيام بحيث أقتل فيهم ولا يرون لي وجهاً فسر الأمير حمزة من كلامه وقال لا ريب أن الفرج على يديك وأنت الذي أشار إليك الوزير بزرجمهر عند كلامه لأخي عمر ثم أنه أمر عمر أن يفتح الأبواب في اليوم التالي وتخرج الفرسان وتضرب الطبول ليرى ما يكون من أعمال الراعد مع العجم وقد أيقن أن النصر سيكون لهم وأن كسرى سيلاقي وباله في هذه المرة فأجابه عمر وقال له إني سأذهب في هذه الليلة إلى بزرجمهر وأعرض عليه هذا الأمر وفي الصباح نرى ماذا نفعل .

قال وصبر عمر إلى أن اسودت فحمة الليل فتزيا بزي الأعجام وخرج من مكة وذهب إلى صيوان بزرجمهر وحاول الانفراد به إلى أن تسهل له فقبل يديه واستأذنه بالحرب وأخبره بخبر الراعد فقال له اخرجوا للحروب في الغد فإن الفرج قد جاء وسينكسر كسرى في هذه المرة وينهزم إلى المدائن مشتتاً ولا تضيعوا هذه الفرصة لأن لا بد من ذهاب الأمير إلى جبال قاف لإنقاذ المقدر حيث أن له نصيب هناك فلما سمع عمر كلام الوزير مدحه وقبل يديه وخرج من عنده وجاء إلى العرب وأخبرهم بما قاله بزرجمهر وأنهم إذا حاربوا العجم في هذه المرة انتصروا وفازوا فسر من ذلك ولا سيما الأمير حمزة فإنه قد اشتاق إلى الحرب والقتال وطلبت نفسه الايقاع بالأعداء وتمنى أن يصل إلى زوبين ليأخذ لنفسه بالثأر منه وعليه فقد باتوا تلك الليلة على نية أن يباكروا إلى القتال والحرب والنزال .

فهذا ما كان منهم وأما ما كان من كسرى أنو شروان فانه بعد أن سهر تلك الليلة مع سادات قومه انصرف إلى فراشه وما لبث أن نام حتى رأى حلماً مريعاً فنهض مرعوباً مضطرباً وعاد إلى كرسيه وأرسل فدعا وزراءه وأعيانه فاجتمعوا إليه وهم لا يعلمون السبب الموجب إلى ذلك وإذ ذاك قال لبزرجمهر أني وأنا نائم رأيت في حلمي بينما كنت قائماً بين جيوشي ورجالي

وإذا بنار على شكل قضيب انحدرت من السماء وضربت في الأرض في وسط جيوشي ثم مال ذاك القضيب الذي كان لا يزال رأسه في الأعالي إلى اليمين والشمال فأصاب جانباً من جيوشي وأحرق نحو الثلث فخفت من أصاب بشرارة ويكون نصيبي نصيب من احترقوا من قومي فاضطررت إلى الإنهزام وركضت حتى أدركت أبواب المدائن وهناك استيقظت مرعوباً فوجدت نفسي على سريري وأريد منكم تفسير هذا الحلم فلما سمع الجميع كلامه سكتوا عنه وما منهم من أبدى كلاماً حتى قال الملك لبزرجمهر لا أحد يقدر أن يوضح لي معنى حلمي إلا أنت فأفدني عنه حتى إذا كان وبالاً وشراً فلا تخفه فأنت أمين من كل ما تشرحه قال أعلم أن الحرب تنشب بينك وبين العرب وتحصل واقعة مهمة جداً تدور بها الدوائر على الأعجام ويفنى منهم من سيف العرب الثلث والباقون ينهزمون إلى المدائن وأنت بينهم وهذا الذي تبينته وظهر لي عن تفسير حلم سيدي الملك ولما سمع بختك هذا الكلام لم يهن عليه به ولذلك أسرع إلى الكلام فقال خفي أن الأحلام لا تصدق في أكثر الأحيان ولا سيما الملك يهدس بالعرب ويطلب سرعة القتال وفناءهم عن آخرهم وإن صح هذا الحلم صحيح فيظهر لي أنه بعكس ما حكاه بزرجمهر لأن العرب ستصاب بسيوفنا وسيف زوبين ويقتل منهم الثلث وذلك لكثرتنا وقلتهم وقوتنا وضعفهم واتساع المجال علينا وضيقه عليهم فيطمئن بال سيدي الملك ضميره فسوف يشاهد صدق قولي .

قال الملك على ما يظهر أن كلام بزرجمهو هو صدق ولا بد من الوصول إليه وصرف الملك باقي تلك الليلة مع وزرائه ولم يرض أن ينام ولا قدر على طرد هذه الأفكار من رأسه إلى أن تبلج وجه الصباح وبرق نور من خلال مؤخرة الظلام وإذا به يسمع أصوات طبول العرب تؤذن بالحرب والقتال وهي تضرب فترتج منها السهول والجبال ثم رأوا أن العرب قد بدأت بالخروج وهي رافعة رايتها ومقومة أسنتها فأمر إذ ذاك كسرى وهو بحزن عظيم أن تضرب طبول الفرس وتستعد لملاقاة العرب قبل أن يهجموا عليهم ويبطشوا بهم ففعلوا وأسرعوا إلى خيولهم فألجموها واعتلوا فوقها وتقدموا إلى ساحة الحرب والقتال وبينهم زوبين الغدار وفي الوسط العلم الأكبر وتحته بيكار الاشتهار عليه الملك كسرى أنو شروان ومن حوله وزراؤه وحراسه وقومه .

هذا وكانت العرب في الصباح قد نهضت عند سماعها أصوات طبول الحرب وركب الأمير حمزة على جواده الأصفران كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وتقدم في الأول ثم ركب أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل فارس ذاك الزمان وكل منهما من ناحية من الجناحين وركب معقل البهلوان برجاله وقاهر الخيل بأبطاله وبشير ومباشر وأصفران الدربندي وكل واحد من الفرسان يطلب أن يشفي في ذاك اليوم غليله من الأعداء وينتقم للأمير حمزة

منهم ولا سيما عمر العيار فانه لبس ثوباً من الجلد الأسود قصير الأكمام ضيق من جميعه يضغطه على جسمه كأنه من جلده واعتد فوقه بسلاحه وقرب رجاله ففرقهم كل عشرة إلى جهة أوصاهم بالمحافظة على الفرسان وأن لا يستقروا في مكان . ثم تقدم هو بين يدي أخيه حمزة كأنه فرخ من فروخ الجان وعيونه تقدح شراراً .

ولما التقت العين بالعين وانتهى انتظام الفريقين صاح الأمير حمزة بصوت أشبه بالرعود القواصف ونادى ويلكم أعجام أولاد الزنا والحرام هل ظننتم أن الأمير حمزة قد مات وشرب كأس الآفات حتى تبعتم العرب إلى هذه الديار ألا تعلمون أن الغدر سيء العواقب ولا يستعمله إلا كل لئيم ومحتال يعجز عن القتال في ساحة المجال وها قد جاءكم اليوم قضاء هذا الزمان ومذل الجبابرة والفرسان ومهلك الأبطال والشجعان من لا يوجد له ثان . الأمير حمزة البهلوان وفخر الأعجام والعربان ثم أنه مهمهم همهمة الأسود واقتحم عباب البحر وهو يصول ويجول ويطعن في الصدور فيمدد الفرسان على الأرض البعض بالطول والبعض بالعرض وكذلك أندهوق بن سعدون فإنه أطلق لفيله العنان وقوم في أيديه السنان وصادم الأبطال والفرسان وأعمى البصائر والأعيان بطعن أحر من لهيب النيران ولا تسل عن المعتدي حامي السواحل وما فعل عند هجومه وصدماته وكم من بطل قتل عند بداية ضرباته وطعناته وما مضى ساعة من النهار حتى اضطرب لهيب النار ولحق شرار قتالها الكبار والصغار ممن حضروا الواقعة وسلموا بأنفسهم إلى الأقدار وتركوا بصدورهم طريقاً لمرور الرماح وبرقابهم مجالا لجولان الصارم البتار فارتفع فوق رؤ وسهم الغبار وتكاثف حتى حجب نور الشمس عن الأبصار وانتصر من الشرق إلى الغرب أي انتشار ومد بظله فوق المتقاتلين من الأربعة قطار . فحل بهم الويل والدمار . وضربهم الفناء بسيف البوار . فأصابت به قصار الأعمار وأقلبهم عن خيولهم إلى ساحة القفار .

وكانت وقعة عظيمة الأهوال شديدة الأكدار . تدفقت بها الأدمية كالأمطار وجرت في أقنية الأرض كالأنهار . حتى صبغت وجهها بالاحمرار . وافتتحت بها من أرجل الخيول حفراً عظيماً المقدار . واسعة الجوانب مكشوفة الأستار فلله در الأمير حمزة الفارس الجبار . كم قتل وكم مدد على بساط الأرض بسيفه الرقيق الشفار . وكم أباد من فرسان الأعجام الأشرار وهو ينتقل من مكان إلى مكان يطلب الوقوع بزوبين الغدار . وبين يديه أخوه عمر العيار . ينطلق كالسهم الطيار . ويجري بأسرع من الطير إذا طار . ودام الأمر على ذلك الحال إلى أن علت الشمس قشرة الاصفرار ورجع الفريقان عن الحرب والقتال إلى طلب الراحة من جراء ما لحق بهما من التعب والملال . ورجع الأعجام إلى الوراء وقد فقد منهم من جراء ما لحق بهما من التعب والملال . ورجع الأعجام إلى الوراء وقد فقد منهم جم غفير وقتل قوم كثير . ولما اجتمع كسرى ببختك وبخه وقال له لا زالت تهون علي الصعاب وتخبرني بما لا أصل له وقد ذكرت لي

بتأكيد أن الأمير حمزة قتل من زوبين والحال أني شاهدته وفي هذا النهار كأنه الغول يفتح فاه ويبتلع الفرسان من كل ناحية ومكان ولا ينجو من بين يديه إلا من تحركه الرحمة عليه وأنا أعرف أن فرسان الأعجام وعساكرها تخاف جداً عند سماع صوته فتنفر منه ولا ترضى بالبقاء أمام عينيه . ولو كنت أعلم من الأول ببقائه حياً لما أتيت هذه الديار ولا رميت برجالي في حفر الأخطار . فقال إن حمزة جرح جرحاً بليغاً وقطع العرب منه الرجاء وأتعجب كيف شفي بعد ذلك الجرح الذي لا يمكن أن يشفى منه من يلحق جسمه ولولا قطع رجاء العرب لما تركوا المدائن وجاؤوا إلى هذه الأراضي مهزومين وخائفين من حراب الأعجام وأما ما قلته من جهة إلحاقنا بهم فهذا لا بد منه إن كان الأمير حياً أو ميتاً لأنهم أخذوا مهردكار وساروا بها غصيبة وهل من الشرف والناموس أن نترك نساءنا وبناتنا سبيات بأيدي زنخات العرب ولا سيما أنت ملك الأرض بالطول والعرض ولديك من الجيوش والأبطال ما إذا قاتلت به عدة سنوات متوالية وفي كل يوم قتل خمسون ألفاً لكفى فأكد أن القتال عاقبة لنا ولا بد من انتصارنا بهمة صهرك زوبين الغدار فلما سمع كسرى كلامه سكت على مضض وهو يتحرق من فعل العرب وعرف أن لا مندوحة له عن القتال لتخلص بنته وحفظ شرفه .

قال ولما كان صباح اليوم الثاني اصطف الصفان . وترتب الفريقان . وهجم كل منهما على الآخر واشتد القتال وحمى النزال واختلط الرجال بالرجال وتقابضت بالأيدي الأبطال إلى أن انقضى النهار وزال . وعزم على المسير والارتحال . فرجع العرب والأعجام إلا المضارب والخيام وباتوا تلك الليلة تحت مشيئة الرحمان . حتى أصبح صباح اليوم الثالث . فاصطف العرب في ناحيتهم بعد أن ترتبوا كالعادة ووقف كل فارس في ناحية لحماية رجاله وحاشيته وفي الوسط الأمير حمزة مع أخيه عمر العيار وكذلك الأعجام وانتظموا أحسن انتظام . وإذا بالأمير حمزة قد صاح وهجم وأشار إلى رجاله بالهجوم فتبعوه وقد قوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة ودخلوا باب الحرب والطعان فالتقتهم الأعجام بقوة قلب وجنان . وطاف عزرائيل عليهم من كل ناحية ومكان وأحضر معه ألوفاً من مثله لمساعدته يقبض الأرواح وفصلها عن الأشباح واحتاط بهم مئات ألوف من وحوش البراري طلباً لقوتها ورزقها من تلك الأجسام المتروكة من سيوف العرب وحامت طيور الجو متجمعة من الشرق ومن الغرب لتشبع بطونها وتملئها من لحوم القتلى ودبت هوام الأرض منزوية ساعية إلى التجمع عليها وهكذا كانت حرب تلك النهار شديدة وعظيمة وعواقبها كئيبة ووخيمة وفيما المتقاتلان يقتتلان وإذا بسيف طويل يبلغ طوله ١٠ أذرع قد وقع بين الأعجام ومال ذات اليمين وذات الشمال وهو يصيب في كل ضربة عدداً من الرجال فيهوي بها إلى بساط الأرض وتتمدد مفارقة الحياة . هذا وكان ذاك السيف سيف الراعد وقد جاء ليفي وعده وينهي القتال في ذاك اليوم وبقي لهيب الحرب يضطرم وأرجل المنايا تزدحم حتى شعرت العجم بفناها وأيقنت أنها سائرة إلى دار شقائها وبلاها ولم تر لها خلاصاً من

يد أعدائها وكذلك كسرى أنو شروان فإنه رأى كل ما هو جار على رجاله وشاهد أن العرب قد أبادت قسماً كبيراً منها وهي تطاردهم وتطردهم إلى الوراء فقلب الضياء في عينيه ظلاماً وقال لبختك روح أبيك تتقلب على جبال الثلج وتحرم من الدنو من النار فقد أهلكنا سوء تدبيرك وها أن رجالنا وقع بهم العدم فقال هلم يا سيدي إلى الهرب فإن اليوم ليس يومنا ومتى جاء يومنا أخذنا بثأرنا من العرب ثم أمر الحجاب فحملوا كسرى على بيكار الاشتهار وطاروا به راجعين ركضاً ومهزومين في البراري ولما رأت عساكر الأعجام أن العلم قد سار إلى الوراء وأن ملكها قد هرب التزموا باتباعه فألووا أعنة خيولهم وفروا من وجه أعدائهم فتأثرهم العرب وهي تضرب بأقفيتهم وتشفي غليلها منهم وتريد أن لا ينجو منهم أحد في ذاك اليوم كي لا يعودوا إلى التجمع مرة ثانية وكان أول الهاربين زوبين الغدار خوفاً من أن يلتقي به حمزة فيأخذ لنفسه بالثأر وقد أهلك الراعد قسماً كبيراً بذاك السيف الطويل وصال في وسطهم إلى أن أقبل الظلام والتزمت العرب إلى الرجوع وكانوا قد أبعدوا الأعجام عن مكة مسألة ثلاث ساعات وأهلكوا منهم نحو الثلث وتركوهم بأيشم حالة وأسوأ مصير وعاد الأمير حمزة مسروراً بذاك النصر وبين يديه عمر العيار كأنه الشئبوب في الانطلاق ولما قربوا من أعيان مكة خرج الأمير إبراهيم لملاقاتهم مع أعيان مكة المطهرة وبين أيديهم تضرب بالدفوف والعبيد بالمزاهر وتقدم إبراهيم من ولده فقبله وهنأه بالسلامة وكذلك مدح سائر الفرسان والأبطال ودخلوا جميعاً المدينة على تلك الحالة وأولموا وليمة فاخرة وفرقوا الأموال على الفقراء والأيتام وقسموا الغنائم على كل نفس من عساكر وقواد وشيوخ وشبان ولحق كل شيء كثيره منها :

وبعد انقضاء السهرة انصرف كل إلى صيوانه وهم يتيقنون أنه وإن كانت النصرة كافية لإذلال العجم وقهر كسرى إلا أن بختك لا يتركهم دون أن يقودهم مرة ثانية إلى حرب العرب .

وذهب حمزة فنام في فراشه تلك الليلة مرتاحا إلى أن كان الصباح نهض من فراشه وجلس على سريره وإذا بالزاهد قد وقف أمامه وقال له لقد انتهى غرضك وتفرق العجم عنك ولم يعد من أمل برجوعهم الآن وأريد منك أن تنهي وعدك لي وتسافر معي إلى بلادي لتقتل لي عدوي ولا تقيم هناك أكثر من أيام قليلة فإني أحملك على عاتقي وأسير بك فلا تشعر بتعب قال اصبر علي بينما أكون قد هيأت نفسي ودبرت أمري وأوصيت الفرسان بالتيقظ في غيابي خوفاً من وقوع ما لم يكن بالبال ثم أن حمزة سار من صيوانه حتى دخل على مهردكار فوجدها جالسة بانتظاره لعلمها أنه لا بد أن يأتي إليها في ذاك النهار وعندما رأته نهضت لملاقاته وترحبت به وأدخلته إلى الداخل فشكرها وقبلها بين عينيها وقال لها يصعب علي يا قرة العين أن أخبرك أن عساكر أبيك قد انكسرت وأنه سار مهزوماً ولا بد أن يكون بلغك هذا الخبر : قالت يكفيني أن

أراك سالماً سليماً من نوائب الأيام وأما ما أصاب أبي فهو ما استحقه مع رجاله لأنه ترك الحق وأعمى البطل عينيه فمال إلى بختك وسمع منه وانقاد اليه وحمل نفسه ما لا يطاق وجر بعساكره ورجاله إلى ساحة الوبال وجرد نفسه عن الرحمة والشفقة علي وعليك بعد أن وعدك الوعد الصادق أن يزفني عليك وتكون صهره وخفير بلاده مكافأة على قتلك خارتين وإرجاع بلاده إليه ومن حيث قد نكر جميلك وقابلك بالعداوة والبغض فعاملته معاملة العدو لا النسيب ولذلك معذور وأما أنا فإني بمقتضى واجبات الدين والانسانية أن أبقى بين يدي أبي وتحت أمره ولا أخرج عن طاعته ولو كان بذلك موتي وهلاكي : غير أني قهرت أميالي من هذا الوجه وعرفت أن من ضرورة الحال أن أكون على الدوام عندك لتكون أنت مرتاحا ولا يكون ما يكدرك فتصرف ليلك مطمئناً لاسيما وان أبي ليس علي دين الحق بل كافر بدين الله وهو محاط برجل من أخبث أهل العالم وأشرها متسلط كل التسليط على عقله وقلبه ورأيت من نفسي أن البعد عنه خير من التقرب والبقاء كيف كان الحال ومهما قيل عني :

فمدحها حمزة وشكر من أطوارها وقال لها نعم إن بقائك عندي راحة لي لا لأني أريد أن تكوني على غير طاعة أبيك بل لعلمي أن أباك لا يستحق أن يكون عنده بنت نظيرك فسبحان من يخرج الحي من الميت ولا سيما إني أكون مرتاح البال عليك وأميناً من الغدر بك وظلمك والآن أريد منك أن تذهبي معي إلى فرساني لأن لي غايها أبديها هناك بحضورهم كوني سأغيب عنك إلى جبال قاف فتبقي أنت تحت حمايتهم .

فلما سمعت كلامه شعرت بانفطار قلبها وضياع عقلها وقالت كيف يطيعك قلبك أن تتركني وتذهب عني وأنا وحيدة هنا وبعيدة عن كل أنيس وصديق لا أب ولا أم أو أخت تسليني وقد اتخذتك بدلاً عن الجميع ولا سيما إذا طالت غيبتك . قال إن سفري لا بد من حيث قد وعدت الراعد وعداً صادقاً ومن كان مثلي لا يعد ويخلف ولا بد من عودتي قريباً فلا أغيب إلا أياماً قليلةلأن كانت البلاد بعيدةلكني سأسير راكباً على عاتق الراعد فيوصلني بأقرب وقت ويعيدني كذلك ولي رجاء بالله تعالى أن تكون سفرتي هذه موفقة فأقضي غرض الراعد وأتفرج على تلك النواحي وأعود حالا . فلما سمعت كلامه وشاهدت إصراره على السفر سكتت وهي باكية العين منكسرة الفؤاد وقامت معه وسارت إلى صيوان أبيه وهي منقبضة . وكان جميع من في الصيوان بانتظار حمزة ومن جملتهم الراعد فقاموا احتراما له ثم إنه حياهم وجلس في مكانه وعندما استقر به الجلوس دعا بالفرسان أجمعهم أن يتقدموا اليه . فقال أريد أن كل واحد منكم يضع يده فوق يد الآخر ففعلوا وتجمعت الأيدي فوق بعضها ثم دعا بمهردكار وقال لها ضعي يدك فوق يد الجميع ففعلت وإذ ذاك قال لهم حمزة إني أريد منكم أن تتخذوا مهردكار أختا لكم وتعاهدوها أمامي وأمام الملك النعمان وأبي وباقي الأعيان أن تكون لكم أختا وأن تكونوا لها

إخوة فقالوا لا شك أنها أختنا وتزيد على ذلك ان نعاهدها بحسب أمرك كيف لا وهي مخطوبة منك وقريباً تصير سيدة العرب . وبعد هذا أقسم كل واحد منهم بالله أنه يتخذها أختاً ويحامي عنها كأخت ويبذل حياته من أجلها . وبعد أن ارتاح بال الأمير حمزة من هذه الجهة أمر أخاه عمر أن يأخذ مهردكار إلى صيوانها وأقام هو بين الفرسان وهم ينظرون إليه ولا يعلمون ماذا يقصد بذلك وما غايته وصرفوا نحواً من ساعة سكوتاً :

ثم قال له اندهوق لا نعلم ما هو السبب الذي دعاك إلى هذا العمل هل بدا منا قصور بخدمتك أو لحظت أننا على غير الصواب : قال كلا فإني أعرف عهد الإخاء الواقع بيني وبينكم ولا يمكن قط أن ينقص أو يصاب بشائبة غير أنه لا خفاك وعدت الراعد بالمسير معه إلى بلاده وأعرف أكيداً أن الملك كسرى إذا عرف بغيابي عاد إلى حرب مكة لا محالة فإذا كنتم تعتبرون مهردكار كأخت لكم لا تتخلون عنها قط كما أنكم لا تتخلون عني ولا سيما أنكم تعرفون أن كسرى لا يترك بنته بأيدينا ولا بد من استعمال كل الوسائط لانتشالها من بيننا وأنا لا أعرف مدة سفري هل تكون قصيرة أو أعد لي في عالم الغيب ما يجعلها لأيام وأزمان أما أنتم فتبقون في مكة وفيكم الكفاءة لأن تحاربوا كسرى وتنتصروا عليه وتظفروا به فمهردكار هي أختكم وعاملوها معاملة أخت كما أني أريد منكم أن تبقوا محافظين على شرف العرب وناموسهم فلا تتركوا مجالاً للأعجام أن ينفذوا مآربهم بنا ويأخذوا منا فتاة أصبحت منا وفينا وهي تعبد الله مثلنا . فلما سمع الفرسان كلام الأمير حمزة ما منهم إلا من تكدر واغتاظ ونهض اندهوق بن سعدون وقال له إن العرب ما تجمعت إلا لأجلك وتحت رايتك فإذا سرت عنها فرط انتظامها وانحل عقدها وسار كل منا إلى ناحية ولاسيما أنا فإني أول من ترك هذه البلاد ورحل إلى بلاده ولهذا لا يمكن أن ندعك تسافر ولا يوافق أن تترك المعسكر وعدو العرب كسرى أنو شروان وبختك بن قرقيش . ومثل ذلك قال المعتدي حامي السواحل وباقي الفرسان المتجمعين في ذاك المكان حتى سكت الأمير ولم يبد خطابا وخاف أن يتم قول الفرسان فيفرقون ويتركون مكة ومهردكار ولذلك التفت إلى الراعد وكان حاضراً ذاك المكان وقال له اذهب يا أخي من حيث أتيت فإن الفرسان وباقي العربان لا يتركونني أذهب عنهم قبل فصل الحال ونهاية الأمر بيننا وبين كسرى أنو شروان وتشتيت شمله وانقراض دولته فلما سمع الراعد هذا الكلام بكى بدمع سجام وقال أنت وعدتني بالذهاب معي وقتل عمي ولو لم تعدني لما بقيت بانتظارك إلى هذا اليوم . قال إني وعدتك ولا أزال أعدك غير أن الزمان لا يسمح لي في هذه الأيام فاصبر إلى نهاية الحال وإلا فانصرف إلى سبيلك . فزاد حزن الراعد وترك الصيوان وخرج باكياً وبقي حمزة إلى المساء . وعند المساء ذهب إلى صيوان مهردكار فوجدها بحزن زائد لأنها تأكدت سفره وثبت عندها أن الأمير ما فعل هذا الفعل في ذاك النهار إلا وفي نيته السفر حتى في غيابه يحامي الفرسان عنها

كأختهم ولا يتركونها وصرفت باقي النهار على مثل هذه الأفكار باضطراب وكدر وأنشدت تقول :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد ... وأيدي المنايا لا يطاق لها ورد
تسالمنا سهواً وتسطو تعمداً ... فاسعافها عسف واقصادها قصد
عجبت لمن يغتر منها بجنة ... من العيش ما فيها سلام ولا برد
أفي كل يوم للنوائب غارة ... يشق عليها الحبيب أو يلطم الخد
أرى كل مألوف يعجل بعده ... فما بال بعد الإلف ليس له بعد
وزرت بلاد اينبت المن أرضها ... وينجح في أبناء أبياتها العقد
ولما عطفت العيس آخر رحلة ... إلى معهد بي والحبيب به عهد
سألت حمى الفيحاء ما بال ربعها ... جديبا وقد كانت نضرته تبدو
وما بالها لم يرو من مائها الصدى ... لظام ولا يورى لقصاها زند
فقالت نأي من كان بالسعد مرتد ... وصوح بنت العز وانهدم المجد
إذا قال قولاً يسبق القول فعله ... فليس له يوماً وعيد ولا وعد
فيا نازحاً يدنيه حسن اذكاره ... ففي بعده قرب وفي قربه بعد
لك الله كم أدركت في المجد غاية ... تقاعس عن إدراكها الأسد الورد
إذا افتخر الأقوام يوماً بمجدهم ... فانك من قوم بهم يفخر المجد
هم القوم فاهو بالفصاحة رفعا ... وشابت نواصي مجدهم وهم مرد
إذا حل منهم واحد بقبيلة ... يشار إليه أنه العلم الفرد
تعود من الصنفات صغيرهم ... إلى ان تساوي عنده السرج والمهد
حمو الجيوش الجاش حول بيوتهم ... من المجد مالم يحمه الجيش والجند
بيوت كماة دونها تحطم القنا ... وغابات أسد دونها تفرس الأسد
أقاموا وبرد العيش عندهم لظى ... وصالوا وحر الكر عندهم برد
وعزوا إلى ان سالمتهم نجومها ... فلا نجم إلا وهو في ربعهم سعد
فبالرغم مني أن يغيبك النوى ... ويرجع مردوداً بخيبته الوفد
سأبكي بجهد المستطاع حزينة ... نواك وهذا جهد من ماله جهد

فلما دخل الأمير عليها وسمعها تنشد هذه الأبيات حن لها وعرف أن بعده سيلقيها باليأس ويحملها مالا تطيق حمله فهي تبكي عالمة انه لا يزال بالقرب منها وفي نيته الرحيل فكيف إذا سافر وطال غيابه. ثم تقدم منها ومسح دمعتها وقال لها لما هذا البكاء وأنا حتى بعد وأنت تعلمين أني حريص على محبتك ولابد من ان تكوني لي خصيصة وابعد عنك كل عدو الد فإذا بعدت عنك أو قربت منك فأنت بأمان علي وعلى حبي لانك في يدي ولا سلطة لأحد عليك

فامسحي دمعك واشفي غليلك واتركي ما أنت فيه الآن واكدي ان الله لا يفعل إلا ما يشاء ويريد فإذا كان قسم لي السفر مع الراعد لابد من سفري وما من صعوبة بذلك لعلمي ان الله يساعدني في كل سفرة فأحصل على ما يصعب على الغير الحصول عليه فيرتفع شأني ويعظم مجدي وتخدمني السعادة والاقبال فقالت كيف لا أحزن وأبكي وأنا على الدوام أراك في حجر الأهوال والاخطار وكله قلت أن هذه المرة تكون النهاية نرتاح فيها بعد نزي ما يزيد ويكدر من طوال المصاعب وتجددها . أنت الآن مزمع أن تسافر إلى جبال قاف وهناك بلاد بعيدة ألوف وألوف ألوف من الفراسخ فإذا لم يكن جوادك من النسور الطيارة لا تقدر أن تأتي بكل العمر من يعرف ما يجري عليك هناك وهل يخاصمك الزمان ويعاديك الدهروأنت تعلم أنـه قيل في الأمثال ما كل مرة تسلم الجرة قال إن ما يفعله الله فهو على الرأس والعين واليوم قلت للراعد إني لا أسافر معه . ثم عاد عليها ما جرى بينه وبين فرسانه وقال لها في آخر الكلام إني تكدرت من كسر خاطره مع أنه خدمنا في هذه الحرب وتوفقنا بسببه ولا سيما أني وعدته ولا يمكن ان يرجع عن وعده إلا كل نذل ولئيم ولا ريب فإذا جاء إلي مرة ثانية سرت معه على غير رضى الفرسان وأنا أعرف أنهم لا يتركونك قط لأنهم أصحاب نخـوة ومروءة ولا يفعلون إلا مـا يرضيك . فقالت أسأل الله ان لا يسهل لك طرق السفر إلى جبال قاف وإذا تسهل ونويت على الذهاب فاطلب اليه ان يوفق عملك هناك لتعود حالاً ولا ريب أن الله سميع مجيب .

ثم إن الأمير حمزة أقام مع مهردكار قسماً من الليل وقد تناول الطعام والشراب وإياها وبعد ذلك ودعها وذهب إلى صيوان منامه وهو مضطرب جداً من الصعوبة الواقع بها ومن عظم مالحق من حزن مهردكار دخل فراشه وهو مرتبك قلق وكل أفكاره عند الراعد كيف ذهب منكسر القلب باكي العين بعد أن كان وعده ابر الوعد وأصدقه وفيما هو على ذلك وإذا بالراعد قد وقف أمامه وتقدم منه وقبل يديه وجعل يبكي بدموع سخية وقال له يا سيـدي أني ر ازال متمسكاً بوعدك ولا أقدر أن أذهب إلى بلادي إلا وأنت معي فاقبل مني رجائي وارحم ذلي وخلصني من ظلم عمي فما من أحد سواك يقدر على قتله فمنيته موقوفة على يدك وأنا أعدك أني بأيام قليلة أذهب بك وارجع فرسانك على حالهم .

فقال حمزة إني وعدتك ولا أرجع بوعدي ولكني أريد أن أبقي محافظاً على إرادة قومي فإذا ذهبت معك الآن تكدر الجميع وظنوا اني كذبت وسلكت الغش وعندي أن أذهب الى البرية معهم وهناك أنفرد لوحدي وافقد من بينهم فلا يعرفون أين ذهبت إلى ان اعود اليهم بعد قتل عمك وبذلك يكونون بحيرة ولا يعرفون في أي ناحية سرت وأكون قد وفيت بوعدي معك وأريد منك أن تكون على الدوام قريباً مني حتى إذا دعوتك لحملي تسرح في الحال وترفعني على عاتقيك وأتغيب من هذه البلاد ومهما شاء الله فليفعل فلما سمع الراعد هذا الكلام أطمأن باله

وارتاح ضميره وعرف ان الأمير حمزة سيذهب معه ويقول له بالوعد الذي وعد به ونام حمزة تلك الليلة إلى أن أشرق الصباح وحينئذ خرج إلى صيوان الملك النعمان وأقام مع باقي الفرسان على حسب عادته إلى أن كان المساء رجع إلى حبيبته حتى كان اليوم الثاني والثالث وقد قطع ذكر الراعد وعرف العرب انه ما عاد يخطر له السفر وأنه باقي عندهم وبينهم يلاقي ما يلاقون ويفعل ما يفعلون حتى كان اليوم الرابع دعا اليه بالفرسان وقال مرادنا نذهب الى الصيد ونصرف وقتاً بالبرية على الحظ مع بعضنا فقالوا اليك ما طلبت فاننا تحت أمرك وإذ ذاك نهض الأمير حمزة فركب جواده وحملوا صيواناً كبيراً ليضربوه في تلك الناحية وسار معهم عمر العيار وخرجوا من مكة وجاؤ وا خلف جبل النور وهناك تفرقوا كل واحد في ناحية يطلب الصيد وقنص الوحوش وكذلك الأمير فإنه انفرد مع عمر العيار وهو لا يفارقه دقيقة واصطاد شيئاً كثيراً من الغزلان والأرانب والثعالب وعاد إلى الصيوان وهو متكدر من ملازمة عمر له ولما نزل بالصيوان لم ير أحداً قد عاد اليه من فرسانه فغسل وجهه وجلس فيه وقال لعمر انظر إلى الفرسان هل هم بعيدون من هذا المكان فادعهم للإتيان وأخبرهم إني بانتظارهم فاجابه عمر ولم يخالفه وتركه وسار إلى التفتيش على الفرسان وبعد أن ذهب عمر نادى الأمير هيا يا راعد فاني بانتظارك فارفعني قبل ان يأتي أحد من الفرسان ويراني وفي الحال تقدم منه الراعد ورفعه على عاتقه وطار به في الجو الأعلى دون ان يراه أحد وقد ترك الأرض وفارق مكة وبعد عن تلك الديار.

قال وبعد أن غاب الأمير وسار على اعناق الراعد أخذت الفرسان في ان تلقي واحد بعد واحد إلى الصيوان وكل ما جاء واحد منهم يرى جواد الامير ورمحه عند الباب فيظنه في الداخل وعند دخوله يرى الصيوان فارغاً منه ولا أحد يعرف أين ذهب حتى جاء عمر مع الاندهوق لأنه التقى به فأخبره بغاية أخيه وأنه ارسله خلفهم ولما وصل إلى الصيوان نظر الفرسان بحيرة فسألهم فأخبروه بما رأوا فافتكر عمر وقال لا تضربوا ولا تهتموا فإن الأمير قد ذهب إلى جبال قاف مع الراعد وقد أجهد نفسه في بعدي حتى يخلوا له الجو ولا يعرف أحد أين ذهب فوافق الجميع على الرأي وقال لهم الاندهوق اين سعدون حيث قد ذهب فلا مانع ومن الواجب ان نبقى نحن محافظين على البلاد وعلى مهردكار مكانه لأنها اختنا ولأننا إخوتها ولأن الاعجاب اعدائنا ووقع بيننا وبينهم حروب سابقة فإذا عرفوا بغياب الأمير زحفوا إلى مكة واغتنموا الفرصة فقال الجميع لا يمكننا ان نرحل عن هذه الديار أو نترك حرب الفرس غاب الأمير أو حضر مالم يأمرنا بزرجمهر ونرى ان المدينة بأمان وأن لا خوف على مهردكار وعندنا أن الأمير لا بد أن يرجع مهما قصرت غيبته أو طالت فلنعد من حيث جئنا ونبقى في المدينة وكان أشد الكل كدراً على غياب حمزة أندهوق لأنه كان يحبه اكثر من الجميع ولا يطيق فراقه وقد اتخذه أخاً وصديقاً ورفيقاً إلى الأبد ولذلك كان يرى أن عيشه سيتكدر إلى حين عودته ورجوعه وقد أقسم

أنه لا ينزع الدرع عن بدنه مالم يلتق بالأمير ويفرح قلبه به وإلا يموت والدرع عليه ويدفن به .

قال وشاع وفي كل المدينة خبر غياب الأمير وبعده فتكدر كل المعسكر وحزن كل أهل المدينة والمجتمعين في تلك النواحي ولاسيما الأمير إبراهيم فإنه كان في الأول قد فارق ابنه زماناً طويلاً وغاب عنه ولاقى من جراء ذلك عذاب الهوان وما صدق ان عاد إليه حتى أطمأن باله وظن ما عاد يبعد عنه وأنه سيبقي ببلاده باقي حياته إلى أن بلغه خبر سفره فبكى وحزن على ذلك وذهب إلى الركن والصفا فسجد لله ودعاه أن يرافق ولده ويساعده في سفره ويحفظ حياته وبعد ذلك وجد لذة من نفسه لأنه كان تقياً يعرف أن بتسليم الأمور لله للنفس وان لا شعره تسقط من رأس الإنسان بعلمه تعالى .

ويتأكد القارىء والسامع ان مهردكار لا تتسلى عن غياب الأمير وأنها تبقى بطول غيابه على البكاء والتعداد ولا سيما عندما عرفت أنه غاب من بين رفاقه ولم يعلمهم بمكان مسيره وكانت تتسلى بان تراه في كل يوم فنظرت بنفسها وإذ هي وحيدة منفردة لا ترى من يسليها عن غربتها وأهلها ولا من يقيم عندها ويجبر كسرها وأن الذي أقامت بين العرب من أجله قد تركها وبعد إلى أقاصي الأرض أو أن الدهر حكم عليه بالتشتيت والبعد والعذاب ولهذا كانت حزينة جداً تنشد الأشعار وتندب حظها بقولها .

ألا ليت شعري هل تعود لقبضتي ... ليال بها المعشوق غير مخالف
وهل يرجعن عيشي كما كان أرغدا ... وأخلو كما كنا بتلك اللطائف
بكيت دما أن لم أر ماء مهجتي ... دموعاً على تلك الليالي السوالف
تذكرت أياماً مضين ومألفاً ... وعاد من يهوى اذكار المآلف
وقعت ودمعي قاذف سر مهجتي ... إليه وما دمعي بأول قاذف
يمر على دار الحبيب محمحماً ... جوادي يذكر السالفات المواقف
ويرعى نجوماً طالما قد رعيتها ... ليالي صد الحب كان مخالفي
وما داره قصدي ولكن لأجله ... أحن فلا ألفي لها غير آلف

ولنضرب وقتاً طويلاً عما يلحق بمهردكار في مدة غياب الأمير وكفانا أن نقول ان حالتها كانت حالة يأس وعذاب وذكرى وترداد ونوح كعادة سلاطين العشاق ولا سيما الذين مثلها قد تركت بلادها وأباها وإخوتها وتمسكت بحبيبها وألقت كل رجائها عليه فبعد عنها وخلفها وحدها وفي اليوم الثاني من غياب الأمير حمزة اجتمع الفرسان بأجمعهم في صيوان الملك النعمان وعملوا ديوناً كيف يفعلون ومن أين يدركون ما هم عليه الاعجام وكان فيما بينهم عمر العيار فقال لهم إني سأذهب منذ هذه الساعة إلى المدائن وأدخل على كسرى أنوشروان وأخباره ومن ثم أخبر الوزير بزرجمهر بغياب الأمير حمزة وأستشيره بذلك فقالوا بارك الله فيك يا عمر فاننا إلى

مثلك نحتاج وغيرك لا يقدر أن يأتي بالمطلوب فأنت مقدام جيشاً وعلة نجاحه ولولاك لما نفع العرب بأمر .

ثم إن عمر ودعهم وذهب إلى مهردكار وودعها وأخبرها بأنه يقصد بلاد ابيها ليسأل بزرجمهر عن الأمير حمزة وعل يطول غيابه ومن اي جهة يأتي فسرت لذلك ومدحته ثم وكل بخدمتها كبير عياريه وأوصاه بالمحافظة عليها وذهب إلى بيته فغير لبسه وتزيا بزي الأعجام وتكحل بالميل الذي جاء به من رجال الصومعة وأخذ ما يحتاج إليه في سفره وسار عن مكة المطهرة عدة أيام وليالي حتى وصل إلى المدائن فوجد لا يزال بضواحيها العساكر متجمعة وقد ضربوا خيامهم حولها فدخل بينهم واجتاز فيهم ولا أحد منهم يعرفه ودخل من الباب وجاء الديوان فرأى كسرى جالساً على حسب عادته بين وزيريه والديوان محتبك من كل أمير وسيد وسمع كسرى يقول لبختك إني مضطرب من وقوعنا بعداوة العرب ولولاك لما كانت هـذه العداوة ولا خرج الأمير حمزة عن طاعتي وكان بيدي كالخاتم أديره كيف شئت ولو زوجته ببنتي لكنت ملكت به الأرض بالطول والعرض وعززت دولة الفرس وقهرت كل جبار عنيد ولولاك أيضاً لما اجتمع عنده كل هذه الفرسان والأبطال والعساكر لأنك أرسلته إلى معقل البهلوان فكان تمنه ان سعى في خدمته مع رجاله وصاروا من أحزابه وأرسلته إلى اندهوق بن سعدون فصالحه وانتظم في سلك رجاله وقاتل بين يديه وبعثته لجمع المال والأخرجة فطاعة قسم كبير من بلادي وخادمه المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وغيرهما وجيش جيشا ملكيا وجمع من الأموال ما لا تأكله النيران وهو محافظ عليه فقال له بختك إني أعرف حق المعرفة وأؤكد أنك لو اكرمت العرب أكثر مما أكرمتهم لخرقت حرمتك وذهب الملك من يدك واندثرت شوكة العجم بأرجل العرب وإذا شئت فجرب الآن وصالحهم فقال الآن بعد هذا الإخراق لا وسيلة للمصالحة بعد لكنني اقول لو كان من الأول لكنت الآن بخير وحيث قد اغصبوا بنتي وكسروا عساكري لابد إذا طلبت منهم المصالحة طمعوا بي واقترحوا علي شروطاً لا طائل تحتها مع أني لا أزال قادر أن أجمع أضعاف أضعاف العساكر التي جمعتها كل من الشرق ومن الغرب ودام الحديث إلى آخر النهار وعمر يسمع ذلك حتى انتهى النهار ونهض بزرجمهر الى الباب وركب بغلته وسار الخدام بين يديه فسار عمر بينهم فرآه بزرجمهر وعرفه فضحك منه وبقي سائراً حتى دخل قصره وصرف الخدم وإذ ذاك جاء إليه عمر العيار وقبل يديه فترحب به وقال له ما وراءك من الأخبار يا ساعي العرب ودليلهم فأخبره بما كان من أمر الأمير حمزة وكيف أنه سافر ورحل عنهم وقد ظنوا أنه سافر مع الراعد على علم منهم ولذلك جاء إليه يسأله عنه وهل تطول سفرته لأنه اعطى من الحكمة ومعرفة الغيب ما خص به الأنبياء الكرام فقال له لا تخفوا على الأمير فإن المكتوب ما منه مهروب وأن الله قدر عليه سفراً طويلاً إلا أنه سيعود منه سالماً غانماً منصوراً

ويكون طريق مجيئه من بلاد مراكش فترقيه العرب إلى طنجة الغرب وتذهب الفرس إلى هناك ويحصل حرب عظيمة بين الفئتين لم يسبق أن وقع مثلها قط فأقر العرب جميعاً مني السلام ومعتدي السواحل وأندهوق وباقي الفرسان خصوصاً وأخبرهم ان لا يتكدروا من غياب الأمير وان يبقوا كما كانوا حيث أن شوكة العرب ستقوى بهم ويعـزز شرفهم وفي الأخير يذلـون الاعجاب ويستعبدونهم والسلام .

فسر عمر من كل ما سمع ورجع في طريق بعد ان ودع الوزير بزرجمهر وشكره وقبل أياديه ولا زال في طريقه وهو بصفة عجمي يختطف طوال الطرق بسرعة جريه فيقصر من أعمارها حتى وصل إلى المدينة المقصودة وشاهد الوطن فدخله منشرح الصدر مسرور الفؤاد وجاء الفرسان وهم مجتمعون إلى بعضهم وأعاد عليهم كلام الوزير حرفاً بحرف فلما سمعه الفرسان اثنوا على غيرة هذا الرجل الفاضل الحكيم وقال أندهوق أن كان الوزير بزرجمهر وهو عمدة أقوام كسرى وأعيانه العظام يحافظ على قيام الكلمة العربية فكان بالحري نحن فإذا كان الأمير حمزة سيد العرب وقائدهم قد سافر بارادة منه تعالى فلا يلام على تركنا وحدنا ولو لم يعرف اننا من فرسانه المخلصين وان بنا الكفاءة لحماية العرب في غيابه وحرب كسرى لما سافر عنا وصار من الواجب ان لا نضيع ظنه بنا وأن نخدمه في غيابه بأكثر مما كنا نخدمه في حضوره. وأقام بعد ذلك العربان في ذلك المكان ينتظرون ما يأتي عليهم من باطن الأيام القادمة .

قال فهذا ما كان من العرب وسنعود إلى حديثهم في غير هذا المكان وأما ما كان من أمر الأمير حمزة فإنه بقي محمولاً على عاتق الراعد مدة أيام ينزل به في المساء ويأتي له بالأكل فيأكل ويشرب ثم يحمله ويطير به بسرعة نحو بلاده حتى انتهى به أخيراً إلى أرض كثيرة الرياض حسنة المناخ يانعة الأشجار فنزل به في ذاك المكان . وهو على حاله السابق وجاءه بالطعام فأكل وقال للراعد أريد أن أبقي هذه الأرض مدة يومين فقد اعجبني مناخها وطيب هوائها فأجابه ونام هناك تلك الليلة وفي الصباح نهض ونظر إلى شرقي المدينة فوجد البحر يتصـل بتلك الأرض فابتهج وقال الراعد يظهر أن هذه النواحي واقعة على البحر ولابد من اتيان المـراكب والسياح اليها قال إن هذه البلاد بعيدة عن المكان الساكنة به الإنس وهو لا يصل إليه أحد من سكان ارضكم ولا تصل إليه قط المراكب وفي تلك الساعة نظر إلى إحدى جهات البحر فرأى شراعاً عن بعد يعلو مركباً سائرة مسير البرق الخاطف فقال الراعد أنت تقول لي أن المراكب لا تقرب إلى هذه النواحي مع أني أرى مركباً عن بعد ، فقال له الراعد هذه ليست مركب بل هي سمكة من نوع الأسفراني بقدر المركب الكبير تطفوا احياناً على وجه الماء وتسير ثم تغيب تحت الماء ولعدم وجود من يأتي إلى هذا البحر ويصطاد منه تكبر به الأسمـاك والسلحفاة فتصير الواحدة بقدر المركب لا بقدر الجزيرة فتعجب الأمير من صنع الله سبحانه وتعالى وكيف ان لا

احد يأتي إلى تلك النواحي ولم يكتشف بني الإنسان ذاك القسم من الأرض الموجودين عليها ونهض بعد ذلك وطاف في الرياض فكان يرى أشجاراً كبيرة ضخمة متنوعة الأثمار فعجب منها العجب الكلي وقال للراعد هل هذه الأشجار كبيرة العمر قال نعم انها كبيرة وأصغرها يبلغ عمرها ٢٥ ألف سنة وهذه لم يكن منها في نواحيكم وهي لذيذة الاثمار ثم مد الراعد يده وجعل يقتطف منها ويناول الأمير حمزة وهو يأكل بقابلية شهية فيرى فيها لذة ، عجيبة لم يذق مثلها طول زمانه وإذ ذاك قال للراعد أريد منك ان ترجع بي من هذه الطريق وتنزلني بها لأني أريد أن آخذ منها أثماراً لمهردكار ولفرساني على سبيل الهدية كي اقاسمهم بهذه اللذة قال لابد من مرورنا منها وسأحمل على عاتقي ما يكفي عسكرك برمته حال رجوعنا وكان الأمير حمزة يفتكر انه سيرجع بوقت قريب ولا تطيل غيبته ولم يكن يعرف أن الزمان لا يسمح له أن الطريق الذي سار عليه يرجع منه وبعد ان صرف باقي اليومين على الفرجة والطواف من مكان إلى مكان مسروراً بوجوده فيها ويتمنى التطويل والراعد بين يديه يرجو التقصير والسرعة بالمسير حمله وطار به ولا زال سائراً في الجو الأعلى مدة حتى أنزله في أرض مقفرة بين ثلاثة طرق وقال أعلم يا سيدي أن من هنا بداية حكم عمي وما عدت أقدر اظهر قط ولا أقدر ان ارى أحداً نفسي لئلا أهلك ولا عدت تراني إلا بعد موت عمي فادعو الله أن يساعدك على غايتي ؛ ثم تركه واختفى في الجو الأعلى فاندهش الأمير حمزة من عمله وسرعة غيابه واحتار في أمره كيف يبقى منفرداً وحيداً وتكدر من عمل الراعد وذمه في ذاته : واخيراً رأى ان لابد من تقدمه فشكر الله سبحانه وتعالى وسأله المساعدة والإغاثة فارتاح لذلك ضميره ووجد من نفسه لذة وراحة وبعد أن انتهى من الصلاة أراد المسير فنظر امامه ثلاث ممرات فوقف مبهوتاً متحيراً وقال كان واجب من الراعد على الأقل أن يدلني على الطريق ويخبرني كيف أعمل لأصل إلى عمه وأين يوجد غير أنه اخيراً سار في إحدى الطرق ومشى على رجليه مدة ست ساعات فجلس مرتاحاً من التعب نحو نصف ساعة ثم قام ومشى وصل إلى أرض رملية محرقة تلتهب ارضها كالنار وأحجارها تفرقع من شدة الحرارة والإلتهاب فسار عليها إلا أنه ما لبث ان شعر بشدة تلك الحريق والتهب جسمه وضاقت روحه وأيقن انه هالك إذا اقام نصف ساعة على تلك الحالة وطالت تلك الأرض وكان كلما تقدم يرى أن الحر يشتد والأرض تزيد التهاباً حتى اصبح لا يقدر أن يلقي برجليه عليها فزادت عليه الحال وعظم المصاب وظهر له قرب فنائه فانحدرت الدموع من عينيه وقال نعم أن الله قصد هلاكي بهذه الأرض وقضى علي أن أموت غريباً بعيداً عن أهلي ووطني فلتكن إرادته ولا أخالفه ثم جعل يدعو الله ويسأله أن يعفو عنه ولا يميته في أرض هي جهنم النيران :

وفيما هو على مثل ذلك غائب الذهن ضائع الأفكار مشتت البال لا يرى ما أمامه ولا ما وراءه وإذا به شعر بانخفاض الحرارة من جسمه ثم اخضراراً بعينيه وجعل الوعي يزوره بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى قدر أن يبصر جيداً وإذا تحت رجليه أرض خضراء غير ذلك الأرض

الرملية وأمامه شيخ بثياب خضراء وعليه وشاح أخضر لامع ذي لحية بيضاء جداً يحيط بها هالة من النور وعليه من المهابة والوقار والجلال ما يأخذ بالأبصار فانذهل وحار وتذكر أنه رأى ذات مرة مثل ذاك الرجل فتقدم إلى نحوه بعدة خطوات وأراد أن يسأله عن الماء قبل كل شيء ليبل ريقه فسبقه وقال له اطمئن يا حمزة العرب فأنا الخضر الأخضر أبو العباس مغيث المتعبين ومشفي المجروحين ومسقي الظمآنين وناصر المظلومين من رجال الله أنا خادم الحق ونقمته على الكافرين والجاحدين فتقدم واشرب ثم أخرج له قربة من الماء كانت تحته على الجواد ودفعها إليه فشرب الأمير حمزة حتى ارتوى وهو مسرور من لذة تلك الماء ودنا من الخضر ليقبل يديه وسجد له فانتهره وقال له لا يليق السجود لغير الله سبحانه وتعالى فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لا والد له ولا ولد خلقك وخلقني لنسبحه ونسجد له وها أني أحرسك ما زلت في هذه الأرض وغيرها لأنك من الأمناء على دين الله فاعطني سيفك الآن فناوله حمزة سيفه الذي أخذه من قلعة النيل فأخذه منه وغطه بالماء وأعاده له وقال هذا السيف أصبح نافعاً لك فما زلت حامله تهرب منك مردة الجان والكهان وعفاريت السيد سليمان وما من واحد منهم عاد يقدر أن يقرب منك أو تدنوا اليك بسوء فسر الأمير حمزة من ذلك وسقط هم عظيم عن قلبه وأراد أن يقبل يده فلم يره غير أنه شم رائحة البخور تنبعث من مكان وقوفه فخر لله ساجداً وشكره على حبه له واعتنائه به وبكى من ذلك فرحاً وقال من أنا لينظر إلي ويهتم بي ألست أنا من أحقر عباده وأضعفهم فسبحانه لا يترك أحداً ولا يتخلى عن أحد .

تم نهض متقوياً ومشى في طريقه شيئاً فشيئاً حتى دخل بين الرياض فسر من مناخ الأرض وحسن هوائها ورطوبة أرضها وشكر الله على خلاصه من ذاك الرمل الحار ولا زال سائراً حتى دخل بين القصور والبيوت وهي شواهق مرتفعة لحد السحاب فتعجب منها إلا أنه كان لا يريد أن يميل عن طريقه ولا يعرج إلى جهة وهو يرى طوائف من الجان والعفاريت تنتقل من مكان إلى مكان غير ملتفتة أو معتنية به حتى قادته الصدف إلى قصر اليون شاه عم الراعد فنظر إليه عن بعد فوجد الارهاط مجتمعة عنده بما يدل أنه قصر الملك فعرف ذلك وقال قد هداني الله إليه بدون أن أسأل أحداً عن ذلك غير أنه قبل أن يقرب من الأبواب نظره أولئك الأرهاط فتقدموا منه متعجبين كيف أن واحداً من الإنس قدر أن يصل إلى تلك الجهة وأرادوا أن يجتمعوا عليه وحواليه فاستل سيفه وهجم عليهم فهربوا من وجهه وتفرقوا عنه وهم يصيحون الأمان الأمان يا سيد سليمان سلطان الإنس والجان ودخل قوم منهم إلى ليون شاه وهو جالس على كرسيه وقالوا اعلم يا سيدنا اننا رأينا رجلاً من الإنس يتقدم إلى جهة القصر فتعجبنا منه وأردنا أن نقرب إليه ونتفرج عليه وننظر في امره وإذا به قد استل من وسطه سيفاً وصوبه إلى جهتنا فشاهدنا فيه ناراً ميرقة تقصدنا بشرارها فانهزمنا من أمامه خوفاً من الاحراق ولا ريب أنه من بقايا السيد سليمان له السلطة الكبرى على الجان فقال لهم إني سأحضره وأنظر

في أمره .

وفيما اليون شاه مع خدمه بمثل هذا الكلام وإذا بالأمير حمزة قد دخل من باب القاعة وصاح ويلك يا ليون شاه انزل عن هذا الكرسي وسلم نفسك إلي وأجلس ابن أخيك الراعي عليها لأنه أخي وجئت لنصرته . فلما سمع اليون شاه هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وأراد أن يسحق الأمير حمزة في الحال فتناول عمداً ثقيلاً من الحديد كان إلى جانبه وحذف به الأمير حمزة وقال ويلك يا قطاع الانس هل وصلت بكم القحة إلى المطاولة علينا ودوس بساطنا . فمال الأمير عن مرمى العمد وصاح بصوت ارتجت منه أركان القصر وأشهر بيده السيف وقمز كالغزال حتى وصل إلى اليون شاه وضربه في صدره فلعبت به النيران وصاح أعوذ من كيد القصار ووقع إلى الأرض كومة رماد .

وفي تلك الساعة سقط الراعد إلى الوسط وصاح لا شك يدك يا أخي حمزة الزمان ثم أخذ بيده عمده ومال على أولئك الأرهاط وقال ويلكم أوغاد من طاعني فقد نجا ومن عصاني فجزاؤ ه الهلاك والإعدام وفعل حمزة كفعله وأشهر بيده الحسام فصاح الارهاط وكل من كان في الديوان الأمان يا راعد فإننا عبيدك وخدام أبيك من قبلك ولا ذنب علينا فكف عنهم وقال لحمزة العرب ارجع يا أخي فإنهم طائعون وما من رجل عاص منهم فاغمد سيفه وأجلسه على الكرسي وتقدمت منه سادات الجان وأظهرت الطاعة والخضوع له طول ذلك النهار وعند المساء أولم الراعد وليمةللأمير حمزةودعا كل أنواع الطوائف ليتفرج عليها فكان يرى ما يدهش بصره منهم من طوال كالنخل الباسق وقصار أقصر الإنسان فبعضهم كبار الدماغ وبعضهم وجوههم في أقفيتهم وجيء إلى الوليمة بكل أنواع الفواكه الموجودة في جبال قاف منها كرووس الانسان بعينين وفم ووجه ومنها ما هو كفاكهة الإنس والأمير يأكل من كل نوع واحد وتعجب من طيبة طعمها وحسن شكلها وبعد أن انقضت الوليمة قال الأمير للراعد ها قد انتهيت من عملك ونلت ما تتمناه وأني سأقيم عندك سبعة أيام وفي الثامن أريد منك أن تذهب بي إلى بلادي إلى مكة المطهرة لأنك عرفت ما أصابني وما لحق بي من كدر قومي ولا ريب أنهم باضطراب من أجلي فإذا كان لك عدواً فأخبرني به لأقتله قبل أن يذهب إلى البلاد قال إني أشكرك يا أخي على جميلك هذا ولا أنساه إلى الابد وسوف أذهب بخدمتك إلى بلادك وأعيدك إلى قومك أي يوم شئت وأما قولك إن كان لك عدو فالحمد لله ما من عدو لي أخشاه ولا قدرة لي عليه إلا عمي الذي قتلته قد كان أشد الجان بأساً وكهانة وها أن جبال قاف بين يديك فطف بها وتفرج عليها في هذه السبعة أيام وسأكون بخدمتك على الدوام . فشكره الأمير حمزة ومدح منه وأقام مدة سبعة أيام في كل يوم يذهب به الراعد إلى جهة يفرجه على بلاده وعلى عجائب خلق الله وصنعه الذي لا يدركه العقل الإنساني إلى أن مضت المدة وانتهى الأجل وبات الامير حمزة وفي نيته أن

يعود إلى بلاده في صباح اليوم الثامن وقلبه مملوء من الفرح والمسرة على تسهيل مصلحته دون ان يحصل له عائق يعيقه وصار يحدث نفسه بأنه قريباً يصل إلى مكة المطهرة ويشاهد أباه ورجاله ويحمل إليهم من فاكهة تلك الأرض وكذلك يلاقي مهردكار ويجتمع بها ويريح بالها من غيابه ونام تلك الليلة مطمئناً مرتاح البال وعند الصباح نهض باكراً وتقدم من الراعد ليسأله أن ينهض به ويرجعه من حيث أتى فوجد الدم سائلاً إلى الأرض وقد قطع الراعد قطعتين وهو جسد بلا روح فصاح من الغيظ والكدر وشعر أن روحه قد انسحبت من جسده وامتشق سيفه وطاف في الغرفة فلم يرا أحداً فخرج إلى الخارج وإذا به يرى عند الباب مارداً طرف أرجله في التراب ورأسه في السحاب فهجم عليه وأراد أن يضربه بالحسام ففر من أمامه إلى بعيد فزاد غيظه وصاح به وقال له ويلك من فعل هذه الأفعال ومن الذي قتل الراعد وهو في حمايتي وتحت عنايتي فقال له أن الذي فعل ذلك يا سيدي هي اسما بري بنت اليون شاه .

قال وكانت هذه أسما بري بنت اليون شاه ذات قد معتدل وحسن يحب بين طوائف الجان من الدرجة الأولى لم يكن أجمل منها ولا أقدر نفوذاً في قومها مسموعة الكلمة رفيعة القدر بينهم ولها طائفة من المردة تخدمها على الدوام وكبير هذه الطائفة مارد طويل عريض إذا وقع على جبل سحقه أو وقع في البحر طافت ماؤه على اليابسة وهي على الدوام تنتقل من ناحية إلى أخرى مع خادمها الأكبر كندك المارد المذكور فلما زار الأمير حمزة جبال قاف في هذه المرة كانت غائبة في داخل البلاد حسب عادتها وعند عودتها دخلت المدينة فلقيها بعض خدمها وعزوها بأبيها فاسودت الدنيا في عينيها وارغت وازبدت وقالت من الذي قدر أن يقتل أبي وتجاسر على ارتكاب مثل هذا الأمر الخطير فقالوا لها أن ابن عمك الراعد ذهب إلى بلاد الإنس وجاء برجل من العرب اسمه الأمير حمزة فدخل على أبيك وقتله وأقام الراعد مكانه وصارت البلاد بيده وهو يحكم فيها فقالت لا بد لي من هلاك الراعد والذي جاء معه وطارت في الحال مع كندك المارد حتى جاءت قصر أبيها ودخلت على الراعد وهو نائم وقلبها يلتهب من عمله وقالت لكندك اضربه بسيفك فاقطعه نصفين ففعل حسب أمرها وضربه بسيفه ففصل رأسه عن جسده واندفق دمه كالبحر الزاخر وهو نائم وانتهت حياته ثم تقدمت إلى ناحية الأمير حمزة وفي ظنها أنها تقدر على هلاكه وقالت لكندك المارد اضربه بسيفك وألحقه برفيقه فتقدم منه ثم رجع وقال يا سيدتي لا أقدر أن أصل اليه لأنه محاط بسور من اللهيب والنار ولا ريب إذا أردت قتله أحرقني اللهيب فأمعنت اسما بري به وأحدقت بوجهه فرأته صبوح الوجه مشرقه ناعم الخد معتدل القد حسن الهيكل فأخذت أن تحله من قلبها محل الغرام وولعت به وبمدة ساعة من الزمان أصبحت تتمنى الزمان أصبحت تتمنى وصاله وترغب في قربه فقالت لكندك المارد أقم أنت عند الباب فلا بد للأمير عند الصباح من أن ينهض ويرى الراعد مقتولاً فيتكدر ويسأل عن الذي فعل معه ذلك فقل له اسما بري وأنها كانت تريد أن تأخذ بثأر أبيها منك غير أنها شفقت عليك فعفت

عنك وتركت هلاكك وإذا ذاك أحضر له أنا ففعل كما أمرته .

وفي الحال ظهرت أسما بري أمام الأمير حمزة وقالت له لا تتكدر من قتل الراعد فإني أخذت بثأري منه حيث كان السبب بقتل أبي وأما أنت فقد نزلت من قلبي منزلاً عظيماً وحنت إليك كل جوارحي ولذلك طلبت القرب منك وأن تتزوج بي إما حلالاً وإما حراماً وغير ذلك لا يمكن أن ترتاح في هذه البلاد فاغتاظ الأمير حمزة من كلامها وقال لم يبق علي إلا أن أتزوج بنات الجان ثم زجرها على ذلك وقال لا تطمعين نفسك بالمحال فلما من أمل بقبول ما تعرضينه علي إلا إذا وصلتيني إلى بلادي وهناك أزف نفسي عليك عند زواجي بمهردكار واتخذك كباقي الزوجات حلالاً قالت لا أريد أن تتزوج بي إلا في هذه البلاد وفي هذه الأيام ولا صبر لي على ذلك إلى حين زواجك بمهردكار وفي بلادك فزاد غيظ الأمير حمزة والتفت إلى أحد المردة وقال له أحملني وسر بي وأنا أجازيك بأن أساعدك وأوصلك إلى كل ما تطلب فانتهرت اسما بري مردة الجان وقالت كل من حمله قتلته ثم طردتهم من هناك ولا تترك إلا كندك المارد وقالت للأمير أن بلادك بعيدة من هنا عدة سنوات ولا يمكن الوصول إليها فيمكن أن تمر في هذه البلاد قبل أن ترى وطنك لأنك إذا أجبت طلبي بعثت ماردي فيوصلك بوقت قريب فقال لها لا يمكن أن أكون أسير غايتك ولا أرضى بما تطلبينه وحدثته نفسه أن يسير ماشياً على رجليه ولا بد أن يسخر له الله من يوصله إلى بلاده ولذلك ترك القصر ومشى في طريقه عائداً من المكان الذي جاء منه وهو لا يعرف الطريق تماماً وسأل الله أن يسهل له سبيله ولا زال سائراً حتى خرج من المدينة فالتفت إلى الوراء فرأى اسما بري بعيدة تتأثره وهي في أثره وبين يديها كندك المارد فقالت له أتطمع نفسك بالمحال فما من أمل يوصلك إلى بلادك إلا بي فقال لها خير لي أن أموت أو أبقى ماشياً على رجلي عدة سنوات من أتزوج بك في هذه البلاد ودام على مسيره إلى المساء فجلس على الأرض تعباً وأخذ يشعر بالجوع لأن لا زاد معه ليأكل وإذا بكندك المارد قد قدم اليه الطعام والماء وقال له كل يا سيدي فإن اسما بري أوصتني بأن أخدمك وآتيك باحتياجاتك .

قال إذا شئت أن تعمل معي معروفاً فأوصلني إلى بلادي فيجازيك الله عني خيراً قال إني خادم أمين لسيدتي فلا أقدر أن أخالفها ولا أريد أن أعمل لها ما يغيظها فاصغ إلى كلامها وأقبل بزواجها فتصل من بلادك بوقت قريب وما من سبب يمنعك عن موافقتها قال هذا لا أريده الآن ما زلت قادراً على المشي وعلى عدم القبول . وبقي تلك الليلة نائماً وفي الصباح نهض والسيف إلى جانبه وسار في طريقه على حسب عادته من الصباح إلى المساء جاء كندك بالطعام واسما بري لتأثره متيقنة كل التيقين أن الأمير حمزة لا بد أن يشعر بالتعب فيلتزم أن يرضى بها ويرى نفسه محتاجاً إلى معونتها وكان كلما جفاها وامتنع عنها زادت غرامها وهياماً به وزاد شوقها إلى وصاله وقربه حتى أنها أخيراً عاودته وقالت له إني أقسم لك بربك أني لا أقيم معك إلا سبعة أيام فقط

وبعد ذلك أوصلك إلى بلادك وأهلك . فقال لها هذا لا يكون مطلقاً وأخذ السيف وأراد أن يضربها به ففرت من بين يديه متكدرة إلا أنها عادت فسألته الرحمة وقالت له إني مغرمة بك هائمة بحبك فاشفق علي وارحم حبي . فقال لها أني لا أحبك ولا أريدك فاسمعي مني وأشفقي علي بغضبي لك وعدم حبي وعيني كرهي لك فزاد غيظها منه واستشارت كندك في أمرها فقال لها يا سيدتي إنك ما زلت تقدمين له الطعام في الصباح والمساء فلا يمكن أن ينقاد لك ويشعر بالتعب لأنه قوي البنية والطعام يقويه ولا يضعف من جسمه وعندي أن تتركيه مدة أيام بلا طعام فيجوع وتخور قواه ويحل به الضعف ويتأكد عنده الفناء فيلتزم أن يوافقك قالت أحسنت فأتركه وابعد عنه ولا عدت تقدم له شيئاً من الطعام والشراب ففعل أمرها وبعد عن الأمير وما عاد قدم له شيئاً من المآكل .

وانتظر الأمير حمزة المساء وفي ظنه أن الطعام يأتيه على حسب العادة فلم يقرب منه كندك وغاب عن عينيه فقال في نفسه لقد قطعت عني أسباب المعيشة ولا بد لي من الشعور بالجوع والضعف غير أن الله سبحانه وتعالى لا يقطع بي بل يساعدني دائماً على هذا الضعف ويرسل لي من يعولني ونام تلك الليلة إلى الصباح وفي الصباح نهض ومشى وبارح تلك الأرض وهو لا يعرف في أي طريق سائر ولا أين ينتهي وأخذ الجوع يرمي سهامه بقلبه وهو يشعر به شيئاً فشيئاً غير أنه كان يعد نفسه ويعللها بقرب الفرج وما برح سائر طول ذلك النهار والمساء فجلس إلى الأرض كالمائت خائر القوى ضعيف الحيل والجوع يشتد به ويلقي عليه بكل أثقاله وهو يتحمل حتى أصبح لا يقدر أن يتحمل وصلى في تلك الليلة بطلب الفرج منه تعالى وبات إلى الصباح تارة يقلق من شدة الجوع وطوراً ينام أو يتنام ليغيب عن وعيه وينسى حاله أنه جائع وفي صباح اليوم الثالث نهض وجر نفسه وهو يؤمل أن يرى أمامه صومعة أو بلداً أو فاكهة فلم ير إلا أرضاً مجدبة قاحلة ولم ير غير مردة تتطاير في الجو ثم تختفي وهو يوحد الله من شرهم ويده لا تفارق سيفه وكان كلما سار قليلاً اشتد عليه الجوع وصعب عليه الأمر وانحط من قواه إلا أنه أخيراً شعر بانحطاط قوى وأيقن أنه هالك لا محالة حيث ركابه أخذت في أن ترتجف وتنحل ويقل من قواها وتضعف ضعفاً سريع الانحطاط وإذ ذاك أخذت أفكاره تضطرب إلى جهة اسما بري وعملها معه وأنها لا تنفك عنه ما لم يتزوج بها وحدثته نفسه أن يجيبها إلى طلبها فتوصله إلى بلاده غير أنه خطر له أخيراً أنه إذا تزوج بها وصار زوجها لا تسمح له أن يرى بلاده ومهردكار ورجاله ويزيد طمعها به ولذلك بقي محتاراً ومرتاباً ومضطرباً من عمله وهو بحالة يرثى لها من شدة الحنق والغيظ والجوع والضعف يفضل الموت على الحياة والهلاك على الطاعة لا سيما يرى وفيما هو على هذه الحالة وإذا به يرى الخضر عليه السلام قد ظهر أمامه على حسب العادة وناداه باسمه فأجابه وقد اشتدت اعصابه وتقوى عند سماعه صوته ووجد راحة في داخله لتأكده بقرب الإغاثة وأنه جاءه الذي يقدر على إغاثته . فقال له لا تخف من زواج اسما بري ولا تهتم

بعذاب هذا الطريق ومشقات هذا السفر . فإن الله العلي العظيم قد قدر عليك امور لا بد من وقوعها ولا ينفعك أمر ولا يقدر أحد أن يمنعها ولا يدفعها غير أنها ستكون في النهاية لخيرك لا لشرك وتصل إلى قومك وتنقضي عنك كل هذه المشاق التي تتضجر منها الآن قال إني أعرف يا سيدي أن لا شيء ينتهي على إلا بمقاصده تعالى وأني صبور على المصائب جلود عليها غير أن ما يكدرني ويحط من جلدي الجوع الذي لا طاقة لي على احتماله ولا أحد يقدر أن يقوم في وجهه أو يثبت لدى مقاومته .

قال إني أعرف ذلك ولذلك أعطيك الآن حصاة ضعها في فمك تحت لسانك فهي تغنيك عن الطعام لأنها ما زالت في فمك لا تشعر بالجوع ولا تشتاق إلى طعام ثم ان الخضر عليه السلام ناوله حصاة وأمره أن يضعها تحت لسانه فأراد حمزة أن يدنو منه ليقبل يديه فلم يجد له أثراً غير أنه شم رائحة البخور تنبعث من مكان وقوفه فوضع الحصاة في فمه وفي الحال شعر بالشبع وأخذت قواه في أن تشتد وأصبح بعد قليل كعادته وأسرع في جريه إلى المساء وفي المساء جلس على التراب ليرتاح ونام قليلاً والسيف عند جانبه لا يفارقه ولا أحد يقدر أن يقربه من الجان وجماعة اسما بري وعند الصباح نهض ومشى إلى المساء وبقي على ذلك نحو عشرة أيام وفي كل يوم تفتكر اسما بري أن الجوع يضعفه ويقلل من عزمه فلا يعود يقدر على المشي فيلتزم أن يطلب إليها المعونة والمساعدة فترغمه على الزواج بها ومن ثم يصبح زوجها ويكون مقتاداً لها شرعاً ولما طال ولم تنل غايتها وضاق صدرها وتعجبت كل العجب كيف أنه لم يشعر بالجوع ولا بالضعف بل هو باق على حاله شديد الجري قوي الأعصاب وإذ ذاك دعت اليها كندك المارد ومدبريها وشرحت لهم حالها وقالت لهم أني أريد أن أستشيركم في أمر هذا الإنسي الذي قتل أبي وكادني ولم أقدر أن أنال منه غايتي وصرفت الجهد إلى إذلاله وإجباره على الزواج بي فلم أقدر أن أكيده وأجبره على طاعتي وأخيراً منعت عنه الأكل وقصدت بذلك أن أضعف قواه من الجوع فلم يؤثر فيه ذلك وصرف أكثر من عشرة أيام ولم أره يذوق طعاماً وهو على حاله وهذا من أعجب عجائب الناس أن يقيم الواحد منهم أكثر من يوم بلا طعام .

وحينئذ تقدم منها احد خدامها وقال لها أني أعرف يا سيدي سبب ثباته على الحالة التي هو فيها وأؤكد لك انه لو صرف العمر ولم يذق طعاماً لما أثر فيه ولا جاع وهو أنه بينما كان سائراً حضر عليه رجل على جواد أخضر من الخيول الجياد اسمه الخضر وهو من رجال الله فشكى إليه الجوع والضعف فأعطاه حصاة وأمره أن يضعها في فمه وأن تبقى على الدوام لا يخرجها من تحت لسانه ولذلك هو الآن شبعان لا يشعر بالجوع ولا يخافه وأني كنت أسمع الكلام الذي دار بينه وبين الخضر الأخضر الذي ذكرته لك فعظم عليها الحال وقالت لا ريب أن حمزة هذا مسعود الطالع موفق من الله والا لما كان يعوله الخضر الأخضر وتساعده رجال الله ولهذا أرى

حبه يشتد في قلبي ولا أريد أن أضيع من يدي مثل هذا الرجل وان كان من الإنس وأريد منكم أن تنظروا في أمري وأمره وتروا ماهي الطريقة التي تضيع هذه الحصاة من فمه فقال لها أحد قومها اعلمي يا سيدي أني أكفل لك ضياع هذه الحصاة منه ومتى أخذت منه رجع إلى الجوع فيلتزم أن ينقاد اليك فمدحته وخولته بهذه المهمة ومن ثم سار هذا الجني إلى أمام الطريق السائر عليها الأمير حمزة وتزيا بزي درويش من رجال الإنس أي أنه مزق ثيابه وأسبل شعره وجاء بوعاء وضع فيه سمكاً مقلياً وتركه أمامه وجلس إلى أن رأى الأمر قد كان يشرف على تلك الليلة فجلس للصلاة وكان الأمير سائراً على حسب عادته لا يعرف بخدعة هذا الماكر فرآه جالساً للصلاة غير ملتفت إليه فتقدم منه وصبر عليه إلى ان فرغ من الصلاة وحينئذ أظهر التعجب والحيرة من وجود الأمير وجعل يوحد الله وقال له أراك من طائفة الإنس فما الذي أوصلك إلى هنا فقال له الأمير حمزة أن التقادير القتني في هذا المكان غير أني اتعجب بأنك درويش من الانس وموجود في بلاد الجان بعيداً عن قومك وأبناء جنسك قال إن قصتي عجيبة من عجائب الأيام وهو أن أبي كان يسكن في مدينة الشام وكان في أول عمره من الأغنياء العظام أصحاب البيوت وأهل الإحسان فضعف حاله وقل ماله ووقع في حفرة الفقر والفاقة حتى كاد يشتهي الخبز مراراً مع عائلته فذات يوم وهو جالس يتأمل بحكمته تعالى كيف ينزل الإنسان من حالة الثِروة إلى حالة الفقر ويفكر كيف أنه لم يع إلى حاله حينما كان ماله كثيراً وإذا برجل مغربي عليه سمة المهابة والوقار قد تقدم من أبي فحياه وقال له لا تفكر بهذا الفقر الذي أنت فيه فإن الغنى قريب منك فانشرح صدر أبي وقال من اين ذلك قال اعلم ان لي زمان طويل وأنا ابحث على كنز في جبال قاف فوقعت عليه في هذه الأيام وأردت ان افتحه فلم اقدر فبحثت بمعرفتي وحكمتي على وجه من يفتح هذا الكنز فظهر لي أن المال فيه لا يخرج إلا في يد ابنك ففرحت وشكرت الله على ذلك وأتيت اليك اقاسمك في هذا الكنز فإن به من الذهب والتبر مالا يوجد عند ممالك العالم بأسرها قال له أبي ومن اين يمكنني ان اسلمك ولدي وهو وحيد لي قال إني أكفل لك ذلك وأقسم لك بالله العلي العظيم أن اعيده اليك وأقاسمك الكنز وما من غرض لي بابنك بعد ذلك فانقاد اليه ابي لضعف حاله وفقره وقال وهل يبقى ابني معك إلى زمان طويل قال كلا إلى عشرة ايام فحرك أبي طمعه بالثروة وبغضه بالفقر فسلمني إلى المغربي بعد ان قبلني وودعني وبكى وقال لي إني اودعك بيد الله يا ولدي فسر مع هذا الرجل عسانا ان نتخلص من الفقر ويسهل الله امرنا فأخذني المغربي بعد ان دفع لأبي شيئاً من الذهب ليصرفه في غيابنا وجاء بي إلى هذا الجبل العالي الذي تراه امامك على سرير طار بنا في الجو الأعلى وبعد ان فتح الكنز أخذ منه شيئاً كثيراً من الذهب والتبر ثم رجع من حيث أتى وقال لي ابق أنت هنا إلى ان يوافيك الاجل إذ ما من وسيلة لرجوعك إلى ابيك وتركني حزيناً في هذه الديار غير أن كلمة الايمان لم تفارقني قط فشكرت الله ودعوته لإغاثتي وبكيت على فراق والدي وعلى فعل هذا المغربي مع أبي الذي كان

بحالة الفقر المدقع وليس له سلوة إلا بي . ومن ثم نزلت من الجبل إلى هذه الارض وداومت الصوم والصلاة وأنا أسأله تعالى لا يتركني اموت جزعاً . وبعد ان نمت تلك الليلة سمعت الوحي يقول لي لا تخف فإني آتيك بكل ما يلزمك من المآكل والأطعمة التي تطلبها نفسك فإذا اشتهت شيئاً اطلبه فتراه امامك وأنك ستبقى في هذه البلاد زماناً طويلاً إلى أن تمر الأيام المقدرة عليك ويأتي امير العرب إلى هذه البلاد فيأخذك معه إلى بلاده ولهذا تراني قائماً في هذه الأرض على تلك الحالة في كل يوم أطلب طعاماً فأراه امامي واشكر الله الذي لا يترك نفساً بغير عناية حتى مضت على السنون والأيام ولما كان في هذا الصباح سألت الله الطعام حسب العادة وإذا بهذا السمك الذي تراه امامك فتعجب عندما رأيته زائداً العادة وإذا انتهيت من الصلاة ورأيتك ثبت عندي ان هذا نصيبك من الطعام بحيث تكون ضيفي في هذا اليوم وإذا كنت أنت هو امير العرب سرت معك إلى بلادي لأني من حين بقائي في هذه الأرض ما رأيت قط إنسياً ولا فترت عن السؤ ال من الله أن يبعد عني طوائف الجن . ففرح الأمير حمزة عند سماعه كلامه وصدقه وانطلت عليه حيلته وقال له نعم انا هو أمير العرب وسأذهب بك إلى بلادك وتكون رفيقي في سفرتي ثم ان الدرويش دعا الأمير حمزة إلى الطعام فجلس عليه وهو مشتاق له جداً واخرج الحصاة من فمه ووضعها على الأرض وأخذ يأكل هو والدرويش وفيما هو ملته بالأكل وإذا بالدرويش الذي هو الجني قد مد يده وتناول الحصاة وضرب رجليه بالأرض بسرعة عجيبة خوفاً من أن يلحقه حمزة بضربة من سيفه ولما صار بعيداً قال له أن الحصاة ذهبت منك ولم يبق لك بعد ما يقيتك فاسمع مني وأقبل بزواج اسمابري ولا تصرف كل عمرك بالعذاب ولا تقدر أن تخرج من بلادها لو صرفت العمر ماش على قدميك .

فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد ان تلك حيلة وقعت عليه زاد به الغضب وعمى بصره وغاب صوابه وأصبح بحالة العدم نحوا من ساعة وهو يعض على أصابعه ندماً ويأسف على تلك الحصاة وثبت عندة أن اسمابري لا تتركه وأنه وحيد وأنها هي وقومها محتاطون به لا يفارقونه يحاربونه تارة بالحيلة والخدعة وطوراً بالتهكم والعناد وبعد أن وعى إلى نفسه فكر بكلمة الخضر عليه السلام أن ما من بأس بزواج اسمابري قط ومن ذلك الوقت رأى ان ينهي عذابه بقبوله بها وأن يشرط عليها بأن توصله إلى بلاده ولذلك قال للجني ادع لي اسمابري لأعرض عليها شروطي وفي الحال ظهرت اسمابري أمامه وقالت له اني مرافقتك يا سيدي ولا بعد عنك قط حتى إذا وافيتني ورحمتني وشفقت على حالتي رجعت بك إلى بلدي وزففت نفسي عليك . قال اني قبلت بطلبك ورضيتك لي زوجة انما بشرط انك بعد خمسة عشر يوماً ترسليني مع كندك المارد الى بلادي لأني تركتهم بالحرب مع الأعجام وأخاف أن يصابوا بمصيبة ويتشتتو لطوال غيابي قالت أني اعدك أن اوصلك الى بلادك بعد مرور خمسة عشر يوماً من زفافك وكفاني ان أكون زوجة لك وان اقيم معك هذه المدة .

وفي الحال رجع من حيث أتى وسلم نفسه الى كندك المارد فحمله الى قصر اسمابري وهناك اجتمع اليها رجال ابيها وهنأوها بنوال غايتها وهي مسرورة السرور الذي ما عليه من مزيد وأخذت تهتم بعمل الزفاف وتعد عدته وحينئذ قال لها الأمير حمزة أني لا أرضى أن أزف عليك إلا إذا أرسلت خادمك كندك يأتيني بقاضي مكة بهلول الناقوش لكي يجري الزفاف حسب سنة العرب فقالت سمعاً وطاعة فكيف شئت اجري الزفاف فالنتيجة حصولي عليك بأي طريقة كانت ثم أنها قالت له اكتب كتاباً إلى بهلول القاضي المذكور ليحضر مع كندك فكتب إلى أبيه ابراهيم بخبره بكل ما جرى عليه ويسأله ان يرسل القاضي بهلول وعمر العيار مع كندك المارد لحضور زفافه وانه بعد خمسة وعشرين يوماً يكون في مكة المطهرة ويهدي سلامه الى فرسانه وابطاله فاخذ كندك الكتاب وطار به حتى جاء مكة المطهرة ودخل على الأمير إبراهيم فارتاع في الأول منه إلا انه اخيراً اطمأن باله عند ما عرف انه رسول ولده وأخذ منه الكتاب وبعد ان قرأه وعرف ما هو جار على ولده شكر الله على سلامته ثم قال لكندك ان العرب قد ذهبوا عن مكة الى بلاد الغرب وليس هنا إلا القاضي وحده فخذه. ثم حمل كندك القاضي وذهب به إلى جبال قاف وأحضره امام الأمير حمزة فلما رآه نهض إليه وقبل يديه واجلسه على كرسي من العاج ثم أخذ يسأله عما كان من العرب والعجم بعد غيابه كيف لم يحضر معه عمر العيار .

فقال ان الفرسان بعد غيابك ارسلوا عمراً الى المدائن واستشارو الوزير بزرجمهر في امرك وامرهم وكيف يفعلون فقال له أن الأمير حمزة يأتي من بلاد الغرب عن طريق طنجة ومن الصواب ان تلاقوه إلى هناك وبناء على امر الوزير بزجمهر المذكور رحلت العرب من مكة وسارت إلى الغرب ومعهم عمر العيار فقال الأمير حمزة لكندك اذهب الى طريق الغرب واين وجدت العرب احضر من بينهم عمر العيار بكل سرعة وعجلة بحيث يحضر زفافي ويرجع في نفس اليوم الذي أزف فيه إذ لا أبدي عملاً إلا برأيه فهو دالول العرب وصاحب ازمتهم ففارقه كندك وسار في طلب عمر العيار .

قال وكان من العرب كما تقدم معنا سابقاً ان عمر العيار عاد إليهم واخبرهم ان الأمير حمزة سيأتي من طريق بلاد الغرب وانه سيقع هناك حروب واهوال عظيمة واخبر العرب ان الموافق ان يوافوه الى تلك الأرض حيث يجتمعون به .

وعليه فقد رحلوا عن مكة وساروا بالأجمال والأنعام يقصدون بلاد الغرب وأمامهم عمر العيار وكانت جواسيس كسرى ترقبهم فرأوهم وقد فارقوا مكة وعرفوا انهم سائرون على طريق طنجة الغرب ومعهم مهردكار ولم يبقوا في مكة ولما بعدوا ثلاثة ايام عاد جواسيس كسرى وقالوا له إن الأمير حمزة قد غاب عن مكة وعن فرسانه الى جبال قاف وان العرب رحلوا من تلك

الأرض الى بلاد الغرب ليلاقوه هناك وقد أخذوا معهم كل الأموال والانعام وذهبوا بمهردكار على هودجها معهم يحتاط بها عمر وجماعةمن الفرسان فقال بختك ان من الصواب ملاحقتهم الطريق وتبديد شملهم ما زال الأمير حمزة بعيداً واخذ الأموال ومهردكار منهم فأرسل كسرى ولده فرمزتاج وزوبين الغدار مع ثلثمائة الف فارس وأوصاهم بمفاجأة العرب وقطع الطريق عليهم وتبديد شملهم فوعداه بذلك وأن يعودوا بمهردكار وأمواله التي جمعها العرب من بلاده زحفاً بتلك الجيوش وقاطعاً للعرب على الطريق الذي كانوا يسيرون منه وما مضت على ذلك عدة ايام حتى التقى الفريقان وعرف العرب ان الاعجام علموا بمسيرهم فربطوا لهم الطريق ومرادهم ان يمنعوهم عن التقدم وان يوقعوا بهم ولذلك جمع اندهوق فرسان العرب وأوصاهم بالتيقظ وقال لابد أن تقصد طوائف العجم حربنا وقد قادها الطمع الى ذلك فمن الواجب ان نحارب محاربة الأسود ولا نبقي من الأعداء واحد فلا يجسرون على العودة ثانياً وأنا أيقن ان بنا الكفاءة لإبادة الفرس أجمعهم وان كان اميرنا غائباً عنا فقال له الجميع ان ليس أمامنا إلا سيوف قواطع وهم دوافع ومن دنا أجله فلا يقدر أن يدافع وفيما هم على مثل ذلك وإذا برسول فرمزتاج قد دخل على العرب وسلم كتابه إلى الملك النعمان يقول له فيه .

من فرمز تاج بن كسرى أنو شروان إلى الملك النعمان ملك العربان .

اعلم ايها الجاهل قدر نفسك انك كنت في الأول عاملاً لأبي مكرماً تصرف عمرك على الراحة والهناء والكرامة فخالفت عليه وانقدت الى الأمير حمزة ،وعاندت أبي وفي نيتك ان ان تجعل نفسك مقارناً للملوك فوقعت في سوء عملك ولاقيت عوض الراحة عذاباً وعوض الهناء عناء فصرفت ما بقي من عمرك غريباً مشتتاً تنتقل من مكان ومن مشرق الأرض الى مغاربها ومع كل ذلك لا ترجع عن غيك ولا تترك العرب وتفرقهم وقد سلبتم اموالنا واستوليتهم على انعامنا وسبيتم أختي مهردكار فريدة زمانها ونادرة المثال بين ربات الجمال ولذلك جئت اليك بهذا العسكر الجرار ومعي زوبين الغدار وأنتم تعرفون شدة بسالته وقوة سلطته وعظمته وتعلمون ايضاً ان ابي قد خطبه من أختي مهردكار ووعده بزواجها فنطلب إليكم تسليمها مكرمة وان تسوقوا سائر الجنائب والأموال التي لنا وتعترفوا بخطاكم فنعفو عنكم ويرجع كل شيء الى حاله ومتى جاء الأمير حمزة ورآكم متفرقين لا يعود يطمع بحرب ولا قتال فتكونون قد ارتحتم من عداوة أكبر ملوك هذا العالم واعظم سلاطينه الذي لا يمكن ان يترككم حتى تبادوا عن آخركم .

ولما قرأ الملك النعمان الكتاب على رؤوس الفرسان ما منهم إلا من اضطرب واغتاظ وهاجت نار الإنتقام في قلبه وحركته نخوته إلى خوض معمعة القتال والفتك بالأعجام الأندال فهاجوا وماجوا ووقف اندهوق بن سعدون على رجليه وقال للرسول اذهب لسيدك وأخبره انه

بطول عمره لم يعد يرى مهردكار فهي أصبحت اختنا ونسيبتنا وخطيبةفارسنا وبطلنا وأننا سنقاتل عنها ونحميها من كل طالب ولو مالت علينا الجبال في صفوف الرجال وسيلاقينا في الغد ويعلم منا صدق ما أقوله الآن وينظر ما يحل بصهره الكذاب زوبين الغدار ـ فرجع الرسول وهو مندهش من فرسان العرب ومأخوذ بهيبتهم وسطوتهم ولما وقف بين يدي سيده اعاد عليه ما سمعه من اندهوق فاشتعل في قلبه اللهيب وغاب وعيه وحركا حبه لأخته وإلى مرآها وانفطرت مزارته كيف قيل له انه لم يعد قادراً على رؤ يتها بطول عمره ونهض الى صيوانه وانفرد وجعل يشرب الخمرة كي يذهب عن نفسه الهدس فلم يقدر بل كان على الدوام يزيد شوقاً إلى مهردكار حتى زين له السكر أخيراً أن يذهب بين قبائل العرب بصفة بدوي ويدخل عليها ويراها وربما تسهل له أن يأتي بها من بين أعدائه . ولذلك نهض وغير زيه ودخل بين قبائل العرب وجعل يطوف من مكان الى مكان ولا احد يراه أو يعرفه أنه فرمزتاج حتى مر من امام صيوان عمر العيار فوقعت عينه عليه وفي الحال عرفه حق المعرفة فضحك من عمله . ثم دخل صيوان مهردكار وكان بالقرب من صيوانه يحافظ عليها ويحرسه ولا يترك احداً يقرب منه وقال لها أن أخاك فرمزتاج أصبح في يدي فماذا تريدين ان أفعل به . فقالت لد دعني يا عمر من أخي وأبي وسائر أهلي فإني لا اعرف أحد ما زال غائباً عني فأنتم أخوتي وأبي لأنكم تشفقون علي وترحمونني وتمنعون كل ما يضرني وتعبدون الله العزيز الجبار ولا تعبدون مثلهم النار فرجع عند ذلك الأمير عمر وجاء من خلف فرمزتاج ورفسه برجله فألقاه إلى الأرض وانقض عليه فشد وثاقه وقاده الى بين أيادي سادات العرب وحكى لهم أمره وعرفهم به فتعجبوا من عمله وقال الملك النعمان لو لم يكن سكراناً لما هان عليه ركوب مثل هذه المخاطر فماذا يجب ان نفعل به الآن فقال اندهوق ارسلوا رسولاً إلى مهردكار واسألوها ماذا تريد أن نفعل فإذا امرتنا بقتله قتلة قتلناه أوطلبت إطلاق سبيله اطلقناه لأنه اخوها فلا نخالفها به فسار عمر اليها وأخبرها بكلام اندهوق واستشارها بأمر أخيها فقالت ابقوه عندكم الى حين عودة الأمير حمزة فهو ينظر في امره ويفعل ما يريده فأعجبه جوابها ورجع الى امراء العرب وأخبرهم بما قالته فسلموه الى عمر العيار وقالوا له حافظ عليه واحرسه الى ان يصل الينا اخوك فقاده إلى صيوانه ووضعه فيه ووكل جماعة من عياريه ان يحرسوه حين غيابه .

قال وفي تلك الليلة افتقد زوبين الغدار فرمزتاج في صيوانه فلم يره فتكدر وسأل عنه فلم يجبه أحد فأرسل الجواسيس الى بين العرب على أن أحدهم يقف له على خبر وبعد ساعات قليلةرجع إلى الجواسيس وأخبروه وأنهم سمعوا بين العرب يوجد فرمزتاج بينهم أسيراً وهو يد عمر العيار ولا نعرف كيف كان أسره فاضطرب زوبين الغدار من ذلك وتعجب كيف قدروا أن يصلوا الى ابن كسرى وخاف على نفسه مزيد الخوف ولم ير طريقاً لخلاصه وحمله خوفه الى الرجوع بمن معه إلى المدائن فيخبر كسرى بأسر ابنه وأنه لو بقي الى اليوم الثاني لأسر هو أيضاً .

وتفرقت جيوشه وعلى ذلك نهض الى جواده فركبه وأمر القواد ان تسير بالجيوش خلفه قبل ان تشرق شمس اليوم القادم وبنحو ساعتين من بعد ذلك لم يبق للعجم اثر في تلك الأرض ولا تركوا اعقالاً بها غير آثار حوافر خيلهم .

وفي صباح اليوم الثاني نهضت العرب ونظرت الأرض خاوية خالية وما من عجمي في كل تلك النواحي فثبت عندهم أن زوبين هرب خوفاً على نفسه ورجع من حيث أتى وعليه أمر اندهوق فرسان العرب ان تنهض من ساعتها وتسير في طريقها فقد رفع القتال والحرب والنزال فركب الجميع ورفعوا الأحمال وساروا من تلك الأرض وأمامهم عمر العيار يقود فرمزتاج وهو محمول على جواد من خيول العرب موثوق الأيدي وكلما قربوا من مدينة أو قلعة دخل عمر على فرمزتاج وأجبره ان يكتب كتابة موقعة منه ومختومة بختم المملكة تؤذن بتسليم العامل وتأمره بعدم المدافعة وترك القتال .

وهكذا كانت العرب تسير بلا قتال ولا حرب ولا نزال حتى مروا على عدة بلدان وكل بلد دخلوها اخذوا منها احتياجهم ومؤ ن طريقهم وما برحوا على مثل ذلك حتى جاءوا الى قلعة قطمين وهي من القلاع الحصينة المنيعة مسورة بالطوب لا يقدر الطائر أن يدخل اليها . فدخل عمر على فرمزتاج في كل مرة يكتب كتاباً إلى حاكم هذه القلعة أن يسلم في الحال فأجابه الى طلبه وكان فرمزتاج في كل مرة يكتب كتاباً إلى عمر العيار فيأخذه منه ويقرأه حتى أنه اخيراً ما عاد يقرأ الكتابة لما رآها كلها على نسق واحد ولم يخطر به ان فرمزتاج وهو أسير بيد العرب يجسر على الغدر به ولذلك في هذه المرة أخذة الرسالة منه وسار إلى حاكم القلعة فدفعها اليه فأخذها وفضها وقرأها وإذ بها (من فرمزتاج ابن كسرى انوشروان الى حاكم قلعة قطمين) .

«اعلم اني اخذت اسيراً مع العرب فأذاقوني العذاب الاليم وكلما قربوا من مدينة او قلعة ارغموني ان أكتب الى صاحبها بالتسليم فأفعل غصباً عني حتى فتحوا عدة بلدان وقد أمن لي عمر العيار الواصل اليك فلم يعد يقرأ كتاباتي ولذلك كتبت له هذه المرة عكس ما طلب فإني أمنعكم من التسليم وان تسعوا بخلاصي حالاً هذا بعد ان تقبضوا على عمر العيار حامل هذا الكتاب لأنه رأس العرب وعلة نجاحهم فإذا غاب عنهم أو اصيب بنائبة تفـرقوا وضعفت أحوالهم لأنهم بدونه لا يعرفون كيف يسيرون ولا يقدرون على نوال مطالبهم ولا يمكن ان يقدروا على هذه القلعة فيرجعون خائبين متفرقين وحالما تقبضون عليه اقتلوه ولا تتهاملوا بأمره وإلا تخلص ونجا ولا تقدر هذه الحصون المنيعة ان تمنعه من المرور الى قومه فهو شيطان في صورة إنسان لا يصطلى له بنار

فلما قرأ حاكم القلعة الكتاب قال لعمر مرحباً بك فإني عن قريب أسلم القلعة إجابة لطلب فرمزتاج بن كسرى الملك الأكبر . ثم اشار بالنسر الى قومه ان تقبض عليه فانقضوا عليه

من كل ناح ومسكوه بالرغم عنه وفي الحال اوثقوه بالحبال وشدوه بكل قوتهم ولم يتركوا له سبيلاً للدفاع ولما رآه حاكم القلعة وقد صار بيدهم قال يجب ان تقتله في الحال فخذوه إلى عالي الأسوار وادعوا العرب أنْ يتفرجوا على موت مدبرهم ودليلهم والقوه على دولاب الهواء وانفضوه مدفوعاً بقوة الدولاب الى الجو الأعلى فإنه يرتفع عن السور مئات من الأقدام ثم يسقط إلى بينهم ممزق من شدة الأرياح ويعرف فرمزتاج بموته وكذلك تضمحل قوة العرب ولا تعود تقوم لهم قائمة . وفي تلك الساعة سحبوا عمر العيار مكتوفاً ونحوا من عشرين رجل تحيط به وكلهم ماسكون بالحبال يضيقون عليه ولا يفرجون عنه حتى جاءوا الأسوار فصعدوا عليها وجاءوا اعلاها وركبوه تركيباً محكماً لجهة العرب ووضعوا عليه عمر العيار وهو مكتوف ومربوط الأيدي والأرجل ووقف كبيرهم ونادى قبائل العرب هيا جيها القوم المعتدون وانظروا ما يحل بقائدكم عمر العيار الذي تفتخرون به ففي هذا اليوم موته وهلاكه وخلوص ايامه .

وقال وكانت العرب تنتظر عودة عمر العيار اليهم وان يطلب اليهم الدخول حيث كانوا يتصورون ان فرمزتاج بعث بكتاب كالعادة يأمر حاكم القلعة بالتسليم وإذا بهم قد رأوا جماعة من فرسان القلعة قد رفعوه على الأسوار وفعلوا ما فعلوا فغاب صوابهم وضاعت عقولهم فزحفوا إلى ناحية الأسوار وهم يصيحون ويصرخون ويلكم ايها الأوباش خلوا عن عمر العيار فنترك لكم القلعة واشتروا أنفسكم به وإلا فإننا لا نترككم ولا نبقى على إنسان بها فلم يصغ الرجال إلى كلامهم لعلمهم انهم لا يقدرون على فتح القلعة ولا على خرق الأسوار ولا يمكنهم ان يصلوا إليهم بل أنهم اخذوا يد اللولب ودفعوه دفعة واحدة فدار كالبرق وبأسرع من هبوب النسيم ضرب على عمر العيار فرفعه الى الجو الأعلى حتى كاد لا يرى من الأرض شيئاً وقد ايقن اهل القلعة انه يموت وهو في الهوى وكذلك العرب ظننت أنه ربما يقع داخل المدينة وأما هو فإنه أيقن بالموت والهلاك وثبت عنده أن تلك الدقيقة هي آخر حياته حيث بعد ان ينتهي من الارتفاع بقوة دفع دولاب الهواء لابد له من السقوط فيموت شر ميتة وقد توجع من لطعة الدولاب ولو لم يكن من أجلد الناس على المصائب والأهوال واكثرهم مخاطرة لمات في الحال إلا أنه في تلك الثانية صادف وصول كندك المارد فتناوله بالهواء وطار به في الجو وعاد من حيث أتى . وقد تقدم معنا أن الأمير حمزة بعثه ليأتي به ويحضر زفافه ولم ينتبه عمر إلى كندك بل ظن نفسه أنه دخل باب الهلاك وبعد قليل غاب عن هداه وكندك سائر به ولا زال حتى وضعه امام أخيه حمزة فنظر إليه وهو على تلك الحالة وتعجب منه وسأل كندك عن أمره فقال له أني نظرت العرب نازلين في ناحية من الأرض عند قلعة قطمين فقصدت النزول عليهم وإذ رأيته على السور ورجال القلعة مرادهم ان يهلكونه وقد نادوا العرب لتنظر موته ورموه الى السحاب بدولاب الهواء فأسرعت اليه وهو غائب عن الهدي موقن بالموت وأتيت به من العلى .

فتكدر الأمير حمزة وتقدم من عمر وناداه ففتح عينيه ورأى الأمير حمزة فظن أنه بالجنة وأن

أخاه مات وهو هناك فقال له الحمد لله يا أخي الذي اجتمعت بك في دار الآخرة فوا حسرتاه على العرب ماذا يا ترى يحل بهم بعدنا وماذا يجري على مهردكار في الفناء وإني مسرور الذي لحقت بك لأني كنت أظن أنا والعرب أنك حي وما علمنا بموتك وانتقالك إلى دار الآخرة .

فعرف الأمير حمزة أنه لا يزال ضائع العقل فأمر أن يؤ تى له بكأس من الشراب فأحضر له فسقاه وأجلسه على صدره وقال له انظر جيداً فإننا لا نزال في الدنيا وإننا في جبال قاف قد حضرت مع الراعد وبعثت كندك المارد فجاء بك وأنت على أسوار قلعة قطمين . فلما سمع عمر أنه بجبال قاف وعى إلى نفسه والتفت يميناً وشمالاً فلم ير إلا جانا ومردة فقال له لماذا أرسلت فأتيت بي إلى هذا المكان وكيف صادف ذلك وأنا على آخر نفس من الحياة وثبت لي أني صرت في دار الآخر حيث ارتفعت عن الأرض نحو ألف قدم وأغمضت عيني كي لا أرى الأرض ولا أشاهد كيف أموت فقال له إني أتيت هذه البلاد مع الراعد ووقع لي كذا وكذا بها ثم أنه عاد عليه قصته من الأول إلى الآخر وأخبره بكل ما جرى له مع اسمابري إلى أن قال له قد أرسلت أولا كندك المارد إلى مكة فجاء بالقاضي بهلول ولم يرك هناك وأخبر القاضي أنك مسافر إلى الغرب مع العرب فأرسلت كندك حالا ليأتي بك ورجع بيوم واحد فتحضر زفافي وترى العروس قال خير ما فعلت فإني أريد أن أشاهد هذه التي تقول أنها تريد أن تتزوج بك فإذا كانت موافقة لك وتحب العرب وافقتك وإلا تركناها ورجعنا فنادى الأمير أسما بري فحضرت أمام أخيه فنظر اليها وقال في الحال إلى أخيه إني لا أقبل لك هذه العروس ولا أريد أن تزف عليها وإذا فعلت ذلك قتلتك فضحك الأمير من كلامه وعرف أنه يريد منها النقد ولذلك أشار إلى أسما بري أن ترضيه فقالت لا تفعل هذا يا عمر فإني لا أترك أخاك وأحبه كثيراً ولأجل حبه أحب العرب أجمعهم وإني أرضيك بكل شيء وسأملي لك صندوقاً من الذهب تأخذه معك إلى العرب قال أني لا أريد أن تملأي لي صندوقاً بل أريد أن تملأي لي هذا الجراب الصغير ثم مد يده إلى وسطه فأخرج جراب إسماعيل منه وفتح لها فمه فاستصغرته وقالت اتبعني فإني مالئته لك مرتين وثلاث مرات ودخلت إلى غرفة من قصرها وفتحت صندوقاً كبيراً مملوءاً من الذهب وقالت خذ مهما شئت منه واملأ جرابك قال أفرغي لي أنت وأنا أفتح فاه ثم أنه فتح باب الجراب وأخذت اسما بري تضع فيه الذهب وهو لا يبان وهي تتعجب حتى فرغ الصندوق كله فقالت لعمر كيف لا يمتليء الجراب ومدت يدها إليه فراحت كلها في جوفه ولم تعثر بالذهب قط فطار عقلها ونظرت إلى خارج الجراب فرأته صغيراً لا يساع أكثر من كفها فكادت تفقد عقلها وجاءت إلى الأمير حمزة وعمر يضحك منها وقالت له ما هذا الجراب فإنه كاد يأخذ عقلي وما ظننت أنه يسع أكثر من ربع الصندوق فقال لها يكفيه ما أعطيته فانك لا تقدرين أن تملأي الجراب فإنه لو وضعت به جبال قاف برمتها لما بانت فهو جراب اسماعيل ثم نادى عمر وقال له يكفاك ما أخذت من الذهب قال إني راض به فهو يكفي جماعتي إلى زمان طويل وعليه فإني أسمح أن تزف على

اسمابري فهي كريمة وموافقة واجعل ذلك أن ينتهي بوقت قريب حيث مرادي أن أرجع في صباح الغد إلى العرب لأنهم بدون شك في بكاء ونحيب من أجلي وربما هم بضيقة من جراء امتناع حاكم القلعة عليهم .

قال ومنذ ذلك الحين أعدت أسمابري معدات الزفاف ودعت كل المردة وكبراء الجان ورؤساء الطوائف فحضروا إليها وحينئذ تقدم القاضي بهلول وزف الأمير حمزة على أسمابري وبارك للأمير بها وكذلك جميع الطوائف وأظهروا فرحهم وسرورهم بملكتهم وانقضاء غايتها ثم أن الأمير بعد انقضاء السهر دخل على اسمابري وجاءها ونام عندها تلك الليلة وهو مسرور بما لاقى منها إلى الصباح وعند الصباح جاء قصرها فوجد أخاه عمر بانتظاره فقال له أرسلني الآن إلى قلعة قطمين فاني مشغل البال على العرب وأنت بعد أيام تتبعني . قال أصبر لأكتب الكتب إلى العرب وأطمئنهم عني وأني سأذهب إليهم بعد خمسة عشر يوما فيذهبون في طريقهم ولا يتعوقون فقال له أكتب ما شئت ولا تجعلها بيضة الديك فأخذ وكتب في الأول إلى الملك النعمان وإلى أندهوق بن سعدون وإلى المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل ومعقل البهلوان وبشير ومباشر وأصفران الدربندي كل واحد كتاباً خصوصياً باسمه يشرح له حاله ويطمئنه عنه ويعده أنه بعد أيام قليلة يكون عندهم ويأمرهم بالثبات في القتال وأن يبقوا يد واحدة ولا ينفطروا وبعد أن يمتلكوا قلعة قطمين يداوموا السير حتى يطلوا إلى طنجة الغرب حيث يكون قد سبقهم إلى هناك بحسب إشارة الوزير بزرجمهر وأن تكون كل غايتهم الاعتناء بمهردكار وأن لا يدعوا الأعداء يصلوا إليها وأخيراً كتب كتاباً يقول لها فيه : (من حبيبك الملذوع بقرب النوى والمحروق بكيد الزمان وعناد البعاد من رمته يد الأيام إلى آخر الدنيا فأصبح بينه وبين من أحب جبال وبلاد لا يعرف عظم اتساعها إلا الله سبحانه وتعالى أبيت على حالة اليأس وشخص جمالك يرافقني ويسامرني وخيالك يبات في عيني ولا يبارحني فإذا نهضت في الصباح رأيت ذكرك يتردد في فمي وعين جمالك يناجي قلبي فأصرف أكثر الأوقات بين ذكرى وشكوى . كل هذا لا يخفاك ولا تبعد عنك معرفته لأني أعرف من داخل قلبي ما تلاقي أنت أيضاً وكيف حالتك حيث أن شخص بهاك ما زارني مرة إلا وعاتبني على هذا الانقطاع ونسب إليّ الظلم وسبب هذا البعد فعرفت ذنبي وتأكدت أني الظالم وأنك المظلومة نعم أنا كنت السبب في كل ما جرى وكان من هذا البعاد وعلى الدوام وأنا الذي سببت لك الهم والحزن . أبعدتك عن أهلك وحملتك مشاق الأسفار والأوجاع والغربة والأهوال بعد ذلك الترفه والنعيم والدلال والعز الذي كنت عليه في بيت أبيك وفوق كل ذلك لم أف حق حبك وإلا أقمت بواجباتك لأعيضك بدل ما تلاقينه فاعذريني ولا تلوميني بل سامحيني فإن قلبي باق على الحب ولي أمل وثيق أن كل هذه الأهوال والمصائب والعذابات ستكون هنا راحة وسعادة لي ولك فسامح الله أباك الذي أراد أن يقهر غايتنا ويدوس راحتنا ويجلب كل هذا العناء لي ولك لا بل لعن الله بختك الوزير الخائن

الناكث الخادع إذ أنه منبع العداوة وأصل كل هذه الشرور ولولاه الآن لكنت باقية في المدائن وكان انتهى زفافنا منذ زمان وكنا بجانب بعضنا نلاقي لذة المعيشة وهناء الزوج وإني أسأل الله أن يقدرني من الوصول إليه لأشفي قلبي وأذيقه الموت الأحمر جزاء على أعماله وإني قد بعثت بالكتب إلى سائر الفرسان أوصيهم بالمحافظة على راحتك إذ لا شيء يشغلني عنك وأمرك أفضله عن كل أمر وأريدك على الدوام أن تكوني مرتاحة مطمئنة البال من نحوي فإني بعد قليل من الأيام أكن عندك وأشرح لك العذاب الذي لقيته في سفرتي هذه غير أنه انقضى وزال وأصبحت براحة عظيمة وقد التزمت بالرغم عني أن أتزوج بإحدى بنات الجان وهي بنت الملك الذي قتلته واسمها أسيا بري لأنها وقفت في طريق رجوعي إلى بلادي وحاربتني محاربة عظيمة ولولا تأكدي أن زواجها قدر علي وأنه لا بد منه لفضلت الموت عليه وسأتركها بعد خمسة عشر يوماً حيث اشترطت عليها أن لا أقيم معها أكثر من هذه المدة فعدي نفسك بقرب وصولي إليك وكوني براحة مع اخوتك فرساني وها أن أخي عمر قد عاد إليكم بعد أن خطر لكم وتوهمتم أنه مات وأوصيته الوصية الكبرى أن يكن بخدمتك كما كان وهو يخبر بحالي أنا الغريب عنك وعن رجالي فمهما حصل لي من الراحة وأنا على هذا البعاد فأحسبه ويلاً وعذاباً وكدراً ممزوجاً بالشقاء فراحتي أن أراك في كل صباح ومساء وهنائي أن أسمع عذوبة ألفاظك في كل آن فتنزل على مسمعي وعلى قلبي أشهى من كل شيء وأبرد من الماء الزلال فسقيا لتلك الأيام القليلة التي صرفناها في أرض مكة المطهرة أراك وتريني وأسمع كلامك وتسمعين كلامي وكل واحد منا يقدم للآخر قلبه ويطرح بين يديه نفسه أني أتذكرها ودموعي لا تنقطع دقيقة وقلبي يخفق على تلك الساعات التي كظل الخيال ، ثم كتب في آخر التحرير :

فؤاد كما يهوى هواك معذب ... وقلب على جمر الأسى يتقلب
وعين إذا ما جفت الحزن دمعها ... أتت الدموع من دمع القلب تسكب
تيقنت أن لا صبر لي عنك ساعة ... فاقصيتني إذا ليس لي عنك مذهب
وذلت بحكم الحب نفسي لم تكد ... وليس لمن يهوى عن الذل مهرب
وعلمتني كيف التوجع والبكاء ... وكيف أداري الكاشحين وأرهب
وأعرضت فاخترت الحمام على البقا ... ووردي الردى لي دون بعدك يعذب
فان تردني الأشواق مت بحسرتي ... وأن تبقني قاسيت ما هو أصعب
أحن إلى أهلي وأهوى لقاءهم ... وأين من المشتاق عنقاء مغرب
غريب غريب الهم والقلب والهوى ... ونفسي التي تهوى الردى لي أغرب
ترى الماء كالنسيم الزعاف مع الظمأ ... إذا كان من كف المقطب يشرب
أقول لحر يبتغي صفو ساعة ... من الدهر أن النجم من ذاك أقرب
أتطلب في الدنيا الدنية راحة ... وأنت كريم النفس حر مهذب

سقاني نقع السم في الشهد ريقها — على أنني طب بها ومجرب
تغر بزور ثم تفتك بالفتى — وقد يخدع الوغد الشجاع فيضرب
فلا تركن منها لسلم تريكه — فكم غادر يبدي الرضى وهو مغضب
تلين خداعا للمقلب كشبحها — كما لان بطن الأفعوان فتسلب
تجنبت أخلاق اللئام فخانني — وعاقبني دهري كأني مذنب
فكم قائل فيك انقباض ووحشة — فقلت له لا بل من الذل أهيب
كان على الأيام حزني واجب — فيا كبدي ذوبي فذلك أوجب

وبعد أن فرغ حمزة من كتابة الكتاب دفعه إلى أخيه عمر العيار وقال لكندك المارد أوصله إلى القلعة التي جئت به منها ولا تفارقه إلا بعد أن تأخذ العرب القلعة هذا بعد أن توصل القاضي إلى مكة المطهرة فأطاع كندك المارد أمره وفي الحال حمل الاثنين وطار بهما حتى جاء مكة فوضع القاضي هناك وأما عمر فإنه لم يقبل ينزل عن مكة بل قال للمارد خذني إلى ناحية القلعة وأنزلني بعيداً عن معسكر العرب بنحو ساعتين فأجاب سؤاله وسار به حتى أوصله إلى قرب قلعة قطمين فأنزله هناك وأقام بعيداً عنه لا يظهر نفسه لأحد فمشى إلى ناحية العرب ليظهر لهم نفسه .

قال وكانت جماعة العربان بعد أن رأوا ما رأوا من مصاب عمر وشاهدوه وقد دفع إلى السحاب ولم يروه فيما بعد فثبت عندهم كل الثبوت أنه مات لا محالة وأنه وقع في غير جهة من المدينة فلطموا على خدودهم وبكوا وناحوا وأقاموا له عزاء لم يسبق أن وقع مثله لأعظم ملوك ذلك الزمان وكان أعظم الجميع كدراً مهردكار لأنها كانت تتسلى به وكانت أمينة على نفسها من غدر الأعداء ما دام هو قريب منها ولذلك ندبته وبكته بكاء مراً ولبست عليه الحداد وصرفوا نحوا من ثلاثة أيام والعرب تطوف حول الخيام وتندب عمراً مقدامها وقد تقطعت ظهورهم وشعروا بشدة احتياجهم إليه وهم لا يعرفون ماذا تصل اليه حالتهم . وفي اليوم الرابع ضاق خلق أندهوق بن سعدون من الحالة التي هو فيها وفكر أن الأمير حمزة هو في جبال قاف وأن الأمير عمر قد قتل وأن مهردكار هي معهم ولا يمكنهم أن يتركوها ولا يعلموا في أي وقت يأتي حمزة وإذا أتى فماذا يا ترى يقولون له إذا سألهم عن عمر العيار الذي يحبه محبة عظيمة وخاف من أن الفرسان تتفرق وتضعف قوتهم ويقل أملهم فيتشتتون ويتبددون ولهذا خرج من بين الخيام وأوسع في البر ليبعد عن فكره هذه الأوهام ويلتهي بالصيد والقنص ذاك النهار وفي المساء يجمع العرب ويحلفهم بالله أن لا يترك بعضهم بعضاً إلى أن تعود اليهم أيام الهناء ويرجع الأمير من سفره . وفيما هو سائر بالفلاة وإذا قد رآه عمر العيار فقرب منه وصاح به وقال له أهلا بأخي أندهوق فما بالك لابس السواد وأنا أخوك عمر العيار قد عدت اليكم سالما فارتاع أندهوق عند

سماعه هذا الصوت . ونظر إلى جهته فشاهد عمر فلم يخطر له أنه هو بنفسه بل ظن أن خياله يعارضه ليثقل عليه بالحالة التي هو فيها ، فقال له ابعد عني أيها الخيال فقد كفانا ما لقينا لمصرع عمر وما لحق العرب من الحزن لأجله وأذرف دمعه على خده ومال بوجهه إلى جهة ثانية وسار فيها فعرف عمر أن العرب بحزن عليه وقد لبسوا السواد وأن بكل نيتهم أنه قتل وشرب كأس الآفات فأسرع إلى ناحية اندهوق وقال له أي خيال هنا أنا أخوك عمر وقد جئت برسمي وجسمي واسمي وأتيتكم ببشارة عن الأمير حمزة ومكتوب لك منه ثم لمسه وعارضه ودفع اليه المكتوب فنظر فيه اندهوق وتأكده وثبت لديه أنه عمر فرمى بنفسه عن الجواد وجعل يقبله وقال أين كنت هذه المدة وما الذي أوصلك إلى الأمير حمزة قال اقرأ أولاً الكتاب وسر فخبر العرب بقدومي وسوف تسمع قصتي وقصة الأمير حمزة فعاد أندهوق ركضاً على جواده حتى دخل بين العرب وهو من الفرح في برج عظيم وجعل ينادي هيا يا أمراء العرب وسادتها وقوادها فابشروا واهنأوا فقد عاد اليكم عمر العرب رأس العرب وفخرهم فأسرعوا إلى ملاقاته واشكروا الله على ما قد أعطاكم فهو الرحيم المعين وفي الحال قامت الضجة من العرب وأكثروا من الصراخ والصياح وانحدروا إلى ناحية أندهوق فجعل يشير إليهم بيديه ويقول لهم هيا اسرعوا من هذه الطريق فهو بانتظاركم أن تصلوا اليه فأخذوا يركضون أفواجا أفواجا وصياحهم قد ملأ الأرض ولما رأوه رفعوه على أيديهم وجعلوا يتناقلونه ويغنون ويزغرطون ولا سيما جماعته العيارون فإنهم كانوا لا يعلمون ماذا يفعلون فداروا به من كل مكان وألسنتهم تبربر وأيديهم تصفق وعادوا به فرحين مسرورين إلى أن التقوا بالفرسان وهم المعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل والباقين فنزلوا اليه وسلموا عليه وسألوه عن حاله فأعطى كل واحد كتابه من الأمير ففضه وقرأه وشكروا الله على سلامته وساروا إلى صيوان الملك النعمان واجتمعوا واستعادوا منه الحديث فأخبرهم بكل ما كان من أمره من حين فارقهم ودخل القلعة وكيف أن حاكم القلعة غدر به وربطه وأمر بقتله وكيف أن كندك كان قد جاء في تلك الدقيقة من قبل أخيه ليذهب به إلى جبال قاف وأعاد عليهم أيضاً قصة أخيه حمزة وأنه تزوج في جبال قاف بالرغم عنه بشرط أن يقيم مع اسمابري خمسة عشر يوما وبعد ذلك توصله إلى بلاده فشكروا الله على سلامته وقال له أندهوق أن موتك جاء بنفع وخير لنا فكم بالحرى حياتك فلا زلت علة خير ونجاح ودليل سعادة وإقبال وإننا في الصباح سنباكر أهل القلعة ونأخذ لأنفسنا منهم بالثأر ونسير إلى طنجة الغرب لنلاقي أميرنا وفارسنا هناك فإننا بشوق إلى رؤ ياه وقلوبنا كادت تنفطر عليه ، ثم تركهم وسار إلى مهردكار .

وكانت مهردكار في صيوانها فبلغها بغتة خبر وصول عمر فطار قلبها ولم تعد تعي إلى نفسها وكانت تحزن من أجله فنهضت على غير وعي وخرجت من الصيوان إلى الخارج تنتظر قدومه وهي لا تصدق بذلك وبقيت واقفةتسمع صياح العرب وصراخهم ومناداتهم بالأفراح والمسرات فثبت عندها ذلك ودخلت فنزعت عنها ثوب الحداد وصارت تدخل إلى الصيوان

وتخرج منتظرة وصوله إليها وقد ضاق صدرها فأرادت أن تعرف ماذا جرى عليه ولا زالت إلى أن وصل إليها فحياها وسلم عليها وقال لها أن غيابي كان نافعاً قد عدت إليك بخبر عن أخي الأمير فطفح السرور بزيادة على قلبها وقالت أين أخوك وما هو الخبر الذي جئتني به منه قال إن أخي هو في جبال قاف عند اسمابري وله حديث طويل وعما قليل من الأيام يكون عندك وأعطاني هذا الكتاب لك .

ثم ناولها الكتاب فأخذته منه ووضعته بيدها لتقرأه بإنفراد وجعل قلبها يخفق شوقاً إلى مطالعته والوقوف على كل ما تضمنه والنظر إلى تلك الأسطر التي كتبها حبيبها وبعد أن فرغ من إعادة حديث أخيه عليها تركها وذهب إلى جماعته العيارين وقال لهم اتبعوني إلى الفلا فإني أحضرت لكم من ذهب جبال قاف الكبير العيار شيئاً كثيراً .

وسار أمامهم فساروا من خلفه حتى جاء أكمة في تلك الناحية فصعد عليها وقلبه فرح مسرور يبذل الأموال لهم وأخرج الجراب من وسطه ووضعه أمامه وجعل يأخذ قبضة ويرشها عليهم وهم يتسابقون إلى التقاطها وهو يضحك منهم ويسر من مسارعتهم وفرحهم بعطائه حتى فرغ الجراب فاسود قلبه وحزن على فراغه وتمنى أن لا ينقطع عن هذا العمل كل عمره حيث كان كريما نهايا وهابا ، وبعد ذلك رجع إلى المعسكر ومن خلفه جماعته وكل واحد منهم قد أصابه ما يكفي لغناه وهم يشكرونه ويثنون عليه ويمدحونه حتى جاؤ وا خيامهم وأقاموا بها وقام عمر على حراسة مهردكار والتطوف بالمعسكر كالعادة كأنه لا راح ولا جاء .

وأما مهردكار فإنها بعد أن ذهب عنها عمر العيار أخذت بيدها الرسالة وجلست على سريرها وهي تتنشق منها رائحة الراحة وتتوسم بها الفرح والمسرة وفضتها بأيد مرتجفة وألقت بنظرها على التوقيع وقرأت اسم حبيبها حمزة فألقت برأسها إلى الوسادة وقد خارت قواها وخفق قلبها كان الأمير قد وافاها بعد غيبته ولبثت نحواً من نصف ساعة وهي ملقاة على الوسادة حتى قدرت أن تضبط نفسها وتنهض جالسة إلى قراءة التحرير فأخذته بيدها وأعادت بنظرها عليه وتجلدت كل التجلد ووضعت يدها اليمنى على قلبها لتمسكه عندما يطلب الغور والخور وبدأت من أوله تقرأ سطراً وتصبر نحو خمس دقائق لتقدر على قراءة السطر الثاني وما برحت حتى وصلت إلى آخره وهي على ما تقدم وإذ ذاك عادت إلى حالة الاضطراب الذي يحدث عند اشتداد الفرح وانكادت على سريرها تفكر بمعاني ألفاظ حبيها الرقيقة وقالت لا ريب أن شعوره وإحساساته من نحوي على الدوام حية هذا الذي يسليني ويتركني أعلق الأمل الكبير العظيم بأن ما أنا به من المشاق ينتهي إلى الراحة وهو يحمل هم سفري مع أنه بعيد عني ألوف وألوف ألوف من الفراسخ بل وملايين ألوف من الفراسخ فليهنأ قلبي وليفرح بمن أحب ولو لم يكن أهلاً لأن أحبه لكان خيراً لي أن أموت من أن أعيش على عناد أبي ومخالفة أهلي وترك بلادي لكنه

هو أفضل من الجميع وأرق على ضعفي من أبي وأخي وأمي ولكن بماذا يا ترى أقدر أن أكافئه على مثل هذا الحب والخلوص أني أحبه نعم ولكن لا فضل لي بحبه لأن ذلك من موجبات عشقي وتطلبات قلبي فلا فضل لي به فيا رب كافئه عني بما تختاره له واجعل أيامه طويلة مقرونة بالسعادة والإقبال . وصرفت كل ذاك النهار وتلك الليلة وهي على مثل هذه الأفكار تارة تأخذ الكتاب فتعيد قراءته بتمعن وطوراً تضعه على صدرها وتضمه بيدها وتلقي نفسها على السرير وأفكارها سارحة إلى ناحية جبال قاف وفي الأخير وجدت نفسها مضطربة إلى مناشدة الأشعار فأشارت تقول :

لا وبرد اللقاء ومر الفراق	ما لقلبي من لسعة البين راق
كيف يخفى حريق وجد فؤاد	ضير الجفن دائم الأغراق
كتمته جوارحي ففشاه	ناطق الدمع صامت الأعماق
يا غزالا عن المحب نفورا	وشهابا في البعد والإحراق
كم أناديك ضرني ما دهاني	كم أناديك شفني ما ألاقي
فاجرني من الجفون فقلبي	مات صبراً من النفوس الرقاق
واغشني من القدود فاني	لست أقوى على الرماح الرشاق
لست أرضى سواك مالك رقي	لا تسمني بذلة الأعتاق
سامح الله حاجبيك وإنما	رشقتني بأسهم الأحداق
وحمى واضح الجبين لحسن	لسناه أمله الآفاق
كم قطعنا به ليالي وصل	في استلام ولذة واغتباق
وشربنا من الوجوه خموراً	في الدياجي شدة الإشراق
ورشفنا من الشغور كؤوسا	راحها فيه راحة العشاق
وهصرنا من القدود غصونا	طارحتها بلابل الأشواق
يا فؤادي عن القطيعة صبراً	قد قضى البين بيننا بفراق
لا تكن عندما تصاب حزينا	ليس بعد الفراق إلا التلاقي

وعادت منذ ذلك اليوم وإن كانت تتذكر الأمير على الدوام إنما علقت الأمل بأن في نفس ذاك الشهر يصل إليها كما أفاد في تحريره لها .

ولما كان غد ذلك اليوم نهض العرب من مراقدهم وتقدم عمر العيار في الأول وصاح بهم أن يتبعوه ليسلمهم القلعة وفي الحال زحفت الأبطال والفرسان وسائر الرجال من كبار وصغار وقد قوموا الألسنة وأطلقوا الأعنة وهجم كندك على الأبواب ففتحها واندفعت العرب إلى الداخل وهي مسرورة بذاك الفتح المبين وعمر العيار كأنه شعلة نار يصيح وهجم من اليسار إلى

اليمين ومن اليمين إلى اليسار حتى دخل على حاكم القلعة وقال له ويلك يا خبيث يا غدار أظننت أن عمر العيار يموت وهو محروس بعناية العزيز الجبار فإذا قتل اليوم عاش في الغد فارتاع الحاكم وأراد أن يدافع عن نفسه فلم يمهله بل ضربه بالخنجر في صدره وأطلعه من ظهره وبمدة ساعة ملك العرب القلعة واعتلوا أسوارها وغنموا كل ما فيها وقتلوا كثيراً من أهلها وبعد ذلك فرقوا بالرجال في كل نواحيها واجتمع الفرسان إلى قصر الحاكم فوجدوا عمرا هناك وقد قتله فجلسوا وشكروا من عمر وكندك المارد وقالوا له لولاك لما سهل علينا فتح هذه القلعة لأنها حصينة جداً لا يمكن الدخول إليها إلا بالتسليم فقال أني ملزم بخيمة سيدي الأمير حمزة وقد أوصاني أن لا أرجع عنكم ما لم تفتحوها وها قد تم الغرض وأريد الذهاب والرجوع إلى جبال قاف في هذه الساعة فكتب كل فارس منهم كتاباً إلى الأمير يخبرونه بما كان من أمرهم ويشكون إليه أشواقهم ويسألونه سرعة العودة إليهم قبل أن تأتيهم رجال كسرى وعساكره لأنه يجمع الفرسان ليسير في أثرهم وكتبت إليه مهردكار كتاباً تشكو من طول بعاده وتثني على اهتمامه بها وهو بعيد عنها فأخذ كندك المكاتيب وعاد إلى جبال قاف ودخل على الأمير حمزة وسلمه إياها فأخذها وقرأها واحد بعد واحد وهو متأثر من بعاده عن قومه وحجزه بالرغم عنه في جبال قاف وصبر على أمل أنه بعد فراغ المدة تصدق اسما بري فترفعه إلى بلاده وقومه في الحال وبعد نهاية المدة طلب إليها أن تأمر كندك المارد أن يوصله إلى قومه فحاولته وقالت له يجب أن تصبر بعد أيام قليلة وأحسب نفسك سائراً في البرية فإنك صرت زوجي ولا بد من طاعتي لكن ليس الآن فاشفق علي وأقم أياما قليلة فتكدر منها إلا أنه صبر حتى مضى شهر تمام وسألها الإنجاز فقالت له لا بد منه فكن مرتاحا ولا بد من إيصالك إلى بلادك ووطنك وتجتمع بقومك لكن ليس في هذه الأيام وعما قليل ترى نفسك بين قومك فصبر ولا زالت تحاوله أسبوعا بعد أسبوع وشهرا بعد شهر ويوما بعد يوم حتى مضى عليه سنة وهو عندها فضاق صدره وعيل صبره ولم يعد يسعه البقاء وتذكر حالة العرب وقال لا بد أنهم يتفرطون ويتفرقون وقد وعدتهم أني أكون عندهم بعد أيام قليلة فطالت المدة ولا بد أن يشغل بالهم من أجلي ولا سيما مهردكار بانها تموت كمدا .

ولما اشتد عليه الحال نهض وأصر على الذهاب وسأل كندك المارد أن يحمله فامتنع وكذلك باقي المردة فاغتاظ منهم وقال لأسما بري قد غششتني وخنت قولك وكذبت به فقالت أني لا أقبل بعد أن تصير زوجي تفارقني وتبعد عني وصار من الواجب أن تبقى عندي وهل التي تحبها هي أحق بك مني فتكدر منها وخرج ماشيا على قدميه وترك القصر واستلم الطريق وهو يلوم نفسه كيف سمع منها وانقاد لها وطاعها في أمر الزواج حتى أبعدته كل هذه المدة عن قومه وأنه لو بقي سائراً لا بد أن يكون قد لقي الفرج ووصل إلى قومه وفي المساء قدم له كندك المارد الطعام فأكل ونام وعند الصباح نهض ومشى وقد خالف الطريق على أمل أن يرى الفرج وبقي عدة أيام حتى مر على صومعة في لحف جبل فانشرح صدره وقال إن هذا المحل لا بد أن يكون به

رجال من الإنس من مستخدمي الجان الذين يقال لهم حكماء وكهان فعرج إلى تلك الصومعة وهو منشرح الصدر يسأل الله أن يكون الفرج هناك ولما وصل إليها طرق بابها فخرج اليه خدمة من الجان فسلم عليهم وقال لمن هذه الصومعة ومن يسكنها فقالوا له هي لأميرنا جوكدان وهو في الداخل فادخل عليه واسأله غرضك فيجيبك إليه في الحال ففرح ودخل على الأمير جوكدن وسلم عليه وقال له إني أتيتك لأجل قضاء مصلحتي فأعني وارحمني فقال له مرحبا بك ثم أمر أن يقدم له الطعام فأكل وهو مسرور لأنه رأى في جوكدان سمة اللطف والكرامة وبعد ذلك استعاد منه حديثه فحكاه له من الأول إلى الآخر وما جرى له مع أسما بري وسأله أن يتسبب بوصوله إلى بلاده فقال له مرحبا بك فلا بد من أن أوصلك إلى بلادك بوقت قريب فإني أعطيك جواداً سريع الجري وهو يوصلك لكن ينبغي أن تحافظ عليه فوعده بذلك وفي الحال أمر أن تدفع إليه لتوصله إلى بلاده فسلمه الخادم الفرس فسر بها وشكره على معروفه وركب الفرس وسار وأطلق لها العنان فطارت به وجه الأرض مسير الريح إلى أن أمسى المساء فنزل إلى الأرض وإذا بكندك المارد قدم له الطعام فأكل ونام مسروراً وفي ظنه أنه يصل إلى بلده قريباً وفيما هو نائم سمع صوت صهيل قوي فنهض مرتاعا وإذا به يرى جواداً بقدر الفيل الكبير لم ير مثله بطول عمره يعلو ظهر الفرس وقد جاءها من البر فاستل سيفه وضربه فقتله وكانت قد علقت منه والأمير لا يعلم بذلك بل بقي تلك الليلة نائماً وفي اليوم الثاني ركب الفرس وسار كالنجم إذا طار حتى كان المساء فنام وهو ميقن أنه ما عاد يحتج إلى أسما بري ولا يفكر فيها فيما بعد كونه رأى منها الغدر والغش والخيانة وفي الصباح نهض وطلب الفرس فلم يجدها فنظر ذات اليمين وذات الشمال فلم ير لها أثراً فاغتاظ وتكدر جداً وإذا بأسما بري تنادي وتقول له لا تفتش على الفرس فهي عندي وقد سرقتها منك في الليل ولا تطمع نفسك بأن أحد يقدر أن يوصلك إلى بلدك وقومك غيري فاسمع مني وارجع إلى قصري سبعة أيام أخرى وبعد ذلك أرسلك إلى المكان الذي تطلبه فقال لها إني ما عدت أصدقك قط لأنك كما كذبت في الأول تكذبين في الأخير وإني سأسير ماش واستل سيفه وهجم على أسما بري فهربت فاحترق فؤاده منها وذهب في طريقه ماشياً مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تقدم منه كندك المارد وقال له اعلم يا سيدي أن أسما بري وضعت بنتاً وقد طلبت إلي أن أخبرك بذلك فهل تريد أن ترجع إليها وتنظرها فتحركت أحشاء الأمير حمزة وكان لم ير الأولاد بعد وحن إلى رؤ ية بنته الجديدة فقال كندك ارجعني لأراها فحمله في الحال وعاد به إلى جبال قاف إلى قصر أسما بري كأنه ما قطع شيئاً من الطريق ولما دخل القصر وجد أنها ولدت بنتا كما أخبره كندك فأخذها على ساعديه وقبلها وهو فرح بها وسماها قريشة ووجد نفسه مضطراً أن يقيم عند زوجته وبنته مدة أيام أخر فسر ذلك أسمابري وبقيت معه بسرور وفرح تكرمه وهي من شدة عشقها به لا تكاد تعرف ما تصنع معه وتتمنى أن يبقى كل عمره عندها وبعد أن صرف مدة طويلة قال لها يكفي هذه المدة فإني

باضطرار إلى الذهاب والوصول إلى قومي فإنهم بحاجة إلي فقالت إن الوقت لم يحن بعد ومن الضرورة أن تبقى عندي وعند بنتك ودع عنك العرب ومن هناك فهذا نصيبك أن تعيش هنا وتموت هنا فتكدر منها وأقسم بالله العظيم أنه ما عاد يرجع إلى جبال قاف وأنه سيسير في طريقه إما أن يموت وإما أن يعيش ويصل إلى رجاله وسار من هناك ومشى أياما عديدة وهو صابر على نفسه يأكل ويشرب من كندك المارد ولا يعرف من أن يصل ولا ماذا يوصله إلى بلاده حتى كان في صباح ذات يوم نهض وإذا بأسمابري واقفةأمامه فقال لها ماذا تريدين مني فارجعي عني واتركيني فكفى ما وصل إلي منك قالت أني أتيت بأمر فيه الخير والنجاح لك وهو أن الفرس التي أخذتها من عند جوكدان ولدت مهراً لا يوجد له نظير لا بين خيول الإنس ولا بين خيول الجان ولا بد إذا رأيته فضلته على كنوز الأرض وهذا هو الجواد الذي يوصلك إلى بلادك فإذا رجعت وأقمت عندي مدة أيام إلا أن يكبر سرت عليه أوصلك أنا .

فطار عقل حمزة عند سماعه هذا الكلام وتعلق قلبه بهذا المهر ومالت نفسه إلى أن يراه لأن قلبه كان معلقاً عند الفرس وهو يحب ويرغب أن تكون معه في بلاده ليحارب عليها لشدة جريها وقوة قوائمها فقال لأسما بري أرجعيني إلى قصرك لأرى هذا المهر وقد نوى أن يحتال ليحصل على الفرس فيركبها ويسير عليها ويأخذها مع ولدها فسرت من كلامه ورجعت به حالاً وهي مسرورة أن يبقى عندها بعض أيام أخر وبعد أن استقر به القيام قال لها أرني المهر فذهبت به إلى الاصطبل وأرته الفرس وفلوها فلما رآهما طار عقله ونظر إلى المهر وهيئته وأمعن في كله فأعجبه جداً ونسي أمه عنده وكان بظهره ريشة إذا قومها تخرق الحديد وفي وجهه وبين عينيه صبحة بيضاء تشير إلى أن راكه مسعود مقلم الأذان واسع الكفل فدعاه غزال الجان . وقال لاسمابري أني أبقى عندك إلى حين أن يكبر هذا الجواد حيث مرادي أن أربيه على يدي وأعتني به بنفسي ففرحت من ذلك وقالت له أفعل ما شئت وعرفته أنه أن لا بد أن يحتاج ذلك إلى عدة شهوراً وبالحري سنة كاملة لبينما يمكنه أن يركبه وأقامت معه على حسب العادة تصرف أكثر وقتها بجانبه وتخدمه وتقدم له احتياجاته وبنته قريشة تكبر وتترعرع وهو منصرف بكل همته إلى الاعتناء بغزال الجان أي جواده الصغير وأمه حتى مضى على ذلك عدة أسابيه وشهور حتى أصبح للأمير من حين خروجه من مكة المطهرة إلى ذاك اليوم مدة سنتين ونصف تماما .

فذات يوم كانت جالسةاسمابري غائبةعن القصر وهو منفرد بنفسه تذكر أهله وقومه ومهردكار فبكى وحزن حزناً عظيماً ولعن تلك الساعة التي جاء بها مع الراعد ونهض إلى القصر فأخذ منه زاد الطريق فوضعه على الفرس وركبها وأطلق لها العنان في مسلكه الأول فجرت به كالبرق الخاطف ومن خلفها ولدها غزال الجان يسبقها بالجري وحمزة فرحان به الفرح الزائد ولا برح يجد السير حتى مضى عليه عشرين يوما وهو مسرور أنه عن قريب يصل إلى بلاده

وقومه وفي اليوم الحادي والعشرين نهض من نومه فوجد الفرس مقتولة ومقسومة إلى قسمين والمهر واقف بجانبها ينظر إليها حزينا فطار صوابه وغاب عقله واستل سيفه وصاح من الذي فعل هذا الفعل لأقطع أياديه واعدمه الحياة . فظهرت اسما بري عن بعد وقالت له أنا التي قتلتها كي لا تصل بك إلى بلادك فقال لها يا بنت الحرام ونسل اللئام إلى متى هذا العذاب لا تأخذيني إلى قومي ولا تدعي أحداً يصل بي اليهم فلعن الله اليوم الذي عرفتك به ورأيت وجهك هذا المنحوس الطالع فلا عدت تطمعين نفسك قط برجوعي بعد أن قطعت هذه المسافة لو كنت أموت وأذوق كأس الفناء والبلاء .

ثم أخذ لجام الفرس وسرجها وأسرج المهر ووضع الجام في فمه وركبه وسار في طريقه متكدراً جدا من عمل أسما بري وحزيناً الفرس فتركته لترى النهاية وأمرت كندك أن يقدم له كل ما يحتاجه من طعام وشراب حتى مضى على ذلك عشرة أيام وفي اليوم الحادي عشر نهض حسب عادته وأراد أن يركب غزال الجان فلم يره فاغتاظ جداً وخاف أن يكون قد أفلت وسار في البر فأراد أن يفتش عليه وإذا بأسما برى ظهرت عن بعد وهي تضحك وقالت له عبثاً ترجو أيها الأمير فانك ما عدت ترى جوادك بعد الآن إلا إذا كنت ترجع معي بلادي فأحضره لك لأني سرقته منك وبعثته إلى كنوز السيد سليمان . فقال لها قبحك الله من خبيثة محتالة قلت لك لا أرجع فلا أرجع ولو هلكت ومت فقد يئست من الحياة وصار شرب كاس الحمام أحب علي جدا من النظر إلى قباحة هيئتك ثم أعرض عنها ومشى في طريقه وهو يكاد لا يرى الطريق لشدة غضبه وكدره وحزنه وكل أمياله وحواسه عند الجواد كيف أن تعب التعب العظيم بتربيته والاعتناء به تأخذه وتبعده عنه وزاد كرهه بها حتى صار إذا فكر بها شعر بأن الدنيا اسودت في وجهه وجعل يمشي وهي تحاوله وتريد أن تقنعه ليرجع عن غيه وهي تأتي له بالجواد إذا أقام بعد عندها سبعة أيام أخر وهو لا يرعي ولا يصغي ولا يسمع بل يسير هائما على وجهه مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال حتى مضى عليه نحو ستة أشهر تقريباً وهي ترجع إلى جبال قاف وتوكل به كندك المارد ثم تعود إلى محاولته ومراوغته فيطردها ويشتمها .

قال وفيها هو سائر إلى تلك الحالة إذ لاحت له عن قلعة مبنية في جانب من الطريق فهلع قلبه وطار فؤ اده وأمل أن يرى هناك من يساعده ويعينه على الوصول إلى معسكر العرب ولا زال سائراً حتى دنا من القلعة فوجدها مقفلة وهي بباب من الحديد فاستل سيفه وضربه به فخرقه ثم أعاد عليه الضرب ثانياً وثالثاً حتى فتح به نافذة فدخل منها وصار في الداخل وجعل يطوف فيها من مكان إلى مكان فوجد مارداً من الجان مقيداً بالسلاسل في إحدى الغرف فترحب به وقال له ادن مني وحل هذه السلاسل فقال له لماذا أنت مقيد هنا وما هو السبب الذي أوجب حبسك في هذا المكان .

قال هو أني كنت أحب اسما بري وعاشق لها وطلبت من أبيها أن أتزوج بها فسألها في ذلك فامتنعت ورفضت طلبي فأردت أن أجبرها عليه لأني أقدر منها فدخلت باب الخداع وأبدت قبولها وجاءت عندي وأسكرتني وبالأخير أمرت قومها بتقييدي بهذه السلاسل وأنا ثامل وقليل القوى وجاءت بي إلى هذا المكان فحبستني به فاذا حللت قيودي كان لك الخير العظيم ومهما طلبته أقدمه لك . قال وإذا أطلقتك ماذا تعمل باسمابري قال إذا كانت لا تزال بكر تزوجت بها ورغمتها أن تقبل بي ، فقال إذا كان هذا ظنك فالأرفق أن تبقى مقيداً ، قال ولماذا ، قال كي لا تقرب اسمابري وقد تطمع نفسك بها حيث صارت لغيرك ، وقال ومن تزوجها . قال تزوجها الأمير حمزة فارس برية الحجاز وقاتل أبيها وأعادعليه القصة من أولها إلى آخرها . فقال له إني قلت لك أنها إن كانت بكراً تزوجت بها وإلا فلا عدت أقربها لأني أحب الله وأرهب جانبه ولا أسلك طريق الحرام والتعدي على الغير فقال إذا وعدتني بذلك أطلقتك تحت شرط أنك توصلني إلى كنوز السيد سليمان بن داود فأقسم له بالله أن يفعل ذلك فتقدم منه وكسر قيوده وأطلق سراحه وقال أوف لي بوعدك فأجابه وحمله في الحال وطار به وبأيام قليلة أوصله إلى كنوز السيد سليمان وتركه هناك وذهب عنه فدخل بين تلك القصور الشاهقة وهو مأخوذ من حسن أبنيتها وارتفاع جدرانها وأكثرها مصفح بالذهب والفضة ومشغل بالأشغال العجيبة ومنقوش النقش البديع بما يأخذ العقول وهو لا يرى أحداً يقرب منه أو ينظر إليه ليسأله عن حاله وعن محل الجواد وجعل يدور من مكان إلى مكان وهو بحيرة عظيمة لا يعرف كيف يفعل ولا في أي جهة يكون الجواد ويتكدر من عمل اسمابري وأخيراً ضاق عليه الحال وعيل صبره وشعر بالجوع والانفراد فصاح من صميم فؤاده والدموع تنسكب من عينيه . آه يا حضرة الأخضر يا أبو العباس اجعل حدا لهذا العذاب وهذه المشاق الذي ألاقيه ألم تنتهي هذه الأيام المقدرة بعد . وفي تلك الساعة ظهر عليه الخضر عليه السلام كالعادة وقال له أبشر يا حمزة فقد قرب زمان رجوعك إلى بلادك وانقضت الأيام وما قدر عليك من لدنه تعالى أن تبقى مشتتاً ثلاث سنوات . فخر حمزة بين يديه فأمره أن يقف وأن لا يسجد لغير الله تعالى وقال له ادخل إلى هذا القصر فتجد باباً مقفلاً فادفعه بيدك فينفتح وترى جوادك هناك وأْت به فإني لك بالانتظار . ففعل ما أمره به وذهب إلى داخل القصر وفتح الباب المقفل وإذا به يرى الجواد فرمى نفسه عليه وهو طائر الفؤاد وجعل يقبله والجواد يمرغ رأسه عليه وبعد ذلك قاده وجاء به أمام الخضر فمد يده ولمس ظهره فذهبت الريشة عنه وكان قد سمن وكبر حتى صار يقدر الرجل أن ينام على ظهره بالعرض ومن ثم قال الخضر عليه السلام ادخل يا حمزة هذا القصر وأشار إلى قصر آخر بالقرب من ذاك فتجد فيه عدة لهذا الجواد كان يركب عليها السيد سليمان ورصعه بالجواهر والألماس لا تثمن بثمن ولا توجد أحد ملوك الأرض فأت بها واسرج الجواد فدخل فرحانا وجاء بما أمره به الخضروسرج المهر ولجمه بلجام سليمان بن داود وكان كلا السرج واللجام مرصعين

بسائر أنواع الحجارة الكريمة مع اختلاف ألوانها حتى يخيل للرائي أنه كالشمس يضيء بأنوار متنوعة . وبعد ذلك التفت الخضر ونادى اسما بري أن تحضر فحضرت بين يديه فقال لها اذهبي وأن زوجك بثوب السيد سليمان الملكي الذي كان يلبسه أثناء المواسم والأعياد وهو الثوب الكنوزي المعد له منذ زمان قديم فغابت نحوا من خمس دقائق ثم عادت والثوب معها وهو يرهج كأنه الشمس في رابعة النهار يأخذ العقول والأبصال فأمر الأمير حمزة أن يلبسه فلبسه وهو مندهش منه وفرحان به وظن بنفسه كأنه ملك أربعة أقطار الدنيا وأخيراً قال الخضر عليه السلام لأسما بري كفاك ما فعلت معه فارفعيه الآن واذهبي به وبالجواد إلى حد جبل السد بالقرب من الإنس وهو يذهب من هناك راكباً جواده فيلتقي بقومه ولا عدت تعارضين أمره وما انتهى الخضر من كلامه حتى اختفى عن العيان وانتشرت رائحة البخور من بعده وفي الحال ندمت اسما بري وقبلت يدي الأمير حمزة وقالت له إني تحت أمرك الآن وفي قبضة يدك وأسألك المعذرة والعفو عما سبق مني فقال إني عفوت عنك ولو لم تأت بالجواب إلى هذه الكنوز لما حصلت على هذه العدة وهذا الثوب . فارفعيني الآن وسيري بي إلى هذا المكان الذي أمرك الخضر عليه السلام فأمرت كندك المارد أن يحمله ويضعه عند جبال السد ففعل ورفعه هو والجواد وسار به إلى ذلك السد الفاصل بين بلاد الإنس والجان فودعته وودعها ودفعت له زادا كافياً لعدة أيام ورجعت إلى بلادها وأقام الأمير أمام السد كل ذاك النهار إلى المساء وفي المساء نام وهو متعجب كيف يقدر أن يخترق ذاك السد ويمر منه وصرف ليله مهموما وفي الصباح نهض فوجد الخضر عليه السلام واقفاً هناك فقال له تقدم يا حمزة وارفع السد بيدك فأعينك لتمر من تحته ولا تخش بأساً فإن الله معك . فتقدم من السد وهو فرحان الفرح العظيم ووضع يده عليه وطلب معونة الله سبحانه وتعالى ونادى الخضر فارتفع السد في الحال إلى فوق رأسه وهو رافعه بيده فمر الجواد من تحته وعليه حمزة حتى صار في الجهة الثانية وتخلص من تحته فترك السد في مكانه فنظر إليه حمزة متعجباً كيف قدر أن يرفع مثل هذا الجبل العظيم وشكر الله الذي ساعده على المرور من تحته وفيما هو كذلك سمع الجواد يشرب من الأرض وهو ظمآنا فنظر فلم ير ماء فتعجب غاية العجب وفيما هو كذلك سمع الوحي يناديه وقائل يقول له إن جوادك يعيش كثيراً يا حمزة حيث شرب من ماء الحياة وأما أنت فلا نصيب لك به فادعه يقظان منذ الآن فسماه يقظان وتكدر كيف أن جواده سبقه إلى شرب ذلك الماء قبل أن هربت ينابيعه ومن ثم سار وخرج من تلك الأرض وبقي سائراً حتى جاء أرضاً مخصبة فنزل عن جواده وأكل وشرب من مائها وكان معه زاداً يكفيه لعدة أيام فركب وسار مدة ثم عاد في المساء فنزل وأكل ونام وبقي على مثل هذه الحالة مدة عشرة أيام وقلبه مملوء بالفرح حيث كان يرى من أبناء جنسه الإنس في طريقه وتأمل قرب الوصول إلى قومه والاجتماع بهم وفي اليوم الحادي عشر أشرف على مدينة كبيرة جداً ذات أسوار وحصون وبساتين فعرج نحوها ليقيم فيها أياما عله يعرف شيئاً عن

العرب وهل هم قريبون من تلك الجهة وعندما وصل إلى المدينة وجد موكباً عظيماً خارجا منها وفي وسطه رجل جليل القدر راكب على جواد مسروج بالسرج الذهبي وحواليه الخدم والعبيد وإلى جانبه غلام وكانت تلك المدينة مدينة الملك النجاشي ملك الحبشة وذاك الرجل هو نفس الملك ومعه ولده إبراهيم ومن عادته أن يخرج في كل صباح إلى التنزه ومن ثم يعود مع ولده إلى المدينة فصادف في ذاك اليوم خروجه عند إتيان الأميرحمزة البهلوان ووصوله إلى قرب الأبواب.

قال ولما رأى النجاشي الأمير وشاهد ما عليه من الألماس والجواهر ونظر إلى ذاك الجواد العجيب ورأى سرجه المرصع باليواقيت والجواهر تعجب وطار عقله وطمع بأخذ هذا الجواد وعشقه تعشقاً عظيماً وعاد لا يقدر أن يرفع نظره منه وأرسل أحد خدمه إليه وقال له اعط مهما شئت بشرط أن يسمح له بالجواد وإذا أصر على الامتناع فتهدده أني آخذه منه جبراً فتقدم الرجل من الأمير وسلم عليه وقال له إن سيدي الملك النجاشي صاحب هذه البلاد وسلطان سلاطين الحبشة واسع البلاد وعزيز الأجناد وقد أرسلني لأعدك أنه يعطيك مائة سيف ومائة ناقة ومائة صيوان وعشرين ألف ذهب إذا قدمت له الجواد ويكرمك الإكرام الزائد وإلا أخذه منك بالرغم عنك . فاغتاظ الأمير حمزة عند سماعه هذا الكلام واحمرت عيناه في أمر رأسه وقال للرجل ارجع إلى مولاك وقل له أن هذا الجواد أخذته بيوم يثير به عثار الخيل إلى السماء ولا أسلمه إلا بيوم تتدفق به الأدمية وتجري بحورها فيسبح بها وغير ذلك لا مطمع لأحد بجوادي فعاد الرجل وأخبر سيده وكان النجاشي فارساً وبطلا جسيماً فقال مرحبا بك وإني سآخذه منه حسب ما يقول . ثم استل سيفه وهجم على حمزة وهو يقول له خل عن هذا الجواد وسلمني إياه فأعفو عنك وأعطيك ما تريد وإلا فتذهب حياتك بسببه . فضحك الأمير عند سماعه هذا الكلام وتعجب منه كل العجب ولم يبد كلمة بل استل من وسطه سيفه المعهود وأخذ الطارقة بيساره وتلقاه وكان والده إبراهيم لما رأى عمل ابنه خاف عليه فهجم هو أيضاً مع سائر الموكب على الأمير ودار بين الفريقين دولاب الحرب والقتال والطعن والضراب وكل واحد يصيح من ناحية ويهجم على فارس العرب وهو يهدر كما تهدر الجمال ويزأر كأسود الدحال ويطعن في الصدور فيمدد الرجال على بساط الرمال وكان قد اشتاق إلى الحرب وملاقاة الأبطال ففعل فعال المردة في ذاك اليوم الكثير الأهوال وهو كلما انقض على واحد قطعه تطعتين وإما قبض عليه وأرماه إلى الأرض فتنكسر أعضاءه ولا يقدر على القيام حتى التقى بابراهيم بن ملك الحبشة فصاح به وخيله ونقل السيف من يده اليمين إلى يده اليسار ومد يده وقبضه من صدره بأسرع من لمح البصر ورفعه عن ظهر الجواد ورماه إلى الأرض وأراد أن يدوسه بجواده وإذا بالملك النجاشي قد صاح الأمان يا حمزة العربان فقد ارتكبنا خطأ وفعلنا غلطا فاترك قتالنا واغفر ذنبنا وأعطنا الزمام فتعجب الأمير عن سماعه هذا الكلام ورجع إلى الوراء وقال للملك النجاشي من أين عرفتني ولم أخبرك عن إسمي ولا قلت لك أني حمزة فقال اعلم يا سيد فرسان هذا

الزمان وفخر ملوكها وساداتها أنه موجود بكتب علمائنا القدماء أن فارس برية الحجاز سيمر من هذه البلاد وهو يكون موفق الأعمال فيذل الفرس ويرفع شأن العرب ومن كان ملكا على أيامه سيسير في ركابه وبخدمه ويقاتل بين يديه إلى مثل ذلك من الشرح الطويل المستوفى فكنت أتمنى أن أكون أنا ذاك الذي أصادفك حتى لاقيت ما تمنيت وإني أعدك أن أكون في خدمتك وبين أياديك أنا وجيوشي الغزيرة فنقاتل كل عدو لك وندفع عنك كل من يقصد ضرك حيث أنه موجود في كتبنا أنك ستهدينا إلى الدين الحقيقي قال الأمير وأي إله تعبدون وعلى أي دين أنتم .
قال عندنا آلهة صنمية نقدم لها الضحايا ونعبدها وهي التي أخذناها من آبائنا وأجدادنا وفوق كل ذلك فاننا نقدم عبادتنا وشجودنا على الدوام إلى زحل الإله الأكبر فقال له إن هذه العبادة فاسدة وأنكم على غير الحق ومن الواجب أن تعبدوا العزيز الجبار خالق الليل والنهار وواجد الوجود فهو الكلمة والحق ونور من ذاته وفي ذاته القدرة واحد يرى ولا يرى وقد تنزه عن كل شبه فهو الذي بكلمة واحدة أوجد زحل وكل ما في السموات والأرض وأخذ حمزة في أن يزيده عن الله سبحانه وتعالى وعن صفاته حتى استنار عقله ورأى الحق وفتح الله له الصواب فقال لحمزة أني أشكرك على مثل هذه العبادة وقد جلى الأمر ووضحت لي الحقيقة وقد آمنت بالله تعالى وصرت منذ الآن وصاعدا على دينه فشرف المدينة لنبطل منها كل عبادة غير عبادة الله وتأكل ضيافتنا وترتاح عندنا مدة أيام .

فأجاب حمزة طلبه وساروا وإياه وقومه إلى المدينة وكلهم فرحون بالأمير حمزة متعجبون من قوة بأسه وشدة بسالته وقد أحبه الجميع وقبلوا دينه وعند دخولهم المدينة جاءوا قصر الملك فأولم الولائم ودعا بجميع كبار بلاده وفهم بالأمير حمزة وأنه هذا هو الرجل المنتظر الذي قيل عنه في كتبنا وقد وجدته قادماً فأردت نزع جواده فلاقيت منه الأهوال فثبت عندي أنه هو وقد علمني العبادة فمن أجاب كان له الخير والصلاح ومن امتنع كان جزاؤه الإعدام فسجد الجميع لله وتعلموا عبادته وكسروا الأصنام وصارت بلاد الحبشة منذ ذلك الوقت تعبد العزيز الجبار وصرف الأمير حمزة مدة ثلاثة أيام عند النجاشي وهو على إكرام واعتبار تذبح له الذبائح وتأتي لزيارته الأمراء وفي اليوم الرابع قال الأمير للنجاشي إني أريد السفر إلى قومي وأحب أن أسألك هل من خبر عندك بأمر العرب والعجم قال أعرف أن كسرى هو قد تأثر العرب بجيوش جرارة كالجراد الزاحف ومنذ مدة قد بعث إلي برسله يطلب ذهابي إليه بجيوشي فمنعت طلبه ورددت رسله بالخيبة قال إذا أسألك أن تجمع بعساكرك وتتبعني إلى طنجة الغرب حيث العرب هناك وأني أرغب الذهاب إليهم حالاً قبل أن يصابوا بمصيبة وعندي أنهم يقدرون على حرب كسرى عدة سنوات ثم أنه ودعه على أمل أن يتبعه بعد مدة قليلة وسار على جواده اليقظان وهو مؤمل بالخير والنجاح ومسرور بمصادقة ملك الحبشة حيث أن جنوده كثيرة ولا زال في مسيره يجد السير عدة أيام حتى وصل إلى برية واسعة ملتفة الأشجار كثيرة الأنهار والعيون كأنها الجنة

في حمائلها فأكل ما أكل منها وفي المساء لجأ إلى مدينة بالقرب من تلك البرية كان قد اكتشفها في النهار وجاء إلى أحد الفنادق فبات وسأل صاحب الفندق لمن تلك المدينة فقال له هي لفارس الفرسان وحامي حومة الميدان من يهتز عند ذكر اسمه طوائف الإنس والجان عمر الأندلسي المشهور بين أهل هذا الزمان فسكت الأمير حمزة عند ذلك ولم يرد أن يظهر نفسه وفي نيته أن يقيم اليوم التالي في المدينة ليتفرج عليها ومن بعده يسافر في طريقه وعند الصباح خرج من الفندق وطاف في الأسواق وهو لا يفارق الجواد خوفاً عليه وجعل يتفرج على الأبنية والعمران وعلى منتزهات تلك المدينة والناس تتعجب منه ومن هيئته وشكله ومن لباسه المرصع باليواقيت وعن سرج جواده المذهب المحجر بالحجارة الكريمة وصرف باقي يومه على مثل ذلك وفي المساء رجع إلى الفندق على نية أن يسافر في الصباح وكان بعض جماعة عمر الأندلسي حاكم المدينة قد رأوا الأمير حمزة ورأوا جواده فوصفوه له فتاقت نفسه إلى الجواد واستخبره عن مكان وجوده فعرف وأرسل في صباح اليوم التالي رسله لتشتريه منه فجاؤ وا الفندق بينما كان الأمير مزمعاً على الركوب والسفر وقالوا له أن سيدنا بعثنا لنشتري له منك هذا الجواد وندفع لك مهما شئت ثمنه فاطلب الذي تريده ونحن نأتيك به حالاً فتسلمنا هذا الجواد فقال لهم أرجعوا الى سيدكم وقولوا له أن صاحب هذا الجواد لا يسلمه إلا بيوم يسود به نور شمسه من غبار الحوافر ويظلم نهاره فليقصر عنه وإلا لاقى شر عمله فعادوا إلى عمر يخبرونه وركب الأمير حمزة وخرج من المدينة وفي كل نيته أن الفرسان ستتبعه بوقت قريب فهيأ نفسه وجعل يمشي الهوينا إلى أن نظر عمر قد خرج من المدينة ومعه نحو أربعين فارساً من فرسان الأندلس العظام لأن رسله كانوا أخبروه بخبر الامير حمزة وجوابه فتكدر وأخذ هؤ لاء الفرسان واستقصى منهم خبر الأمير فوجد أنه قد بارح المدينة فتأثره ليغصب الجواد منه ويذيقه كأس الممات غير أن الأمير حمزة دار بجواده وقوم سنانه وأطلق عنانه عند سماعه صياح الأندلسيين وبأقل من ساعة التقى الإثنان في حومة الميدان ودار بينهما الحرب والطعان وهما كأنهما أسدان أو ذئبان يتناطحان تارة ويفترقان وتارة يلتحمان كأنهما جبلان راسيان وكان عمر الأندلسي من الفرسان المشهورة فأقام حمزة من الديباج إلى قرب العصر فتعجب الأمير من شدة بأسه وسرعة قتاله فثبت عنده أنه فارس شديد فزاد معه بالقتال وأظهر له كل ما تعلمه من فنون الحرب وفي الأخير ضرب عمر الاندلسي حمزة ضربة ظن أنها القاضية فضيعها بمعرفته وخبرته وقد اسودت الدنيا في عينيه وخاف أن يمضي النهار ولا ينال من خصمه مراماً فيلتزم أن يبقى إلى الغد وهو يرغب في السرعة والانجاز ولذلك صاح بصوت ارتجت منه السهول والوديان وهجم على عمر الاندلسي وقد أرعبه وضيع عقله ومد يده إلى جلباب درعه واقتلعه من بحر سرجه وأراد أن يضرب به الأرض فصاح الزمام الزمام يا حمزة الكرام فإني دخيل عليك ووقيع أمامك ولو عرفتك منذ الأول لما أشهرت في وجهك الحسام فتعجب الأمير حمزة كيف أن الجميع يعرفونه وهو لم يظهر نفسه فأنزل عمر

وأعاده إلى جواده وقال له من أين عرفتني وأنا لم أظهر نفسي .

قال إن جماعة المغاربة قد أخبروني أن في هذا الأيام يمر على مدينتنا الرجل المسعود فارس فرسان هذا الزمان وهو الأمير حمزة الذي سيذل العجم ويرفع مقام العرب وسألوني أن ارتقبه لأخدمه وأكون في ركابه حيث ان الملك كسرى أنوشروان منذ مدة بعث برسلة إلي وطلب مني ان أجمع العساكر وأوافيه إلى طنجة فسألت حكماء بلادي المغاربة فمنعوني وقالوا لي إن كنت مع كسرى تفرقت عساكرك ولاقيت الأهوال فاصبر الى حين مرور الأمير حمزة وقاتل مع العرب فتنال خيراً وتكون على الدوام منصوراً وحيث وجدت من قتالك مالم أجده من غيرك من فرسان العالم قط علمت يقيناً أنك الرجل الذي أخبرت عنه وها أنا الآن عتيق سيفك وتحت امرك ثم إنه نادى فرسانه أن تتقدم من الأمير وتطلب إليه المسامحة والغفران ففعلوا فاصطلح معهم الأمير وشكرهم وقال لعمر إذا أجمع رجالك لحرب العجم قال أريد منك ان تصبر علي عدة أيام لبينما أكاتب جماعتي وانظر جيشي وأحضر له المؤ ن والذخائر فابق عندنا إلى حين انتهي من ذلك ، قال لا يمكن أصبر دقيقة واحدة فافعل ما أنت فاعل واتبعني ولابد للملك النجاشي ان يمر من هنا فتسيران معاً وقد وقع لي معه ما وقع لي معك .

ثم إن الأمير حمزة ودع عمر الأندلسي وقدمه بعد أن اوصاهم ان يخلصوا ضمائرهم لجهة العرب ويذلوا كسرى إلى آخر الأيام وسار من هناك في طريق طنجة وهو يتفرج على بلاد الغرب ومدنها وبلادها ويسأل اين صار كسرى وفي أي جهة هو فبعض الناس كان يخبره انه آت على الطريق ولم يصل بعد إلى العرب وبعضهم كان يخبره بأنه لا يزال يجمع الجيوش لأن مراده أن يزحف على العرب مرة واحدة فيبيدهم ويبددهم فتأكد ان عدوه لا يزال بعيداً عن قومه ولذلك اطمأن باله وارتاح ضميره وصار يؤمل ان يصل إلى قومه عن قريب وبقي يتقدم إلى ناحية العرب حتى كاد يقرب منهم .

قال وكانت جماعة العرب بعد أن فارقوا قلعة قطمين ساروا من هنا يقصدون البلاد التي قيل لهم ان الأمير حمزة يأتي منها ولم يصادفوا قط مانعاً في طريقهم وهم يظنون ان حمزة سيكون بعد أيام قليلة عندهم وداموا في مسيرهم نحو ثلاثة اشهر ينزلون في المدن والبلدان فيقيمون بها عدة ايام ثم يعودون إلى المسير وقد ملأت أخبارهم تلك الأرض وطاعهم الكبير والصغير وفي الأخير وصلوا الى طنجة وكشفوا البحر المالح فضربوا خيامهم في تلك الجهات وخرج حاكم المدينة وسلم عليهم وعرض عليهم طاعته وبلاده لتكون تحت امرهم وقال إن كسرى مكروه منا ولذلك نريد ان تكون مع العرب حيث من المنتظر انهم هم الذين يخلصون من ذل الأعجام كل مظلوم فشكره على عمله ومدحوه وأثنوا عليه ولا زالوا بانتظار الأمير وهم لا يعلمون لماذا تأخر عنهم بعد ان كان وعدهم أنه بعد خمسة عشر يوماً يكون عندهم وعد عن ذلك فانهم كانوا

ينتظرون وصول أخبار كسرى اليهم فكانوا يسمعون عنه اخباراً مختلفة إلا أنه كان مؤكداً لديهم أنه لابد أن يتأثرهم ويصل إليهم عاجلاً أو آجلاً وصرفوا الأوقات والشهور على مثل هذا الأمر وهم غير الإستواء مشغلون الفكر والضمير ومرتابون في وصول الأمير حتى مضت مدة طويلة فاجتمعوا إلى بعضهم ودعوا عمراً قالوا له لقد مضى اكثر من سنة ونصف على يوم مفارقتك أميرنا ولم تسمع عنه خبراً ولا وصل إلينا ولابد أن يكون قد اصيب بمصيبة وإلا ما كان يتقاعد ويصير الى هذه الأيام ويترك مساعدتنا قال إني اعرف انه لابد أن يصل الينا على ما أخبرنا الوزير بزرجمهر إلا أني أظن انه بعذاب مع اسمابري لأنها تريد بقاؤه عندها ومراوغته وإذا أراد المجيء تتخلى عنه كما فعل في الأول فانها عذبته عذاب الهون في طريقه لا تحمله الينا ولا تدع احداً يحمله وهذا الأمر هو الذي يعيقه ومع كل ذلك فان ضميري يخبرني انه في هذا اليوم يكون عندنا وأني سأذهب في كل صباح إلى الفلاة وانظر في المرآة التي أخذتها من رجال الصومعة فان كان في الطريق على وجه الأرض او تحت الأرض كشفته . فقالوا له إننا متكلون عليك نطلب منك النظر في أمره لتعرف خبراً عنه فتركهم وسار إلى الخارج وصعد على أكمة ودار وجه المرأة إلى وجه الأرض ونظر فيها فتبين له كل ما على وجه الأرض وما تحتها فجعل ينظر في طرقات الغرب ومعابرها فرأى حمزة راكباً على جواده الجديد وهو بذلك السرج والثوب المزركشين بالذهب وقد أسمر وجهه من حرارة الشمس وطال شعره في السفر فخفى عليه حاله ولم يعرفه ولما لم ير أحداً تعجب ورجع مأيوساً وقال في نفسه لابد أن يكون باق في جبال قاف أو هو طائر على أكتاف الجان في السماء وبقي على حراسة مهردكار والقبيلة تلك الليلة . وفي اليوم الثاني خرج على حسب العادة فرأى الرجل اللابس الملابس الذهبية ينهب الأرض ركضاً على ذاك الجواد فكان ينظر إليه بتعجب وهو لا يعرفه ويتعجب من أمره ورجع أخيراً كاليوم الأول وفي اليوم الثالث عاد إلى مكانه فنظر فرأى حمزة على حاله يتقدم في ذاك الطريق وهو يقرب منهم فتكدر وقال لا أرى إلا هذا الرجل على حالة السفر وهو يتقدم الى جهة البلد الذي نحن فيه فماذا كان يضر لو كان هو أخي الأمير حمزة وتمنى ان يكون واصلاً إليه ليرشقه بنبلة في صدره وينزع عنه ذاك الثوب ويسلب منه الجواد وعاد ذاك اليوم مكدراً أكثر من الأول فسأله الفرسان ماذا رأيت يا أمير عمر فقال لهم ما رأيت الأمير قط ولا شاهدته على وجه الأرض وإني متعجب من ذلك ومع كل هذا فلابد من وصوله بعد أيام لأني أظنه في الجواد على أكتاف الجان يحملونه ليوصلوه إلينا وأما مهردكار فإنها كانت في كل هذه المدة تحت الأمل والريب تعد نفسها في الاول بأن ترى حبيبها ويراها وتمحي سواد تلك الايام الماضية وتغسل أقذار الغربة بمشاهدته وقيامه بالقرب منها وعند أعينها غير أن هذا الأمل انقضى وذهب بعد مضي سنة وقطعت الرجاء وجعلت أيامها أيام يأس وكدر فلم تعد تقبل أن تقابل احداً أو تجتمع بأحد وزاد عليها الغيظ والغضب من أسمابري وخافت ان يكون قضى عليه عندها أو أنها ارغمته الى البقاء في جبال

قاف فنسى قومه ونسيها وترك بالرغم عنه ذاك الحب الذي كان مؤسساً على الصفاء والطهارة والراحة وهي في كل يوم تدعو بعمر إليها وتسأله عن أخباره فيعدها المواعيد الفارغة من أنه لابد أن يجيء ولو طال المطال وهي لا تقنع بتلك المواعيد حتى اصبح نهارها ليلاً وشمسها ظلاماً وضعفت وانتحل جسمها ورق جداً . أخذت وردة جمالها تذبل شيئاً فشيئاً وصارت تشعر من نفسها بالضعف وأيقنت انها في النهاية ستموت إذا كان يطول غياب حبيبها وبقيت إلى أن كان اليوم الأخير الذي ذهب به عمر إلى البرية ورجع متكدراً فدعته إليها وسألته فقال لها ما رأيته ولا سمعت عنه خبراً وليس هو كل وجه الأرض مطلقاً فشعرت كأن خنجراً وقع بأحشائها يمزقها وكدرتها جداً الحالة التي رأت عمر بها وحسبت أنه ما كان مأيوساً إلا وفي سره خبر مكدر وإلا ما كان على هذه الحالة مع أنه بطول زمانه ما كان يتكدر ولا قطع رجاءه من إتيان أخيه وبعد أن اعرض عنها وسار إلى الخارج جاءت سريرها ورمت بنفسها عليه خائرة القوى ضعيفة الحيل فاقدة الحواس وتيقنت ان أوآخر حياتها سيكون مكدراً مؤلماً وأنه إذا ما جاء الأمير بعد أيام قليلة ستكون عرضة للفناء فتموت ويدفنها العرب في تلك الأرض وتكون قد وفت حق حبها وما قبلت أن تكون لغيره ولا نسيت دقيقة واحدة ما عليها من فروض الوفاء لما اعطته قلبها ولا تنسب قط غيابه إلى فتور في حبه او برود في صفاته أو نسيان في مودته بل كان كل ظنها ان اسمابري التي أحبته وزاحمتها فيه هي من الجان وهي قادرة على حجز الأمير عندها طول عمره وبدونها لا يقدر أن يقطع بلاد الجان ويأتي من تلك النواحي اليها وهذا الذي كاد يزيد أشواقها ويمزج آلامها بأكدارها ويجعلها مقطوعة الأمر وكانت على سريرها إلى آخر الليل وكان كلما أسود الليل زاد عليها الأمر واشتدت الحال وفي الأخير جعلت تندب حظها وتبكي نصيبها وتردد ذكرى مصائبها وهي كمودعة لهذه الدنيا إلى كل ما حولها نظر المفارق والحزن المأيوس وقد أنشدت بغزارة دمعها :

فوالله لا يشفي نزيف هواكم ... سوى خمر أنس كان منكم بها سكري
وان يخل من تكرار ذكر حديثكم ... فلم يخل يوماً من مديحكم شعري
أطالب نفسي بالتصبر عنكم ... وأول ما أفقدت بعدكم صبري
فإن كان عصر الإنس منكم قد انقضى ... فو العصر إني بعد ذلك في خسر
فكيف بقي إنسان عيني وقد انقضى ... على ذلك الإنسان حين من الدهر
سقى الروضة السعد من أرض بابل ... سحاب ضحوك البرق منتخب القطر
ورب نسيم مر بي من دياركم ... ففاح لنا من طيه طيب النشر
واذكرني عهداً وما كنت ناسياً ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر
تجاذبني الأشواق نحو دياركم ... وأحذر من كيد العدو الذي يدري
مخافة مذاق اللسان يسر لي ... ضروب الردي بين البشاشة والبشر

وينـثر لي حـب الـوفـاء تملقـاً ... وينصب لي من تحتـه شـرك الـغـدر
منـازل مـا لـقيت فـيهـا نـدامـة ... سـوى أنني قضيت في غيرهـا عمـري
فـيـا أيهـا المـولى الـذي وصف فضله ... يجـل عـن الـتـعـداد والحـد والحصـر
أبـثـك بـالأشـعـار فـرط تـشـوقي ... ولا أتعـاطى حصر وصفـك بـالشعـر

وما وصلت مهردكار إلى آخر هذا البيت حتى نهضت واقفة كأن قرة طبيعية حركتها ودفعتها إلى الاطمئنان فوقفت مبهوته تنظر في نفسها وقد وجدت راحة في داخلها على غير قصد منها فتكدرت من نفسها كيف ان ضميرها خالفها وعاندها فطلبت ان تعود إلى حالها الأولى فتبكي وتندب فلم تطاوعها عيونها ولا عادت نزلت دموعها فارتاعت من ذلك وجعلت تمشي في صيوانها والفجر قد بعث طلائع جيوشه إلى مفاجأة الأرض دفعة واحدة . فقالت متعجبة مالي غير الواجب في هذا الليل كأن سلطان الهم والغم يقترب مني ويدنو إلي ويحاربني أو يبعد عني كل راحة وأمل والآن أرى ذاك السلطان يحب أن يبعد عني خوفاً من أن انتقم منه لماذا تبارحني للأكدار والويلات وانا أطلبها ولا اريد ان أكون بعد أن من أحبه قلبي في طريق اليأس والحزن صرفت ليلي وحالي أسود من سواده وراحتي مغطاة بكثافة النوح وامتداده وعند إتيان الصباح أشرق بدر الأمل ولاحت شمس الارتياح وانعكست كل تلك الأحوال نعم إني كنت في هذه الليلة خائرة القوى ضعيفة الحيل اندب حظي وأطلب المعونة للتحرك وأنا فاقدتها وقد شعرت بأن هذه الحياة عدوة لي وأيقنت ان الموت سيكون قريباً مني والآن أرى تلك الغيوم الكثيفة قد انشقت وانجلت أنوار بدورها من خلفها رويداً رويداً وقوتي قد عادت بالرغم من أحزاني وعن طلبي مفارقة هذه الدنيا لابد أن الله سبحانه وتعالى قد أراد إظهار أمر جديد ما هو يا ترى هي يريد تقويتي وتسليتي من حبيبي فيساعدني ويريد أن أطرد أحزاني كلا ثم كلا لا تدعني يا إلهي اعيش بعده دقيقة لا أطيق المعيشة ستكون حياتي معذبة مهما أردت أن أتسلى وتسليني فالانسانية بالاتباع به والراحة بالقيام عنده اين كان وفي أية حالة وجد مائتا أو غريبا أو معذباً . وصرفت مهردكار نحو ثلاث ساعات من اليوم المذكور وفيماهي على ذلك طرق ذهنها اصوات التهليل من قومها فأصغت لتسمع وإذا بها سمعت العبيد يصفقون ويقولون جاء الأمير جاء الأمير فوقعت إلى الأرض من الفرح وأسندت برأسها إلى السرير وغابت عن هداها .

وقال وكان في صباح ذلك اليوم نهض عمر العيار وأخذ مرآته وخرج من المعسكر ونظر فيها بعد أن وجهها إلى جهة القبلة فرأى حمزة يدنو منه هو آت على ظهر ذاك الجواد وقد أصبح بعيداً عنه نحو ساعة فطمأن باله وقال لابد لي من ملاقاته ونزع ما عليه فإن لي اربعة ايام أره يدنو إلينا وقصده المرور من ناحيتنا فأغلق المرآة ووضعها في جيبه وأخذ قوسه وسهمه وأطلق ساقيه إلى جهة الأمير حمزة وهو كالبرق الخاطف وقد حدثته نفسه بالانتقام منه ولا يعلم أنه أخوه وكان الأمير يتقدم بسرعة البرق على ذاك الجواد وهو ينخطف مسرعاً في جريه حتى كاد يصلان

بعضهما وإذ ذاك أراد عمر أن يضع سهمه بقوسه ويوثره وإذا بحمزة قد ناداه وكان أدرك غايته وقال له لا تفعل يا وجه القرد فإذا كانت خلصت من الجان فكيف اقتل منك فلما سمع صوته عرفه فقفز في الهواء وصفق من الفرح وانطلق حتى قرب من أخيه فرمى بنفسه عليه وهو يقبله والأمير يفعل كذلك وكل منهما يبكي ثم أن عمراً تركه وكر راجعاً حتى دخل المعسكر وجاء الصيوان والملك النعمان والفرسان مجتمعون في ذاك المكان فلما رأوه قالوا ما وراءك من الأخبار قال لهم إني مؤكد أن أخي حمزة مات وشرب كأس الآفات فقال له اندهوق بن سعدون أن حالتك حالة مسرة وفرح فبشرنا بالخبر اليقين ولك مني خمسمائة دينار قال اجمع المال من الجميع فأخبركم أن أخي حمزة قد جاء فقالوا وأين هو الآن قال متى قبضت المال أخبرتكم عنه فدفعوا له كل واحد خمسمائة دينار فقال لهم اتبعوني لتروه وهو على ذلك الجواد بهيئة الملك سليمان بن داود وكر أمامهم وكرت العرب من خلفه وقد عم الخبر الكبير والصغير والسيد والحقير فتحرك الجميع لملاقاته وهم لا يصدقون ان يروه بعد ذلك الغياب الطويل فمنهم من كان يركض ماشياً ومنهم من كان يركب برذونا بسرج ومنهم بلا سرج ولا لجام وأكثرهم كان يركض بلا حذاء حافي الأقدام مكشوف الرأس ليسبق غيره إلى تقبيل اياديه والسلام عليه وكان صياح العرب أشبه بغوغاء الحرب عند اشتدادها حتى كان لا يعي الأخ على أخيه ولا والوالد على ولده ولا الرفيق على رفيقه وبمدة قليلة التفوا بالأمير حمزةوهو كالكوكب الوضاح يضيء بالأنوار مما عليه من الألماس والجواهروالحجارة الكريمة وحال وصولهم اليه جعلوا يقبلون يديه وهو يسلم عليهم ولما رأى الملك النعمان وأندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وأسطون الحكيم وباقي الأعيان تقدم منهم وسلم عليهم وسلموا عليه وفرحوا به وشكروا الله على رجوعه سالماً ووصوله إليهم قبل وصول الأعجام .

وبعد ذلك عادوا جميعاً إلى الخيام وهم من الفرح في ما لا يزيد عليه وشعروا براحة البال واطمئنان الخاطر وحسن المستقبل ولما وصلوا إلى صيوان الملك النعمان دخلوا إليه وجلس كل واحد في مكانه وجعل الأمير يسأل عن عموم الفرسان والرجال وهو يشكر الله الذي ما فقد أحد منهم ولا تبدد شملهم ولا تفرقوا قبل مجيئه حتى أنه رآهم مثل ما فارقهم وأخيراً سألهم عن العجم وعن كسرى فقال له أندهوق بن سعدون أننا كل هذه المدة بانتظاره ولم يصل إلينا ولا قدم علينا بل أننا على الدوام نسمع الاخبار من السياح والتجار ان العساكر ترد إليه وتتجمع عنده وهو يتعدد ويتهيأ مراده أن يأتي إلينا بجيش عظيم جداً لا يعرف أوله من آخره وفي نيته أن يبيدنا دفعة واحدة والحمد لله الذي جئت قبل مجيئه لأننا وإن كنا نعرف أن بنا الكفاءة لحرب كسرى ورجاله مهما كان عددهم وكانت قوتهم غير أننا نتعب ويطول علينا المطال لأن العرب إذا ما سمعوا صوتك ورأوا قتالك اشتدت اعصابهم

وقاتلوا قتال الأبطال وبالعكس الفرس إذا سمعوا صوتك في وسط المعمعة تضعف عزائمهم ولا يعود لهم رجاء وما ذلك إلا من الله سبحانه وتعالى وفضلاً عن ذلك رجال العرب وأنت بينهم يقاتلون كالأسود وإذا بعدت عنهم يقاتلون قتال اليأس فقال لهم إني أثق بالله تعالى وأتأمل ان لاعدت من الآن وصاعداً أفارق جيشي ولابد من قضاء الأمر بيننا وبين العجم في هذه المرة وقتل بختك اللعين الذي يحرك النار ويضرمها في كل آن وزمان .

وما صدق الأمير حمزة أن أنتهى من السلام على العرب حتى نهض وسار إلى صيوان مهردكار ولا يمكننا أن نأتي على تفصيل ما وقع بينهما عند الملاقاة فإن كلا منهما كان لا يقدر ان يضبط نفسه ولا يمسك قلبه ولا يحبس دمعة ولا يعقل عقله بل عند ملاقاتهما ارتميا على بعضهما يقبل الواحد الآخر بدون وعي وبدون فكر وقد دعتهما دواعي الحب والتلاقي إلى وجوب شفاء الغليل وقتل النفس والبعاد والنوى بالحب منهما وهما في لذيذ عيش ساعة لم يمر عليهما بعد ألذ منها وهما تارة ينهضان ويتعانقان وتارة يجلسان وينظران إلى بعضهما ولا يصدقان بهذا التلاقي وأدمعهما ترسل من الأماقي على الخدود استبشاراً وفرحاً وألسنتهما منعقدة عن الكلام حتى أن مهردكار كانت قد نسيت كل ما مضى ولم تعد تفكر بعذاب البعاد ولا فكرت بان تعاتبه على طول غيابه بل كان جل فرحها أن لا تضيع مقدار ذرة من لذة التلاقي وواجباته وبالأخير تكلم الأمير وقال لها اشكر الله الذي عدت ورأيتك بخير وان كنت ارى بجسمك نحولاً وبوجهك بعض تغيير فإني اعرف ان ذلك ما كان جراء حزنك على بعادي وشوقك إلي غير اني كنت مجبوراً إليه ولابد ان يعود رونقك إذا علمت وتأكدت انني منذ الآن باق في الجيش ولا عدت أفارقك إلى غير مكان ولاقيت في هذه المرة عذاباً وأشواقاً ما كنت أحسبها قبل مبارحتك قالت كل ما لاقيته انقضى وزال وما عدت أشعرإلا بلذةقربي منك الآن ووجودك عندي وكفاني أن أبدي لك واشرح عن كل ما لاقيت بكلمة واحدة وهي اني كنت مائتة فعشت وضالة فوجدت وما عدت اعرف حالة أيامي الماضية الطويلة عند ثانية من أوقات هذا الاجتماع فلا تذكر لي شيئاً مما مضى بل اذكر لي حال صحتك فيه وراحتك في هذا الوقت فمدح الأمير منها وأخبرها بمختصر حاله وأقام عندها كل تلك السهرة وقد تناول الطعام معها وشرب الخمر وصرف وقتاً عجيباً من أوقات السرور والانشراح وفي آخر وفي آخرالليل صيوانه ونام مطمئناً مرتاحاً كأنه ما ذهب إلى جبال قاف ولا جاء وقد نزع عنه ذاك الثوب ونسى كل ما لاقي .

وفي الصباح خرج إلى الصيوان المجتمع به الفرسان وجلس بينهم وقال اريد منكم ايها السادات ان لا أحد منكم يظهره امري ويخبر بمجيىء فاني اريد أن اخفي ذلك على كسرى وقومه ولابد أنهم يصلوا إلى هذه الديار ولي بذلك قصد وغاية فليخبر كل واحد منكم رجاله ومعسكره ان لا أحد يفوه بكلمة وان يبقوا كما كانوا قبلا كأني ما كنت حاضراً بينهم فأجابوه إلى ذلك وأمروا سائر المعسكر ان يخفي خبره ويكتمه ولا يظهر امام احد وبقي على تلك الحالة

عدة ايام يأتي في الصباح الى الصيوان ويقيم بين فرسانه ينظر في أحوال العرب في مصالحهم وفي المساء يرجع الى صيوان مهردكار فيأكل الطعام ويشرب الشراب الى آخر السهرة فيدخل صيوانه وينام وما من أحد من العرب يذكر في فمه اسم الأمير حمزة او يذكر أنه جاء بل كان حاضراً ويعلمون به وهو كأنه غائب عنهم .

وفي كل يوم يذهب الأمير عمر العيار الى البر فيسأل ممن رآه عن كسرى وعن أخباره ويستعلم من كل راح وآت حتى أخبر أخيراً ان بعض المسافرين رأى جيوش كسرى تتقدم إلى تلك الجهات وهي بعدد رمل البحار وقد غطت السهول والوعور والجبال والأحراش فبلغ حمزة فأخذ في تدبير أمر الجيوش وتهيئتها وتقسيمها وهو يعرف ان تلك الحرب ستكون شديدة وقوية ويكون له فيها ذكر ومضي على ذلك سبعة ايام وفي اليوم الثامن ذهب عمر لاكتشاف الاخبار وبعد عن معسكر العرب مقدار ست ساعات وفيما هو على ظهر أكمة من الاكام نظر إلى البر فرأى عن بعد الاعلام الكسروية تخفق بينهم العلم الاكبر المخصوص بكسرى المعروف ببيكار الاشتهار وهو يلوح بالهواء والغبار يثير الى الجو ثم يتبدد باندفاع الأهوية فيمتد تارة فوق الجيوش فيغطيها فلا تعود ترى ثم ينجلي وتظهر من تحته تلك العساكر الفارسية وهي تتقدم شيئاً فشيئاً .

فوقف عمر نحو ساعة وهو ينظر إلى تلك العساكر ليرى آخرها وجناحيها فلم يقدر لانها كانت منتشرة في كل ناح ولكثرة عددها لا يقدر يرى أشد الناس نظراً إلى آخرها لو كان واقفاً في وسطها فعرف ان العرب ستلاقي شدائد وأهوال من هذه الحرب لأن الكثرة ان لم تغلب الشجاعة لابد أن تضعفها وتتعبها .

وبعد ذلك كر راجعاً الى العرب ودخل على الأمير حمزة وهو في الصيوان فأخبره بكل ما نظر ورأى .

فقال لا يهمني كثرة العساكر او قلتها ، ولابد من تبديد شملهم وتفريقهم لكني اريد منكم كتم امري إلى حين أظهر فإن مرادي أن أفاجيء كسرى في موكبه وأنزع بيكار الاشتهار من حامله والقي في رجال العجم ومن معهم الرعب والخوف بغتة وهم يظنون اني غائب ولا يظهر امري لأحد منهم إلا في وسط المعمعة ثم أمر أن تنفض الفرسان كل واحد إلى رجاله في ذاك اليوم وان تجتمع في اليوم الثاني وهو يكون مختف ففعلوا وسار كل واحد إلى ناحية يفرق المؤن والذخائر ويتفقد اسلحة رجاله وخيولهم ومن كان منهم يحتاج إلى شيء دفع اليه .

وما جاء مساء ذلك اليوم حتى كان كسرى قد وصل الى مقابل العرب ورآهم وهم بذلك الجيش القليل ففرح واطمأن وكان في كل ذهنه ان حمزة غائب عن العرب ولذلك كان يرجح

الفوز والانتصار واسترجاع بنته مهردكار وأمواله التي أخذتها العرب ونهب كل ما معهم ولذلك ضرب الخيام في تلك الناحية ومدها من الشرق الى الغرب وسرحت الخيول ونصب صيوان كسرى في الوسط وهو مرتفع على كل المعسكر وعليه الجواهر والألماس يضيء بلمعان وكان يساوي مدينة المدائن بحسن اتقانه وزخرفته وما تزين به من الأطالس والحرائر وعواميد الذهب ونقشها وترصيعها بكل حجر كريم وضرب امام الصيوان المذكور بيكار اشتهار وعليه العلم الكبير وهو أيضاً عجيبة من عجائب الزمان تضرب به الأمثال في حسن صنعته وما حواه من الذهب الخالص والنقش البديع وكان ألوف الحرس تحيط بالصيوان وبالعلم المذكور كلهم من أبطال الفرس يحملون على الدوام السلاح مشهوراً بأيديهم فلا يقدر الطير أن يتعدى على أحدهم إلا ان يكون بإذن كسرى سيدهم ولا سيما في وقت الحرب خوفاً من أن يحتال عليه العدو أو يصاب بما لم يكن في الحساب .

وقال وفي الصباح نهضت العرب ونظرت الى البر فارتاعت من كثرة العساكر ومن انتشارها ورأت صيوان كسرى يضيء كأنه شمساً بيوم واحد لا يقدر الرائي أن يخرق به أو ينظر فيه دون أن يبهر نظره وكذلك بيكار الاشتهار واجتمع العرب في صيوان الملك النعمان وأخذوا يتحدثون في أمر كسرى فقال حمزة قلت ولابد من إتمام قولي فاني سأحرم كسرى من بيكار الإشتهاروأقيمه بين العرب لأنه يساوي خزائن العالم مع هذا الصيوان الذي يحق لكسرى ان يفتخر به على ملوك هذا العلم . فقال اندهوق إني سأسير خلفك يا سيدي على فيلي وأضمن لك إنك ستأخذ هذا العلم ولو كان دونه ألوف وكرات من حجاب كسرى أنوشروان وعندي أنه أيضاً بعد تفريق جيوش كسرى سنجتهد الى أخذ الصيوان لنجعله لك قال لو كان لي مثل هذا الصيوان اكون اعظم من كسرى شأناً وفيما هو على مثل ذلك وإذا به سمع صوت فرقعة في الخارج فنظروا إذا بكندك المارد قد سقط من الجو ووقف عند باب الصيوان وسلم على الأمير حمزة وباقي الفرسان الذين حواليه وقال له اعلم يا سيدي أن سيدتي أسمابري حيث عرفت انك ستقاتل أكبر ملوك الإنس وهو كسرى أنوشروان وأنك بعد ان حصلت على ثياب السيد سليمان التي لا نظير لها في عالمي الإنس والجان وكذلك اليقظان وعدته بعثني إليك بصيوان أبيها إليون شاه الذي إذا رأيته انبهرت واندهشت منه أعظم من صيوان كسرى بألوف مرات وعليه في كل عامود من عواميده الذهبية جوهرة بقدر البطيخة لا بل أكبر كان يجلس فيه في أيام المواسم والأعياد فتأتي ملوك الجان لتهنئته وكان يفتخر به على ملوك الجان وله سبعة أبواب من الحرير الأحمر المقصب بالزخارف الذهبية وفيه تسعون كرسي من الكراسي الذهبية التي لا يوجد عند بني الإنس مثلها ففرح حمزة بذلك الصيوان وخرج في الحال من صيوان الملك النعمان وأمر بنصب صيوان اليون شاه في وسط المعسكر فنصب في الحال وهو كأنه يتلألأ بلمعان جواهره كتلألأ الكواكب فيه وقد اشرقت منه تلك النواحي وزاد بهاء وإشراقاً على

إشراق الشمس ودخل اليه الأمير حمزة وهو مسرور منه وجلس على كرسي اليـون شاه أبي أسمابري ومن حوله الفرسان والابطال وإذ ذاك مدح من أسمابري وشكرها على عملها هذا وقال لكندك أهدها مني السلام وأخبرها أن عملها هذا سرني جداً ولا أنساه لها وقد عرفت صدق محبتها ومودتها وحسن اهتمامها بي .

قال وأما كسرى فإنه في صباح ذاك اليوم نهض إلى صيوانه واجتمع اليه وزراؤه وأعيانه وفي اولهم بختك الوزير الفارسي وحينئذ قال إنه معروف وثابت عندنا ان حمزة غـائب عن العرب وإنهم الآن كالغنم دون راع ولا قائد ولذلك لابد أن يكونوا باضطراب وقلق يرغبون في التسليم والطاعة ولا سيما بعد ان لحقناهم إلى هذه البلاد لانهم هربوا من بلادهم ولم يخطر لهم قط أننا نتأثرهم ويعلمون أنهم إذا انكسروا لا يقدرون بعد أن يهربوا إلى مكان آخر او بلد تقيهم منا وأريد منك يا بختك ان تكتب كتاباً إلى ملك العرب تدعوه إلى الطاعة وتهدده بكثرة العساكر والموت والصلب إذا امتنع عن التسليم فأخذ بختك وكتب إلى الملك النعمان :

من كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان والعـظمة والسلطان وسيـد ملوك هذا الزمان إلى خادمه وأقل عماله النعمان حاكم العربان .

أنت تعلم أيها العاصي الخائن اني ملكت الأرض من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها وحكمي نافذ في كل جهة فمن لا يدخل في خدمتي يخشى بأسى ويدفع لي الهدايا في كل مدة حاملاً الجزية فضلاً عن الهدايا حتى ظهر حمزة العربان فأكرمته وقدمته مني وأنا اظن ان إكرامي هذا يحل محله وبسببه رفعت مقامك في ديواني بعد ان كنت تجلس بين الخدم والحجاب وقد نهاني وزيري الأمين بختك بن قرقيش وبين لي إكرام العرب ينتهي بخلعهم طاعتي وجحدهم للجميل فلم اصغ اليه حتى تثبت عندي ذلك عصيانكم ونكرانكم المعروف وطمعكم بمالي وعرضي فأخذتم بنتي كسبية وجعلتم تفرون بها من مكان إلى مكان تقاسي عذاب السفر ومشاق الطرقات وأهوال الغربة والانتقال بعد أن كانت قد تربت على الدلال والترفه وسعة المعيشة وكان يخدمتها كثير من مثل ملوك العرب وقد وقع بيني وبينكم الحرب لما كان حمزة بينكم وبسببه انكسرت عساكري ورجعت إلى المدائن فجمعت في مدة أكثر من سنتين ألف ألف وسبعمائة الف فارس من أبطال إلفرس وشجعان الديلم وغيرهم من الأمم وعندي زوبين الغدار الذي لا يصطلى له بنار وقد عزمت ان أبيدكم عن آخركم وأنزع اسم العرب من الدنيا غير أن شفقتي عليكم حملتني على التردد في ذلك فأرسلت هذا التحرير أطلب اليكم ان تضعوا المناديل برقابكم وتأتوا لتقبيل اقدامي صاغرين طائعين نادمين على كل ما وقع منكم وما ابديتموه من المخالفة والعناد ويكون بينكم ولدي فرمزتاج الذي اسرتموه وجسرتم على تقييده وفوق كل ذلك فانكم ترجعون إلي بنتي مهردكار مع جميع ما وصل

اليكم من الأموال واعدكم أني اعفو عنكم واعيدكم إلى مناصبكم ولا أؤخذ احد بجريمته حيث ان الذنب بذلك على حمزة وأنتم اخلصتموه الود بعد ان تغلب عليكم فهذا آخر ما عندي وإلا تصادفون الشر والوبال .

وبعد أن وقع كسرى على هذا الكتاب بعثه إلى الملك النعمان وفرسان العرب فوصل إليهم وقرأوه وكان الأمير حمزة بينهم وهو مختف فأجاب الرسول اذهب الى سيدك وأخبره انه وإن كان اميرنا غائباً عنا إلا أن كل واحد منا به الكفاءة لأن يقوم مقامه وسوف ترى منا أبطالاً لا يخافون الموت ولا يرهبون المنايا ولا يفوتهم عن قبض النفوس فوت وهذا جوابه عندنا وفي الغد يقوم بيننا الحكم الفاصل والقاضي العادل وهو السيف اليمان الذي يقضي بالحق والانصاف. فرجع رسول كسرى اليه وأعاد كل ما سمعه من العرب فاغتاظ وتكدر واضطرب وقال إن العرب في ضلال مبين وأجعلهم بعلمهم الكبر العظمة ولا ريب أن دولتهم ستنقرض وتغضب عليها النار ذات الشرار وإني احسب ان هذه الأمة ما كانت على وجه الأرض ولا دخلت بين ممالكي. ثم قال لبختك اريد منك ان تنشر إعلاناً في كل العساكر ان صباح الغد يبتدىء القتال وإني سمحت بدماء العرب وسلبهم ونهبهم فلتزحف العساكر واحدة عليهم ليحرقوا وينهبوا ويقتلوا ويعذبوا كل من وقع بأيديهم من أعدائنا دون شفقة ولا رحمة ففعل بختك في الحال وأخذت الفرسان تستعد وتتأهب الى اليوم القادم وبات الفريقان إلى أن أشرقت شمس ذاك اليوم المنتظر من العرب والعجم .

وما بزغ الفجر حتى ضربت طبول العرب فارتجت لها الجبال والوديان وأجابتها طبول كسرى أنوشروان تنذر الأبطال والفرسان بالإسراع الى الاستعداد. والتهيء لخوض الطراد فنهض كل ذي حماسة إلى سلاحه فافرغه عليه وتعدد وتدرع وجاء الى جواده فركبه وانضم إلى صفه فانتظم به وهو مشهر حسامه ينتظر الإذن بالهجوم والقتال وما اشرقت الشمس حتى كان اصطف الصفان . وترتب الفريقان وركب كسرى انوشروان وأمامه بيكار الاشتهار ومن حواليه الحراس والفرسان .

وركب حمزة العرب ومن عنده من الفرسان وحالما وقعت العين على العين تحركت الضغائن من المعسكرين فصاحوا وحملوا وهاجوا وماجوا وفي أيديهم الاشطان . والعواميد الحديدية وعيدان الزان . وراج سوق المنايا أي رواج واحتاط بالفريقين من جيوش العدم والفناء واتخذ له من جيوش العدم أمتن سياج فتدفقت الادمية كالأنابيب وتحدرت من ينابيع الرقاب والصدور كتحدر الماء في الميازيب واتخذ كل فارس من الابطال لنفسه مقاماً في سوق المجال فباع واشترى وأجرى الدماء أنهراً ولا سيما فرسان العرب وأبطالها المشاهير فانهم اخترقوا تلك الجماهير وفعلوا أفعال المردة الطيارة والجن السيارة غير أن كثرة العساكر كانت

تضيق عليهم المجال فلا يقتل الفارس فارساً إلا انحدر اليه اثنان في الحال لأن عساكر العجم كانت كما تقدم تتجاوز ١٧ كرة وعسلكر العرب دون الثلثمائة الف فارس وعلى هذا فقد عرف أندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وباقي فرسان العرب أنهم إذا ثبتواهم اشتد جيشهم وتقوى وإذا قصر واضعف وانحل ولحق به الفناء ولا سيما الامير حمزة فإنه كان يقاتل قتال الأسود وينحط على الجيوش انحطاط البواشق فيشردها ذات اليمن وذات الشمال وهو مختف عنها لا ينادي باسمه ولا يفتخر بنفسه والعجم تزدحم عليه ولا تفارقه وهي لا تعلم أنه بلوة الإنس والجان ولو عرفته لتفرقت منه واشترت ارواحها بالفرار والبعد عنه .

ومن المعلوم انه اثناء القتال انه لا يثبت في مكان لأنه كان يخاف ان تصاب جيوشه بالاضمحلال او يلحق بأحد فرسانه فيتفقد الجميع وأين كانت جيوش الأعداء متجمعة فوقها وقد تعب في ذلك اليوم التعب الكلي ليحفظ نظام معسكره الذي كادت تتغلب عليه الكثرة واخذ في الرجوع الى الوراء ولولا اعماله واعمال رجاله لانقرض واختار التشتيت على البقاء امام اعدائه الكثيرين وكان الملك كسرى على الدوام يبعث بأوامره بين عساكره يحصرهم على الثبات وان ينهوا امر العرب في ذاك النهار وكذلك بختك الخبيث الغدار فانه كان مطمئن البال بالفوز والانتصار لما رأى قلة العرب وكثرة جيشه الجرار. وكان أكبر رجائه بزوبين الغدار . نسل اللئام الأشرار حيث كان وعده انه في ذاك النهار لابد من وصوله الى مهردكار واسترجاعها الى عساكر الاعجام بقوة الصارم البتار وكانت جهنم تشتعل بفيضان لهيب النار فتلتهم كل من يقدم ضحية الفناء والبوار .

قال وبينما كانت عساكر العرب في وسط المعمعة وهي ضيقة الانقاض لكثرة الازدحام ومضايقة الاعداء وفرسانها تحيط في عباب ذاك الجو المتلاطم بأمواج الأهوال وعساكر العجم وإن كانت ترى قتلاها تزداد على الدوام إلا انها كانت تتقدم مؤملة انها لابد من أن تضعف العرب وفي كل ظنها ان غياب الأمير حمزة وسيلة كبرى لفوزها وتقدمها وإلا لو سمعت بذكر إسمه فقط لوقع الرعب في قلوبها وخافت من التقدم وكسرى وبختك مسرورين من بعض النجاح الذي ناله العجم وإذا برايات اندلسية تخفق وجيوش حبشية تتقدم وفوارس لا تخاف المنية وقد اسرعوا المسير ومن فوقهم الغبار قد علا وثار حتى غيب شمس النهار ثم انقسمت الجيوش الى قسمين قسم مال الى جهة الشمال وقسم إلى جهة الجنوب فالقسم الاول كان في مقدمته عمر الأندلسي المتقدم ذكره ومعه نحو ثمانين ألفاً من عساكر الاندلس وقد صاح وحمل لما رأى الحرب قائمة على ساق وقدم وهو ينادي أنا عتيق سيف حمزة البهلوان وخادمه طول الزمان ومثله كان يفعل صاحب القسم الثاني وهو النجاشي سلطان الحبشة ومعه مائة

وعشرون ألفاً من رجاله وأبطاله وفي الحال باشروا الحرب والقتال وخاضوا ذاك المجال فارتاع كسرى من اعمالهم وأمر أن ترجع عساكره إلى الوراء وإلا احتاط بها الاعداء ووضعوها في الوسط وأنزلوا بها البلاء وقد تكدر من ذلك وتعجب كيف ان هذين الملكين جاءا لعضد أعدائه ودامت الحرب إلى قرب الزوال ورجع الفريقان إلى الخيام لا يصدقون بالخاص من شر ذاك اليوم الكثير الزحام ورجع كسرى فنزل في صيوانه وضرب امامه العلم الاكبر وبعد ان تناول الطعام وشرب الشراب جاءوه الوزراء والأعيان وشرح كل واحد حالة الجيش وما عرفه منه فقال بختك أني كنت ارى في الأول أن النصر سيكون لنا في هذا اليوم وأن في صباح الغد لابد أن تتفرق عساكر الاعداء ولذلك كنت مسروراً جداً وكان عندي من الفرح ما مزيد عليه ونفسي تطلب سرعة النهاية ولكن النار في هذا اليوم لم تكن راضية عنا على الواجب فلم تخولنا النصر التام وقد حفظته لنا إلى اليوم الآتي أوالذي بعده . فقال كسرى إني اعجب من عمر الأندلسي والملك النجاشي فاني انا الذي قد بعثت ودعوتهما إلى معونتي فاعتذرا عن الحضور والآن قد انضما إلى العرب وجاءا لنصرتهم ولوهما لكنا فزنا بالمطلوب في هذاالنهار ولا اعلم ما هي الرابطة التي دعتهما الى مساعدة العرب لأن مثل الملك النجاشي إذا كان مع العرب يقوى شوكتهم ويزيد عتوهم لانه كثير الجنود والاعوان وملك عظيم قوي السلطان. قال إن هذا لا يهمنا يا سيدي فإنه لو اجتمع مع العرب كل اهل الأرض بالطول والعرض فاننا نحن الفائزون عليهم المنتصرون ما زال حمزة غائباً من بينهم فكن باطمئنان وراحة وسوف تجلي لك الحرب وقد رآهم زادوا عدداً وكثروا مددا وإن أكثر عساكر بلاد العرب وجميع جيوش بلاد الحبشة تحارب معهم .

فهذا ما كان منهم وأما ما كان من العرب فإنهم رجعوا إلى الخيام مسرورين بقدوم هذه النجدة القوية وحال وصولهم إلى الخيام اجتمع المقيمون بالآتين وسلموا على بقدوم البعض وشكروا من الملك النجاشي وعمر الأندلسي وسألهما حمزة عن سبب اجتماعهما ببعضهما . فقال النجاشي إني بعد أن فارقتك أخذت أن أجمع جيوشي بسرعة عظيمة وفي مدة ثلاثة أيام اجتمع عندي جيش عظيم فأخذت قسماً منه وسرت في أثرك تحت أمل أن أجتمع بك في الحال حيث ما عدت أقدر أن أطيق صبراً على فراقك وما زلت سائراً حتى وصلت إلى بلاد الأندلس فرأيت عمر الأندلسي قد اجتمع بعساكره وخرج من المدينة وسار على طريق مراكش فاجتمعت به وعرف كل منا الآخر وأننا سائران إلى خدمتك وعجلنا مسيرنا حتى وصلنا في هذا اليوم الكثير الأهوال فلم نقبل أن نضيع الوقت فباشرنا الحرب ، فقال حمزة بارك الله فيكما فإنكما نصيرا الحق وعندي أننا في الغد نقهر جيوش كسرى ونرجعه مبدداً مشتتاً ، فقال أندهوق ما زلت لا تظهر نفسك فجيش العجم لا يتفرق ولا يرتعب ولا ينكسر ولو قتل وفني عن آخره لأن ظهورك يلقي الخوف على كل واحد منهم فتنحل أعصابه ويرسف ويخاف من البقاء قال إني لا أظهر

نفسي ما لم أقبض على علم بيكار الاشتهار وأحرم كسرى منه فيعرف أن حمزة لا يغيب ويقدر على كل ما يقول . فقال له كن أنت في الغد أمامي فأحمي ظهرك وأجعل عمراً بين يديك فلا يفارقك ولا يفارقني وإننا نأتي بالمقصود ثم نظر حمزة إلى كامل الفرسان فرأى معقل البهلوان غائباً فسأل عنه فقال له عمر إنني منذ الغد ما رأيته ولا شاهدته ولا عرفت أين هو وأنا أظن أنه ليس في الخيام حتى أنه في هذا اليوم ما باشر معنا القتال ولا الحرب والنزال . فقال سر أنت واسأل عنه في رجاله وبين قومه . فسار عمر وطاف كل العرب وهو يسأل الكبير والصغير وما من واحد منهم أفاده عنه أو عرف أين هو موجود أو رآه فعاد إلى أخيه وأخبره أن معقلاً غائب عن المعسكر ولا أحد يعرف بمكان وجوده فقال أخاف أن يكون قتل في هذا اليوم وشرب كأس الآفات وانحدرت دمعة الأمير حمزة على خده فقال له عمر لا تخف فإن معقلاً لم يباشر الحرب وإني في صباح هذا اليوم طفت كل المعسكر قبل اشتباك الحرب وتفقدت الكبير والصغير فما رأيته قط وفكرت أنه لا بد أن يكون منذ الغد أو قبله في الصيد ولم يرجع بعد فشغل بال الجميع من أجله وباتوا تلك الليلة يتحارسون إلى أن أشرقت شمس اليوم التالي فاصطف الصفان وتقدم العسكران ورفعت رايات الأبطال والفرسان وبأقل من ساعة انتشبت نار الوغى واضطرمت واشتبكت الجيوش واصطدمت . ووقفت جيوش عزرائيل في كل ناح وقد تهيأت لقبض الأرواح . وهي فرحة بذاك النهار الكثير الأهوال ، حيث تيسر لها فناء ألوف من الرجال ووقف عزرائيل وأخذ بيده بوقه لينفخ فيه ويدبر جماعته ويعجلهم في أعمالهم حتى لا يفوتهم أحد متحاربي ذاك النهار .

هذا والحرب قائمة على ساق وقدم ، ونفوس المتحاربين مسرعة إلى العدم ، والكل بين ألسنة لهيب جهنم تدفعهم أسنة الرماح وتشرحهم البيض الصفاح وما برح السيف يعمل والدم يبذل والرجال تقتل . ونيران الوغى تشعل حتى ارتفع الغبار إلى العنان وحجبت الشمس عن العيان واصفر وجه كل جبان عند مشاهدته هول تلك الوقعة الكثيرة الأخطار والعظيمة الأهوال والأضرار واحمر وجه كل شجاع في موقع القتال والصراع من كثرة ما رش من أدمية الفرسان التي كانت تتدفق من الأعناق وتشيب الأبطال والشجعان فتصبغهم بأزكى الألوان وتغيرمن شكلهم عما كان ثم تنحدر إلى بساط الصحصحان وتتجمع في أقنية ذاك المكان وتسير مجدولة كينابيع الغدران وكثيراً ما تطفو على وجه الأرض فتغرق بها الخيل أو تشرف على الغرق وقد قل من المتقاتلين النفس والرمق وأخذهم الاضطراب والقلق وسحبت منهم بحور العرق وما عاد يرى إلا خيولاً غائرة وأدمية فائرة وأكفا طائرة وأعيناً غير ناظرة وقد رافقت رجال عزرائيل رجال العربان وسعت في ركابهم من مكان إلى مكان وهم يسلمونها من أرواح الأعجام ويكثرون لها من العمل والشغل في ذاك المقام لأن كل فارس من العرب تكون ضربته قاضية في الحال فيقع خصمه دون تأخير ولا إمهال . وقبل أن يصل إلى الأرض . تخطف روحه

وترسل للحسبان في يوم العرض فلله در المعتدي حامي السواحل وما فعل في ذاك اليوم الكثير الأهوال وكم قتل وكم أسر من الأبطال وكذلك قاهر الخيل فقد مدد الرجال على بساط الرمال وأنزل عليهم الدمار والوبال ولم تكن أفعال باقي الفرسان أقل من أفعاله ولا أعمالهم دون أعماله ولا سيما عمر الأندلسي فإنه أراد أن يظهر لحمزة صدق خدمته وعظيم فعله أثناء المعركة وحسن براعته فبدد الأعداء وأنزل عليهم ميازيب العناء وأرماهم في حفر الفناء وهو ينادي وقومه من وراءه تقاتل وتضارب أنا عمر الأندلسي عتيق سيف حمزة فارس المشارق والمغارب وكذلك الملك النجاشي فقد فتك بجماعته فتكاً لا ينتسى ذكره إلى آخر الزمان وبالاختصار أن تلك الوقعة كانت أعظم الوقائع التي مضت على العرب والعجم لا بل وعلى غيرهما من القبائل والأمم من سكان تلك الأعصر العظيمة الوقائع والكثيرة المعامع حيث كان عدد المتقاتلين يزيد عن الخمس والعشرين كرة وفيهم مشاهير الرجال والأبطال العظام ما لم يأت مثلهم في غير أيام ولذلك تغطت الأرض بالقتلى وحامت عليها غربان الجو ووحوش الفلا طالبة رزقها في ذاك المكان ناظرة فيه ما يشبعها ويكفيها إلى آخر الأزمان منتظرة النهاية لتأخذ نصيبها من تلك الأجسام وتذخرها إلى غير أيام كل هذا وكسرى ينظر ويرى ويشاهد ما يحل برجاله وما يقع على أبطاله وهم يقعون ويقومون ويجرحون ويقتلون ورماح العرب تخرق صدورهم وسيوفهم تغمد في نحورهم وهم تائهون في ديجور تلك المعمعة لا يعرفون ماذا يعملون ولا من يقاتلون ولذلك اسودت الدنيا في عينيه وانطبقت الأربع جهات الأرض عليه وقال لبختك ها أن عساكري ستنقرض في هذا النهار ويحل بها الفناء والبوار والفناء والدمار وتتشتت في الأربع أقطار والتزم إلى الهرب والفرار وركوب طريق الذل والعار فقال له بختك شد عزمك يا سيدي ولا تؤخذ بالظواهر فلا بد من استظهار فرساننا بالآخر لأن العرب هذا ومن والاهم سيلقيهم أخيراً في التعب وتضعف قواهم ويكون لقومنا عليهم الثأر فيبطشون بهم بطش الليث الجبار . قال وفيما هما على مثل ذلك وإذا بجيش الحرس قد اضطرب وارتبك وجفل ومال من اليمين إلى الشمال وأخذ في التقهقر والتأخر والاضمحلال وسمع كسرى من وسطه صوتاً تميل له الجبل وترجف عند سماعه أسود الدحال وتضطرب العواصم والبلاد والحصون والأطواد وقائل يقول ويلكم لئام غير كرام قد جاءكم فارس الفرسان وبطل هذا الزمان وسيد ساداته الشجعان ونقمة كسرى أنو شروان ومطوع جبابرة الإنس والجان الأمير حمزة البهلوان . قال ولا يخفى أن الأمير حمزة من حين مباشرة القتال اتكل على فرسانه وأوصاهم بالمحافظة على بعضهم البعض وأن يساعد أحدهم الآخر وخاض هو ذاك البحر العجاج المتلاطم بالأمواج ومن خلفه أندهوق بن سعدون البطل الميمون فاخترقا الصفوف وشردا المئات والألوف وأنزلا عليها الحتوف وهما تارة يميلان إلى جهة اليمين وتارة إلى جهة الشمال والفرسان تزدحم عليهما وتطلبهما الأبطال وحمزة يضرب في صدورها فيرسلها إلى قبورها وأخوه عمر ينخطف بين يدي جواده اليقظان ويضرب

بالخنجر في صدور الخيول فيرميها إلى الأرض وتقد على ظهورها الفرسان وما برح على هذا المنوال وقد قتل ألوفاً من الأبطال وجرح كثيراً من الرجال وأندهوق يحمي ظهره فلا أحد يقرب منه إلى أن فات الظهر وكلما شردت العساكر عنه بعدت ثم عادت وتجمعت من حواليه وهي ترى قتاله قتال الأمير حمزة إنما كانت لا تعرفه ولذلك كانت نفوسها تطمئنها بقتله وفنائه وهو يتقدم إلى الأمام حتى كاد يقرب من بيكار الاشتهار وهو العلم الأكبر وأبطال العجم من حواليه والحراس تدور به من مكان إلى مكان حتى أنه أخيراً صاح وتكنى باسمه ونادى أنا حمزة البهلوان نقمة كسرى أنو شروان فلما سمع العجم صوته وقع الرعب في قلوبهم وتيقنوا أنه هو نفسه فطاروا من بين يديه آخرهم يضرب بأولهم يتسابقون إلى الفرار وهو يضرب بأقفيتهم حتى سمع كسرى ذاك الصوت ورأى ما حل بحرسه فارتاع وخاف وقال لبختك ويلك يا خبيث يا غدار تقول أن حمزة في جبال قاف وها هو في وسط عساكري وقد فرق حرسي وكاد يصل إلي قال إني أخاف يا سيدي أن يكون أحد فرسانكم قد تكنى باسمه فجفلت منه عساكرنا لأنه لو كان بينهم لما هربوا إلى هذه الجهات وفيما هما على ذلك وإذا بحمزة قد وصل من بيكار الاشتهار فضرب بحسامه كل الذين حواليه وتناوله بالرغم عن كل ممانعة ومدافعة وقد صارت مزاحمة قوية عنده وتكدست القتلى كالتلول ولما صار العلم في يده سلمه إلى أندهوق وعاد إلى مداومة القتال وإذ ذاك صاح كسرى بحجابه وقال لبختك ويلك عجل بالهرب والفرار وإلا وقعنا بأيدي حمزة ونال منا المراد فإن الهلاك قريب منا فقال بختك صدقت إن هذا اليوم يوم بؤس ونحوس والنصر به للأعداء فسارعوا إلى الهرب ثم أنه أمر الحجاب أن ترفع كسرى والصيوان وتسرع في التقهقر والفرار ففعلت في الحال ودارت بأقفيتها للعرب وطلبت الخلاص من جهنم سيوف الأمير حمزة ورفاقه ورأى باقي العجم ما فعل كسرى وحرسه فجاوروهم على عملهم وطاروا ذات اليمين وذات اليسار هذا والعرب قد شكرت من حمزة على هذه النصرة فجودت الطعن والضرب وطلبت أن تشفي غليلها من الأعداء ولا سيما الأمير حمزة فانه كان مشتاقاً إلى وقوعه في مثل هذه المعمعة ليشفي غليل قلبه بعد غيابه وتقاعده عن القتال ثلاث سنوات ولذلك كانت القتلى حوله كالتلال وهو غارق ببحر من الدماء والفرسان تتجمع عليه من جهات وهو يطعن ويضرب ويصيح وينادي باسمه والرعب ينمو بقلوب الهاربين وكل واحد منهم يظن من نفسه أنه وراءه وصوته بآذان كل واحد يرن ودام العرب في جدهم واجتهادهم حتى حجب الظلام عن أعين أخصامهم فكروا راجعين بعد أن بعدوا عن مواقعهم مسافة طويلة فأمر الأمير حمزة أن تجمع الأسلاب والمكاسب وتؤخذ الخيام وترفع إلى المعسكر فدار العرب إلى جمع الخيول الشاردة ونزع الأسلحة من المقتولين وقلع الخيام وما فيها من المؤ ن والأمتعة فكان شيئاً كثيراً يعجز قالقلم عن وصفه . فأمر الأمير حمزة أن يقسم على كل من أفراد العساكر وضباطهم ولا يترك أحد بدون أن يأخذ نصيبه منهم واجتمع في صيوان أليون شاه واجتمعت سائر الفرسان والملوك

أخذوا في أن يهنئوا بعضهم البعض بهذه النصرة ويمدحوا الأمير حمزة على ما أجراه في ذاك النهار حيث شيد لهم اسماً لا يمحى مدى الدوران فقال لهم أن كل هذه النصرة وعواقبها لا تحلو في عيني ما زال أخي معقل البهلوان غائباً ولا نعلم مكانه وإذا كان أصيب بضر فهو خير من رجال الفرس كبيرهم وصغيرهم فقال له أندهوق عندي أن معقلاً بعد عن العسكر يقصد الصيد فعرض له أمر عاقه عن الرجوع الينا فقال الأمير حمزة إني لا أرتاح ولا يهدأ لي بال ما لم أعرف شيئاً عن أخباره وربما كان أسيراً في إحدى الجهات أو يكون جرى عليه حيلة أو خدعة ألقته في إحدى المتاعب والمهالك ولذلك سأعهد إلى أخي عمر العيار بالتفتيش عليه والبحث والاستقصاء من سائر النواحي ولا بد أن يكون أحد الناس عرف شيئاً من أخباره فقال له الأمير عمر إني سآتيك بخبره عن قريب وأفرج عنك هذه الكربة والضيقة .

ثم أن حمزة بعد ذلك نهض إلى مهردكار فأكل الطعام عندها وهنأته بالنصر والظفر وقالت له لو لم يكن الله معك لما قدرت على مثل هذا الانتصار العجيب العظيم بمدة يومين فقد مع أنه لو كان غيرك لصرف سنين وأياما يقاتل دون أن ينال المراد فقال لها أقاتل وقلبي مكمود وملسوع بأعمال بختك الذي ألقى العداوة بيني وبين أبيك وجعل أحب الناس عندي عدواً لي ولذلك لا أحسب نصراً كاملا نلته إلا عندما يقع بيدي بختك الوزير جرثومة الشر والفساد والكيد والعناد قالت ان الذي أريده وأتمناه وأعرف أكيداً أنك إذا قتلت بختك أو بعدته عن أبي انتهت بينكما الحرب وعدتم إلى الوفاق والآن أسألك أن تنسى أخي فرمز تاج فإنه أسير ومن اللازم إكراما لخاطري أن لا تدعه بالعذاب فقال أني أفتكر بذلك ولا بد بعد ارتياح ضمري من معقل البهلوان أن أكرمه وأجعل له مقاماً عندنا والآن هو بخير وقد أمرت عمراً بالإفراج عنه وبخدمته ومداراته وبعد أن صرف وقتاً من السهرةعندها نهض إلى صيوانه وقام وهو غارق بلذة مسامرة مهردكار ونفسه تطلب أن يغتنم الفرصة بالاقتران بها ويبعد عنه مهيجات الغرام ويطفي لهيب فؤاده فيعرف العالم أنه تزوج بها ونال ما تمنا وربما عرف أيضاً كسرى بذلك فيضعف حيله عن الرجوع إلى الحرب ويعود إلى دوام الحب والألفة والسلام .

قال وفي الصباح نهض الأمير عمر فأوصى جماعته بالاهتمام والسهر إذا طال غيابه وخرج من المعسكر قاصداً التفتيش والبحث عن الأمير معقل البهلوان وقد اختار الطريق الأقل أطرافاً لعلمه أن الأمير معقل البهلوان لا يمكن أن يسلك منفرداً بنفسه وما زال سائراً حتى قرب نصف النهار وهو محير من أي جهة يسير وأي بلد يقصد في الأول وبينما هو على مثل هذا الأمر وإذ لاحت منه التفاتة إلى جهة البر فوجد فارساً يسير إلى جهته ومن خلفه هودج على باذل يقوده جماعة من العبيد فأطلق ساقيه إلى ناحية ذاك الفارس وقلبه يدله أنه هو الأمير معقل وقد أصاب فكره فإنه قبل أن يقرب منه عرفه وتأكده وعرف أن غيابه كان لهذا السبب ولما وصل منه سلم

عليه وقال له أن غيابك أحدث اضطراباً بالعرب ولا سيما عند أخي الأمير حمزة فانه بقلق زائد وقد بعثني أفتش عليك بعد أن تبدد شمل كسرى وانجلى عن هذه الأرض فانذهل الأمير معقل واندهش وقال أصحيح ما تقول لن يمكن أن يفرق مثل هذه العساكر العظيمة بمدة قليلة مع أني لم أغب عن قومي إلا ثلاثة أيام قال إن العرب قاتلت قتال الأسود لما شاهدت فعال أميرها وهو على جواده اليقظان يبدد الألوف شرقاً وغرباً حتى وصل إلى بيكار الاشتهار فتناوله ونزعه من حامله بالرغم عن كل ممانع وصار منذ الآن يلعب أمام صيوان الأمير حمزة .

قال وكان سبب غياب معقل البهلوان هو أنه كان قد خرج إلى الصيد وأوسع بالبر وهو منفرد بنفسه لا أحد رآه ولا راقبه وفيما هو يطارد الوحش والغزلان رأى غزالة قد مرت بجانبه ونفرت مسرعة كالبرق الخاطف فأطلق من خلفها جواده وقد خفق قلبه ومالت أمياله إلى مسكها والقبض عليها وما برح يطاردها وهي شاردة بين أيديه حتى دخلت في روض ملتف بالأشجار حول قصر قائم في تلك الجهة فدخل خلفها وما لبث إلى أن رآها قد دخلت القصر واختفت فوقف هناك متعجباً من عمل الغزال ومتحرقاً كيف تخلصت منه وأخذ في أن يتأمل في ذاك المكان ويجب أن يعرف من داخله ولمن هو وفيما هو على مثل ذلك وإذا بطاقة القصر قد فتحت ووقفت بها صبية من نساء المغاربة ذات خد أحمر ووجه جميل واثق وعيون سوداء كبيرة تخرج من أول وهلة فانعطف قلبه إليها ومالت أمياله إلى معرفةأخبارها فوقف محدقا بها إلى أن بدأته بالكلام وحيته بالسلام فأجابها على تحيتها وقد أخذ عقله عذوبة ألفاظها فقالت ما الذي أوصلك إلى هذا القصر وماذا أضعت عنده فإني أراك محيراً قال اعلمي يا وجه القمر إن غزالة كنت أطاردها فطارت من بين يدي ودخلت في هذا القصر وقد أوصلتني إليه ولم أعد أراها بعد ذلك واحترمت حمى صاحب القصر فلم أعد أسأل عن صيدها ولكن قلبي كان لا يطيق فراقها وتركها ولذلك كنت واقفاً بارتباك بين قلبي وإرادتي قالت فعلت حسناً فما أنت إلا من كرام الناس وامرائهم وساداتهم فان الغزالة دخلت في حماي وهي لي فهل لك أن تبدل فزالك بمثله وتشرف محلنا فتأكل طعامنا فسلب عقله وكاد يغيب عن صوابه وقال لها من أين لي هذا الشرف وأنا غريب عنك وأنت لا تعرفي من أنا ولا سألتني عن اسمي قالت إن دلائل الكرام تظهر على وجوههم ولا تخفى عن بصائر أولى الألباب فضلاً عن أنه ليس من كرم الأخلاق أن أسألك عن نفسك قبل أن تأكد الطعام وترتاح من مشاق الصيد وتعرف من أنا .

فدخل الأمير معقل وهو مسرور الفؤاد وقد أسرع إليه الخدم فأخذوا منه الجواد وصعدوا به إلى أعالي القصر فترحبت به صاحبته وتلقته بالإكرام والبشاشة ودخلت به إلى غرفة الاستقبال فأجلسته على كراسي من الحرير محشوة بالريش النعام وهي من خشب الأبنوس فجلس وأخذ لنفسه الراحة برهة ثم قدم له الشراب فشرب وبعد ذلك قدم له الطعام فأكل

وهي معه تظهر له كل أنس ولطف وسرور بوجوده عندها ولا يخفى أن الأمير معقل كان جميل الخلقة عظيم الهيكل بهي الطلعة وقورها فعلقت به الفتاة وقدمت له كل مـا في وسعها من الترحاب وأخيراً سألها عن أهلها وما سبب وجودها في ذاك القصر فقالت له إني اسمي ذات الجمال بنت حاكم طيفور الغرب وهو صاحب هذه البلاد وهذه الأراضي وقد ابتنى هذا القصر منذ أزمان يقيم فيه في زمن اشتداد الحر ولما كبر وشاخ ما عاد يطلع إليه فسألته أن يسمح لي أن أقيم فيه كل سنة مدة ثلاثة أشهر فأجابني وصار في كل سنة يرسلني إليه مع جماعة من خدمي فأقيم فيه ويزورني في أكثر الأحيان وأريد منك أن تخبرني من أنت لأني مؤكدة أنك من قوم العرب النازلين بجوارنا لا بل من سادتهم وأعيانهم .

قال لقد أصبت فإني من رفقاء الأمير حمزة العرب سيد القبائل وفارس الفرسان واسمي معقل البهلوان صاحب قلعة تيزان وقد جئنا إلى هذا الديار لنلاقيه من سفرته فتبعنا كسرى أنو شروان بعد أن وصل إلينا أميرنا ولا بد من أن نبطش به ونذله مع قومه كما فعلنا معه في السابق فقالت له نعم الرجل فأنت من السادات العظام ولذلك لم يخطىء قلبي وقد أصاب بتعلقه بك ومعك ولا ريب أنك إذا كنت من كرام الناس لا ترد طلبي ولا تمنع سؤالي وأريد منك أن تصرف هذه الليلة عندي وفي الصباح تذهب إلى قومك ومتى انتهيتم من حرب كسرى بعثت إلى أبي فأخذتني منه زوجة لك ولا ريب أنه يجيبك إلى ذلك قال حبا بك وكرامـة وهذا الذي تريدينه فإني متشوق إليه وإذا اطعتيني سرت بك إلى قبيلتي من هذه الساعة وأرسلت من هناك إلى أبيك رسولاً في الحال وسألته زواجك بي قالت أخاف أن أبي ينسب إلي العصيان وطاعتي بالمسير معك يحط من قدري عند قومي فأجابها إلى طلبها وأقام معها على حظ ومسرة وقد صفت الخمور وأحضرت الكاسات والزجاجات ورتبت النقل والأزهار وقامت على مثل هذه الحالة كل تلك الليلة تعاطيه ويعاطيها وهما بجنة من النعيم .

قال ولما دخل الأمير معقل القصر وعرف بنفسه ذات الجمال كان أحد الخدام واقفـاً يسمع ويرى فأسرع إلى مدينة طيفور وأخبر أباها بوجود أحد أمراء العرب عند بنته وأنه كان يطارد غزالة فجاءت القصر ودخلته ومن ثم دخل هو وأقام عند ذات الجمال فلما سمع هذا الكلام اضطرب واغتاظ في داخله إلا أنه استعمل الحكمة والدراية وجمع إليه أعيـان قومـه وعرض عليهم أمر ابنته ومعقل البهلوان وسألهم كيف السلوك في هذا الأمر الخطر فقال له أحد عقلاء قومه أنت تعرف أن العرب قد جاءوا هذه البلاد منذ زمان طويل وما من أحد قدر على عنادهم ومطاردتهم أو أشهر بوجههم حساما والآن قد تبعهم كسرى إلى هذه البلاد لأجـل محاربتهم ولا ريب أن أحد المتحاربين يتغلب على الآخرين وعندي أننا نذهب إلى قصر بنتك ونحتال على هذا الفارس العربي ونقبض عليه ونأتي به إلى المدينة فإذا انتصر الفرس سرنا به إلى

كسرى وسلمناه إياه ونلنا منه المكافأة وإذا انتصر العرب اعتذرنا إليه وسلمناه بنتك إذ لا بد من أخذها .

واصطلحنا معه ومع العرب وأما الآن فليس من العدل أن نظهر عداوتنا إلا حفظاً لبلادنا وأموالنا من الخراب والنهب وليس من الصواب أيضاً أن نترك هذا العربي عند بنتك على هذه الحالة حفظاً لناموسنا فأجاب الجميع إلى هذا الرأي وساروا إلى قصر ذات الجمال وفيما هي مع حبيبها على حظ وفرح وسرور وإنشراح وشراب عقار ومناشدة أشعار وإذا بأحد خدمها قد دخل عليها وأخبرها أن أباها قد دخل القصر مع بعض أعيانه فارتاعت واضطربت فقال لها معقل البهلوان لا تخافي ولا ترتاعي فإني أعرف كيف أتصرف مع أبيك فإذا قصد عنادي أخذتك بالرغم عنهم جميعهم وسرت إلى قبائل العرب وإذا وافق على إكرامي أخبرته بالقصة وسألته زواجك وطلبتك منه وكانت هذه الفرصة أحسن الفرص وأنسبها وإذ ذاك دخل أبوها الغرفة مع قومه فنهض لهم معقل واقفاً على الأقدام وهو مدجج بالسلاح فبش حاكم طيفور في وجهه وقال له أهلاً وسهلاً بك أيها الأمير فقد شرفت محلنا على غير انتظار وأتيت منزلك فعلى الرحب والسعة وإنني حالما عرفت بقدومك أسرعت لخدمتك لأن قومك العرب نزلوا ضيوفاً في بلادنا ومن موجبات الضيف الإكرام ومثل ذلك فعل باقي قومه وتقدموا من الأمير معقل وسلموا عليه وأكرموه ومدحوه فشكرهم وأثنى عليهم وهو يظن صفاء بواطنهم ولم يفكر بهم الغش والخداع ثم زادوا من الخمر وشربوا جميعاً وهو يشرب معهم مستحياً بنفسه بينهم لعظم إكرامهم له وكذلك ذات الجمال فإنها كانت لا تظن أن تلاقي من أبيها مثل هذه المعاملة وما برح الأمير معقل هناك إلى المساء وإذا ذاك وهو جالس في مكانه وقد دارت الخمرة برأسه وكاد يغيب عن هداه هجموا عليه ومسكوه وأوثقوه وهو غير واع على نفسه ورجعوا من القصر وجاءوا أيضاً بذات الجمال دون أن يعاتبوها على عملها بل بقي أبوها يعاملها بالبشر والإنس حتى وصلوا المدينة ودخلوا قصر حاكم طيفور فوضعوا به معقلاً وأرسلوا رسولاً إلى العرب يرقب أعمالهم مع كسرى ويأتيهم في النهاية بالخبر اليقين وما يكون بينهما وينظر من الرابح ومن الخاسر فسار ذاك الرسول وأقام بين العرب يومين وفي اليوم الثالث عاد إليهم في المساء ودخل إلى حاكم طيفور .

وقال له لقد فعلت بنفسك شراً يا سيدي فقد شاهدت في هذا اليوم ما كنت لا أصدقه واكذب نظري فلا ريب ان العرب أسود كواسر وأبطال صناديد ولاسيما أميرهم حمزة فاني رأيته وأنا في أكمة عالية يطعن في أقفية فرسان كسرى وهي منهزمة كأنه الموت الأحمر لا يعفو عن إنسان ولا يفوته عدوه ومثله كانت تفعل فرسان العرب كأنهم النار الشديدة الأضطرام إذا وقعت على القش اليابس وإني انصحك يا سيدي أن تكرم معقل البهلوان وتعتذر اليه وترضاه

وتتخلص من شر العرب فانهم لا يتركون البحث والتفتيش عليه ومتى عرفوا بما حصل له عندك زحفوا على المدينة وبساعة واحدة محو آثارها فإن العجم مع كثرتهم وعددهم الذي لا محصى لم يثبتوا أكثر من يومين فماذا يا ترى تقدر أنت وقومك أن تفعل فلما سمع حاكم طيفور كلام رسوله قال له لقد أصبت ومن الواجب ان نتلافى أمرنا مع العرب ونصطلح مع معقل البهلوان ونسلمه ذات الجمال ثم أنه في الحال ذهب بنفسه إلى القصر الذي فيه معقل البهلوان ودخل عليه فوجده يزأر كأنه الأسد وهو مغتاظ من الغدر به ووقوعه في أيدي حاكم طيفور فسلم عليه فقال له معقل لم يكن بعهدي أن تسلكوا سبيل الغدر والخيانةوتأخذوني وأنا أمين منكم ولو أنكم أسرتموني وأنا على ظهر جوادي لما صعب علي ولكن لا بد أن يتوصل الأمير عمر العيار إلى معرفة مكاني فيأتي مع العرب لخلاصي وتجازون على شر أعمالكم فقال أبو ذات الجمال انا ما غدرنا بك لشر ولا قصدنا لك ضراً غير ان بعض قومي حكى بعرضي فكدرني ففعلت ما فعلت خوفاً من أن تترك بنتي وتذهب إلى حالك ويبقى اسم المذلة والعار علي والآن الحمد الله قد ثبت لدينا أنك من كرام الناس وأوفاهم مروءة وكرامة وشهامة وقد جئت اليك وأنت صاح لأعرض عليك صداقتنا وأني ارغب في ان تكون صهري وتكون القرابة والنسابة بيننا ولا اكون فعلت أمراً مكدراً . قال إني أرغب في بنتك ذات الجمال وأريد أن تكون لي زوجة غير أني لا اريد أن أقرب منها وأزف عليها إلا في قبائل العرب عند قومي قال كفانا أن نعقد عقد الزفاف عندنا ونسلمك إياها فتصبح زوجتك وأخلص من اللوم وبعد ذلك فلك الخيار إن اتيتها عندنا أو ذهبت بها إلى قومك فوافقه معقل على ذلك وحينئذ أحضروا ذات الجمال وعقدوا زواجه عليها وسلموه اياها مع البستها وحلاها وخدمها وكل ما هو لها وأمر أن يسلم اليه جواده فدفع اليه فاخذه وسار بعروسه الجديدة يقصد العرب وهو لا يعرف ما جرى عليهم حتى التقى بعمر العيار كما تقدم معنا الكلام فساروا إياه إلى المعسكر حتى وصلا ودخل معقل على الأمير ففرح به وسلم عليه وسأله عن سفرته فاخبره بكل ما توقع له وما جرى مع ذات الجمال وأنه جاء بها لعمل عرسه هناك .

قال فلما سمع حمزةتحركت به دواعي حبه لمهردكار وأطرق مدة إلى الأرض ثم رفع رأسه بين قومه وقال لهم أنتم تعلمون انني لاقيت كثيراً وحاربت كثيراً لأجل مهردكار وانتم تتعذبون بسببي وتحاربون وتتنقلون من مكان إلى مكان وقد أحرمتم الراحة وبعدتم عن الأهل والأوطان إكراماً لي ولذلك لا أنسى أنكم من أكرم ما خلق الله صفاتا ومروءة وحيث الآن قد انتهينا من أمر العجم وانهزم كسرى وانجلت آثار رجاله عن هذه الأرض وقد طفح الكيل ومضى قسم من العمر أريد أن أغسل وسخ هذه المصائب والمصاعب والأتعاب بقيام العرس والفرح مدة خمسة عشر يوماً فيها أزف أنا على مهردكار وعلى الأميرة سلوى أخت المعتدي حامي السواحل ويزف الأمير معقل على درة الصدف بنت ملك مصر وعلى ذات الجمال هذه التي جاء بها الآن

ومن ثم نسير من هنا إلى مدينة حلب نقيم بها إلى أن يظهر لنا خبر كسرى وما يريد أن يفعل فقال الملك النعمان وباقي الأمراء والفرسان لقد اصبت ياحمزة فاننا نرغب لك مثل هذه الأيام نتمنى زواجك بمهردكار وطالما اردنا أن نشتريه بروحنا واني اشكر الله الذي بعد كل هذه المتاعب من علينا بكل ما تطلبه ونسأله به والآن انشر بين قبائل العرب وكل المجتمعين عندنا من حلفائنا أن أيام الأفراح ستبتدىء من الغد ويكون الفرح في كل ناحية وفي كل جهة من جهات المعسكر وكل ذلك يصرف من أموال كسرى المحفوظة عندنا التي جمعناها من بلاده وعماله ويسلم أمر تدبير الزفاف إلى اندهوق بن سعدون وعمرالأندلسي ومن أراد من الأمراء أن يكون مساعداً لهما فلا يتأخر لعلمي ان الجميع يسرون من خدمة زفاف أميرهم وفارسهم واذ ذاك تقدم عمر العيار وقال إني لا أريد ولا اوافق على زواج أخي حمزة ولا ارغب فيه الآن. فقال حمزة إني اعرف غيابتك وامتناعك لأي سبب هو ولابد بعد زمان ان يصبح مال العرب بأجمعه عند جماعتك العيارين فتأخذ أموال السادات وتدفعها للعبيد . قال نعم كل واحد يسأل عن مخصصيه ورجاله وجماعتي مساكين يخدمونني بجد واجتهاد ولم اكفهم حتى اليوم فأمر الملك النعمان ان يدفع إلى عمر عن كل شخص خمسمائة دينار وان يقدم لجماعته ما يكفيهم من الخمور والنوق والاغنام لتكون لهم في ايام العرس ففعل ودفع حمزة لعمر ثلاثة آلاف دينار له ولقومه العيارين وقال له هذه مقابل إكرامي لهم في مثل الزفاف فكاد عمر يطير فرحاً وما صدق أن قبض الأموال حتى دعا بجماعته وسار أمامهم وساروا من خلفه كسرى القطا حتى جاء اكمة ونثرها عليهم حسب عادته وهم يلتقطون حتى فرغ وبعد ذلك قال لهم اعلموا أيهاالعبيد ان في الغد يبدأ عرس حمزة فاسكروا واخمروا وغنوا وارقصوا وافعلوا كل ما تريدون من أسباب الحظ والمسرات والافراح والتهاني فصفقوا وقالوا إنا إلى مثل هذا الأمر ننتظر وعادوا جميعاً قال ثم ان الأمير حمزة أمر في الحال أن يقدم اليه فرمزتاج بن كسرى فأتي به وحالما دخل الى الصيوان نهض حمزة واقفاً وتقدم إليهوساقه بيده وقال له لم يهن علي أيهاالملك العظيم ان تهان ويصل اليك الأذى وأنت ابن كسرى انوشروان وأخو مهردكار وإننا نحن العرب وان تكن الحرب بيننا وبينكم قائمة وقد فزنا عليكم وفي وسعنا ان نبيد دولتكم لكننا لا نزال نعتبركم حق اعتباركم وكم نعرف مقامكم فهو مقدم على كل مقام ولو نظر أبوك موضع النظر ووعى إلى صالح نفسه لما عمل على عداوتنا بعد ان خدمته حق الخدمة وخلصت له بلاده من عدوه خارتين . فقال له فرمزتاج لعنت النار بختك ألف لعنة ورميت روح أبيه بجبال الثلج فهو جرثومة الشر ولولاه لما كانت كل هذه العداوة بل كان أبي بخير ونعمة وكنتم بطاعته وطاقته . ثم ان حمزة أجلس فرمزتاج بمكان مرتفع على الجميع وأمر ان يقدم إليه كل اكرام واحتفال وعظم شأنه . ثم قال له أخيراً اني كنت احب ان أرسلك من هذه الساعة إلى المدائن باحتفال وتعظيم غير اني أريد أن تشاركنا بزفاف اختك وتفرح معنا ومن ثم تسير فتخبر أباك بذلك عساه يرجع عن السعي في خرابه وهلاك قومه

ويعرف أيضاً زوبين الغدار ان امله قد انقطع وان التي يعلق آماله بزواجها قد تزوجها من احق بها قال فشكره فرمزتاج وكان يظن قبل ذلك أن حمزة لا يبقي عليه ولابد أن يقتله جزاء لأبيه وكيداً له فصادف خلاف ما افتكر وملىء قلبه فرحاً وسروراً وأقام مع العرب إلى المساء وفي المساء ذهب إلى صيوان مهردكار ولما رأته بكت فرحاً به وسرت بعمل حمزة وشكرته مزيد الشكر وقالت له أني لا أقدر ان أكافئك يا سيدي على مثل هذه النعمة العظيمة فقد عاملتني معاملة الحنو والرفق بحيث شفقت على أخي وأكرمته وما اهنته . قال اني اعرف قدر ملوك العجم واحترمهم مهما عملوا بي وأنا أعرف أني أقدر على كيدهم وقهرهم ولكن لا سمح الله أن أكون أنا البادىء بالشر وأني حتى الساعة إذا سلمني أبوك بختك سرت إليه بنفسي وقدمت له طاعتي وخدمته كأن ما صدر منه مكروه بحقي وضدي فقال فرمزتاج لأخته أني اراك مصيبة بحبك لحمزة فهو رجل من أكرم الناس وأرقهم مع أنه من أشد الفرسان وأشجعهم وانا منذ هذه الساعة أخاصم كل من يخاصمه وأحب كل من يحبه ولا سيما حيث عاملني هذه المعاملة وما كنت أظن قبل الآن إلا بالموت والهلاك والقتل حتى سمح لي الله أن أحضر زفافه في هذه الأيام وفي هذه البلاد .

وكانت مهردكار مسرورة جداً بعمل أخيها وبالإتفاق الذي رأته بين الأمير وبينه وهي لا تعرف من نفسها بماذا تكافىء الأمير على معاملته أخيها تلك المعاملة ومحبته له وأملت ذاتها أنه ربما ينتهي الخصام بين العرب والعجم إذا رجع فرمزتاج إلى أبيه وأخبره بما عمله معه وعامله به حمزة. وبعد ان ذهب الأمير إلى صيوانه وبقيت هي على مثل هذه الافكار وقد نام أخوها بسرير اعدله هي جالسة تفكر فيما ستلاقي هذا الزفاف وما يكون لها مع الأمير من الراحة والرفاهية وتنظر في كل مستقبلها نظر السعادة والإقبال. لأنها كانت تريد أن تدفن الماضي في تلك الساعة وتطلب ان تنسى كل ماوقع عليها . ولم يخطر لها قط أن الزمان كثير الغدر وأن ما أملته من أن بزفافها تكون نهاية مصائبها بل ان بهذاالزفاف تزيد أكدارها ومصائبها ويكثر من حولها الأكدار والأهوال لأن حول أبيها رجال المكر والكيد فلا يدعون باله يصفو أو ينزل عن بغضه ويرجع عن عناده بل كلما طالت الأيام يطيل إصراره على الإنتقام من العرب وما برحت نحوا من ساعة تفكر في مثل هذه الأمور وهي تارة ترتاع من زواجها هذا كيف سيكون بعيداً عن بلادها وأهلها وليس عندها من نساء قومها أو قوم الأمير حمزة من تتسلى به أو يصلح شأنها وليس عندها إلا البنات اللاتي سيكون نصيبهن مثل نصيبها ان كل واحدة يتشرب الكأس التي ستشربها هي وطوراً تتسلى من نفسها بنفسها وتقول في ذاتها يكفاني أن يقال بأني صرت زوجة لحمزة العرب مهما كان دون ذلك من العذاب والمشاق والواحدة والانفراد واني سأكون سعيدة بالقرب منه واني سأقوم بشأن نفسي وما هي إلا مدة قليلة تنقضي وبعد ذلك أصبح زوجة شرعية ويكون لي ولمن أحبه قلبي ما يكون من روابط الزوجين غير أني لا ريب سأكون من أفرح عباد الله منذ

هذه الساعة وكل ما كنت اتمناه سألاقيه وأنا له بالرغم عن كل حاسد وعدو فقد خلالنا الجو ولم يبق بيننا الآن من يكدر عيشنا ويمنع قراننا فبشراك يا قلبي ستضم في ليال قليلة لي من أحببت وينتهي بذلك أحزانك وتقبل ايام سعودك لا تضطرب ولا ترتاع عند ذكر الماضي فكل ما مضى لا يحسب بشيء في جنب ساعة واحدة من الساعة والأيام والشهور والسنين التي اعدت لك من حبيبك وصفيك ثم جعل السرور يطفح على فؤادها ويزيد سرورها وتردد ناشدة :

لابلغ الحاسد ما تمنى　　　فقد قضى وجدا ومات منا
ولا أراه الله ما يرو　　　مه فينا ولا بلغ سوءاً عنا
أراد يرمى بيننا لبيننا　　　فجاء بالقول بما أردنا
أبلغكم أني أجحد حيكم　　　أصاب في اللفظ وأخطأ في المعنى
ظن حبيبي راضياً بسعيه　　　فشن غارات الأذى وسنا
فمد رأي حبي إلى محسنا　　　أساءني فعلا وساء ظنا
يا من غدا للنيرين ثالثاً　　　وثاني الغصن إذا تثنى
ومن سألنا منه منا بالمنى　　　فمن بالوصل منا ومنا
اشمتني بالضد بعد شدة　　　ومن تعني بالهوى تهنى
فعد بوصل واغتنم طيب الثنا　　　فإن ذا يبقى وذاك يفنى

وهي تدفع بكل قواها الفكرية والفؤادية ثقل ذلك الليل الطويل وتتمنى انقراضه ومحوه وهي قليلة الصبر إلى ملاقاة اليوم القادم أي اليوم الذي سيبتدىء به الفرح وتسمع بين تلك الجموع المتنوعة اصوات الأفراح والتهاليل بداعي زفافها على من أحبته وهي تتصور بهاءه وحسن طلعته وكيف سيكون مشرقاً وضاحاً بين قومه ومكللاً بأكاليل البهاء والسناء ولا يكون نظيره احد فينار جميع من يقرب منه من شروق شمس جماله وكأن لسان حاله يقول :

الوجد منك عن الصواب يضلني　　　وإذا ضللت فإنه يهديني
ونيمتني الالحاظ منك بنظرة　　　وإذا أردت بنظرة تحييني
وكذلك من مرض الجفون بليتي　　　وإذا مرضت فإنها تشفيني
فلذاك أشري الوصل منك بمهجتي　　　وأبيع دنياي بذاك وديني

وصرفت كل ليلها على مثل هذه الحالة تفكر فيما تقدم تكون فيه وفي اليوم الثاني والذي بعده في مدة الزفاف ولا ترى كيف نظرت وكيف رأت بأعين أفكارها إلا أن جمال من أحبت يجلي سوداء قلبها ويسهل عليها كل صعب ويعدها بسعادة دائمة وراحة منتظرة .

ولم تكن سلوى أخت المعتدي حامي السواحل أقل منها شوقاً إلى ملاقاة الأمير وطلب

سرعة الزواج والوصول إليه وهي بنفس الافكار التي كانت عليها مهردكار غير أنها كانت تزيدها بفكر كان لا يخطر لتلك وهو كيف سيكون لها من تحبه ويكون زوجاً لها مشاركاً وقريباً وكانت تتكدر من وجود مهردكار وكم كانت تحسب نفسها لو لم تكن مهردكار محبوبة من الأمير وحق لهذه ان تحسد تلك وتتكدر منها لأن مهردكار كانت مؤكدة انه لو وجد للأمير ألف زوجة لا يفضل واحدة عليها وسيقدمها على الجميع ويخصص لها أكثر اوقاته ولهذا كانت لا يكون لها بل يبقى في يدها بخلاف سلوى التي كانت تعلم أنها ستلاقي بعد زواج الأمير بها بروداً وفتوراً منه مهما كان بينها وبينه من الحب والمودةوقد مرعليها كثير من البراهن الدالةعلى ذلك حيث أن الأمير يمضي بعض أيام لا يأتي لزيارتها مع أنه كان لا يطيق تمضية ليلة واحدة لا يزور فيها مهردكارولا يقدرعلى النوم دون ان يأتي صيوانها يراها وتراه ويسامرها فضلاً عن أكله وشربه على الدوام عندها وبقربها وكانت لا تعرف كيف يكون حالها مع مهردكار وهل تقدر تحوله عنها إذا أصبح زوجها واصرت بفكرها اخيراً أنها إن كانت مكرمة عنده بعد زواجها مثل مهردكار وعاملها معاملة واحدة بقيت عنده وإلا سألته أن يرسلها إلى مكة إلى أبيه تقيم هناك .

وأما درة الصدف وذات الجمال محبوبة الأمير معقل البهلوان فإن كل واحدة منهما كانت تهتم بنفسها وتفتكر بأمرها وتدبير أحوالها واصلاح شأنها غير أن درة الصدف كانت أكثر اهتماماً واعظم سعياً ونظراً باحتياجاتها لانها كانت غريبة وليس أمامها أحد من أهلها ليساعدها في مثل هذا الزفاف بخلاف ذات الجمال فانها في بلادها وكل ما تحتاجه يصل إليها ولابد من ان تأتيها نساء قومها والحاصل ان كل فتاة من تلك الفتيات كانت قلقة في ذاك الليل ولم يأخذها نوم لعظم تراكم الافكار شأن كل فتاة في ليلة زفافها او قبلها بليلة ولا سيما إذا كان الرجل المزمعة ان تقترن به محبوباً عندها ومعظماً في أعينها .

ونهض رجال العرب في صباح ذاك اليوم نهوض المهتم بالافراح واجتمع الأمراء والسادات إلى صيوان الملك النعمان فجيء لهم بالطعام والشراب فشربوا وخمروا وطربوا كل ذاك النهار وكذلك باقي الأنفار فانهم انقسموا إلى فرق وجماعات وكل فرقة عندها من أسباب الحظ ما يكفيها ويرضيها فكان الفرح سائداً في كل الجهات وقد عم الكبير والصغير والملك والأمير وكان عمر العيار يطوف فيما بينهم يراقب أحوالهم وينظر في من كان منسياً فيأتيه بالأغنام والمدام وباقي الأسباب وقد قدم لجماعته العيارين كل ما يلزم لهم ليكونوا أفرح أهل الحلة وأكثرهم سروراً وطرباً وحبوراً وعلى هذا فكانت اصوات الطبول والزمور والموسيقات تضرب في كل ناحية من المعسكر والرقص وتصفيق الأيدي عامل في كل فرقة حتى كان المساء فوقع الجميع سكارى وناموا إلى ثاني الأيام فعادوا إلى ما كانوا عليه مدة سبعة ايام وفي اليوم الثامن اجتمع الفرسان والأبطال ونصبوا ميداناً في وسط الساحة وركب كل ذي ساعد قوي من بطل

وشجاع وأخذوا في لعب الجريد وضرب الرماح وقد جردوها من الأسنة وأظهر كل واحد بسالته وإقدامه وشجاعته فتنوعوا بفنون الحرب وأنواع الطعن والضرب وركب الخيل والغارات حتى كان ذاك اليوم يوم القيامة .

وكان أندهوق ينازل المعتدي حامي السواحل وهما بمنزلة واحدة لا يزيد الواحد عن الآخر مقدار ذرة فتعجب منهما الكبير والصغير كل هذا وحمزة راكب على جواده اليقظان كأنه من ملوك بني حمير وفراعنة مصر تحيط به الخدام والعبيد والسادات والملوك وصرفوا على مثل هذه الحال مدة خمسة ايام حتى كل اكثر الفرسان ومع ذلك فهم بسرور زائد وفرح لا يوصف إلى ان صدر أمر الأمير حمزة بترك القتال وفي اليوم السادس اي اليوم الثالث عشر نصب الأمير عمر صيوان اليون شاه ملك جبال قاف الذي جاء به كندك المارد من اسمابري في وسط القبيلة ونصب عند بابه علم كسرى المعروف ببيكار الاشتهار وهو يلوح ويخفق وعلى رأسه بيضة تترقد من الألماس لا تقدر النواظر تحدق بها مقامة على عامود من الذهب الأصفر مصقول من رأسه إلى أسفله ومنقوش بالنقوش البديعة الصنعة وفي مقدار كل قيراطين بقجة من الترصيع تجمع كثيراً من الحجارة كل واحد بلون واحد من أخضر وأحمر وزمردي وأبيض وغير ذلك وعلى ارتفاع ذراع من الأرض معلق ببيكار الاشتهار سرير من الذهب عليه افرشة من الحرير محشوة بالقطن الناعم كان يجلس عليها كسرى في وقت الأفراح وفي آخر ذلك العلم أربعة قوائم من الذهب كانت تحمل رجال كسرى وحجابه عندما كان يسير ويجلس على السرير أو كان في وقت الحرب وقد طلب الانهزام خوفاً من أن ينفرد بنفسه فيعلم قومه ان تحت بيكار الاشتهار فيسيران من حواليه إلى ان يتخلصوا من العدو فكان ذاك الصيوان وذاك العلم بهجة الناظرين تأتي قبائل العرب وطوائفها للفرجة عليهما ولم يكن إلا القليل حتى جاء حمزة بثياب الملك سليمان المرصعة بالجواهر واليواقيت وقد تقدم الكلام عنها في محله وجلس على كرسيه في الصدر ومن ثم دخل الصيوان الملوك والفرسان وجعلوا في مواضعهم وكل واحد منهم بالزينة الفاخرة وأثواب البهجة فأصبح ذاك الصيوان يعج بالزائرين ويضيج بالفرسان ولما تم اجتماع الأمراء وانتظروا طلب الملك النعمان قاضي العرب الذي كان في قومه ان يعقد للأمير حمزة على عروسيه مهردكار وسلوى ولمعقل البهلوان على عروسيه درة الصدف وذات الجمال وشهد كل الحضور قبول المتعاقدات ودعا لهم القاضي بالتوفيق والنجاح ثم بعد ذلك تقدم الملك النجاشي من الأمير حمزة وهنأه بهذا الزفاف السعيد وقال إني أشكر عناية المولى سبحانه وتعالى الذي سهل لي أن أقاتل بين يديك أهل الكفر والطغيان وسهل لي أن أحضر زفافك وأقاسمك به وأفرح لفرحك فزاد الله عظمتك وجعل كل أيامك مقرونة بالفرح والسعادة والإقبال ثم انشد وقال :

تبسم ثغر الأفق عن شنب الفجر   فهيج أشواقي إلى لعس الثغر

وشقت جلابيب الشقيق يد الصبا ... كما مزقت جيب الهياض يد النهر
وناحت عن العيدان هاتفة الضحى ... فجالت عيون الظل في أنجم الزهر
وغضت عيون النرجس الغض عندما ... تبسم ثغر الزهور عن حبيب القطر
وأبدت نهود الجلنار أشعة ... مركنة في سمر اعطافه الخضر
لذي روضة ابدت سماء زمرد ... عليها نجوم قد طلعن من التبر
وحيث الدجى ولى فأدهم ليلة ... وقد جد إلى إدراكها أشهب الفجر
حيث تولى بعده القلب خافقاً ... كؤود كثيب غاله حادث الدهر
وحيث السهى قد رق من عظم شوقه ... لرؤية بدر التم في رابع العشر
وحيث سهيل مقتف أثر زهره ... كحاد بنوق قد اظل على فقر
وحيث ترى الجوزاء في أفق غربها ... وشاح الجين قد أدبر على خصر
وحيث نرى الاكاليل في مفرق الضحى ... كمائم ورد كللت أوجه النسر
أجل ملوك الأرض جدا ووالدا ... وحسبك آباء خضارمة البحر
تملك رق الجواد واستخدم الغنا ... فلم يبق عان يشتكي ألم الفقر
ينيل محبيه ويغني عداته ... فيأتي على الحالتين بالنفع والضر
لطيف المعاني كامل الحسن والبها ... حليف المعالي طاهر السر والجهر
فما الصبح الا ما أبان من الرضى ... وما الليل إلا ما أبان من الفجر
وإن رام مدح الثناء وصف مدحه ... فأوصافه تملي وأقلامهم تجري
معالية لا تحصى لفرط اعتلائه ... كذاك معانيه تجل من الحصر
من القوم حلوا كل آفاق دولة ... فهم في سماء العز كالانجم الزهر
سراة المعالي زهر أفاق سعدها ... جبابرة الهيجاء أكاسرة الدهر
فحبك يا فرع المكارم والعلا ... أصول زكت في روضة المجد والفخر
أهنيك بالأفراح يا ركن عزها ... وقهر عدو الله طاغية الكفر
بقيت بقاء الدهر فينا إذا انقضت ... أواخر عصر عاودت مبتدا عصر
ولا زلت ذا فعل جميل مصدق ... بقول مطاوع للنهي ممتثل الامر

وبعد أن فرغ الملك النجاشي من شعره مدحه الأمير حمزة وشكر من حبه وغيرته وأثنى عليه مزيد الثناء وبعد أن جلس في مكانه بعد عمر الاندلسي وبعد ان أدى ما هو واجب عليه من فروض الهناء انشد فقال.

لا زال سعدك دائماً ... ونحور ضدك دامية
وعدو ملكك هائماً ... وسحاب جوادك هامية

وحسود فضلك سائباً وسعود مجدك سامية
والنصر حولك حائماً وصدور ضدك حامية
مولاي أن أك شائقاً تلك البروق السامية
أغدو لمجدك رامياً ويد النوى لي رامية

ثم أبدى بعده الملك النعمان الهناء للأمير حمزة وأظهر سروره وأفراحه بنوال غايته وأنشد فقال .

بنت العلا قبل هذا البناء لذلك اضحى محل الهناء
رحيب الفناء رفيع البناء مشيد الثناء عزيز السناء
فاصبح وهو مقبل الضيوف عرين الأسود كناس الظباء
فلا زلت تلبس فيه الغنى وتسمع فيه لذيذ الغناء

وبعد ذلك تقدم أندهوق بن سعدون من الأمير وقبله وأذرف دموع الفرح وقال إني لمثل هذا اليوم السعيد كنت أشتهي وأريد حتى منَّ الله علي به وأوصلني إليه فأنا الآن من أفرح عباد الله أشكره على مثل هذه النعمة التي لا تعد ولا تحصى فساعة من ساعات هذا النهار كافية لأن تنسينا كل ما مضى علينا من المصائب والأهوال والغربة والمشاق ومحاربة الأعداء ثم أنه أنشد :

يا زهر روض يقتطف وهول تم في سدف
إشرب هنيئا فالطلا جلا شراب يرتشف
وأنشق أزاهر روضه خلنا شذاها المقتطف
وأطع نصيحك في الهوى ودع التحمل والكلف
يا من علا أعلى شرف إذ حاز بالنسب الشرف
أصبحت منهاج الهدى ونهجت منهج مر سلف
أوضحت شاكلة الصواب فكنت عن سلف خلا
وطلعت في أفق الزما نٰ طلوع نجم من سدف
لو لم يكن رواضا لما أبديت زهراً يقتطف
بابدر مجد قد أضا وسحاب جود قد وكف
لا زلت تبقى جامعاً جمل المحاسن والظرف
ولقيت أسباب الهنا ووقيت دائرة التلف
ما مد زاخر راجز وأبان درا في صدف

فشكر الأمير حمزة من محبة أندهوق وأثنى عليه مزيد الثناء لعظم ما أبداه نحوه من الشعور

والاحساسات الصادقة التي لم تكن وقعت بين أخين أو صديقين قبلهما ثم جلس اندهوق في كرسيه فتقدم بعده المعتدي حامي السواحل وقبل الأمير وأظهر مزيد سروره وفرحه بزفافه وشعوراً بذلك أنشد :

آلى الزمان عليه أن يواليكا ... يثني عليك ولا يأتي بشانيكا
فإن سطا فبأحكام تنفذها ... وإن سخا فبفضل من مساعيكا
ليهن ذا العرس حظ منه حين غدت ... علاه ثم حلاه من أياديكا
مجملاً بأياد منك فائقة ... معطراً بغوال من غواليكا
وافي يهنى بك الدنيا ونحن به ... يا بهجة الدين والدنيا نهنيكا
من يضاهيك فيما حزت من شرف ... ومن يدانيك في حكم ويحكيكا
فالشمس مهما ترقت فهي قاصرة ... عن بعض أيسر شيء من مراقيكا
والبدر لمحة نور مُنك نبصرها ... والبحر قطرة ماء من غواديكا
وكل طور تسامر فهو محتقر ... إذا بدت وهدة من نحو واديكا
وكل مجد فمن علياك مكتسب ... وكل فخر تراه من حواشيكا
وما حكى السلف الماضي وحدثنا ... به من الفضل بعض من معانيكا
تعنو لعفتك الزهاد مذعنة ... ويحسد الفلك الأعلى معانيكا

ثم بعد أن جلس المعتدي حامي السواحل نهض قاهر الخيل وهنأ الأمير وأظهر فرحه وسروره وشار مادحا :

يا ابن الأماجد أنت من ... أي الأفاضل وابن من
كذب الذي حسب الزما ... ن أتى بمثلكموا وظن
أيقاس ما غرس العلا ... يوما بخضراء الدمن
والآل بالغيث المغيـ ... ـث إذا توالى أو هتن
والمجد سار إلى جنا ... بك من أبيك على سنن
وبك المناصب فخرها ... دون الورى من قبل أن
فإليك مني روضة ... بالشكر يانعة الفتن
لم لا يطير بي الرجا ... ء إلى حماك مدى الزمن
وبذرت لي حب المنا ... ونضبت لي شرك المنن
وملكت رق مدائحي ... بالخلق والخلق الحسن

وما برحت الفرسان واحد بعد واحد تهنيء الأمير وتمدحه حتى فرغ الجميع وانقضى النهار وجاء الليل وصرفت السهرة على مثل ذلك ومن ثم جاء الأمير حمزة صيوان مهردكار

فوجده مزيناً بالزين الفاخرة ومكللاً بالزهور الزكية الرائحة البهية الألوان وروائح العطر والند تنبعث منه ونظر إلى مهردكار فوجدها كأنها البدر في رائعة النهار وقد برزت بحلة مزركشة نظيفة ووضعت على رأسها إكليل من الزهور البيضاء يتخللها بعض زهرات حمراء وزرقاء ومنتورية وأفرغت عليها أيضاً كل حلاها وجواهرها التي جاءت فيها من بيت أبيها حين خروجها مع أندهوق ابن سعدون حتى خيل له أنها من أبدع حوريات الجنان قد جاءت إليه نعمة من ربه ولما رأته وكانت بانتظاره وقفت إكراما له وتقدمت منه وقبلت يديه فقبلها في خدها وكان بشوق زائد إلى قتل هيامه وغرامه وما لاقى من شدة الفراق والوله في السنين الماضية فتناولها وصرف ليله على الحظ والراحة والهناء والمسرة يقوم ويقعد ويسكر ويخمر وهي تبدي له كل ما في وسعها لسروره وانشراح صدره غائبة عن الصواب لعظم ما نالها من المسرات لا تصدق أنها في نفس تلك الليلة ولا تصدق أن الأمير قد قرب منها وأصبح زوجها شرعا وفعلا وصارت منذ ذلك الحين امرأته المعروفة عند الخاص والعام وما برحا على مثل تلك الحالة حتى أغاضتهما مفاجأة الصباح وكدرتهما رحلة الليل الذي كان عليهما أقصر من شبر النملة وحينئذ نهض الأمير إلى ثيابه فلبسها وتزين وخرج بعد أن وعد مهردكار إلى العودة في غير ليلة وجاء إلى صيوانه فوجد أمراء العرب وملوكها بانتظاره فترحبوا به وهنأوه بما لاقى وبانقضاء أشواقه . ومهردكار تحبل من الأمير بولد ذكر يدعى قباط ويكون سلطان العرب وحاكماً فيهم وفي تلك الليلة دخل الأمير معقل أيضاً بدرة الصدف ولاقى كل ما يسره وخرج مسروراً منشرح الصدر فهنأه الأمـراء والأعيان .

قال وصرف العرب ذاك اليوم بالفرح والمسرة والهناء والغناء وقد ذبحوا الأغنام والنوق وفرقوها على عموم الرعية وأطعموا الفقراء والمساكين وما بقي طرحوها في الفلاة لتأتي وحوش البر وطيور السماء فتشبع وتمتلىء بطنها فتدعوا لصاحب هذه الوليمة وتشكره وتهنيه بزفافه وتعلم أنه تزوج بمهردكار وعند انصراف السهرة ذهب الأمير معقل إلى صيوان ذات الجمال ودخل بها وصرف ليلة بالمسرة والانشراح ومعقل البهلوان هذا لم يأته ولد ذكر قط لا من ذات الجمال ولا من درة الصدف وجاء الأمير حمزة في نفس تلك الليلة إلى صيوان الأميرة سلوى فكان مزينا بكل زينة فاخرة ولم يكن أقل بهاء من صيوان مهردكار فلاقته وترحبت به وقبلت يديه وأبدت له كل مؤ انسة وملاطفة واستئناس وجلست وإياه على سفرة المدام إلى أن لعبت الخمرة برأسيهما فنهضا إلى المنام وقد تقدم معنا أن الأميرةسلوى كانت بأعلى درجةمن الجمال والإقدام فسلمت بنفسها إلى الأمير وكان حظها منه في تلك الليلة نفس حظ مهردكار إلى أن أشرق الصباح فخرج إلى الصيوان العام وكان ذاك اليوم هو الأخير من أيام الأفراح فبعد التهنئة والثناء على الأمير ختم العرب أفراحهم بالصلاة والشكر لله على توفيقهم ونجاحهم وعلى ما أولاهم من الفوز والنصر والتوفيق ودعوا لأميرهم بالبقاء وطول العمر ودوام السعادة والإقبال وبقي العرب عدة أيام بعد

ذلك في تلك الأرض والأمير يصرف أكثر وقته عند مهردكار وهو لا يمتلىء من حسنها ولا يفتر عن اشتداد غرامه وكانت هي ترى من نفسها أنها في مجرى السعادة والاقبال وأن العذاب والمشاق قد انقضى ولم يعد إليها الدهر بما تكرهه ولا ترغب فيه وقد غاب عنها أن الدهر كثير الغدر إن أضحك يوما أبكى أياما وإن ذاقها ساعة حلاوة عيشة أشبعها سنين مرارات غدر وكيد فما كانت تلك الأيام إلا وسيلة عذاب تتذكرها عند أحزانها ومصائبها وتتمنى بتحرق رجوعها وتندم على فواتها لتقيس بينها وبين ما تلاقي في زمنها الآتي إذ ما من وسيلة لرجوع السلام بين أبيها وبعلها » وأما الأميرة سلوى فإنها كانت تصرف كل عنايتها وجهدها لتجعل الأمير ينصف بينها وبين مهردكار فلم تنتفع من ذلك ولا قدرت عليه لأن الأمير لم يكن ظالما غير أن قلبه كان مولعاً كل الولوع ببنت كسرى وما صدق أن نال مراده منها وصارت زوجته فكان لا يأتي سلوى إلى في الأسبوع مرة أو في كل أسبوعين مرة وهي صابرة عليه مؤملة بأن هذا الحب لا بد أن يقل من جهة مهردكاز ويضعف فيعاملها مثلها غير أنها كانت في الأخير تراه قد اشتد وكثر وعظم وفتر من جهتها وبرد فأغاظها ذلك ورأت نفسها أنها حامل ففرحت وأقسمت أنها تفارق الأمير والعرب وتذهب إلى مكة فتلد هناك ولهذا عندما زارها الأمير وجدها قد هيأت ملابسها وكل احتياجاتها فتعجب منها وقال لها لما ذلك قالت إني أريد أن أذهب إلى مكة المطهرة إلى أمك وأبيك وأنتظر هناك قدومك وأنا بانتظارك لأسألك أن تبعثني إلى هناك قال هذا لا يمكن ولا أريد أن تفارقيني قالت أني وطدت العزم ونويت كل النية فإذا شئت أن ترحمني ولا تظلمني لا تمنعني عن غايتي وإلا فإني أموت في الحال فلا خير في البقاء فجعل يتلطف بها ويعدها بكل خير وهي لا تقبله ولا ترضى أن ترجع عن عزمها وفي الصباح أخبر أخاها بذلك وسأله أن يترضاها ويسألها البقاء بين العرب فذهب إليها وأخبرها بما طلب الأمير فأبت وقالت إني لا أطيق البقاء وأريد من كل قلبي ونيتي أن أذهب إلى الحجاز وأقسمت الأقسام العظيمة أني لا بد أن أسافر أو أموت ولما رأى الأمير أن لا بد من مبارحتها ومسيرها إلى مكة دعا بالأمير عقيل وطلب اليه أن يسير إلى مكة المطهرة مع الأميرة سلوى وأن يصحب معه كل ما يحتاجه من المؤن والخدم والرفاق ودفع اليه كل شيء ثم إن الأمير ودع سلوى وبكى لفراقها وخرج مع أخيها وباقي الأعيان لوداعها يوم كامل وعاد حزيناً على بعدها لأنها زوجته وأخت أكبر فرسان قومه ومساعديه في ضيقاته وشداته وبعد أن رجع دعا بفرمز تاج أخا مهردكار وقال له أنت مخير الآن بالبقاء عندنا وبالذهاب إلى بلاد أبيك فاختر لنفسك ما يحلو قال أريد أن تسمح لي بالذهاب إلى بلادي لأخبر أبي بما فعلت معي من الجميل وأريد أن أكون واسطة صلح بينك وبينه عسى أن الصدف تساعدني فأكيد بختك وأفوز بالمطلوب . فأجاب الأمير حمزة طلبه وجهزه بموكب عظيم من خدم وعبيد ومواش ونوق يستعين بها في سفره وخرج مع سائر ملوك العرب وفرسانهم لوداعه وودعته أخته وبكت لفراقه وبكى لفراقها وسألته أن يجهد نفسه إلى مصالحة العرب والعجم قال وصرف العرب مدة

ستة أشهر في طنجة الغرب بعد تفريق جيش كسرى وارتياح ضمائرهم وهم براحة واطمئنان . وبعد ذلك اجتمع العرب بأجمعهم في صيوان الملك النعمان وتفاوضوا فيها يفعلون إذ ليس من الصواب أن يبقوا في تلك الأرض وأن من الضروري أن يعرفوا غاية كسرى وماذا يقصد وهم مؤكدون أنه بعد هذه الكسرة لا يسكت ولا بد من العودة ثانياً إلى القتال أو استعمال وسائط أخر لإذلالهم وكيدهم فقال الأمير عمر إن من رأيي الذهاب من هنا إلى مدينة حلب فنقيم هناك ونستخبر عن العجم وملكهم ونعرف هل في نيتهم القتال أو الصلح والسلام . فأجاب الجميع هذا الطلب ورأوه عين الصواب وعليه صدر أمر الأمير حمزة بالاستعداد للركوب والمسير عن تلك البلاد ليروا ما كان من أمر عدوهم فاهتم العرب بالرحيل واستعد كل واحد إلى السفر حتى كان صباح يوم ركب الأمير حمزة على جواده اليقظان وتقدم في أول الفرسان وركب من بعده كل فارس وبطل وركب النجاشي برجاله الحبشة وعمر الأندلسي بأبطاله الأندلسيين ورحلوا عن تلك الأرض وبارحوها بعد أن أقاموا بها عدة سنين وقد ملأوا السهل والجبل ومواشيهم ونوقهم وأنعامهم تكاد لا تحصى كلها من أموال كسرى أنو شروان وما نهبوا وسلبوا منه وداموا على مسيرهم مدة أيام وشهور حتى وصلوا إلى مدينة حلب وتبينوا أسوارها فبعثوا برسول إلى نصير حاكم المدينة فسر جداً بقدومهم وكذلك أهل البلد لأنهم كانوا من الطمع على جانب عظيم يحبون الأرباح فيكسبون من العرب الأموال عند حلولهم عندهم .

ثم إن نصيراً خرج برجاله وأعيانه إلى ملاقاة الأمير حمزة وقومه ولما التقى بهم ترجل وترجلوا وسلموا على بعضهم البعض ثم ساروا حتى وصلوا من ضواحي المدينة فضربوا خيامهم وتفرقوا من حواليها كل فرقة في ناحية وبعد أن أقاموا مدة ثلاثة أيام دعت العرب بنصير الحلبي وقالوا له نريد أن نعرف ماذا جرى على كسرى وهل عندك طرف من أخباره قال إن أخباره كانت قد انقطعت عنا ولم نعد نسمع عنه شيئاً مدة طويلة غير أن بعض المسافرين في هذه الأيام الأخيرة أخبر أنه رأى عساكر قد جاءت إلى المدينة المدائن ونزلت حواليها ولا أعرف غير ذلك فقال حمزة إن كشف أخبار العجم لا بد منه ولا بد منه ولا يقدر على ذلك إلا عمر العيار فقد يمكنه الذهاب وكشف الأخبار دون أن يطلع على أمره أحد ثم أمره بالمسير إلى بلاد كسرى وأوصاه بأن يقبل عنه أيادي بزرجمهر ويستشيره في كل أعمالهم فأجاب وفي الحال غير ملابسه وتزيا بزي الأعجام وانطلق في بر الله الأقفر مدة أيام وليال حتى وصل إلى المدائن فرأى العساكر متجمعة هناك وقد سدت الفضاء شرقاً وغرباً جنوباً وشمالا فثبت عنده أن كسرى لا يزال على عناده فتخلل الجيوش وهو يتفرج عليها حتى جاء أبواب المدينة ودخل منها فلم يعرفه أحد ثم جاء الإيوان ووقف بين الحجاب يراقب أعمال كسرى وقد لاحت منه التفاتة إلى الداخل فرأى كسرى كعادته جالساً في صدر الإيوان وحوله وزراءه وأعيانه ورأى رجلاً عظيماً عن يمين الملك يقاربه بالعظمة والجلال وهو وحوله وزراءه وأعيانه ورأى رجلاً عظيماً عن يمين الملك يقاربه

بالعظمة والجلال وهو لابس ملابس الملوك الكبار أصحاب التيجان والصولجان وعن يسار كسرى أيضاً غلاما أمرد الوجه أبيضه لا نبات بعارضيه وعليه ملابس كبار الفرس وكسرى يقدم لهما الإكرام والاحترام . فقال في نفسه لا بد أن يكونا من عظماء الفرس وقد دعاهما لمعونته وصبر إلى المساء ليسأل بزرجمهر عنهما وما صدق أن أقبل المساء وانفض المجلس وذهب كل واحد في ناحية فسار عمر في أثر بزرجمهر إلى أن دخل قصره فقرب منه وحياه وقبل يديه فعرفه وفرح به وسأله عن أخيه والعرب فقال له هم بخير وقد جاءوا إلى مدينة حلب يراقبون أعمال كسرى وقد بعث بي الأمير حمزة إليك لأستشيرك في أمر القتال ولأقف منك على حال الأعجام وما كان من أمرهم وماذا يقصدون أن يعملوا قال إن كسرى بعد أن انهزم من أمام وجه العرب جاء سبنير مدينة الأكاسرة التي أصلهم منها فأقام هناك مريضاً ستة أشهر ولما شفي وعادت إليه صحته جاء المدائن وهو مكدر مغتاظ عن عزم ما لحق به وبختك يزيد في غيظه ويعظم في وجهه ذنبكم وفي ذاك الوقت وصل إليه ابنه فرمز تاج وأخبره بما كان من أمر زواج أخيك بمهردكار وعرسه فزاد هذا من غيظ كسرى ولم يسمع لنصيحة ابنه الذي سأله أن يترضى العرب ويحسم النزاع بينهما بل أن بختك بهت وقال له على ما يظهر أن العرب ينوون خلع مملكتك وخراب بلادك وربما موتك ولو كانوا كما يزعم فرمزتاج لما هجموا على صيوانك وأخذوا بيكار الاشتهار وهو العلم الفارسي الذي من ملكه ملك العجم وكان حاكمها وعلى هذا فيكون في نية حمزة أن يجلس على كرسيك إما في حياتك وإما بعد موتك حيث أن نسبه قد اتصل بنسَبك وتزوج ببنتك وجميع قبائل العرب والعجم تخافه وتخشاه فلا يرى ممانعاً ولا مدافعاً ففي صلحه خطر عظيم علينا أكثر مما في حربه فمال كسرى إليه ونوى على تجدد الحملة على العرب وكاتب البلدان أن يمدوه بما أمكن من العساكر والجيوش والفرسان فوردت عليه ولا تزال ترد .

قال إني أرجوك يا سيدي أن تفيدني عن الرجل العظيم الذي كان جالساً إلى يمين كسرى وعن الغلام الذي كان إلى يساره فإنهما على ما يظهر من الأجلاء الفخام أصحاب المناصب العالية . قال أصبت فإن الرجل العظيم هو ابن عم كسرى واسمه أفلنطوش وأما الذي تقول عنه غلام فهي أنثى لا ذكر غير أنها تدعي أنها من الأبطال وقد تعهدت لكسرى ووعدته بقتل الأمير حمزة واسمها طوربان بنت ابن عم كسرى والآن كل الرجاء والمعول عليها وقد تعلقت الآمال بها وتيقن كسرى أن طوربان قادرة على قتل الأمير فضحك عمر وقال أكان من البنات أن يعدن بقتل الأمير حمزة ولا بد إذا سمع بذلك يغتاظ ويقصد العجم إلى هذه البلاد ليرفع الطمع من رؤوسهم ثم أن عمراً استشار الوزير في كيف يكون القتال . فقال له كسرى لا بد أن يقصد حلب فالتقوه هناك ولا بد أن الله سبحانه وتعالى يزيد في نجاحكم وإني على الدوام أدعو لكم لتذلوا دولة الكفر وترفعوا كلمة الإيمان فاقرأ مني السلام ملوك قومك ولا سيما أخاك وأوصيه أن يبقى على عناد كسرى إلى أن يفوز بالمطلوب فان هذه غاية الحق سبحانه وتعالى نعم

أنه سيمر عليكم أيام نحوس وتلاقون تأخيراً في أماكن كثيرة غير أن الله معكم ولا يسلم بأخيك للأعداء مهما جرى عليه . فشكر عمر من الوزير وقبل يديه وخرج من عنده وجاء إلى مدينة حلب ودخل على العرب فتلقوه وترحبوا به وشكروا مسعاه بسرعة القدوم وقال له حمزة أخبرنا ماذا رأيت وهل أن كسرى على نية القتال قال أنه لا يزال مصراً على أخذ الثأر وجمع القوات وقد رأيت حول المدائن جيوشاً كثيرة جمعت مجدداً فوق التي انهزمت معه ولما جئت إلى الإيوان رأيت ملكاً عظيما إلى جانب كسرى وغلاما إلى يساره وسألت بزجمهر أجابني أن الرجل المهاب هو أفلنطوش ابن عم كسرى والغلام هو بنته وتدعى البسالة والإقدام وقد وعدت بكسر العرب وقتل فرسانهم على أني رأيت منها جمالاً وبهاء وأنا أظنها فتى أعجبني فقلت في نفسي جعلها الله من نصيب العرب لأنها أشبه الناس بمهردكار في تقاطيع جسمها ولون وجهها وسود عينيها ومن لا يحقق النظر بينهما لا يعرف الواحدة من الثانية . فقال الأمير حمزة وهل هذه وعدت بقتلي . قال نعم ثم أخبره أيضاً بما قال الوزير عن أيام النحوس وعن البقاء بحلب . فقال حمزة من يعرف إلى أي زمان تكون مدة إقامتنا وأعرف جيداً أن كسرى يحب التطويل لأنه في بلاده ونحن غرباء في هذه الأرض ومرادي أنهي أمر هذه الحرب وأرجع إلى مكة المطهرة أقيم عند أبي وأهلي فهلم بنا نركب في الحال ونسير في عرض البحر وتفاجىء كسرى دفعة واحدة فنمتلك بلاده ونطرده عنها فالوقت أصبح على النهاية بيننا وبينه ثم أن حمزة نهض وأعلن بين العرب الاستعداد للرحيل بعد قليل من الأيام وكان أكثر الفرسان والأبطال والقواد والجنود قد أخذوا لهم زوجات من نساء حلب واختلطوا بهم كل اختلاط .

وبعد نحو خمسة أيام ركب العرب بأجمعهم مع من انتصر لهم وساروا عن مدينة حلب يقصدون المدائن وفي مقدمتهم الأمير حمزة وهو كأنه البرج المشيد مدجج بالسلاح ومن تحته جواده اليقظان كأنه السرحان وفوق رأسه بيكار الاشتهار يلوح ويخفق ويلمع بما عليه من الذهب والجواهر ويظهر للرائي أنه أعظم الأكاسرة وأكابر الملوك العظام وبين يديه عمر العيار نقمة الإنس والجان وعفريت ذاك الزمان وهو يقفز كالغزال وينطلق بأسرع من ريح الشمال تارة إلى اليمين وطوراً إلى الشمال وقد وزع بعياريه تسير بين أيادي الفرسان وأمام هوادج النساء وما برحوا يتقدمون حتى جاءوا المدائن وتبينوا أسوارها ورأوا ما حولها من الفرسان فعرجوا إلى ناحية متسعة وضربوا خيامهم بها ونصب الأمير حمزة صيوان اليون شاه في وسط المعسكر وضرب عند بابه علم بيكار الاشتهار وضربت صواوين الأمراء والملوك من حواليه وسرحت من خلفهم النوق والفصلان . وبلغ كسرى خبر إتيان العرب ففرح وقال لقد قربوا علينا الطريق ولا بد من هلاكهم في هذه الأرض لأننا في بلادنا نقاتل براحة واطمئنان وننام عند نسائنا وفي أسرتنا ثم أمر أن يخرج امراؤه وتنضم إلى المعسكر فخرج الجميع وخرج هو أيضاً وضرب له صيوان في نصف المعسكر ونظر إلى جهة العرب فرأى انتشارهم وكثرتهم وشاهد

صيوان حمزة وهو كأنه الكواكب اللامعة تضيء في وسط الظلام فاستصغر نفسه وحكمته واحساساته بفضل الأمير حمزة وأنه مسعود الطالع موفق الأعمال وأن شأنه يعلو ويرتفع على الدوام ولما وقعت عينه على بيكار الاشتهار ورآه مضروباً أمام الصيوان انفطرت مرارته وكاد يغيب عن صوابه والتفت إلى وزيره بختك وقال له ألم ترى إلى صيوان حمزةوحسنه وكيف أن بيكار الاشتهار مضروب أمامه فقد غاب عني وعيي وطار عقلي قال ألم أقل لك أن العرب يحبون العظمة والفخار وأنهم يقصدون منك نزع سلطتك شيئاً فشيئاً لتكون لهم ويقيمون الأمير حمزة مكانك فيها إنه يقتدي بك ويظهر بعظمتك حتى كل من رآه لا يظن أنه أنقص مقاماً منك لا سيما وقد أخذ علم العجم الذين يجتمعون تحته وهو من عهد أجدادك وآبائك إلا أني أعدك أن في هذه المدة لا بد من إبادة العرب وكسر شوكتهم وانقراضهم وعندي ببركة النار أن تكون هذه الأيام آخر أيامهم فنجعل بطول أرضنا مدافن لهم وكان أفلنطوش حاضراً . فقال إني أقسم بالنار والنور وتربة ناسابور لا بد لي من اذلال العرب وهلاك الأمير حمزة وكل من انتصر له في هذه المرة ونزع علم بيكار الاشتهار بأقرب وقت ونهب كل الأموال والأمتعة التي معهم ولا سيما هذا الصيوان الذي أراه أعظم من صيوانك وأبهى .

قال وباتوا تلك الليلة في ذاك المكان على نية أن يباركوا إلى الحرب أو القتال وفي الصباح نهض كسرى من منامه وركب جواده وتقدم في الوسط محاطاً من الحجاب والحراس وحركت أفلنطوش وبنته طوربان وزوبين الغدار وهو إلى جانبها ينظر اليها وقد وقعت من قلبه وحركة خبثه الى زواجها فأراد أن يريها قتاله في ذاك النهار وكذلك ركب العرب من كبيرهم إلى صغيرهم وتفرقوا ذات اليمين وذات الشمال وفي مقدمتهم الأمير حمزة البهلوان فارس الانس والجان وهو على جواده اليقظان اعظم من كسرى انوشروان . ولما رأى أن جيوش العجم قد صارت في وسط الميدان أطلق لجواده العنان ولما صار في الوصط التفت إلى جيوشه وأشار اليهم بالحسام أن يهجموا من اليمين والشمال ويتبعوه في الحال . واقتحم ذاك البحر العجاج المتلاطم بأعظم الامواج وهو ينادي ويلكم عبدة النار ونسل الاوباش والاشرار. قد عدتم إلى الحرب بعد ذاك الانكسار. وما وعيتم إلى أفعال حمزة مذل كل جباره ومبيد كل فارس مغوار فاليوم آخر الأيام عليكم فاستعدوا للفناء والبوار. ولم يكن الا قليل من الوقت حتى انتصب سوق الحرب واضطرمت ناره بلهيب الاشتعال وقامت القيامة من كل ناح وعلا الصراخ والصاح والتقى كل خصم بخصمه يقصد إعدامه ومحو اسمه فغنى السيف القرضاب في حكم الرقاب واتخذ له في الصدور مقالاً رفيعاً وفصل بين الاجساد والارواح فصلاً شريعاً فكم من رأس قد طار في ذاك النهار وكم من دم قد فار واندفق إلى الأرض كالأنهار فعظم الخطب وعم الكبار والصغار فوقع السلب والقتل في كل ناح تحت ذاك الغبار الذي ارتفع واتسع بانتشار وحجب من الشمس أنوارها وأخفاها عن الأبصارحتى ضاقت أنفاس الفرسان وتمنت الموت والقلعان وشرب كأس

الهوان ولا الرجوع بالخيبة . وكان زوبين يقاتل في ناحية منفردة من المعسكر وهو يلحق بطوربان وهي تبعد عنه وتنفرد من مكان إلى مكان حتى أخيراً تركت القتال وضجرت من فعل هذا الخبيث الخوان لأن نفسها ضجرت كل الضجر وكرهت في الحياة من أن ترى ذاك الوجه القبيح المهان . وأما الأمير حمزة فإنه أجهد نفسه بالحرب وجود الطعن والضرب فقلب الميامن على المياسروالمياسر على الميامن وبدد الفرق في كل الجهات وأنزل عليهم ميازيب الويلات والحسرات ورماهم بشهب الهلاك والممات وبرماح الفناء والشتات فكان أينما حل تفرقوا واضطربوا وما لرامن أمامه وهربوا أملاً بالنجاة وطمعاً بالحياة لأن عزرائيل الأكبر كان يرافق حسامه فلا ينفك عنه لرواج عمله ومهنته وكان الفرس أينما يروا حزات العرب واقفة فإن أندهوق بن سعدون لم يقصر في ذاك النهار وقاتل قتال كل صنديد جبار وفعل مثله المعتدي نسل الأخيار وقاهر الخيل البطل المغوار ومعقل البهلوان وعمر الاندلسي وكل فارس كرار وما صدق الاعجام أن مالت الشمس الى الغروب وضربت طبول الانفصال حتى تركوا الحرب والنزال وعرجوا عن ساحة القتال ورجع فرسان العرب كأسود الدحال متكدرين من فراغ ذاك النهار وانقراضه دون نوال المراد من الاعجام الاشرار قال وبات الفريقان يتحارسان إلى ان أشرق صباح اليوم الثاني فعادوا إلى ما كانوا عليه من القتال وخوض معاً مع النزال فاقتتلوا والتحموا وصرفوا ذاك اليوم بحالة اليوم الأول بل اعظم منه إلى المساء فرجعوا عن القِتال إلى اليوم الثالث وداموا على مثل ذلك مدة عشرة ايام حتى وقع النقص بالعجم ورأوا سرعة انقراضهم وعرفوا اكيداً أنهم إذا قاتلوا مدة خمسة ايام أخر لا يبقى منهم ولا نفر ولذلك دعا كسرى بقومه وقال لهم إن النصر سيكون للعرب على كل حال لأنهم قد طالوا واستطالوا ونالوا كل ما تمنوه وعن قريب يدخلون المدينة ويجلسون على كرسي الاكاسرة فانظروا في أمر نرى به الفرج والا دخلنا وقفلنا الأبواب وحاصرنا في الداخل إلى أن نرى الفرج وتنعم علينا النار بركتها وتبعث لنا بالنصر فقال بختك اني ادبر هذا الأمر بنفسي وفي الغد يكون النصر إن شاء الله عن يد زوبين الغدار فيقتل حمزة ويتبدد من بعده قومه وكان زوبين في كل هذه المدة مشغل البال من جهة طوربان ومتكدر من نفورها منه وكرهاً فيه وتركها القتال وقد قرب منها ذات يوم وقال لها لما هذا النفار يا ذات الجمال ألا تعلمي إني سيد في قومي وعليّ المعول في حرب العرب والعجم . قالت أني أكرهك كل الكره ولا أريد ان انظر في وجهك ولذلك تراني أرغب البعد عنك وأنت تتبعني وتقصد القرب مني قاصداً بذلك عذابي فأرجوك ان تبعد عني ولا تدنو مني قال لما هذا البغض ألا تعلمين ان الملك كسرى الذي هو سيد ملوك الأرض كان راض في ان يجعلني صهره ويقربني منه ويزوجني بمهردكار فهل أنت اعظم من بنت عمك قالت إني أكره فيك لانك رجل غدار وقبيح المنظر فما عمي كسرى الا مجنون حيث يريد أن يجعلك صهره ويترك مثل الامير حمزة الذي لا نظير له في هذا الزمان . ثم أعرضت عنه وأظهرت له الجفاء فانفطرت مرارته واغتاظ

كل الغيظ وقال في نفسه إني سأصرف الجهد إلى مراضاتها وأسأل بختك في أن يسعدني في ذلك وإلا غدرت بها واغتصبتها وجعلتها عبرة لغيرها وأذللتها فتلتزم أن ترضى بي دفعاً لمصيبتها. وكان خبثه وخداعه يزين له كل عمل شرير .

ولما كان ذاك اليوم رأى باباً للفرج في أن يخبر بختك إذا انفرد به وعندما وعد بختك كسرى بأن النصر سيكون على يده فرح وقال لابد أن يكون قد دبر حيلة على هلاك حمزة فصبر إلى أن دعاه بختك وذهب به إلى داخل المدينة وجاء بصندوق ففتحه وأخرج منه ثلاث حراب وقال له اعلم يا زوبين أن ذخائر الفرس في يدي وتحت أمري وأنا الموكل عليها ولذلك اريد أن تعرف فعل هذه الحراب فهي حادة سامة إذا لمست الجسم سرى السم إليه كله ولذلك أبرز في الغد إلى الأمير واسأله إن تضربه ثلاث ضربات بها وأغدر به وأجهد نفسك ان تصيبه فانه لا يلبث أن يموت بمدة أربع وعشرين ساعة . قال إني اعرف إن في ذلك خطر عظيم غير أني سأسلكه فقط أريد منك المساعدة بأمر واحد قال وما هو . قال إني كنت مؤمل قبلاً بزواج مهردكار حتى خرجت من يدي وتزوجها حمزة ولم يبق لي قط مطمع بها ولذلك علقت نفسي وأملي بطوربان بنت افلنطوش وأريد منك المساعدة بأن أزف منها ، قال إني سأجهد نفسي في ذلك وهذا امر سهل علينا ولا اظن انها تمنع عنك . قال إني ألاحظ نفوراً وجفاء . ثم أعاد عليه امرها فقال أنها وإن تكن قد امتنعت فإن أباها سيحل هذه العقدة ويجبرها بطلبي وطلب الملك كسرى إلى القبول فهي في يدنا وتحت أمرنا ومتى قتلت حمزة كان لك أكبر حق على مملكة الفرس فلو طلبت نصفها سلمناه اليك وفوضناك أمره فانشرح صدر زوبين وفرح مزيد الفرح بوعد بختك وأخذ الحراب الثلاث وهو مضطرب البال يرغب في النجاح لينال المراد ويروي امامه صعوبة عظيمة بالوقوف في ساحة القتال امام الأمير حمزة عدوه الالد لا سيما وإن له عليه اعظم ثأر وهو يتمنى ان يراه وكان يعرف من نفسه انه لا يقدر أن يثبت أمامه وهو ممن يلقاه في ساحة القتال غير انه وطد العزم على الخداع وهون له حبه سلوك سبيل الخطر والخوف .

ولما كان صباح اليوم التالي ضربت طبول الحرب والكفاح واصطفت الجيشان وعوله حمزة على الهجوم وإذا بزوبين الغدار قد صار في الوسط وصال وجال ولعب على أربعة أركان المآل فامتلأ قلب حمزة فرحاً وسر مزيد السرور وأمل انه في نفس ذاك اليوم يأخذ بثأره منه ولذلك اطلق لجواده العنان حتى صار مقابل زوبين وقال له لقد فعلت حسناً في هذا النهار لأني كنت في وقت القتال افتش عليك فلا أراك والآن ترى الفرسان ما يكون بيني وبينك ويعرف العام والخاص والحقير والأمير نتيجة الغدر كيف تكون .

قال اعلم اني ما برزت إلا بقصد قتالك وإني اريد أن أبارزك على مرأى من الجميع لا طمعاً بأن أفوز بالنصر عليك بل كرهاً بالحياة لأني اعرف انك أشد بأساً مني ولا أقدر على قتالك

وحربك ونزالك ولا احد من فرسان هذا الزمان يثبت أمامك وينال الغرض منك . نعم إني غدرت بك في الأول وأنا اجهل قدر شجاعتك وأرغب في زوجتك وأما الآن وقد أختبرت كرمك وإنصافك في القتال وقطعت الأمل من الوصول الى مهردكار أفأردت ان أقتتل وإياك ساعة واحدة لا غير ولابد لأحدنا ان أن يفوز بالمطلوب فلا نتحارب ضرباً وطعناً وذهاباً وإياباً إلى غير ذلك بل أريد أن تضربني برمحك أو بسيفك أو بهما شئت ثلاث ضربات حتى إذا خلصت منها وبقيت حياً عدت فضربتك بثلاث حربات معي وإذا لم ابلغ المراد عدت إلى ما كنت عليه أي أستأنفنا الضرب إذا أن يفوز أحدنا بالظفر . فقال حمزة إني منصف بالقتال فلا امنع خصمي من إرادة شيء يريده ويتمناه فافعل ما أنت فاعل فأضربك برمحي وأنت بحرابك وكان زوبين يعرف جيداً أن حمزة كثير الانصاف وعظيم المروءة فلا يقبل أن يكون هو البادىء بالعمل فاضرب بدورك وأنا استعد للمدافعة عن نفسي . فقال الأمير حمزة هذا لا أريده ولا اقبل ولا يمكن ان أكون البادىء فاضرب حرابك اولاً ومن ثم أعود بدوري فأجاب زوبين وهو مسرور في الداخل وقد انتهى له كل ما أراد. ثم إنه أطلق لجواده العنان حتى رآه كل من الفرسان ثم وقف امام حمزة وتناول حرابه ورفعها بيده وزج بها الأمير فكان اسرع من البرق غط تحت بطن الجواد وأضاعها في الهواء . وبأقل من لمح البصر عاد إلى بحر سرجه وصاح بخصمه هات الثانية ولا تبطىء فتكدر زوبين من عدم نجاحه غير أنه أمل بالثانية فأخذها بيده ولعب بالهواء وزوج بها الأمير فمال عنها وعينه تراقبها فراحت بالأرض حتى امتلأ زوبين غيظاً وكدراً وكادت تشق مرارته وتنفطر ولذلك نوى على الغدر والخيانة وقال في نفسه إني لو ضربت الثالثة بالأمير فلا ريب أنها تذهب سدى لأنه فارس صنديد سريع الخفة بالقتال يسبق سرعة وقوع الحربة فلا ينال منه المراد. ولهذا من الواجب ان لا اضيع هذه الحربة فعوضاً أصوب بها إلى جسمه أرمي بها جواده فأقتله من تحته فيقع إلى الأرض فانحط عليه وأضربه بالرمح او بالحسام وانال منه الغاية ومن ثم رفع الحربة بيده بعد ان صال وجال وكان الأمير يظن انه يضربه بها حتى رآها قد خرجت من يده إلى صدر الجواد فطار صوابه وثبت في ذهنه بأسرع من لمح البصر أنها قاتلة الجواد إذا لحقت به ولذلك أرسل برجله بخفة عجيبة وعارض بين الحربة والجواد حرصاً عليه فأصابت الحذاء وخرقته وجاءت باللحم فجرحته وفي الحال شعر الأمير بأن ناراً التهبت في كل بدنه وشعلت في أحشائه وتمزقت عروق جسمه فرمى بنفسه على رقبة الجواد فكر راجعاً الى الوراء وكان زوبين قصد أن ينهي على الأمير لما شاهد حاله غير أن نبلة خرجت من يد عمر العيار إلى جواده فرمته من تحته ووقع إلى الأرض وأراد عمر ان ينقض عليه ويأخذ بثأر اخيه إلا أنه التهى بما رأى من ضياع الأمير وما حل به وخاف من ان يقع عن ظهر الجواد الى الأرض فأسرع اليه ومسكه وكانت مثله الفرسان قد ركضت وجاءت حول الأمير وأخذته من عن ظهر الجواد وهي منفطرة الفؤاد على حالته وهو لا يعي على أحد وقد امتلأ كل جسده من سم تلك

الحربة وأيقن انه هالك لا محالة فانزلوه في صيوان مهردكار وجاء اسطون وجعل يضع له المبردات والأدوية ليسكن بها مرضه وهو بحالة الغيبوبة لا يشعر بغير الالم والوجع وقام في الصباح في العرب في كل ناح وهم يظنون أن الأمير قد مات وفي تلك الساعة حملت فرسان العجم فرحة مسرورة ومؤملة بالنجاح والنصر والاصلاح فكدر ذلك فرسان العرب وتكدر أندهوق بن سعدون فنادى بأبطال العرب وقال ويلكم لا تدعوا المساء يأتي وفي العجم بقية رمق وإلا فموتوا في كيدكم وأرسل لفيله العنان وصاح المعتدي حامي السواحل من ملء رأسه وهو يضطرم بنار الغيظ وكذلك الملك النجاشي وعمر الاندلسي وقاهر الخيل وبشير ومباشر والأمير معقل وكل فارس وبطل فالتقت الرجال بالرجال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وتزعزعت الجبال وميلت من عظم صياح الأبطال فكانت وقعة عظيمة الاهوال تشيب لها رؤوس الاطفال واندهوق ينحط على تلك الخلائق انحطاط البواشق وهو يفرق الفرسان ويبدد الشجعان ويطلب ان يرى زوبين الغدار في الميدان فلم يقدر على ذلك ولا قدر أن يراه لأنه ترك القتال ورجع إلى الوراء وكذلك المعتدي حامي السواحل فانه أجرى الدماء من صدور الرجال وألقى الرعب على الفرسان والابطال وقلبه مشتعل وأي اشتعال على ما لحق بالأمير حمزة يطلب أن يأخذ به بالثأر في نفس ذاك النهار والحاصل ان كل فرسان العرب كانت تقاتل بجد واجتهاد طالبة ان يقع بزوبين الغدار فلم تنل من ذلك المراد وما برحت حتى ادخلت الاعجام الى الخيام وأنزلت عليها مصائب الحرب والصدام ولم يسرع الظلام لما رجعوا عن الحرب ولا تركوا الطعن والضرب غير أنه حالما أسود الليل ضربت العساكر طبول الانفصال ورجعت العرب على أعقابها مسرعة إلى صيوان أميرها لترى كيف حاله وما صار به في غيابها .

قال وكان الأمير حمزة في حالة يرثى لها وهو ملقى على فراشه يصيح من الألم ويتوجع الوجع الشديد لا يقدر على التقلب على جنبيه لا تبرد له غلة ولا يروى له كبد وأسطون الحكيم يداويه ويضع له الضمادات على جرحه ويسقيه المبردات فمنع اشتداد الألم كثيراً لكن كان لا يخفف عن حالته ولا يسكن الألم ولما رأى عمر العيار رجوع العرب منصورين قال لأندهوق ابق أنت عند أخي لا تفارقه الى أن اعود إليه بالدواء من الوزير بزرجمهر لأن هذا الداء علاجه عنده فقال له اسرع قبل ان تحل بالأمير مصيبة فنخسره فترك عمر العيار العرب بعد أن غير زيه وصار كواحد من الأعجام وجاء صيوان الوزير بزرجمهر فرآه فيه فقبل يديه وأخبره بغرضه قال ان الدواء حاضر وكنت اعرف انك لابد ان تأتي بطلبه فهيأته غير أني قلت لك قبلاً أن لا تأتوا المدائن ولا تحاربوا كسرى في هذه الأيام فكيف جئتم وخالفتم الزمان ألا تعلمون أن الإنسان تمر عليه الأيام والليالي فبعضها يحمل شراً وهذه الايام تحمل لكم الأذى والنحوس ومن اللازم ان تنظروا الأيام التي بها السعود والاقبال قال ان الحق بذلك على أخي لاني اخبرته بذلك فقال ان المقدور ما منه مفر وان قيامه بحلب يكون سنين واعوام فاراد حسم الحرب والرجوع الى مكة

بأمان واطمئنان قال هـذا بعيد عنه فإن كل أيامه تنقضي بين السيف والقنا فلا يرتاح إلا عندما يأذن الله باذلال الاعجام وقهرهم والآن خذ هذا الدواء واسرع الى أخيك في الحال وأخبر العرب ان يرحلوا في هذه الليلة ويقيموا في حلب إلى أن يأتيهم الفرج فان كل واحد يموت من العرب ظلماًمسؤ ول به الأمير وأما على حياته فلا خوف فهو سينهض من هذه المرة ايضاً كما في المرة الأولى فسر عمر من كلام الوزير وقبل يديه وشكره على معروفه وخرج من بين يديه بعد ان كتب كتاباً إلى اسطون الحكيم يقول له فيه أن يسهر على حياة سيد العرب ويشير إليه في كيفية استعمال العلاج .

ولما وصل عمر الى المعسكر وجاء صيوان أخيه وجد الناس لا تزال بـاضطراب وهي مزدحمةبكثرةمن حوله وكلهم يصيحون يالله ويطلبون إلى الله شفاء أميرهم فسكن خوفهم وقال إن الأمير بخير ولا يلبث ان يشفى ويعود الى ما كان ثم دخل الصيوان وقرب من أخيه وهو يتوجع ويتألم ودفع زجاجة الدواء والرسالة الى اسطون فأخذهما وسكب على جرحه من الدواء وسقاه حسبما أشار بزرجمهر وبأقل من دقيقة سكن الألم وخف قليلاً وجعل ان يهدأ روعه شيئاً فشيئاً وإذ ذاك قال عمر لأندهوق إن الوزير يأمرنا أن نرحل عن هذه الأرض في نفس هذه الليلة حتى إذا جاء الصباح لا يكون لنا أثر هنا وما ذلك إلا لعلمه اننا لا نفوز بالانتصار وأن يكن لنا بعض نصرات غير أن هذه لا تقف في وجه النحوس المقدرة علينا وهو يحتم بوجوب بقائنا في حلب إلى أن يصل إليناالفرج المنتظر فاجاب اندهوق وقال إن أمر الوزير لابد منه وهو نصوح للعرب محب لخيرهم ونجاحهم ولا ريب ان قيامنا بحلب الى حين شفاءالأميرأوفق من القيام هنا ومداومة الحرب وفي الحال اعتمد ملوك العرب وفرسانهم على الرحيل إلى حلب والبقاء هناك إلى ان يأذن الله بالفرج فسار كل واحد إلى رجاله وقومه وما مضى نحو ساعتين من أواخر ذاك الليل حتى أقلعت العرب عن تلك الديار وسارت في طريق حلب بعد أن حملوا الأمير في سريره على هودج محمول على ظهري ناقتين وعنده اسطون الحكيم على الدوام وفي النهار أيضاً مهردكار تلازمه ولا تفارقه .

فهذا ما كان من امر العرب وأما ما كان من أمر كسرى انوشروان ورجاله فانهم في المساء بعد الفراغ من القتال اجتمعوا إلى بعضهم وجاء بختك وزوبين وجلسوا كل منهم في مكانه وبختك مفتخر بنفسه وبعمل رفيقه وقال لكسرى الآن قد تحقق لنا النصر والظفر وفزنا بما نريد من قتل الأمير حمزة فقال كسرى وهل ثبت قتله وأخاف ان يشفى ويرجع إلى أخذ ثأره قبل أن نبدد قومه قال إن الحربة التي جرح بها هي سامة فإذا لمست الجسم سرى إليه السم فكم بالحري وقد جرح بها وعندي من المؤكد الثابت أن حمزة لا يعيش هذا الليل وفي الصباح تتأكد كلامي ويظهر لك صدق قولي فلله در هذا البطل زوبين فإنه ضربه ضربة صائبة وقعت في قسم من

جسده فالفضل الأكبر له ولا زال يمنع عنا الشدائد ويدفع المصائب والنوائب وكان بفكرنا ان تجازيه قبلاً بزواجه بمهردكار فلم يصل إليها لأنها هربت الى العرب وسارت معهم أينما ساروا واخيراً تزوجت من الأمير حمزة مغضوبة من النار مكروهة من قومها وعندي أن لابد من زواجه بسيدة تقابلها وتقارنها وتكون افضل منها عقلاً وأدباً وغيرة على قومها وأبناء جنسها فقال أن كسرى إن صح ما قلته من موت حمزة فلابد من تفريق العرب بعده وإذ ذاك اعد زوبين اني أزوجه من طوربان وأزيده فوق ذلك الإنعام والإكرام قال سوف ترى ما يكون في الغدولما سمع زوبين هذاالكلام فرح غاية الفرح وسر مزيد السرور وانشرح صدره وأمل نوال غايته وكيد طوربان التي رفضت جداً ونظر إليها مبتسماً ليرى دلائل وجهها فوجدها قد قطبت في الأول واضطربت ثم أظهرت عدم الاكتراث ونظرت إليه باستهزاء وسخرية وأعرضت بوجهها كأنها تقول له إذ مت ولقيت العناء لا يمكن ان تنال مني المراد فزادت هذه الحالة قلقه واضطرابه واغتاظ منها ولولا شدة حبه لعمل على الغدر بها واغتصبها في نفس تلك الليلة غير أن وعد كسرى له وأمله ببختك واقتداره على مساعدته حمله على الصبر والرضوخ الى استعمال الوسائط الحسنة فيكيدها ويرغمها على الزواج به وما صدق أن أنقضت السهرة حتى ذهب مع بختك وقال له أن وعد كسرى لي جعلني بأمان غير أن امتناعها يخيفني ويجعلني بارتياب من نجاح طلبي ولولا ثقتي بحبك لتأكد عندي كل التأكيد أن هذا الوعد لا ينتهي .

قال كن باطمئنان قبلت او لم تقبل فلابد من زفافك عليها بالرغم أو بالرضى فكن براحة وما علينا إلا تفريق العرب لأن حمزة سيموت لا محالة وضميري يخبرني بذلك ويدلني عليه وعندي أنه لا يغشني قط قال أني متكل على وعدك وقد لاح لي بعد ان نصرف الجهد الى اقناعها فإذا امتنعت غدرت بها ذات ليلة واغتصبتها وأرغمتها ان تقبل بي بعد ذلك بالرغم على أنفها وماذا يا ترى يقول أبوها والملك كسرى. فقال بختك أن هذا العمل يغيظهما ولكن افعله سراً فلا يعرفان به وهي لا يمكن ان تخبر عن نفسها به بل تظهر قبولها عن رضاء واختيار ولكن من اين لك ان تتوصل اليها وتقدر على اغتصابها وهي قادرة على مقاومتك وعنادك . قال اني لا أجيبها جهاراً وافاجئها وهي نائمة فأربطها بالحبل واخرج بها مع خادمي تحت ظلام الليل لأنها تنام في صيوانها لوحدها وبعد ذلك أعيدها . قال حسناً تفعل لكن هذا ابقه الآن إلى حين فراغنا من حرب العرب وتبدد شملهم وبعد العجز عن نوال المراد والزواج بها وإلا ما زال الملك يعدك وأنا اساعدك فلا بد لنا من الوصول الى المطلوب والغاية الوحيدة هي ان تصل إليها وتكون زوجتك ولم يكن بختك أقل غدراً وخيانة من زوبين الغدار قد استحسن فعله هذا ووافقه عليه عن رداءة طبع وشر موجود في قلبه لا يفارقه على الدوام وهو لا يعرف الفضيلة ولا عمل الخير ولا يرى من الحسن السلوك على طرق الآداب والمحافظة على الناموس وبعد ذلك ذهب زوبين الى صيوانه ودخله وقلبه مملوء من حب طوزبان وغير شخصها لا يلوح له ولا يفتكر

بمعنى غير معنى جمالها وقد زاد به الغرام والهيام ومن المقرر ان الجفاء يزيد بالمغرمين أسباب الغرام ويمكنهم من أن يثبتوا عليه إذا كان في قلوبهم جرثومته ولاسيما زوبين فإنه فرغ من مهردكار وقطع رجاءه منها وقلبه يكاد ينفطر كيف فضلت البدوي الأجنبي وعاندت اباها وتركت بلادها ولم توافقه على الزواج وهو كان يعد نفسه بالسعادة حالاً أي بالحصول عليها وبالتقرب من أكبر ملوك العالم وهو كسرى انوشروان صاحب التاج والإيوان بحيث يصبح صهره ويصير صاحب الأمر والنهي في بلاده وانقطع امله منها بزواجها وقلب حبه بغضاً وصار يتمنى أن ينتقم منها ومن الأمير حمزة لو أمكنه وبقي صابراً على المراد حتى تسنى له ان يرى طوربان ويشاهد فيها المعنى المنتظر وخدانية جمالها ورقة الفاظها وهي اصغر سناً من مهردكار لا تبلغ الثالثة عشر من العمر وصرف ليلة قلقاً بين الرجاء والأمل وحينما يفكر بوعد كسرى يطمئن باله ويقول نعم اني سأكون زوجها وهي تكون لي وفي يدي ولا تقدر ان تخالف عمها وأباها ثم يطرق ذهنه ما كان منها وكيف نظرت اليه مستهزئة به وبعد الملك فيسود قلبه ويتردد في إتمام امله ويقول أنها غير راضية من هذا لولا إصرارها على العناد لما فعلت ما فعلت .

ولما كان الصباح نهض كسرى أنو شروان وجلس في صيوانه ونهضت فرسان الاعجام على نية القتال في ذاك النهار فلم يروا أثراً لأعدائهم ورأوا أن العرب قد بارحوا تلك الديار ورحلوا منها فأخبروا كسرى بذلك فقال لقد صدق بختك وأصاب ولولا موت حمزة لما رحلت العرب لأنهم قد فازوا وقربوا من النجاح التام حتى لو كان حمزة حياً وانقرض العرب بأجمعهم وبقي هو وحده في قيد الحياة لما انهزم وترك القتال فقال بختك إني أعرف جيداً أن الحرب ستنتهي بالأخير لنا لأننا أكثر رجالاً وأعظم ملكا ووسائط النجاح عندنا كثيرة ولا سيما بيننا مثل زوبين الغدار صاحب البطش والاقتدار والمجد والفخار وأريد منك أن لا تنسى له هذه الخدمة ولا تتقاعد عن مكافأته قال إني أعرف فضله وأعترف به وأؤكد مساعدته لي الآن ولكن أنت تعلم أن العرب لم يزالوا متجمعين وربما عادوا إلينا ومن الصواب أن نرسل العساكر في أثرهم إذا عرفنا بأي طريق ساروا وأعظم غايتي هي حصولي على بيكار الاشتهار ولولاه لكنت أتغاضى الآن عن العرب وأترك قصاصهم ولكنهم هربوا وأخذوه معهم وفي نيتهم أن يداوموا على العصيان ولو كان فيهم العقل مقدار ذرة لكانوا أرسلوا إلي به وأبدوا طاعتهم واعترفوا بذنبهم وأنا أعرف أن الحق بذلك كله على الأمير حمزة فقال بختك لا ريب أن العرب رجعوا إلى حلب ليروا بأمر أنفسهم هناك فأرسل في أثرهم العساكر مع زوبين وأفلنطوش حتى إذا وصلوا إليهم سألوهم أن يسلموا بالعلم وبمهردكار والطاعة فاذا أجابوا أمنوهم على أنفسهم وتركوا حربهم وإلا فاجأوهم وباغتوهم بالقتال ونزعوا منهم كل راحة وبددوا شملهم قبل أن يرتاحوا فاستحسن كسرى هذا الرأي وطلب من زوبين أن يستعد للرحيل في اليوم الآتي مع عساكره ومع ابن عم كسرى أفلنطوش وبنته طوربان ويتأثروا العرب إلى حلب وأين كانوا ثم أوصى

أفلنطوش أن يكون في رأس الجيوش ويسير إلى حلب وأن يعتمد على زوبين ويتكل عليه في كل الأمور .

وفي اليوم التالي ركب أفلنطوش بعساكره وجيوشه وركب زوبين برجاله وفرسانه بعد أن أخذوا المؤ ن والذخائر وما يحتاجون اليه في هذه السفرة وفي كل نيتهم أن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات وصار يعد من سكان المقابر وأن العرب بعده ستسلم إلى كسرى وتنقضي هذه الحرب ولا زالوا سائرين مدة أيام وليال حتى جاءوا حلب وشاهدوا أن العرب هناك وقد وصلوا إليها قبلهم بيومين ودخلوا المدينة وأقاموا بها وكان الأمير حمزة قد اتجه إلى الصحة والعافية وصار يقدر على الخروج إلا أن آثار الجرح لا تزال في جسده ولم تضمد بعد فأمر أفلنطوش أن ينصبوا خيامهم في ضواحي المدينة وأن يسرحوا بأنعامهم في مراعيها بينما يكون قد بعث بكتاب إلى العرب وفي اليوم الثاني كتب كتاباً إلى الملك النعمان يقول له فيه .

(من أفلنطوش ابن عم كسرى أنو شروان إلى ملك العربان) .

بعثني اليك الملك الأكبر لأعرض عليك طاعته وأخبرك بغايته وهي أن تسلموا علم بيكار الاشتهار صاغرين وتعترفوا بذنبكم وترجعوا مهردكار إلى أبيها ليقتص منها على عنادها وخروجها عن طاعته وأما أنتم فقد آذنني أن أعفو عنكم وأسلم برجوع كل واحد منكم إلى منصبه وبلاده لأن لا حق عليكم بل كل الحق على الأمير حمزة الذي قتل وبقتله ترى أن القتال انتهى وما من عداوة بينكم وبين العجم وإذا أبيتم وامتنعتم فإني أباكركم بالقتال ولا أنفك حتى أبدد شملكم ولا يكون بعد ذلك من أمل لكم بحلم كسرى وعفوه ورحمته ثم بعث الكتاب مع رسول مخصوص وهو الرسول الذي كان قد أخذ للعرب الكتاب في مكة المطهرة عندما كانت العجم تظن أن حمزة قتل أيضاً في ذلك الوقت .

ولما وصل الرسول إلى أبواب المدينة دخل وجاء قصر الأحكام حيثما كان الأمير حمزة والأمراء والملوك مجتمعين ولما وصل إلى الديوان تقدم من الملك النعمان فسلمه الكتاب ففضه وقرأه وعرف فحواه ثم أرجعه اليه وقال له ادفعه إلى الأمير حمزة فارس العرب وسيدهم ليعرف ما تضمنه وبماذا يجيب فاضطرب الرسول ونظر ذات اليمين وذات الشمال فرأى أن الأمير حمزة جالس في مكانه وكأنه الأسد الكاسر لا يزال عليه دلائل المرض والضعف فتقدم منه وقبل يديه وسلمه الكتاب فأخذه وقرأه وعرف رموزه وكل ما تضمنه وقال للرسول أيظن كسرى أني أموت وبالعجم بقية رمق فأخبر سيدك أفلنطوش إني رجعت إلى الحياة بعد الموت ولا بد من الرجوع إلى ثل عرش كسرى وخراب دياره وأما زوبين الغدار فلا بد من موته وهلاكه وهلاك بختك الخبيث الخائن وكل آت قريب ثم أمر أن يدفع إلى الرسول ألف دينار وقال له هذه أجرتك عن تعبك ومجيئك إلينا وكان الرسول فصيحاً أديباً فشكر من حمزة ومدحه وخرج مسروراً بما ناله

حتى جاء معسكر الأعجام فرأى أفلنطوش بانتظاره فقال له ما وراءك من الأخبار هل أجاب العرب بالإيجاب قال كيف يمكن أن يجيب العرب إلى الطاعة وكلهم فرسان وأبطال ولا سيما أن أميرهم حمزة لا يزال حيا وقد رأيته في مجلسه أعظم من كسرى في إيوانه وقد كاد يشفى من الجرح ولم يبق إلا آثاره وقد أنعم علي بألف دينار وأخبرني أن أخبركم أنه لم يموت وبالعجم بقية رمق ولا بد من الانتقام من زوبين على غدره وفعله فهذا الذي سمعته منه ورأيته هناك فلما سمع افلنطوش أن حمزة لا يزال حيا عرف أن الحرب ستطول وخاب أمله وظنه وتكدر مزيد الكدر وعزم على محاصرة المدينة قبل أن يقدر الأمير حمزة على الركوب والحرب واسودت الدنيا على زوبين الغدار فخفق قلبه وتكدر مزيد الكدر ولعب بقلبه داعي الخوف والفزع ونهض من صيوان افلنطوش إلى صيوانه لا يعرف يمينه من شماله ولا يرى ما بين يديه ولا سيما عندما فكر أن أمله قد بعد وربما انقطع من طوربان لأنها لا تقبل به ولا يقدر على إجبارها ما زالت الحرب قائمة بين العرب والعجم وما يراه منها من النفور الزائد جعله على أن يوطد العزم والنية على إتمام غايته ومراقبة طوربان إلى أن يغتصبها ويرغمها على القبول به بعد ذلك وصار من ذلك الحين يراقب أعمالها وحركاتها ويقصد أن يتمكن من الانفراد بها وهي نائمة يغتنم الفرصة بإغفال خدمها ليدخل الصيوان وهي لاهية عن ذلك لا تفكر به ولا تعتني بأمره وقد خطر لها كل الخاطر أنه إذا كان أبوها أو كسرى أجبراها على الزواج به قتلت نفسها أو فعلت كابنة عمها مهردكار وجعلت اتكالها على العرب واختارت واحداً منهم فإن ذلك خير من زواجها بزوبين وهي تراه في عينها كأكبر عدو وتنظر إلى أعماله نظر القبيح والكره فتعلم أنه خائن غدار خبيث مكار لا يعرف الناموس والشرف وهي على غير ذلك .

وفي ثاني الأيام أمر أفلنطوش أن يحاصروا المدينة فحاصرها وقصدوا الهجوم عليها فأرجعهم العرب بضرب النبال عن الأسوار ولا سيما عمر العيار فانه أقام مع عياريه يرشقون النبال وكانوا أعرف أهل الأرض بذلك فوقعت على الأعجام كوقوع الأمطار فالتمسوا الرجوع إلى الوراء . وفي اليوم الثاني خرج العرب وصارت موقعة عظيمة من الصباح إلى المساء وفيه رجعوا ودخلوا المدينة وكان الأمير حمزة يريد أن يركب ويخرج إلى الحرب فمنعه عمر العيار وقال له لا تخرج فانك لا تزال مريضاً والتعب يعيدك إلى الضعف ولا سيما أن بزرجمهر منعني من أن أدعك تباشر حرباً وأوصاني كثيراً بذلك ولو انقرضت العرب إلى أن يأذن الله بالفرج فإن الضيقة محاطة بنا في هذه الأيام ولا تزول هذه النحوس إلا على يد غير منظورة الآن منا فاصغ إلى كلام هذا الوزير ولا تخالف فتندم . فرأى حمزة أن من الصواب السكوت عن هذا الأمر وما برح القتال عاملاً بين العرب والعجم على غير أهمية كبرى فيوما تخرج العرب وعشرة أيام لا تخرج ينتظرون باب الله والفتح حتى كان ذات يوم وقد ضجرت العجم من القيام في تلك الأرض وضاق عليها الحال وطال المطال فباكرت وفي نيتها القتال العظيم وكذلك العرب فانهم

خافوا أن يبقوا داخل المدينة وتطول مدة الحصار فيفرغ منه الزاد والمؤ ن ويقعون في الضيق والضنك ولذلك قال الأمير حمزة لقومه إلى متى هذا المطال فإني أرى أن العجم مكتفون بالحصار والذخائر والمؤ ن قد قلت فإذا بقينا على هذه الحالة عدة أيام أخر فرغت فنحتاج بالرغم عنا إلى الخروج إما للعرب وإما للحياة وعندي حيث صرت قادراً أن أركب جوادي وأحارب وما من وجع بي يمنعني أن أنزل ساحة النزال أطرد الأعداء عنا فإن نفسي سئمت من المطاولة والإستنظار . فقال لعمر لا تطمع نفسك بالقتال فما من وسيلة إلى ذلك ولا بد أن ينتهي قول الوزير بزرجمهو وأما من جهة فرسانك فدعهم يقاتلون ويناضلون ولا ريب أن قوة الأعجام تضعف وإذا تأخروا عادوا إلى المدينة وأنت ما زلت بالحياة لا يحسب تأخرهم فشل أو انكسار . فقال أندهوق إني أعدك في هذا النهار بالفوز فكن بأمان واطمئنان وليرتح بالك علينا فكلنا بخدمتك وخروجك إلى الحرب يغيظنا ويكدرنا ولا نريد أن نفعل خلاف ما أشار عمر وخلاف ما أمرنا الوزير بزرجمهر . فسكت الأمير وقال افعلوا ما شئتم وأنا أصغي الآن إليكم بالرغم علي والموت أهون جداً من أن أشاهد الأعداء تحاصرني وأنا أمتنع عن طردهم وأتقاعد عن إذلالهم .

قال ثم إن العرب خرجت إلى قتال الأعجام وبأقل من ساعة نادى منادي القتال فاشتبك الرجال بالرجال . والأبطال بالأبطال . وتحدر الدم وسال . واختلط الأعراب بالأعجام . اختلاط الظلام بالظلام وارتفع فوقهما كثيف القتام فأخفى عنهما نور السلام وألقاهما في ديجور الحمام فلم يكن يسمع إلا أصوات السيوف على الدرق ولا يرى إلا طعنات الأسنة في النحور والحدق فكم من فارس انكب ووقع . وكم من دم انهمر وهمع وسال كالأنابيب في ذلك الموضع ولم تكن الأعجام تسمع صوت حمزة قط فتأكد عندها أنه غائب عن القتال فثبتت ثبات أسود الدحال وقاتلت قتال صناديد الأبطار فاتسع سوق المجال وعظمت المصائب والأهوال وضاقت في وجوه القوم الأمور والأحوال فعرف كل واحد منهم أنه سائر في طريق الهلاك والوبال وأنه على شفير الانتقال ولم تر العرب التأخير والإذلال بأمر الله الواحد المتعال بالرغم عن اجتهاد أندهوق والمعتدي وباقي الرجال الذين كانت أسنتهم تفعل أيشم الأفعال وتخترق الصدور بأسر من ريح الشمال ورأت الأعجام أنها إن نجحت في ذاك اليوم فازت الفوز العظيم . وأنزلت على أعدائها البلاء الجسيم فلا يعود بعد ذلك للعرب ثبات ويلتزمون إلى التفريق والشتات وطمعوا بالنصر وحركهم غياب حمزة إلى توطيد العزم فداروا بأعدائهم من كل ناح وأكثروا فيهم الصراخ والصياح كل هذا وزوبين الغدار مع طوربان في معالجة ومحاولة وقد رآها انفردت إلى ناحية ولم تباشر القتال فلم يعد له صبر عن مفاتحتها فقال لها لما أراك يا ذات الجمال تتركين القتال وتنفردين على الدوام بنفسك فإني أراقب ذلك حيث أريد أن أكون بالقرب منك أحفظك وأرعاك ولا بد من أن لذلك سبب من أعظم الأسباب فابده ولا تخفي شيئاً فإني

صفيك ولا أظهر مرادك قالت نعم إن السبب الأكبر هو وجودك في المعسكر وفي المعمعة فهذا الذي يثقل علي ويدفعني إلى الوراء ويجعلني أن أكره القتال وإلا لولا ذلك لرأيتني في أول المتحاربين فترى الفرسان والأبطال أفعالي فارجع عن سؤالي ولا تكلمني مرة ثانية ولولا الخوف من غضب أبي لما أتيت مع العساكر ولا احتملت صعوبة النظر إلى وجهك القبيح ولا بد لي من أن أبعد بصيواني عن صيوان أبي إلى أطراف المعسكر فلا أجتمع معكم ولا أراك لا في مساء ولا صباح فأقصر إذن قال إني أعجب كيف تكرهين النظر إلي وأنا أرغب القرب منك وأفضل الموت بجانبك على الحياة بالبعد عنك فاتركي هذا العناد واصغي إلى ما أقوله لك وأجيبي سؤال ولا تظني أنه يتيسر لك قرين مثلي صاحب عظمة وسلطان ومقدم من عمك كسرى أنوشروان أكثر من سائر الأبطال والفرسان . ومع أن العالم في هذه الأيام اتفقوا أن الأمير حمزة هو أفرس ممن ركب الجواد فقد كبحته مرتين وجرحته جرحين وفي كل مرة يشرف على الممات ولهذا أكون أنا أشد منه بأساً وتشهد لي بذلك أبطال الفرس ونفرها وعالها ودونها فضحكت منه وقالت إنك لا تعرف من نفسك الخيانة والغدر فأين أنت من حمزة وقد شاهدت حربك معه وخيانتك فلو قاتلته قتال الأبطال لما ثبت أمامه ساعة واحدة فارجع عني الآن وإلا طعنت قلبك بهذا السنان فانفطرت مرارته واحترق قلبه ولم يسعه أن يبدي لها كلمة وضمر لها الشر وأصر في فكره على إتمام عمله في تلك الأيام وهم بضواحي حلب وأعرض إلى غير جهة .

هذا والحرب ما برحت باضطرام والفرسان عاملة على الحرب والصدام وطوائف العرب تتأخر أمام طوائف الأعجام وأندهوق والمعتدي وباقي الفرسان يقاتلون قتال الجان وينادون العرب بالثبات في الميدان وأن يفضلوا الهلاك والقلعان على التأخير والخذلان فلا يفيدهم ذلك شيء بل داوموا على الرجوع إلى الوراء شيئاً فشيئاً قاصدين أن يدخلوا الأبواب وقد قتل منهم خلق كثير في ذاك اليوم وفيما هم على مثل هذا الأمر والشأن والأعجام تطاردهم وتزاحمهم من كل ناحية ومكان وهي فرحة بذاك التقدم الذي لم تراه قبل ذاك الآن وقد قارب الوقت العصر وإذا بصياح من ناحية البر قد ملأ الفلاة وبيارق قد ظهرت ومن تحتها جيوش كسرب القطا وفي المقدمة غلام أمرد لم ينبت الشعر بعارضيه وهو فوق جواد مسرج بالسرج الأفرنجي وعليه من الحديد ما لا يطيق حمله الجبال ولما رأى أن الحرب عقدت بنودها وقد حكمت قضائها وتركت شهودها صاح بلغته وحمل كأنه قضاء الله إذا نزل فاخترق الصفوف وفرق المئات والألوف وقد رأى أن الأعجام تطارد العرب وعرف منهم ذلك فأنزل عليهم ميازيب المهالك وقد حمل من خلفه أبطاله وفرسانه وعددهم نحو الثلاثين ألفاً وكان يفعل في الأعداء كما تفعل النار في القش اليابس فجفلت من بين يديه الفرسان ورأت من قتاله أنه أشبه بقتال حمزة البهلوان فخافته كل الخوف ورجعت إلى الوراء متحسرة على ضياع ذاك النصر والظفر ومتكدرين من مجيء تلك العساكر والأبطال فدافعت إلى أنفسها وقاتلت قتالاً عظيماً ورأت العرب تلك النجدة وتأخر

الأعجام فعادت إلى الأمام ولا سيما عندما سمعت عمر العيار يخترق الجموع وهو ينادي العرب أن تطارد أعداءها ويقول لهم هذاالفرج المنتظر قد جاء فجودوا الطعن وأكثروا من الضرب ومن رجع أرديته قتيلاً . وما جاء آخر النهار إلا وحل بالأعجام البلاء وذاقوا كأس العناء ومن ثم ضربت طبول الانفصال فرجع العرب إلى المدينة فرحين بالنصر الأخير وهم من التعب على جانب عظيم لا يصدقون بنزع العدد عن أجسادهم ووصولهم إلى الجلوس على أسرتهم وعرجت تلك العساكر التي جاءت إلي من ناحية تلك الأرض وضربت خيامها وأقامت لوحدها تنظر ما يكون في الصباح وبعد أن هدأ بالها وأكلت الطعام نهض أميرها الغلام واتجه إلى جهة المدينة وهو راكب على جواده ومدجج بالسلاح .

ولما كان المساء اجتمع سادات العرب في مكان واحد وأخذوا في أن يحكوا للأمير ما كان من حرب النهار وما لاقوا منها وكيف أنهم كانوا يتأخرون إلى أن جاءهم الفرج بالنجدة التي كان يتقدمها ذاك الغلام الأمرد ثم أخذ كل واحد أن يتكلم عما رأى منه وما شاهد من حربه وقتاله وهم يباهون ويبالغون فقال الأمير عمر العيار أني تأكدت عن بعد أن هذه العساكر هي يونانية لا ريب فيها ولا ارتياب ولكن فارسها الذي تعنون عنه لم يكن يونانياً وقد رابني قتاله وقد نظرت منه بطلا لا كالأبطال وفارساً لا كالفرسان فهو أشبه في حربه وحملاته على أعدائه بأخي حمزة حيث كان لا يستقر في مكان ولا يقاتل في جهة واحدة بل يدخل من الشرق فيخرج من الغرب والرجال تتمدد بين يديه على بساط الرمال وتقع تحت حوافر الخيل ولا يجسر أحد منهم أن يقرب إليه أو يدنوا منه ويبقى واقفاً أمامه فقال حمزة لقد شوقتوني إلى ملاقاة هذا الغلام حتى أنه أخذ من فؤاده مكانا عالياً وصار له عند أرفع مقام وكان من الواجب أن ترسلوا إليه الرسل وتدعوه يدخل المدينة وينضم الينا برجاله لأنه جاء لنصرتنا وهذا هو الفرج الذي أشار اليه الوزير بزرجمهر لأننا لم نكن بانتظار مساعد ولا معين غير أن الله بعث إلينا من نعرف فضله ونعترف به ليبقى شأنه مرفوعاً بين العرب والعجم وأريد الآن منك يا عمر أن تذهب إلى هذا المعسكر وتنظر لنا في أخباره وتدعو هذا الغلام أن يأتي الينا لنرى في أمره ومن هو وإذا أبي عن الإتيان سرنا نحن اليه وسلمنا عليه وشكرنا فعله . فأجاب الأمير عمر طلب الأمير حمزة وكر سائراً إلى أن قرب من باب المدينة وقبل أن يفتحه سمع صوت طرقة فسأل البواب من هذا فأجاب الطارق هذا أنا الأمير عمر اليوناني ابن الأمير حمزة العرب فوقع هذا الصوت في آذان الأمير عمر العيار فطار فؤاده شعاعاً ورأى في معنى الصوت لهجة أخيه ثم سمع الطارق يقول افتح الباب حالا واذهب إلى عمي عمر العيار وقل له أن يأتي إلي لأذهب وإياه إلى أبي فأسرع عمر إلى الباب وفتحه ونظر وإذا به يرى الغلام الذي كان يقاتل في ذاك النهار فدنا منه وسلم عليه وعرفه بنفسه وقال له أبشر يا ابن أخي فإني أنا عمر العيار ولكن ابن مَن أنت ومن هي أمك لأني كنت في هذه الساعة ذاهباً إليك لأدعوك أن تأتي إلى خدمة أمير العرب وسيدهم قال إني أتيت لأرى أبي حيث

قد عرفت أنه مجروح وأنه جاء من المدائن إلى هذه البلاد وأنا بشوق زائد إلى مرآه فأخبرني هل هو بخير وهل صار قادراً على نقل السلاح وأما من سؤالك عن أمي فهي زهربان بنت اسطفانوس اليوناني . فلما سمع الأمير عمر هذا الكلام تحقق عنده أنه ابن الأمير فزاد فرحه وقال له إن أباك بسلام وعما قليل تراه فسارا إلى حيث اجتمع العرب .

قال وكان السبب في مجيء عساكر اليونان مع عمر اليوناني هو أنه كان كما تقدم معنا في ما مضى أن الأمير حمزة عندما كان يجمع الأخرجة ويلم الميرجاء بلاد اليونان وتزوج بزهربان بنت ملك البلاد وأنها رجعت إلى بلاد أبيها وأقامت هناك وهي تؤمل أنه عند عودته من سفره ورجوعه إلى بلاده يرسل فيأخذها اليه وتقيم عنده وكانت حامل منه وبعد مضي أشهر الحمل ولدت غلاماً كأنه القمر في تمامه صبوح الطلعة مسعود الطالع كامل الهيئة فسرت به مزيد السرور ولا سيما عندما رأت أنه يشبه أباه كثيراً وأرسلت فأخبرت أباها اسطفانوس فجاء إليها ونظر الغلام وهو في اللفافة وأخذه على يديه وقال لأمه اعلمي أن هذا الغلام هو يشبه أباه ولا بد عند كبره إذا علم بأنه ابن الأمير حمزة تركك وذهب إلى أهله ونحن لا نعرف إن كان زوجك يعود فيأخذك ثانياً أو يبقى باقي عمره مشغلاً بالحروب مع كسرى وغيره فلا يفكر بك فتتسلين بهذا المولود ولذلك أريد منك أن لا تلفظي أمامه ولا مرة واحدة اسم أبيه ولا ابن من هو بل قولي له أن أباك اسطفانوس فأربيه كأب له إلى أن يأذن الله بالفرج ونرى كيف يكون من أمر أبيه وهل يمكن أن يأتي بلادنا مرة ثانية ويرسل فيأخذك إليه قالت أني أعرف أنه لا بد من أن يدعوني إليه ويأخذني عندما يعود إلى بلاده ويرتاح ضميره من حرب كسرى قال إن ذلك بعيد المدة طويلها ولا نعلم ما تكون عاقبة هذه الحرب ومن يكون الفائز من المتحاربين لأن العرب وإن كانوا شديدو البطش والبسالة إلا أن كسرى قوي السلطان كثير الأجناد يقدر أن يقاتل العرب خمسين سنة وهو يجرد العساكر حيث يملك على أكثر أقسام الدنيا شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً .
ثم توافقا على أن يخفيا عليه أمر أبيه وأوصيا الخدم والجواري والمراضع بأن تقول على الدوام بأن أباه أسطفانوس وقد دعيا اسمه عمر اليوناني على اسم عمر العيار . وصار الغلام يكبر ويترعرع منذ ذلك الحين ولما بلغ سنة من العمر كان يمشي ويخرج إلى خارج القصر ويتكلم وكل من رآه لا يظن إلا أنه ابن أربع سنوات عمره أكثر من سنتين طلبت زهربان من أبيها أن يأتيه بالأساتذة والمؤدبين فوضع له المعلمين يعلمونه العلوم فكان يتعلم بوقت قريب ولا يضيع الوقت بالباطل وما أدرك العشر سنوات حتى كان قد درس كل الدروس والعلوم اليونانية والعربية والفارسية وفاق بها على من سواه وتعجب منه الخاص والعام ومن بعد ذلك صار يخرج إلى الساحات ومحلات الاجتماعات ويشاهد الفرسان والعساكر وهي شاكة السلاح فتتحرك به الفطرة العربية إلى تعلم فن القتال فاتخذ له أعوانا وصار يتعلم منهم ركوب الخيل ولعب الرمح وضرب السيف وبمدة سنتين أصبح كأنه أفرس فارس في بلاد اليونان ولم يعد يقدر أن يثبت أمامه أحد

من الأبطال والفرسان وهو يفتخر بنفسه ويتشامخ على أبناء جنسه وما من أحد يقدر أن يعلمه أن أباه حمزة وأنه وإن كان أباه ما هو عليه فلا عجب من ذلك ولا زال يشتد ساعده ويقوى باعه وهو يظن أن أباه أسطفانوس ولا يعرف غير ذلك ولا خطر له أن يكون ابن عربي وصار يخرج إلى البراري والقفار يطارد الوحوش ويبعد في جهات الأرض ولا يخاف من أحد وأمه وجده لا يخافان عليه بعد أن رأيا ما هو عليه من الاقدام والبسالة إلى أن كان ذات يوم عاد من الصيد والقنص ومعه شيء كثير من الذي اصطاده فرأى أمه جالسة وحدها منفردة تبكي ودموعها تتساقط على خديها فارتاع وجفل قلبه فدنا منها وقبل يديها وقال لها لا أبكاك الزمان يا أماه فما الداعي لذلك أهل مات أحد أقاربنا أم أصبت بوجع فأخبريني لأن يكاد يفطر قلبي فزادت بالبكاء رغماً عن جلدها وتكفكف دموعها فألقى بنفسه عليها وبكى وقال أني أقسم عليك بحياة أبي أن تخبريني الصحيح ما هو الداعي لهذا البكاء فقالت له اعلم يا ابني أن لكل بداية نهاية وأن لا يصح في هذه الدنيا إلا الصحيح ولا بد من اطلاعك على أمر أبيك لتعرفه وتعرف من هو قال ما تقولين وما طرأ عليك أليس أبي اسطفانوس حاكم هذه البلاد وملكها قالت كيف يكون اسطفانوس أباك وهو أبي فعي إلى ذلك واعلم أن أباك الأمير حمزة العرب فارس برية الحجاز ومذل الجبابرة ومبيد الأكاسرة فنهض واقفاً وقال ماذا تقولين أني سمعت كثيراً عن هذا الرجل انه فارس لا نظير له في هذا الزمان أتوقع أن أسير اليه وأقاتله لأعرف من منا أشد موقعاً في ساحة القتال فكيف يكون أبي ومن جاء به إلى هذه البلاد فأعادت عليه زهربان كل ما كان من أمر أبيه وأمرها وكيف جاء إلى تلك البلاد وفصلت له الواقعة تماما وكيف أن كسرى يحاربه وقالت له أني ما برحت من حين ذهابه وأنا أطلب كل من يكون في سفر وفي سياحة فاستخبر منه عن حالة العرب والعجم فتصلني الأخبار مسرة وقد كسر جيوش كسرى عدة مرار وبددها وتزوج ببنته بالرغم عليه وأخيراً أخبرني أحد التجار وكان قد ذهب إلى بلاد العجم فجاء ببضائع ينهي أمره غدر به زوبين الغدار فرماه بحربة سامة كاد يميته فحمله فرسان العرب وتركوا المدائن وجاءوا به حلب لأجل مداواته وهو بحالة خطر بين الموت والحياة ولذلك تراني أبكي كيف أني بعيدة عن أبيك ولا أقدر على خدمته وربما أصيب بنكبة وهو لا يراك وأنت ابنه وكم يسر إذا رآك وشاهدك فهذا الذي أبكاني ويبكيني ولا أعرف ماذا جرى عليه .

قال فلما سمع عمر كلام أمه صاح ملء رأسه وهو يرغي وزيد وقال ويلكم وويل جدي أيريد أن يخفي عني أمر أبي وهو الأمير حمزة فارس الأرض من تتناقل أخباره الركبان وأنا قاعد عن التقرب منهوأرضى أن يكون أبي هذا الشيخ اسطفانوس وكيف أكون أنا بهناء وراحة وأبي يخوض معامع القتال ويحارب الأعجام فلا بد لي من المسير إلى حلب لأرى ماذا حل به فإذا كان لا يزال حيا سرت إليه وقاتلت بين يديه وإلا سرت إلى المدائن وأخذت له بالثأر ولا أرضى على

نفسي العار ويقال عني أني تقاعدت عن نصرة أبي فاستعدي للسفر وأنا أذهب إلى جدي وأسأله أن يسافر حالاً بالعساكر لندرك حلب بأقرب وقت ففرحت بذلك ودعت له ثم أنه جاء قصر الأحكام ودخل على جده وهو عابس الوجه قاطب فارتاع لذلك وقال له ماذا حل بك يا ولدي ولما أنت على هذا الأمر قال له من هو ولدك ولأي سبب أخفيت عني أمر أبي وهو حمزة العرب قال من أخبرك به قال أخبرتني أمي ولذلك أريد منك أن تخرج من هذه الساعة إلى المعسكر وتأمره بالركوب فما عدت أصبر عن الرحيل دقيقة واحدة فقال إني كنت أخفي عنك ذلك بالأول خيفة عليك لأنك لا تزال صغيراً وتتوق نفسك إلى أبيك وأنت عاجز عن مساعدته أما الآن وقد صرت تعد من فرسان هذا الزمان فما من خوف عليك فاذهب إلى أمك وفي الصباح تركب بالعساكر وتسير إلى حيث تريد لأني مشتاق إلى أبيك وأحبه كشوقك اليه فاطمأن بال عمر اليوناني وعاد إلى أمه فأخبرها بواقعة الحال فهيأت كل ما هو لازمها من ثياب وجواهر وحلي وهي تؤكد أنها لا تعود ثانياً فترى تلك البلاد ومن فيها وقلبها يخفق من السرور والفرح لمشاهدة زوجها التي لم تكن رأته وأقامت معه إلا أياما قليلة جداً وفي صباح اليوم الثاني ركب اسطفانوس بثلاثين ألفاً من العساكر وركب عمر اليوناني في المقدمة وهو يريد أن يطير ليصل إلى حلب ويشاهد أباه ورفعت زهربان على هودج عال من الحرير الغالي وسار الجميع عدة أيام وليال إلى أن وصلوا مدينة حلب ورأوا الحرب قائمة على قدم وساق فخاضوا معمعة القتال وجرى ما تقدم ذكره بين الفريقين وفي المساء سار الأمير عمر اليوناني إلى أن التقى بعمه الأمير عمر العيار .

ولما وصل عمر من القصر المقيم به الفرسان ومعه ابن أخيه دخل ونادى أخاه بشراك يا أخي فإن هذا الغلام الذي أنتم باضطراب وقلق من أجل معرفة أصله وفضله فهو ابنك الأمير عمر اليوناني ابن زهربان بنت اسطفانوس ملك اليونان وقد جاءت أمه وأبو أمه وها هو معي ولما وقع صوت عمر في آذان الأمير نهض بالرغم عن وعيه وقلبه طائر ونظر إلى ولده ورمى بنفسه عليه وهو فرح كل الفرح ومسرور كل السرور وجعل يقبله ودموعه تذرف وكذلك فعل الأمير عمر اليوناني فإنه قبل أيادي أبيه وألقى بنفسه على صدره وكل منهما يضم الآخر وحمزة لا يفتر عن ذكر الله وهذا هو الولد الأول الذي رآه وشاهده وذاق لذة محبته وحنوه ودارت بهما الفرسان من كل ناح وهم يطلبون أن يبعد الأمير عن ولده ليتقدم كل منهم إليه ويسلم عليه ويتعرف به ومن ثم أخذ يسلم عليهم واحداً بعد واحد وكلهم يتعجبون من صغر سنه وبسالته وإقدامه وما منهم إلا من يصفق من الفرح وأجلسوا الأمير عمر إلى جانب أبيه وهو ينظر اليه لا يرفع نظره منه وقد سأله عن أمه وجده فأعاد عليه ما كان من أمرهم جميعاً وحينئذ أمر أن تخرج الفرسان في صباح اليوم الآتي مع العساكر والرجال إلى خارج المدينة ينصبون خيامهم في ضواحيها إلى جانب عساكر اليونان ليصرف بعض أيام بالهناء والولائم إكراما لولده ولزوجته وقال لهم أيضاً

إن الفرج المنتظر قد جاء وهذا الذي كان قد أشار إليه الوزير بزرجمهر وأي فرج للعرب أعظم من هذا الفرج الذي جاءنا وحل علينا بوجود ولدي فارس اليونان ومجلي الكروب عن العرب وصرفوا أكثر ذاك الليل بالحديث والاستخبار ولم ينم رجال العرب إلا القليل حتى جاء النهار فنهض كل منهم واستعد برجاله وقومه وانتظروا إلى أن خرج الأمير راكباً على جواده اليقظان وهو كأنه في عظمته الملك سليمان أو كسرى أنو شروان وخرج من بعده الملك النجاشي والملك النعمان وعمر الأندلسي وأندهوق ابن سعدون والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل ومعقل البهلوان وبشير ومباشر كل فارس وبطل مع العبيد والخدم وضربوا الخيام وسرحوا الأنعام وأصبحوا يعجون ويموجون في تلك الأرض وقد ملأوا السهول والجبال وجاء الأمير حمزة إلى الملك اسطفانوس فسلم عليه وترحب به وشكر من معروفه واعتنائه بولده واهتمامه بتربيته إلى أن خرج بطلاً صنديداً ودنا من زوجته فسلم عليها وبكى عند مرآها وحركته محبته القديمة لنحوها واعتذر إليها .

فقالت له إني أعرف أن قصورك ما كان عن خاطر منك أو إرادة فإني كنت على الدوام أسأل عنك وأطلب إلى كل غاد ورائح أن يأتيني بأخبار العرب فتصلني على الدوام وكنت أجازي الجميع وأكافيهم بالعطاء ليعودوا ثانية إلى الوقوف على ما يكون أمركم . وأنا مشتغلة بتربية ابني ومهتمة بتهذيبه لا أظهر له اسمك وأمرك حتى أدرك أشده وصار آفة من آفات الزمان . وإذ ذاك بلغني خبر جرحك من زوبين الغدار فلم يعد في وسعي الاخفاء فبحت لولدي بما كنت أكتمه عنه إلى الآن وعرضت اليه واقعة الحال بالتفصيل فكان منه أن أرغم أبي اسطفانوس على المجيء إلى هنا والحمد لله الذي رأيناك بخير وصحة جيدة . ثم إن الأمير حمزة جاء بزهربان إلى مهردكار وتعرفت كل واحدة بالأخرى .

قال وانعكف الأمير على عمل الولائم وقيام الأفراح والمسرات وقد شغل عن الأعجام وتركهم وشأنهم مدة أيام وقال إن الحرب لا تفوتنا ولا بد أن نهلك العجم عن قريب بعد أن نصرف أيام هنائنا ونرى ما يكون من أعدائنا فذات يوم بينما كان الأمير عمر العيار يدور حول المعسكر حسب عادته خوفاً من وقوع أمر لم يكن في الحسبان وإذا جاءه ابن أخيه وقال له يا عماه أني أرى الأعداء حولنا ولذلك أريد منك أن تذهب بي إلى معسكر الأعجام لأتفرج فيه وأنظر هذا زوبين الغدار ومن هناك من الأبطال والفرسان فقال له هلم بنا لنذهب ولكن لا تبدي حركة هناك ول تتظاهر بأنك من العرب فيعرفونك وتقع بأيديهم فأخذه وسار به بعد أن غيرا زيهما وعندما قربا من معسكر الأعجام نظر عمر اليوناني جماعة من الفرس يلعبون بالجريد ويمرحون في تلك الأرض فحركه جهله إلى الدخول بينهم وقد احتقرهم ولما صار بينهم جاءته جريدة فأصابته فطار الشرار من عينيه وكان يظن بنفسه أنه وحده يفني جيش العجم برمته

ولذلك صاح ويلكم يا أوغاد غير أمجاد فقد جاءكم الفناء والهلاك ثم استل سيفه وهجم عليهم فوعوا اليه وعرفوه من صوته أنه عربي فمالوا إليه وجردوا سيوفهم فالتقاهم وأخذ بينهم الضرب والطعان وهو يقتل فيهم ويمددهم على بساط الرمال وينادي أنا الأمير عمر اليوناني ابن حمزة البهلوان والفرسان تتقاطر من كل ناحية ومكان وتزدحم حواليه وترسل بأسنتها إليه وهو يطعن فيها طعن الأبطال ويشردها ذات اليمين وذات الشمال وعمر العيار يختطف الأرواح بضربات خنجره ويحمي ظهر ابن أخيه إلا أنه لما رأى أن الفرسان تتكاثر خاف من تحمل عساكر العجم فيقع مع ابن أخيه في قبضتهم ورأى من المناسب أن يتركه قليلاً ما زال قادراً أن يدافع عن نفسه ويذهب إلى أخيه الأمير حمزة يدعوه لنصرته فأطلق ساقيه للريح حتى جاء معسكر العرب ونادى أخاه وقال له ادرك ابنك فهو بحرب مع الأعداء وكر راجعاً إلى محل القتال وأسرع حمزة وكل الفرسان إلى خيولهم فركبوها وتطايروا من خلفه فأدركوا عمر اليوناني وهو يطارد الفرسان ويطردهم بين يديه كأنه الباشق يفتك بأصغر العصافير ولما وصلت الفرسان ورأت ما رأت صاحت وحملت وهي متعجبة من أفعال عمر اليوناني ومن حملاته التي لا يقدر عليها إلا أبوه ولا يزالوا يقاتلون وقد ردوا الأعجام إلى الوراء وفي المساء رجعوا إلى الخيام وقد قال الأمير حمزة لابنه كيف جئت إلى معسكر الأعداء ودخلت بينهم دون أن يكون عندنا علم بذلك فما هذه إلا مخاطرة عظيمة ثم التفت لعمر العيار وقال يا وجه القرد كيف أطعت ولدي ورميت به بين الأعداء ألا تعرف غدرهم وخداعهم وجهل ولدي وهو لا يعرف الحرب وخدعتها فقال عمر اليوناني لا تغضب يا أبي على عمي فأنا الذي سرت والتزم أن يسير معي ولا تحسب مسيرنا غلطاً فما الأعجام إلا أشبه بالنساء ولو لم تأتوا إلي لما لحق بي خطر بل كنت أفنيت منهم كثيراً وعدت منصوراً فائزاً . وأقام الجميع في الخيام بعد ذلك مدة ثلاثة أيام وفي نية الأمير حمزة أن يعودوا إلى القتال فيبيد أولئك الذين جاءوا من قبل كسرى وهو مملوء من الفرح والسرور لا يمتلىء من النظر إلى ولده وفي اليوم الرابع جاءه ابنه وقال له لما يا أبتاه نتقاعد عن القتال ونترك أمامنا الأعداء ونحن قادرون أن نبيدهم بيوم واحد قال له أن هذه الأيام أفراح بقدومك علينا واجتماعنا ببعضنا ولذلك لا أريد أن يشوبه كدر ولا أريد أن أكون فيها أنا البادىء بالشر إذ كل بادىء بالشر خسران وهلاك الطائفة التي أمامنا لا يفوتنا فسكت عمر وهو يتوق إلى الحرب وجاء عمه عمر العيار وقال له لقد عرفت يا عماه أن عندك مكحلة يتغير فيها الإنسان وطلب أن يغير زيه ويتزيا بأي زي أراد يصير له وأنا أريد منك أن تكحلني بها لأصير كواحد من الأعجام فأذهب بينهم وأتفرج عليهم وأرى زوبين الغدار وأعرف كيف هو ومثله باقي فرسان الفرس قال هذا لا يمكن أبداً لأني أعرف جيداً أنك لا تقدر أن تضبط نفسك فمتى صرت بين الأعجام ونظرت أفلنطوش وجماعته وسمعتهم يسبون العرب أو يتكلمون مثل هذا الكلام لا تصبر على الاهانة ويدفعك جهلك إلى إظهار نفسك وأخذ حقك منهم فتقع بأيديهم ويكون ذلك ويلاً علينا

ويعتب أبوك علي ويغضب مني . قال هذا لا بد منه وأني أعدك أني لا أفوه بكلمة مهما سمعت ومهما رأيت قال لا تطمع نفسك بالمحال فما من وسيلة لأن أجيبك إلى طلبك فقال وأنا لا أتركك ولا بد من أن أذهب وإياك إلى الفرجة على ترتيب الأعجام ومن مشاهدة زوبين الغدار وأفلنطوش . وأكرر لك القسم بك وبأبي أني لا أفوه بكلمة ولا أبدي حركة ولو سمعت ألف كلمة وأفعل كما تفعل أنت .

ولا زال عمر اليوناني يلح على عمر العيار حتى سمح له ووافقه على طلبه ووعده أنه يذهب وإياه وأشرط عليه أن لا يظهر نفسه وأن يتغاضى عن كل ما يسمع ويرى ثم كحله بالمكحلة وتكحل هو فصار الاثنان كأنهما من الأعجام لا شك بهما ولا ارتياب ولبسا ملابس الحجاب وسارا من معسكر العرب ودخلا بين الأعداء ولا زالا سائرين حتى وصلا إلى ديوان أفلنطوش فنظر إليه عمر اليوناني ورأى ملابسه وعظمته وقال لرفيقه إني أراه يفتخر بنفسه كثيراً قال هكذا عادة الأكاسرة يحبون العظمة والفخار ثم نظر إلى زوبين الغدار وهو إلى جانب أفلنطوش فتعجب من قباحة منظره وكآبة طلعته وكبر شدقيه وتشامخ أنفه وتجعد خديه فلعبت نار الغضب في قلبه منه وقال إن هيئته تدل على أنه أكثر الناس غدر واحتيالاً ونظر إلى عمه وقال له إني سمعت من خالتي مهردكار أن طوربان بنت عمها عند أبيها وهي تشبهها جمالاً وكمالا إلا أنها تزيدها بسالة وإقداما فأين هي الآن لم أرها بين الفرسان قال إني متعجب من ذلك لأنها كانت تجلس دائماً بجانب أبيها والآن لم أرها قط ولا أعرف أين هي وفيما هما على مثل ذلك سمع أفلنطوش يقول إني أعجب الآن من بنتي طوربان فإنها لم تحضر حتى الآن ولا جاءني منها خبر عن سبب غيابها فاستدرك زوبين الكلام وقال إني سألت عن ذلك يا سيدي فقيل لي أنها ذهبت في هذا الصباح إلى الصيد والقنص وستعود في المساء وقد نسيت أن أبدي لك ذلك وأنت تعرف رغبتها في فن الصيد ولا ريب أن خدمها ذهبوا بمعيتها فهي بأمان من العرب الآن وتعرف أن لا حرب في هذا اليوم وعلى ما أظن أن العرب الأوباش خائفون منا لا يباشرون القتال والحرب والنزال وكان بظني أنهم يسارعون إلى اقتطاف ثمرة ذاك الانتصار ولا بد أن يكون لذلك من سبب عظيم وعليه فإني عولت أن أباشر الحرب في الغد وأذيق العربان كأس الهوان وأقتل حمزة البهلوان وأذيقه كأس المذلة وأفعل فعلاً يذكر بعدي إلى آخر الأزمان لأني أطلت روحي كثيراً ولم يعد في وسعي الصبر والسكوت من ذل العرب وإبادتهم وكان يفكر زوبين افلنطوش عن السؤال عن بنته فأغاظ كلامه هذا عمر اليوناني وقدحت عيونه شرار النار وقد احمر واخضر واصفر فوضع يده على سيفه وفي نيته أن يجرده فلحظ منه عمر العيار ذلك فارتاع ودنا منه في الحال وقال له لا تفعل وإلا هلكنا وأخرج من هذا المكان وقد أقسمت بأبيك أن لا تبدي حركة فخرج عمر اليوناني وهو يرغي ويزبد فقال له لما فعلت ذلك قال أني قصدت أن أقتل زوبين وافلنطوش معاً ولو قتلت فيما بعد ولولاك لفعلت ذلك قال أني أشكر الله حيث

قدرت أن تكظم غيظك فاذهب بنا الآن من حيث جئنا وكان عمر اليوناني لا يريد أن يذهب قبل أن يرى طوربان فأراد محاولة عمه وقال له إني سمعت منك فاصغ إلي واسمع مني حيث أريد أن أطوف بعد بين طوائف الفرس أرى الخاص والدون حتى نأتي على آخر المعسكر فنخرج من هناك ونأتي بعيدين في البر حتى تصل إلى معسكرنا قال افعل ما بدا لك لو أقمت شهرا بين الأعداء فأبقى معك لكن بشرط أن تحافظ على السكينة وتبقى كاتماً أمرك فان من النظر أن لا أحد يعرفنا قال إني اعتدت أسكت وسوف ترى مني ما تريده ثم جعل يطوف وإياه حتى آخر المعسكر وخرج من هناك وأفكار عمر اليوناني منشغلة مضطربة كيف لم يتيسر لـه أن يرى طوربان فوقف يتأمل وفي نيته أن يعود ثانياً إلى بين المعسكر غير أنه فكر أن يقنع عمه أنه يعود مرة ثانية فتكون قد عادت من الصيد فمشى إلى جانب عمر العيار وأوسعا في البر فصعد على أكمة عالية ثم نزلا إلى حضيض متشعب فرأيا صيوانا مضروباً وعند بابه عبد واقف وآخر بعيد قليلاً عنه فقصده عمر العيار وتبعه رفيقه ولما قرب من العبد الأول وأراد أن يجتازه إلى جهة الصيوان منعه وقال له ارجع مع رفيقك ولا تقرب من الصيوان فهو لسيدي زوبين الغدار وهو أوصى أن لا ندع أحداً من العجم ولا من غيرهم بقربه وإلا غضب منه وأنزل به العبر إلى الوراء قبل أن يحل بك الأجل وتشاهد الموت ولا بد أنه قريباً يكون هنا فما تركه عمر العيار أن يتم كلامه حتى أرسل خنجره إلى صدره فرماه قتيلا ولما رأي العبد الواقف على الباب ما حل برفيقه خاف على نفسه من الهلاك فصاح إلى عبد آخر كان داخل الصيوان أن يخرج ويتبعه وهرب من ناحية ثانية فلم يلحقه بل بقي سائراً إلى أن وقف في باب الصيوان وتبعه الأمير اليوناني وحالما وقف نظر إلى داخله وإذا بفتاة هناك كأنها الشمس بالاشراق أو البدر عند تمامه لم يخلق الله أحسن منها جمالاً ولا أبهى كمالا ولقد صح ما قيل فيها :

البـدر طلعتهـا والغصن قـامتهـا والمسـك نكهتهـا مـا مثلهـا بشـر
كـأنها أفـرغـت مـن مـاء لـؤلـؤة في كـل جارحـة من حسنهـا قمـر

وحالما رأتهما الصبية صاحت مستغيثة وأظهرت لهما أنها موثوقة بالحبال وقالت بلغتها الفارسية هلما أدركاني وخلصاني يا أولي المروءة فإني أكافئكما على فعلكما لأني أنا طوربان بنت أفلنطوش ابن عم كسرى أنو شروان ملككم وسيدكم وقد غدر بي زوبين الغدار واحتال علي وأنا في فراشي غافلة عن كيده وبعث بي مع خدمه إلى هذه البرية وفي نيته أن يفعل بي القبيح فخلاني قبل أن يأتي المساء ويأتي هذا المكان وكانت تتكلم وعمر اليوناني واقفاً ينظر إليها ويحدق بها وهو لا يعي إلى ما تقول ولا ماذا تريد بل رآها موثوقة فبهت متعجباً من أمرها مأخوذاً من جمالها الباهر ولونها الأبيض المتسرب حمرة ومن عينيها اللتين يعلوهما حاجبان لا تخينـان ولا رفيعان وأمواج النور تتوارد من وجهها وتتدفق فضاع من ذلك عقله وحار لبه وأصبح لسان حاله ينشد :

بـدت تخـتـال في دل الـنـعـيـم كـما مـال القضيب مـع الـنسيم
وأشـرق صبـح واضحهـا فـولى هـزيـج الـليـل في جيش هـزيـم
وكف الصبـاح قـد سلت نـصـالا تخـرق حـلة الـليـل الـبـهـيـم
وأجـج مـن شعـاع الـشمس نـارا أذاب لهـيبـهـا بـرد الـنـجـوم
فـتـاة كـالهـلال فـان تجـلت أرتـنـا الـبـدر في ثـوب زمـيـم
وكـنـت بهـا أحـب بـني هـلال فـمـذ تمت هـويـت بني تمـيـم
بـخصـر مـثـل عـاشقـهـا نحيـل وطـرف مثـل مـوعـدهـا سقيم
وقـد لـو يمـر بـه نـسـيـم لـكـاد يـؤده مـر الـنـسـيـم
أيـا ذات الـلمى رفـقـاً بـصـب يـراعـي ذمـة الـعـهـد الـكـريـم
يـعلل مـن وصـالـك بـالأمـاني ويـقنـع مـن ريـاضـك بـالهشيم
نـظرت إليـك فـاستـأثـرت قلبي فـادركـني الـشـقـاء مـن الـنـعـيـم
فـطرفي مـن خـدودك في جـنـان وقـلبي مـن صـدودك في جـحـيـم
أرى سـقم الجـفـون يـرى فـؤادي وعـلمـني مـكـابـدة الهـمـوم
لـعـل الحب يـرفـق بـالـرعـايـا ويـأخـذ لـلبـريء مـن الـسـقـيـم

وكان ما يشغل خاطره ويستدعي انعطاف قلبه وجودها ذليلة مقيدة الأيدي مع أنها ملاك وهي فارسية تتكلم وهو ملته من معنى كلامها فشغل خاطره لذلك وضاع وعيه وفقد لبه فتقدم وحاكاها بلسانه العربي مؤملاً أنها تجيبه على سؤاله فلم تجب وحينئذ تقدم منه عمر العيار وقال ما لك ولهذه الغلبة فاذهب بنا ودعها وشأنها فإن أمرها لا يعنينا وكان قد فهم كلامها كله وعرفه حق المعرفة فقال عمر اليوناني كيف أتركها وهي على هذه الحالة أما من نخوة في رأسك ومروءة وأنت تدعي الشرف والناموس فأقسم بحق الليل والنهار لا برحت من هذا المكان إلا وهي معي واقتصصت لها من عدوها أيا كان ولو كان كسرى أنو شروان قال إن هذه عدوتنا وبنت أكبر أعدائنا هذه طوربان بنت أفلنطوش ابن عم كسرى وقد غدر بها زوبين الغداروأرسلها إلى هذا المكان ولا أعرف كيف فعل ذلك وفي نيته أن يأتيها فدع عبدةالناريفعلون ببعضهم ما يريدون فهم أهل فحش وقبح فلما سمع عمر بن الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد أنها نفس طوربان زاد به الوجد والهيام وهاجت به نار الوجد والغرام لأنه كان يضمر في نيته أن يراها على ما سمع عنها من زوجة أبيه مهردكار وهو متكدر من عودته كيف لم يرها وقد رآها وشاهد فوق ما سمع عنها وهي بتلك الحالة الموجبة للشفقة والإغاثة فقال لعمه أسرع إليها وفكها حالاً فإني لا أذهب من هنا إلا وهي برفقتي فادرك الأمير عمر العيار معناه ماذا يقصد وقال له ماذا يا ترى تستفيد من حلها فاننا إذا خلصناها عادت إلى قومها إلا إذا كنت تريد أن تأخذها لك زوجة فتذهب بها قال أني أريد ذلك ولا أبرح إلا وهي معي قال كيف يمكنك أن تتزوج بها وهي على دين النار وأنت

على دين الله العزيز الجبار ألا تعلم أن أهل الله لا يختلطون بالكفار . قال أعرض عليها الإيمان فاذا قبلت خلصناها وذهبنا بها وهي مطلقة الأيدي وإلا أخذناها معنا وهي على الحالة التي هي فيها وأخبرها أيضاً بأمري وإني أريد أن أتزوج بها وتكون عندي دائماً ويكون حظها كحظ بنت عمها مهردكار فتقدم منها عمر العيار وقال لها اعلمي يا ذات الجمال أننا سمعنا كلامك وعرفناك بنت من أنت ولذلك نريد أن نخلصك ونذهب بك عن قومك فهل ترضين بذلك .
قالت إلى أين تذهبان بي وأنتما من الأعجام أصحابنا ورجالنا . قال كلا بل نحن من العرب أعدائكم فأنا عمر العيار وهذا الذي معي هو الأمير عمر اليوناني ابن الأمير حمزة البهلوان صاحب المجد والجاه ورفعة المكان وأمه زهربان بنت اسطفانوس حاكم بلاد اليونان وقد وقعت من قلبه موقعا عظيما وأحبك من نظرة واحدة ولا يريد أن يذهب من هنا دون أن تكوني برفقته إما مقيدة أو مطلقة الأيدي فلما سمعت طوربان هذا الكلام وقع من قلبها موقعاً حسنا وكانت تحب من كل قلبها أن تتخلص من زوبين ومن جيش العجم وتتمنى الموت والبعد ولذلك قالت لعمر إني أعرف جيداً أن بذلك الفخر والشرف لي وأتمنى أن يكون نصيبي كنصيب مهردكار إني راضية وأقبل بكل ما أشرت إليه وأرغب أن أكون زوجة لابن سيد العرب وفارسهم قال : إن ذلك لا يكفينا لأن العرب لا يتزوجون بمن هن على غير دينهم ولذلك نعرض عليك أولا الإيمان فاذا قبلت بكلمة الحق وآمنت بالله تعالى ورسله الأطهار كان لك عندنا التعظيم والاعتبار وإلا فلا أمل بزواجك وأنت على دين النار قالت أعرف ذلك وما قلت لك إني أرضى بزواج ابن الأمير إلا وفي نيتي أن أكون على دينه ومنذ الآن أترك عبادة النار وأتمسك بعبادة العزيز الجبار خالق الليل والنهار فلما سمع ابن الأمير حمزة منها هذا الكلام أسرع إلى وثاقها فحله في الحال وقال لها أنت منذ الآن في زمامي وتحت لوائي ولا يقدرأحد أن يصل إليك . ثم طلب إليها أن تسير وراءه فسارت وهي تتأمل فيه وتظر في جماله وصفاته وقلبها يهلع من الفرح ومن السعادة التي عرفت من نفسها أنها نالتها ووقعت بها لأنها رأت غلاما لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر أو السادسة عشرة باهر الجمال بديع الأوصاف معتدل القامة كامل الهيكل عريض الأكتاف أبيض اللون عليه هيئة الكرامة ودليل البسالة والإقدام وهي لا ترفع بنظرها منه وقد فضلت الموت والعذاب وملاقاة كل هول بالقرب منه وقالت في نفسها أين زوبين الغدار من هذا الأمير الذي لا يوجد له ثان في ممالك العالم لا من الشبان ولا من النساء فسبحان من خلقه وقدر على أن أكون زوجة له أنال عنده السعادة العظيمة والحظ الوافر وأتمتع بباهر جماله وبديع محاسنه وبدقائق قليلة أصبحت عاشقة من أكبر عاشقات ذلك الزمان وقد نست أهلها وأباها ودينها وتعلقت به وهي تراه كأنه :

أوضحت نار خده للمجوس ... حجة في السجود للتقديس
وأقامت العاشقين دليلا ... واضحاً في جواز نهب النفوس

رشــاه مــن جــآذر الـعــرب لــكــن ... حـــاز إرث الجــمـــال عـن بــلـقـيس
لابـسـا مـن بهـائـه ثـوب بـدر ... ومـن الـوشـي حـلـة الطـاووس
وشــهــدنـــا مـــن خـــده وســـنـاء ... كيف تكسي البــدور نـور الشمــوس
وجلاهـا والصبــح قـد هــزم الليـل ... وهـم الـرفـاق بـالـتـعـريس
والـثـريـا ولت ومـالت إلى الـغــر ... ب فكـانـت كـالـطـائـح المنـكـوس
ولـد الشــرق شكـلـهـا وهـو لحـيـا ... ن فصــارت في العــرب كـالانـكيس
فـعـلت مـقـلتـاه في أنـفس الـعـشـ ... ـاق فـعــل الـسـلامـة الخنـدريس
أهيف القـد مخطف الخصـر ساجي ... الـطرف أنس النـديم روح الجـليس
لا تـلام الـعـشــاق في تـلف الأر ... واح في عــشـقـه وبـذل الـنـفـوس
نــظروا ذلــك الجـمـال وقــد لا ... ح نـفيسـا فـخـاطـروا بـالـنـفـيس

هذا وعمر اليوناني يسير أمامها وإلى جانبها وكان قلبه مملوءاً من الفرح والسرور على نوال غايته وكان لا يزال خاليا فامتلأ من محبة طوربان وصار لا شغل له إلا الاهتمام بها والنظر في أمرها وكان جهله وداعي سنه يحركانه إلى التباهي والتفاخر لدى حبيبته وأصبح يطلب أن يقاتل أمامها لتراه وتسر من عمله وعليه كان وهو سائر يعرج إلى جهة الجيوش العجمية وعمر العيار يضاده في ذلك ويطلب إليه أن يبتعد ولا يدنو من معسكر الأعداء وهو لا يصغي ولا يرجع ويقول له ما من بأس علينا وإذا رآنا الأعجام وحملوا علينا فإني أرى من نفسي أني كفؤ لهم أردهم وحدي وفيما هم على ذلك رأى جماعة من الأعجام قد تقربوا منهم وهم يظنونهم مثلهم ففرح عمر وصبر إلى أن قرب من الأول فأشهر حسامه وضربه به على هامته فألقاه قتيلاً ولما رأى رفاقه ما حل به حملوا عليه وصوبوا بأسنتهم إليه وسار واحد منهم إلى المعسكر وأخبر بما رأى وما سمع من عمر اليوناني ومناداته بنفسه حتى اجتمع حوله خلق كثير وهو يتطاعن ويتضارب كأنه القضاء المنزل فيفرق الصفوف ويطعن في المئات والألوف . ولما رأت طوربان ما حل بحبيبها وأن أعداءها محيطة بها تناولت سيفاً ومجنا من بعض المتقدمين وصاحت وحملت وكانت من البطش على جانب عظيم .

قال وكان السبب في وجود طوربان في ذاك الصيوان موثوقة كما تقدم الكلام هو أن زوبين الغدار كان يراقبها كما تقدم معنا وقلبه مملوء من الحب والغيظ مما حيث كانت لا تريد أن تراه ولا ترغب في أن تشاهد وجهه قط وقد صرف كل جهده إلى مراضاتها فلم تزد إلا نفوراً وبغضاً وعداوة وكرهاً ولا زال إلى ان كان قبل ذلك اليوم بيوم اغتنم فرصة انفرادها فجاء إليها وأعاد عليها حبه وقال ياقرة العيون ليس من الصواب أن تعامليني بالجفاء والقطع وأنت تعلمين شدة حبي لك وشوقي ولا أريد منك إلا شيئاً ممدوحاً بحيث أريد أن تكون لي زوجة فأصل عليك

بطريقة حسنة شريفة وتكوني قد رحمتي قلباً حزيناً مولعاً لا يرضى إلاك ولا يميل إلى سواك وبذلك ترضين النار التي ترغب في الازدواج ليكثر نسل بنيها وعبادها فقاطعته وقالت له قلت لك مراراً أني لا اريد أن أرغب في الزواج منك ولا من غيرك فدعني وشأني فإني لا أعرف الحب ولا أريد أن أعرفه فاجعل اعتمادك على غيري ولا تعلق أملاً بي فما من نتيجة بالحصول علي ولاسيما أني أعرفك كما أنت وأعرف غدرك وخيانتك وقلبي لا يرغب في أن يقرب من الخائنين فوجودك بين جيش العجم جعلني أكره فيه وأتمنى البعد عنه وأكرر لك ما قلته سابقاً من أن الموت عندي أفضل بكثير من الدنو منك ومن أن يقال عني أني تزوجت بزوبين الغدار وغضب النار عليَّ ورضاها فلا يتعلق بك كيف كان الحال وإني مع ذلك لا أسأل رضيت أو غضبت فاني حرة من نفسي وما من معبود حقيقي يجبر فتاة على الزواج بمن تكره . قال اسمعي لي وعي لقولي ولا تنظري إلي بغضك فإني أحكمك بنفسي وقومي فتكوني سيدة مالكة وأكون لك كعبد على الدوام وكان عهدي بأن قلوب النساء رقيقة شفوقة وأرى قلبك أشد من الحديد صلابة لا يلين لذلي ولا يشفق على توسلاتي وإذا كنت تكرهين بي لغدري بالأمير حمزة فهذا عين المجد والفخر لأن الحرب خدعة وعلى الإنسان أن يقهر عدوه بأي طريق كان أليس وقد حارب حمزة كثير من الأبطال والفرسان وما منهم من قدر أن يثبت بين يديه أو يصل بأذى اليه أنا قد قهرته مرتين وفي كل مرة تتأخر العرب ويشرف على الموت والهلاك . فابعدي عنك الأوهام وارضي بحبي وأجيبي طلبي فيكون ذلك بارادتك وقبولك . وفي النهار لابد منه لأن عمك كسرى وبختك قد وعداني بذلك وعداً صادقاً لابد من إتمامه أبوك يرغب ويقبل بأن أكون زوجاً لك فماذا يا ترى يوقف في طريق حصولي عليك وهل إذا أمرك ابوك وعمك تمتنعين وتخالفين . قالت وماذا يمنعني من أن أقول لهما إني أكرهه ولا أرضاه وأبغض النظر الى وجهه وماذا يبعدني من أن أظهر لهما ان قلبي ينفر منه كونه قبيح المنظر خبيث الأعمال لا ريب أنهما ينظران إلى كلامي بعين الرضا ويعرفان أنك كما أقول ولا تخفى عليهما حالتك ولا تظن أن عملك مع الأمير حمزة ممدوح من الناس فإن الرجل البطل يفضل ان يقتل بين يدي خصمه من أن يغدر به أو يخدعه بطريقة دنية فارجع إلى مكانك واتخذ لك زوجة غيري وأعمل على سلوي . ومن القبيح على الإنسان يحب من لا يحبه ويعلق قلبه بفتاة تكرهه وتبغضه وتتمنى هلاكه وموته . فلما سمع زوبين منها هذا الكلام انفطرت مرارته وهاج غضبه وتمنى أن يشرب من دمها على هذه الإهانة إلا أنه وجد نفسه غير قادر في تلك الساعة أن يبدي حركة وقد أضمر كل الشر في قلبه . ولذلك قال لها أني مؤكد أنه لابد أن يكون قلبك قد تعلق بغيري وأنك تهوين فتى وأنت عاملة على حبه دون علم أبيك واطلاعه على ذلك وهذا مما يزيدني غضباً منك وسوف ترين مني خلاف ما تظنين واني أصر على طلبي ولابد من قهر غايتك وأميالك وإجبارك على الزواج مني بوقت قريب لأني منذ ما وجدت في هذا العالم وأنا أحصل على كل ما أريد وأصرف الجهد إلى نوال الغاية .

وكنت قبلاً ارغب في زواج مهردكار فهربت وتزوجت بحمزة ومع ذلك فكنت عزمت ان الازم الحرب وأبذل الجهد للحصول عليها لا حباً بها بل كيداً لها وقهراً لتقدم ذبيحة النار وتعرف شر عملها وبغضها في إلى اين ذهب بها ومنذ رأيتك كرهت في مهردكار وعلقت قلبي بك وأنا متيقن أنك تكونين حكيمة عاقلة أكثر من بنت عمك ويكون لي معك الحظ والسعادة فجاء الأمر بخلاف ما ظننت وسوف يكون لي ولك حديث يذكر بين قومنا فيها بعد فضحكت من كلامه وهزت برأسها وقالت افعل ما أنت فاعل فاني لا افكر بك وان شئت ان تغدر بي وأنا بالحرب فاني متحذرة منك وها ان سلاحك معك وسلاحي معي فإذا أردت القتال فهلم فإما ان تقتلني واما ان اقتلك قال ليس لي في قتلك نفع ثم إنه تركها وكر راجعاً الى صيوانه وفي قلبه لهيب النار يتوقد وأحشاؤه تتمزق من شدة ما لاقي منها من الإهانة والاحتقار وهو ينظر في الطرق التي توصله من قهرها واغتصابها من نفسها وكانت افكاره القبيحة تزين له الطمع والحصول على غايته وتزيد من اهتمامه بنوال المراد ومن شدة غيظه ذهب إلى صيوانه ولم يجتمع بأحد كل ذلك النهار ولا رضي ان يرى أحداً الى ان كان المساء واسود الليل فكثرت به الهواجس وقلق القلق الزائد ورأى في نفسه أنه إذا مضت تلك الليلة ولم ينفذ غايته في طوربان يموت كيداً وقهراً ولذلك دعا بكبير عبيده وكان اسمه عدو الأمانة أحضره اليه وقال له أني أذخرك لمثل هذا الوقت والآن اريدك ان تسرع الى طلبي وتسعى في غرضي ولك مني ما طلبت .

وكان عدو الأمانة شديد الغدر والخيانة يعرف ابواب الحيل والخداع فقال مرني يا سيدي بما شئت فإني اقضيه لك ولو بذهاب روحي قال اعلم اني أحب طوربان بنت افلنطوس وقد صرفت الجهد الى مراضاتها واقناعها فلم تقنع ولا رضيت بل اكتفت بإهانتي واحتقاري وعملت على ذلي وتوبيخي حتى طلبت نفسي الانتقام منها واغتصابها وقهرها ولم أكن أرى وسيلة إلى ذلك أقدر أن أخفي بها عملي من أبيها وخدمها وأريد أن يتم ذلك في هذه الليلة فقال العبد ان ما تزعمه يا سيدي سهل وعندي له طريقة وهي أن كبير عبيد طوربان هو ابن عمي وبيني وبينه مودة عظيمة ولا يقدر أحدنا ان يفارق الآخر ففي كل ليلة بعد نصف الليل إما ان يجيء عندي فاشرب الخمر وإياه مع جماعتي العبيد وإما اذهب اليه انا واقيم عنده على الحظ مدة ثلاث ساعات بعد ان أوكل بالمحافظة على الصيوان جماعتي العبيد ففي هذه الليلة أذهب اليه واجتمع به عند صيوان طوربان مع جماعة العبيد فأضع البنج في الخمر ومتى سكروا رفعتهم مع عبيدي الى البرية فيخلو صيوان طوربان ويمكنك ان تذهب إليها وتنال غايتك منها قال إن بقاءها في الصيوان بين قومها بما يظهر الأمر وربما لم أقدر ان اتمكن منها وعندي أن تأخذ صيواناً الى البرية خلف أكمة مسترة تنصبه هناك وتأخذ طوربان وهي نائمة الى هناك فتوثقها وتربط أيديها وتبقى على محافظتها الى مساء اليوم الآتي فاذهب اليها واصرف ليلي معها وهي واعية لنفسها لكنها مقيدة الأيدي وبذلك اقهرها وانال ما أنا طالبه وبعد ذلك اعتقك من رق العبودية

وأزوجك بالجارية التي تريدها واعين لك الأموال الغزيرة فلما سمع عدو الأمانة كلام سيده فرح الفرح العظيم وقال له سوف ترى ما يسرك .

ثم أنه أخذ أربعةمن عبيده وبعث صيواناً مع عبيد أخر وأوصاهم أن ينتظروه خارج المعسكر في مكان عينه لهم وبقي سائراً إلى أن قرب من صيوان طوربان فأوقف العبيد الذين معه وسار هو وحده حتى وصل من العبيد فسلم عليهم ودنا من عبد طوربان وقال له اعلم يا ابن العم إني في هذه الليلة جئت قبل الوقت لأني كنت بشوق زائد الى رؤ ياك وأتمنى ان أشرب الخمرة معك وأرى من نفسي اني مسرور جداً ولا يطيب لي الحظ إلا بالقرب منك نتعاطى الكؤوس معاً ، فقال بارك الله فيك وإني بانتظار ذلك غير أني أرجوك ان تصبر إلى أن تنام سيدتي لأني أراها في هذه الليلة قلقة وفي كل برهة تدعوني اليها وتوصيني بالمحافظة والتيقظ . فقال له إني انتظرك حتى الصباح فما من عائق يعيقني لان سيدي قد نام ولا يقوم إلى الصباح ووكلت بالمحافظة عليه اتباعي . وكانت طوربان متكدرة متأثرة في تلك الليلة مما جرى بينها وبين زوبين الغدار وهي حزينة جداً تتمنى البعد عن المعسكر والرجوع الى المدائن أو القيام في آخر بحيث لا تراه ولا يراها وقد شغل فكرها من وعده ووعيده لأنها كانت تعرف أنه غدار خبيث دني الأعمال قبيحها ولهذا كانت توصي العبد بأن يبقى متيقظاً لتصرف تلك الليلة حتى إذا جاء اليوم التالي أخبرت أباها بعزمها على الرجوع الى المدائن وبعدت عن زوبين هذا . وصرفت أكثر من ثلاثة ارباع الليل وهي ساهرة قلقة إلى أن تغلب عليها النعاس وفتك بها سلطانه فنامت وغرقت ببحر عميق . ولما تيقن عبدها انها نامت جاء عدو الأمانة وقال له إني اعجب من مولاتي فانها لم تفعل في كل حياتها مثل هذه الليلة فانها خائفة جداً على نفسها ولا اعلم ممن ولولا تغلب النعاس لما نامت أو لو كان من يسليها لبقيت الى الصباح . فقال له دعها نائمةوهيا أدع جماعتك العبيد لنشرب الخمرمعاً ونبقى محافظين عليها إلى النهارإجابةلطلبها. فاحضروا الخمر واجتمع العبيد حول عدو الامانة فأخذ يسامرهم ويحكي لهم القصص والنوادر ويشغلهم ويلهيهم حتى تمكن من وضع البنج بالزق وهو متضجر قلق على الوقت الذي يمضي وقد خاف كثيراً من أن تقضي تلك الليلة ولا ينال مراداً ولا يتوصل الى غايته ثم سكب الخمر وناول كل واحد منهم قدحاً بدوره وصبر عليهم نحو خمس دقائق إذا بهم قد وقعوا إلى الأرض كالأموات. ففرح مزيد الفرح ونهض الى جماعته العبيد فدعاهم إليه وأمرهم أن يشدوا عبيد طوربان ويحملوهم في الحال إلى الخارج ويخفوهم في المغائر وينتظروه في البرية ففعلوا ودخل هو إلى الداخل فوجد طوربان نائمة على سريرها فلفها بالفراش وحملها على عاتقه واسرع يركض الى خارج المعسكر وكان زوبين في غير صيوان أبيها وبقي عدو الأمانة يعدو بها حتى التقى بالعبد الحامل الصيوان فسار حتى حتى جاء خلف تلك الأكمة فنصبا الصيوان وأنزل طوربان وهي ضيقة الأنفاس على آخر رمق من الحياة . فرفع الفراش عنها وأوثق يديها وسقاها الماء

فوعت الى نفسها والتفت يميناً وشمالاً فلم تر إلا ذاك العبد فقالت له ويلك من جاءني إلى هنا ولما ذلك قال إن الذي جاء بك إلى هنا هو انا عبد زوبين الغدار صاحب العظمة والفخار وقصده يغتصبك وبذلك لتعلمي من نفسك كيف تكون عداوته قالت له ويلك وماذا يكون من أمرك إذا رجعت إلى المعسكر فإني بدون شك اقتلك شر قتلة وأقتل معك زوبين الخبيث المحتال وهل يظن انه يتمكن مني وانا بقيد الحياة قال إنه ينال غايته بأسهل الطرقات لأنك موثوقة لا تقدرين على الدفاع عن نفسك وبأي شيء يا ترى تدافعين ومتى نال ذلك فلا ريب أنك ترضين بزواجه وتصبحين سيدتنا ومولاتنا ويكون لنا الفخر الأكبر بعملنا هذا عندك وسوف تكافئينا عليه المكافأة العظيمة مع أني امين على مطالب سيدي ولابد من إتمام أوامره ولو كان بذلك هلاكي ولا ريب أنك تعلمين اني خادم ومفروض على طاعة سيدي وقد عملت الواجب ولا أعرف ما يكون بينك وبينه .

ثم إنه اعرض عنها وتركها تعض على شفتيها تحرقاً وألماً من فعل هذا الماكر المحتال وقد علمت انها وقعت في حباله وخبيث اعماله وإنه إذا جاءها زوبين يتأمل مراده منها فيذلها وتلتزم بعد ذلك على قتل نفسها وإخفاء أمرها وجعلت تبكي على تهاملها بأمر نفسها وخرج عدو الأمانة الى خارج الصيوان فجمع باقي العبيد وسألهم ماذا عملوا فقالوا له أننا اخفينا العبيد في المغاير فأبقى عنده عبدين وأرجع الباقين إلى المعسكروأوصاهم أن يدخلوا على زوبين سراً ويخبرونه بما كان وأنه يبقى محافظاً على طوربان الى اليوم القادم ولا يدع احداً يطلع على أمرها او يعرف اين هي ولا سيما أن الصيوان لما كان منفرداً عن الناس وراء أكمة عالية لا يظن انها هناك وأن ما من أحد أطلع على هذا السر إلا العبيد وكان نور الصباح اخذ في ان يظهر شيئاً فشيئاً فعاد العبيد حسب أمر سيدهم وجاؤ ا الى المعسكر ودخلوا على سيدهم وأخبروه بكل ما كان من أمرهم وما فعل عدو الأمانة عند طوربان بالصيوان ففرح من مزيد الفرح وسقط عن قلبه هم عظيم وتكدر من حلول النهار وجعل ينتظر انصراف ذاك اليوم ويذهب بأنواره ويأتي الليل بظلامه فيسير تحت اجنحته لارتكاب القبيح ونوال المراد وكان يرى أن كل دقيقة أطول من سنة وهو يحاول ان يخفي امر طوربان عن أبيها ويشغله عن السؤ ال عنها والبحث عن أمرها إلى ان وصل في الصباح الى أفلنطوش وهو في صيوانه وأخبر أن عمر اليوناني في وسط المعسكر يقاتل ويناضل وإلى جانبه طوربان تفعل كفعله فطار عقل زوبين الغدار وهو لا يصدق بمثل هذا الخبر واسرع مع أفلنطوش إلى ساحة القتال قال وكان عمر اليوناني كما تقدم معنا الكلام يصيح وينادي انا عمر اليوناني ابن الأمير حمزة البهلوان وقد جئت لأنتقم منكم لغدركم بطوربان وهو يطرد الجيوش فتسير بين يديه كأنها قطيع من الغنم وهي تزدحم وتتقاطر من كل الجهات وطوربان تحمي ظهره ولا تدع احداً يقرب منه وتمد الرجال على بساط الرمال وتنزل بهم الهلاك والوبال وهي متعجبة من صبر حبيبها على القتال وبراعته في فنون الحرب خائفةمن أن يقع في

أيدي قومها لانه وحيد وهم كثيرون وبذلك صاحت بعمر العيار وقالت له دع عنك القتال واسرع إلى الأمير حمزة وأخبره بأمر ابنه قبل ان يصل ابي وزوبين الغدار وتحمل العساكر برمتها عليه وانا وعمر اليوناني نقدر على الثبات والبقاء الى حين تأتون فقال لها لا تفارقيه إلى أن أعود ثم انطلق حتى جاء معسكر العرب وصاح بأخيه حمزة وقال له ويلك ادرك ابنك فانه في وسط الأعداء وقد فعل بهم العجائب وأنزل بهم النوائب ولابد ان يقع به التعب فيصاب بنائبة او يقع بيد الأعداء وقد توافق مع طوربان بنت افلنطوش وهي تقاتل معه وتحمي ظهره فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام طار صوابه وغاب وعيه واسرع الى جواده فركبه وحمل على معسكر الاعجام وحمل من خلفه اندهوق بن سعدون والمعتدي حامي السواحل وكل فارس وبطل عربي وعند ما وصلوا الى ساحة القتال وجدوا قبائل العجم قد حملت باجمعها على الأمير عمر اليوناني وأفلنطوش يحركها ويصيح بها أن تتقدم منه وتحمل عليه زوبين الغدار ومع طوربان في نزال ومحاولة وهي تطلب ان تقتله وهو كذلك وقد امتلا قلبه حنقاً منها وكره في الحياة إلا انه لما سمع صوت الأمير حمزة وشاهد حملة العرب ترك طوربان وغاص بين قومه وكان القتال عظيماً والنزال جسيماً وقد اتسع المجال على الأمير عمر اليوناني عند وصول ابيه وقومه ومباشرتهم القتال فجعل يخترق الصفوف ويطعن في المئات والألوف وطوربان إلى جانبه وقد دفع اليهما عمر العيار جوادين فركباهما ودام القتال الى قرب الزوال ورجع الفريقان الى المنازل والخيام ودعا حمزة بولده وبأخيه عمر العيار ولامهما على مثل هذا العمل وقال لأخيه اما اوصيتك في المرة الاولى ان لا تذهب بولدي الى المخاطر فقال له ليس انا الذي ذهبت به بل هواه ونصيبه وقد حصل على ما هو طالب ونال غايته لأنه كان يقصد ان يرى طوربان فحصل عليها وجاء بها وهي هنا الآن ويقصد ان يتزوج بها وما سرت معه إلا خوفاً عليه ثم أن عمر العيار حكى لحمزة كل ما توقع لهما مع الأعداء وكيف رأيا طوربان موثوقة في البرية تقاسي الذل والهوان فدعا طوربان ونظر اليها فوجدها على جانب عظيم من الحسن والجمال وهي اشبه الناس بزوجته مهردكار وكان قد رآها وسط القتال وشاهد منها اشتداد ساعدها وقوة باعها وخبرتها بفن الحرب والقتال فعلم انها تليق بولده وأحبها كثيراً واستعاد منها حديثها فأخبرته بما كان من أمرها مع زوبين منذ اتيانها المعسكر كسرى أنوشروان إلى أن خلصها ابنه فقال لها إني اعرف ان هذا زوبين من أكثر الناس غدراً وخداعاً وما ذلك إلا لأنه يعبد النار ولو كان على دين الحق ويعبد الله العزيز الجبار لما يقدم على مثل هذه الخيانة واني أسألك الآن الزواج بولدي فهل ترضين ذلك عن طيبة خاطر ورضاء لأن شريعتنا تحرم الزواج إلا برضاء الزوجين . قالت إني بطلب مثل هذا الشأن تركت معسكري أبي وأهلي ليكون نصيبي سعيداً كنصيب بنت عمي مهردكار.

قال لكن بقي عليك ان تتركي عبادة النار وتتمسكي بحبال الله وتسلكي على حسب شريعته . قالت اني فعلت ذلك وعاهدت ابنك عليه ثم دعا بولده وعرض عليه الزواج

طوربان فقال هو الغاية والمراد فاني ما سرت الى قبائل الأعجام إلا لأراها وأعرف هل هي كما قيل لي عنها او انها بخلاف ذلك فوجدتها فوق ما وصفت وقد سهلت لي العناية الوصول اليها وهي بحالة مكدرة تحتاج الى مساعدتي فانتشلتها من العار ففرح الأمير حمزة وعزم بأن يزف طوربان على ابنه في مدينة حلب وأمر ان تؤخذ الى قصر يليق بشأنها تبقى به إلى حين ستبوح الفرصة وذلك بالقرب من مهردكار فأخذت وجاءت إليها مهردكار وسلمت عليها وقالت لها حسناً فعلت يا بنت العم فإن العرب قوم صحاب وفاء وزمام لا يهينون الزوجة ولا يظلمونها ولهم الشريعة المطهرة والناموس يبذلون كل النفيس والنفائس في المحاماة عن العرض ورفع الأذى بخلاف قومنا الأعجّام فإن لا اعتبار لمثل ذلك في صدورهم فيكرمون الزوجة احياناً وأحياناً يتخلون عنها لغيرهم كأنها غريبة عنهم وفي نيتهم ان غيرها تقوم مقامها قالت إني عرفت ذلك واعرفه ولا سيما ان الفرق بين من أحببته وأحبه وبين زوبين الغدار لا بل عموم رجال الفرس عظيم جداً واني اهنىء نفسي بذلك وأهنئك على ما سبق منك في مراعاة صالح نفسك والنظر في راحة حياتك .

ولما هدأ روح طوربان واختلت بنفسها نظرت الى فعلها وإلى ترك أبيها وقومها نظر المضطرب وقالت ماذا يا ترى يقول عني ابي وهو يجهل السبب في ذلك نعم أنه ينسب لي الخداع والمكر والخيانة ويغضب علي وصرفت وقتاً تفكر في ذلك وفي كل خاطرها ان أباها لا يعرف بفعل زوبين فأرادت ان ترسل له كتاباً تطلعه به على باطن القضية وظاهرها وتشرح له عما فعله معها زوبين الغدار من الأول إلى ذلك اليوم وما نوى على عمله فكتبت كتاباً في ذلك وقالت في آخره ولا تعتب علي يا أبي فيما فعلت فاني أصبحت اسيرة لغلام من أشد فرسان العالم بسالة بحيث خلص حياتي من العار والذل فملت إليه حباً بأعماله وكرهاً بزوبين الغدار الخبيث ورأيت ان الراحة وحفظ الشرف بالبعد عنه وبعد ان فرغت من الكتاب دعت بعمر اليوناني وأُخبرته بذلك. وقالت له أريد منك خادماً يسير إلى أبي ليدفع اليه هذا الكتاب ويعود من حيث ذهب فدفع الكتاب الى عبد أخذه وسار حتى وصل إلى افلنطوش في صيوانه وعنده زوبين الغدار وهو في حالة جنونية وضياع عقلي وقد هان عليه فقد الحياة وتمنى الموت على ما يلاقي من عناد التدابير وثبت في ذهنه أن طوربان ستفارقه الى الابد ويكون من أمرها كأبنة عمها مهردكار فدفع الخادم الكتاب الى افلنطوش فأخذه وقرأه فزادت بقلبه نيران الغيظ وقال لزوبين هل وصل بك الغدر الى مثل هذا الحد حتى نويت ان توقع بيني وتلبسني العار مع أنك كنت قادراً أن تطلعني على امرك فأجبرها ان تتزوج بك بطريقة شريفة قال إن ما تزعمه هو على الصحيح لأني رجل احافظ على شرف العجم جداً وان الذي فعل هذا الفعل العبيد ولابد من أباكر في ألغد الى القتال وابذل المجهود لاسترجاع طوربان تفحص عن سر هذه المسألة فيظهر لك الحق من الباطل وكان أفلنطوش يعلمُ بغدر وخيانة زوبين فثبت عنده ان هذا الفعل فعله وان لا أحد

يجسر ان يصل الى الإيقاع ببنته وعمل مثل هكذا أمر إلا هو الا انه سكت على غيظه وقد رأى نفسه محتاجاً إليه وإلى رجاله وخاف من الإنشقاق والتشتيت وترك هذا الأمر إلى وقت آخر .

ولما كان صباح اليوم التالي نهض العجم من مراقدهم ورأوا زوبين يضرب طبول الحرب والكفاح وهو يريد أن يلقي بنفسه في ميدان الأخطار فاما أنه يفوز بالمقصود وإما انه يرتاح من التنكيس الحاصل له وكذلك العرب فانها عند ما رأت غاية العجم بالقتال امر الأمير حمزة بضرب طبول القتال وركب على جواده اليقظان وركب عمر الأندلسي والملك النجاشي وأندهوق بن سعدون وعمر اليوناني والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وكل فارس وبطل وحالما وقعت العين على العين حمل كل من الطائفتين وقوم السنان وأطلق العنان فاختلط العربي بالعجمي والحبشي بالديلمي وقامت الحرب على ساق وقدم وحكم سلطان العدم . وجار فيها حكم واستبد وظلم وقسى وما رحم وسلم بهلاك وفناء تلك الامم التي القت راحة السلام ولم يكن لعنادها وقتالها نهاية ولا ختام فاندفعت الآدمية في أقنية الأرض كالأنهار. واختلطت أجساد المقتولين بالتراب والاحجار. حتى ضاقت منها الصدور ووقعت تحت قضاء الله المقدور وسلمت انفسها تسليم المؤمن الى القضايا وقربت نفوذها على مذبح الفوز ضحايا ولا زال القتال يعمل والدم يبذل الى ان اقبل الزوال وحان أوان الفراغ من القتال فضربت طبول الانفصال ورجع كل من المتقاتلين في الحال وقد قتل في ذاك اليوم من الأعجام كثير ورجعوا مقهورين مذلولين إن أن كان صباح اليوم التالي اصطف الصفان وترتب الفريقان وهجما على بعضهم البعض حتى ارتجت جنبات تلك الأرض ودار دولاب الحرب وتبادل الطعن والضرب طول ذلك النهار حتى كان المساء فضربت طبول الانفصال ورجع المتقاتلان ودام القتال سبعة ايام حتى وقع بعساكر الأعجام الفناء وامتلأت السهول من القتلى ورأى أفلنطوش ما صار اليه من التأخير والتعب فأيقن الهلاك والوبال فجمع اليه زوبين الغدار وقال له اصل هذا الشر أنت وقد أبعدت عني بنتي ولم تنفع بأمر لأن العساكر اصبحت على وشك الانقراض والتأخر ولم نر وسيلة للخلاص من الأعداء فوقع هذا الكلام على زوبين أشد من ضرب الحسام وقال له اني وعدت بخلاص من طوربان ولابد منه وانا أعرف أن النصر يكون لنا إذا قتل حمزة وقد جربت القتال معه مرتين فتوفقت الى قتله ولابد في المرة الثالثة من النجاح غير أنه من الواجب ان تبعث الآن بكتاب الى العرب تسألهم الهدنة الى عشرة ايام لندفن قتلانا ويكون العسكر قد ارتاح واطمأن نوعاً ما ورجع بعض قواه .

قال فرأى أفلنطوش أن ذلك صواباً فبعث بكتاب إلى الأمير حمزة يسأله ترك القتال مدة أيام بينها يكونوا قد دفنوا المقتولين فأجاب الأمير سؤاله وكان في نيته أن يزف ابنه على طوربان في هذه المدة حيث كان قد تولع كل التولع وأحبها الحب الشديد وصار لا يفارقها إلا حين القتال

وهي لا تصبر على بعده وإذ ذاك دعا إليه السادات والأعيان وقال لهم أني أجبت أفلنطوش إلى طلبه أملا أن تصرف هذه الأيام بالأفراح والمسرات فنزف ولدي على ظوربان لأنني أحب أن لا يقاسي ما قاسيت ولا يلاقي ما لاقيت من حب مهردكار ولذلك سنبتدىء منذ الغد . فسر الجميع لذلك ولا سيما عمر اليوناني فإنه أيقن بقرب زوال المراد ممن أحبها قلبه على صغر سنه وولع به كل الولع وأحبها الحب الزائد وذهب إليها وهي جالسة بانتظاره وقال لها لقد آن أوان الاجتماع وحل وقت الزفاف وقد أمر أبي أن يكون في هذه الأيام ولذلك ترينني مسروراً جداً ولا ريب أنك تشاركيني في هذا الفرح فقالت له إن قلبك يدلك على عظم سروري وإن كان من الواجب علي أن لا أفرح لبعد أهلي وأبي وأني سأزف اليك كأسيرة بيدك أو كابنة أحد أعدائكم غير أن ثقتي الكبرى برحتك تدفعني إلى التمسك بحبال الأمل الطويل أن أكون الآن وعلى الدوام أسيرة أحبك وأعامل منك معاملة المحبوب الأمين فأنت سيدي وفخري وأبي وأمي لا بل أنت سند والمحبوب والرجاء والأمل الوحيد ثم بكت وأنشدت قائلة :

دنوا لقد أوهى تجلد البعد	ووصلا فقد أدمى جوانحي الصد
أجن غراما فيك خشية كاشح	ومن مدمعي ودق وفي كبدي وقد
وبي فوق ما بالناس من لاعج الهوى	ولكن أبى أن يجزع الأسد الورد
فيا من يبين الرشد فيمن أحبه	متى يلتقي الحب المبرح والرشد
تلاعبت بالأشواق حتى لعبت بي	وما كنت أدري أن هزل الهوى جد
بليت بظبي عادل القد معطف	على وها قد رق لي الحجر الصلد
إذا جئته يوما لبث شكية	أوحى بأشجان على مثلها أغدو
تهددني من مقلتيه إذا رنا	قواضب مما يصنع الله لا الهند
حداد يلوح الموت في صفحاتها	مواض لها في كل جارية غمد
كان عليها القتل ضربة لازب	فليس لها مما تحاوله بد
تعلم منها الدهر صولة فاتك	فما برحت تزداد فتكا وتشتد
كأنها في حلية الضيم فارسا	رهان وكل منهما سابق يعدو
سأفزع من جور الخطوب والنجى	إلى عدل من أضحى له الحل والعقد
تصدى لنصر الدين بعد انخذاله	فرد على أعقابه الزمن الوغد
أعني أيا ابن الكرام فاني	غريبة قوم أنت لي العون والقصد

فضمها إليه وقبلها ومسح دمع عينيها وطيب خاطرها وهو يعرف أنها مولعة به كل الولع شديدة الحب وصرف أكثر ليله عندها على شراب العقار ومناشدة الأشعار وفي اليوم الثاني أخذتها إليها مهردكار ووضعتها في قصرها وأصلحت شأنها وأخذ العرب في عمل زفاف ابن

الأمير حمزة وكلهم فرحون بذلك يرقصون ويطربون ويذبحون الذبائح ويولمون الولائم ويشربون الخمور مدة سبعة أيام وفي اليوم الأخير عقد للأمير عمر على طوربان بحضور سادات العرب وقضاة حلب ودخل بها وامتلأ من حسنها وجمالها وصرف نحو ثلاثة أيام عندها لا يخرج من القصر وهما على أهنأ ما يكون من لذة العيش وقتلا الهجران بطيب الوصل والتقرب وبلغ في الأخير أفلنطوش أن ابنته زفت على عمر اليوناني ابن الأمير حمزة فتكدر جدا وكاد يفقد صوابه وكذلك زوبين الغدار فإنه أصبح كالمجانين وانقطع أمله وانفطر فؤاده وهان عليه الموت بعد ذهاب طوربان من يده وهو صابر على لوم أفلنطوش وتوبيخه له وما صدق أن حان يوم القتال حتى نهض هو قبل الجميع وركب على جواده وأمر بضرب طبول الحرب والقتال فضربت ونهضت الأعجام إلى خيولها فركبتها وفعل مثل ذلك العرب واصطف الصفان وترتب الفريقان وعولت العساكر على الهجوم وإذا بزوبين الغدار قد سقط إلى وسط المجال وهو فوق جواده مدجج السلاح فصال وجال ولعب على أربعة أركان الميدان ثم إنه وقف في الوسط ونادى هيا يا سادات العرب فابعثوا إلي بأميركم حمزة وغيره لا أريد فأما إني أقتله وأريح كسرى من شره وإما أني أقتل فأكون قد لاقيت جزائي منه ونظر الأمير حمزة إلى زوبين الغدار وهو في وسط الميدان وتعجب من أمره وهو لا يصدق أنه هو ذاته ولذلك أسرع إليه خوفا من أن يندم على البراز ويرجع من ساحة القتال ولما صار أمامه قال له ويلك يا زوبين إلى متى أنت مختف عني وأنا أتمنى أن أراك وما الذي حملك على البراز أهل رأيت طريقاً آخر للغدر بي والخيانة أجاب إني عرفت ما فعلت معك ولذلك جئت كما تراني وأطلب إليك إذا قدرت على أن تقتلني لأني أرى ذنوبي وقد وضحت أمام عيني لإهانتي فاستعد الآن فليس في وسعي الكلام فإنه يزيد أحزاني واكداري ويضعف قلبي ويذكرني بخيانتي فانحط عليه الأمير انحطاط البواشق وانقض عليه انقضاض الصواعق وأخذ معه في القتال والحرب والنزال وهو يراقب كل حركاته ويخاف من غدره وخيانته وزاد عليه الدرهم قنطار وضيق في وجهه واسعات تلك القفار حتى أيقن بالهلاك والبوار وشاهد الموت يحيط به إحاطة السوار وعرف أن حمزة في هذه المرة لا يترك له طريقاً للخلاص ولا ينخدع إذا أراد خداعه ولا يقدر أن يحفظ نفسه من الهلاك إلا إذا سلم نفسه أسيراً ولذلك صاح الأمان الأمان يا فارس الزمان وجوهرة الفضائل والإحسان فها إن سيفي بين يديك وروحي مسلمة إليك ثم رمى بسيفه إلى الأرض ووقف ذليلاً فأغمد الأمير حمزة سيفه في الحال وانقض عليه وقبضه من جلباب درعه ورماه إلى الأرض وإذا بعمر العيار قد انقض عليه وأوثقه ورجع به إلى الخيام وفي تلك الساعة حمل عمر اليوناني وحمل من خلفه فرسان العرب وداروا بالأعداء من كل الجهات وأنزلوا عليهم أنابيب الويلات وقيدوهم بحبال الشدات ولا زال القتال دائم وعزرائيل الهلاك قائم حتى أقبل الظلام وقد تقهقر العجم إلى الخيام وأيقنوا بالهلاك والاعدام وشرب كأس الحمام فرجع عنهم العرب إلى المنازل وهم متيقنون أن حالتهم حالة ذل وويل وإنهم ما

عادوا ينفعون لقتال ولا يقدرون على المقاومة .

وعندما رجع الأمير حمزة إلى الخيام نزل في صيوانه أي صيوان اليون شاه وكان العرب من صغيرهم إلى كبيزهم فرحون بأسر زوبين الغدار وتيقنوا أن الأمير لا بد أن يقتله أشأم قتلة ولذلك كانوا قد ازدحموا إلى الصيوان ينتظرون أمر الأمير بالاتيان به وكان زوبين نفسه يعتقد أنه هالك في تلك الليلة وأنه لا بد من وقوع نظر الأمير عليه يقتله في الحال ولما انتهى اجتماع الأمراء والملوك في الصيوان قال الأمير لأخيه عمر العيار اذهب وأتني بزوبين الغدار فسار وأحضره وهو مقيد الأيدي والأرجل والناس تزدحم حواليه من كل الجهات حتى أدخل به الصيوان فوقف بين يدي الأمير حزينا وأطرق إلى الأرض وأظهر على نفسه الذل والكآبة فقال له الأمير حمزة ماذا رأيت من نفسك يا زوبين وهل ثبت لديك أن عاقبة الغدر وخيمة ذميمة قال إني عرفت ذلك من قبل أن بارزتك ولذلك سلمت بنفسي لأخلص من حياتي الذميمة وقلت في نفسي إذا قتلني الأمير نلت ما أنا مستحقه وجازاني على شري وإذ عفى عني فقد تخلصت من خدمة العجم ومن قباحة دين النار الذي لا يمنع من الغدر ولا يعلم عمل الخير فأعيش عنده وفي خدمته وذلك لأني كنت أحسد فرسانك وأبطالك الذين بين يديك يخدمونك ويتقربون منك وهم معظمون مفضلون قال كيف يمكن أن أصدق صفاء نيتك وصدق قولك بعد أن رأيت من غدرك بي وما أوصلت إلي من الشر وأنت توسم بالغدر قال إني لا ألام على غدري بك لأني أعرف وأعترف انك أشد مني بأسا ولا أقدر أن أكيدك في ساحة القتال ولا يمكنني أن أتخلى عن حربك حيث كان أوصلني الطمع إلى أن أعد نفسي زواج مهردكار وبعدها بطوربان ولو كنت أنت مكاني في مثل ذلك الوقت لفضلت الموت على عناد الزمان ولا سيما إني كنت آنئذ على عبادة النار والآن وطدت كل العزم على عبادة العزيز الجبار خالق الليل والنهار وهذا الذي يحملني أن أخبرك بالصدق وأفضل الصحيح على غيره وكفاك شاهد برازي إياك وطرح نفسي بين يديك مع أنه كان في وسعي أن أبقى مختفياً بين قومي وإذا انهزموا انهزمت معهم وعدت إلى المدائن أنتظر الفرص فقال له حمزة إن كنت تؤمن بالله سبحانه وتعالى وتعتبر وصاياه وترضى بأن تكون معنا عفوت عنك وجعلت لك مقاما بين رجالي وأبطالي قال ان ربك يشهد عليّ أن لا أتكلم إلا الصحيح وأني لا أخفي في باطني شراً ولا أكذب قط وها أنت قادر علي فأما أن تميتني فبحقك وأما أن تبقي علي فمن كرمك وعدلك فقال حمزة إني عفوت عنك وتركت لك جريمتك وأعدت إليك سيفك فتكون بين رجال منذ الآن وانزع عنك اسم الغدار وأسميك بعبد الله زوبين فلا يكون اسمك منذ هذه الساعة إلا هذا ولا ريب أنك تسر من ذلك .

قال ولما سمع الفرسان كلام الأمير وعفوه عن زوبين دار بينهم الحديث ونقموا من عمله

وما هان عليهم بقاء زوبين حيا وصاح عمر العيار لما هذا العفو هل نحن بحاجة لمثل هذا الخائن الغدار وهل تظن إننا نقر له صدق وإني أقسم بالله العظيم أنه يقصد الشر والخداع كسابق عادته فما من نفع في حياته وعندي أن تقتله وتريحنا من شره وكذلك قال باقي الأبطال والرجال الذين في الصيوان قال : ألا تعلمون أن قتل الأسير حرام ولا سيما أنه يقول ويؤكد بأنه قبل الإيمان وصار من عباد الله فكيف كان الحال فقتله يحسب إثما وخطيئة . وإذا كان يخفي خلاف ما أظهر فلا أعلم ويعلمه الله ثم نهض في الحال وأطلق قيد زوبين وأرجع إليه سيفه وأعد له مكانا بين الفرسان وما منهم من يريد أن يقرب منه أو يحاكيه بحق ولا بباطل . وقد تعجب الجميع من صفاء باطن الأمير وحلمه وحسن طويته وعدله وحبه لله واعتقاده واعتباره لارادته . وأما زوبين فكاد يطير من الفرح وأيقن بنوال المراد وبلوغ الغاية وأعد له الأمير حمزة مكانا بين الفرسان يقيم به فنام تلك الليلة إلى صباح اليوم الثاني ثم جاء إلى الصيوان في المساء فوجد الأمير حمزة والفرسان قد جاءوا وأقام كل واحد في مكانه فسلم عليهم وجلس . ثم قال للأمير اعلم يا سيدي أنه لا خفاء أن أفلنطوش قد رحل عن هذه الديار في الليل وسار إلى جهة المدائن وقد خطر لي أن أتبعه فأما أن أقنعه وأجبره أن ينقاد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وينضم إلينا وينادي ابن عمه كسرى أنو شروان وأما أرجع بقومي ورجالي لأنهم ساروا معه ولتكون عوناً لنا وليس من العدل أن أتركهم بيد الأعجام وبينهم وقد جئت أستشيرك بذلك فإذا سمحت لي فعلت قال أما الإتيان برجالك فلا بأس منه فهو لازم وأما إقناع أفلنطوش فهذا لا أظنه ولا يمكن لأنه من عائلة الأكاسرة وعبادة النار مزروعة في قلبه قال أني أعرف ذلك ولكن أعرف أيضاً أنه يفوت دينه وبلاده ورجاله وكل ما هو عزيز لديه إذا قدر أن يكون قريباً من بنته يراها في كل يوم لأنه يحبها محبة تفوق محبة الآلهة . قال له اني أسمح لك فافعل ما أنت فاعل . فركب عبد الله زوبين في الحال وسار في طريق المدائن ركضاً ليدرك عساكر الأعجام .

وكان أفلنطوش في تلك الليلة قد حدثته نفسه بالهرب ورأى أنه إذا بقي يوماً آخر هلك وأهلك كل رجاله وثبت في ذهنه أن الأمير حمزة لا يبقي على زوبين ولا يتركه دقيقة في قيد الحياة وعليه فإنه أمر رجاله أن تستعد لترحل بعد نصف الليل ويسير على طريق المدائن وهو مكدر كل الكدر على فراق بنته وعلى مصابه وتأخره . وبعد نصف الليل بأكثر من ساعة ركب وركب من تبقى معه من فرسان العجم وساروا في طريقهم وعند الصباح افتقدهم العرب فما رأوهم ولا زالوا سائرين إلى قرب الظهر وحينئذ أدركهم عبد الله زوبين وتبينوه عن بعد ففرحوا وللحال أمر أفلنطوش بأن تقف العساكر فوقفت فرحة إلى أن دنا منهم واجتمع بأفلنطوش فسلم عليه وهنأه بالسلامة وقال له كيف خلصت من بين يدي حمزة . قال أني قبلت كلمة الإيمان وعبدت الله سبحانه وتعالى فوجدت في ذلك لذة عظيمة وقد صرت منذ الآن على دين حمزة ومن رجاله أقاتل بين يديه وقد جئت لأطلب اليك أن تجاريني في هذا العمل وتتفق معي على عبادة الله

وترك عبادة النار والتخلي عن كسرى أنو شروان فتجد في ذلك لذة كبرى ونتال الخير العظيم فضحك أفلنطوش منه وقال له بارك الله لك بهذا الدين الجديد ودامت عليك نعمة وأما أنا فلا تطمع نفسك بي فإني سأسير إلى كسرى وعندي إنك تسير معي وهناك ندبر في أمر هلاك العرب قال هذا لا يمكن فارض بما أعرضه عليك وسترى ما يسرك من أمر العرب وسيدهم وكان زوبين يتكلم بجد حتى توهم الجميع أنه عبد الله وترك عبادة النار وصار من رجال حمزة إلا أنه لما اختلى بأفلنطوش قال له أتظن أني أترك ما أنا عليه وأعادي كسرى وأجاري العرب على دينهم وأنضم اليهم . غير أني وجدت من الحيلة أن أكون وإياهم على اتفاق وأبقى عندهم إلى أن ينسوا ما فعلت بهم ويأمنوا إلي وإذا ذاك أغدر بهم وأدبر على هلاكهم وفنائهم فإذا شئت أن نتمم هذه الحيلة أرض بما أعرضه عليك وسر معي طائعاً إلى أمير العرب وأعرض عليه طاعتك وأنك قبلت الإيمان واطلب إليه أن يدفع اليك رجالاً يعلمونك ويعلمون العساكر الإيمان والشريعة ومن العجيب أن حمزة الذي يحسب في هذه الأيام من أعظم العالم بسالة وإقداما وأشدهم مجداً وفخراً بسيط القلب يصدق كل ما يسمع ولا يظن الشر بأحد وهذا يساعدنا على نوال المراد وأرى من الضرورة أن تكون أنت معي بينهم فيسهل علينا كلما نريد ونوقع بهم ونقتل الأمراء والأكابر ولو احتملنا منهم في الأول الإهانة وعدم الركون لكننا سنلاقي فيها بعد النصر ونأخذ ثأرنا منهم . فأطرق أفلنطوش عند سماعه هذا الكلام إلى الأرض ورأى أن كل ما أشار إليه زوبين عين الصواب وما من ضرر بذلك ثم قال له إني أرضي وأجيب إلى طلبك فإن به الخير والنجاح لكن من الواجب أن تطلع كسرى على كل ما جرى وتخبره بأمرنا وأننا ما دخلنا من العرب إلا لإتمام الحيلة ونوال المراد حتى إذا بلغه ذلك يعرف سر المسألة فلا يتكدر قال هذا لا بد منه فأرسل له كتاباً الآن نحن سنجعل الرسل متواصلة بيننا وبينه . وفي الغد عد بنا إلى حلب . ثم أن أفلنطوش كتب كتاباً إلى كسرى أنو شروان يخبره بما كان من أمرهم مع العرب وكيف أنهم تأخروا وأخيراً رأوا من الصواب أن يخدعوا العرب ليوقعوا بهم ويذلوهم وهم بأن منهم ويسأل منه أن يكتم هذا الأمر عن الوزراء وكل أحد كي لا يعرف العرب بذلك أو تصل إليهم الأخبار من أحد ويأتوا تلك الليلة في ذلك المكان وعند الصباح عادوا إلى أن جاءوا مدينة حلب وكشفوا معسكر العرب فأمر زوبين رجاله أن تضرب الخيام بالقرب من خيام الأعداء وأن يصيروا هم من العرب ويتصل الطنب بالطنب وأعلن بينهم أنهم منذ ذلك الحين أصبحوا مساعدين لحمزة ورجاله ففعل معسكر العجم كل ما أشار إليه زوبين وأما هو فإنه سار بنفسه وأخذ معه أفلنطوش حتى جاء صيوان الأمير حمزة فوجده على كرسيه جالساً كأنه الأسد في مربضه ومن حوله الفرسان والأبطال كل إلى جهة بحسب رتبته ومقامه ولما دخل دنا من حمزة وقال له هذا هو أفلنطوش وقد صرفت الجهد إلى إقناعه وبينت له حسن طويتك وحلمك وعدلك وأن لنا الراحة العظيمة والمجد الأكبر بقربنا منك ووعدته لا بد أن تستولى على تخت

كسرى فتعهد به إليه فأجاب وأبان له أنـه متكدر من ابن عمـه لأنه لا يعـاملهم بحق ولا يقدرهم . ثم تقدم أفلنطوش من حمزة وسلم عليه وأشار إلى باقي الفرسان بالسلام فأجلسه عمر العيار في مكان يليق بشأنه وقلبه يتحرق من عمل أخيه وبعد أن جلس قال له حمزة اعلم أيها الأمير والسيد العظيم أننا قوم نعبد الله تعالى العزيز الجبار خالق الليل والنهار يعرف ما في الخبايا ويطلع على السرائر والخفايا فإذا شئت أن تكون معنا وبيننا وتحسب نفسك كواحد منا يجب أن تعبده وتترك عبادة النار والأصنام وكذلك كل معسكرك والذين معك من الكبير إلى الصغير ولا بد أن تلاقون راحة ولذة في هذه العبادة . قال لقد أخبرني زوبين بكل ما لاقى منك من الإكرام والحلم وأنك بعد أن كنت قادراً على قتله عفوت عنه وأكرمته وتركت له جرائمه العظيمة ونسيت غدره بك وخيانته السابقة فتعجبت وعرفت أنك من كرام الناس ولا ريب أن من كانت هذه الصفات صفاته وهذه المزايا مزياه لا يفدى بالأرواح ولا يعادى كنت قبلاً متكدراً من زواج بنتي بابنك والآن رضيت وفرحت به لأنها وحيدة لي ومن العدل أن تكون زوجة لرجل مثل ابنك فتلاقي الراحة والسعادة . وها أنا الآن على دينكم وبين يديكم فعلمونا كل ما هو واجب أن نعمله وما أنا بأفضل من بنتي طوربان ولا تطيق نفسي البعد عنها لأنها عندي أفضل من ممالك العالم وأعز من كل ما فيها وهذا أحكيه لكم عن صدق قلب ونية لا أقصد إلا الحقيقة وإني منذ هذه الساعة صرت عدواً كبيراً لكسرى أنوشروان حيث لم ينظر في مصلحة نفسه حق النظر ولو كنت مكانه أسلمت بكل ملكي وبلادي إليكم وجعلتكم عونا وغوثاً لدولتنا .

فقال حمزة أني أشكرك على قولك ولا بد من أن أدفع إليكم الأساتذة لتعلمك وتعلم قومك شريعته تعالى لكني أقول لك أمراً واحداً فقط وهو إلهنا يسألنا أن نسالم العالم ونعرض عليهم الإيمان كما فعلت أنا فمن قبل حرم علينا قتاله وهو لا يغش ولا يغدر به فإذا كان إيمانكم عن رضى وأنكم بالحقيقة تقبلون كلمته وشريعته جاراكم بالخير وساعدكم وما ترك الكفرة تتمكن منكم وإلا إذا كان إيمانكم عن كذب وأنكم تقصدون الشر جاراكم بمثله وأنزل عليكم بغضه وما ترك لكم باب الشر مفتوحا بل سده في وجهكم ورد كيدكم إلى نحركم ومن هذا تعلمون أني أقبلكم كأخوة بالله وأترك ما تضمـرون لله تعالى ثم نهض إلى أفلنـطوش وقبله وترحب به وأمر فرسانه وأبطاله وملوكه أن تقرب منه وتسلم عليه وتقبله وتعاهده كواحد منهم فنهض إليه الجميع وقبله كل واحد بدوره وهم يتذمرون ويتقمقمون من عمل الأمير ويتعجبون من صفاء باطنه وحسن اعتقاده بالله مع تيقنهم أن زوبين وأفلنطوش وقومهما من الكفرة لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى ولو سلخوا وشووا على النار وأن إيمانهم كذب ولا بد من الغدر والخيانة ونووا أن يبقوا متحذرين منهم غاية التحذر على الدوام وأن عمر العيار كذلك يبقى محافظاً على أخيه وابن أخيه وزوجها .

قال وصار عبد الله زوبين وأفلنطوش منذ ذلك اليوم مع أعيان معسكر هما يأتون إلى صيوان اليون شاه ويقيمون بين العرب كأنهم منهم ولا يظهر من أمرهم شيء مكدر يجعل العرب بارتياب منهم نحو خمسة أشهر وفي كل هذه المدة كان يجتمع أفلنطوش ببنته ويظهر لها محبته كالعادة وفي قلبه لهيب النار كيف أنها مكنت منهم ورضيت عن قصد وطوع أن تكون زوجة له دون أن يكون أباها راضياً بذلك والرسل على الدوام متواصلة بين كسرى وبينه وهو ينتظر نتيجة لهذه الخدعة . إلى أن كانت ذات يوم وهم جالسون بالصيوان وإذا بالعبيد قد دخلوا على الأمير حمزة وبشروه بأن زوجته مهردكار قد ولدت ولداً ذكراً وهي سالمة ففرح وسر مزيد السرور وأعتق العبيد وأجزل لهم العطاء وأنعم عليهم ووهب الأموال وفرق الذهب وبعد ذلك جيء إليه به وهو في لفافته محمولا على أيدي العبيد والخدم فأخذه وقبله ونظر في وجهه فرآه كأنه البدر في تمامه عليه دلائل السعد والإقبال فامتلأ قلبه من حبه ولا سيما لأنه ابن مهردكار التي أحبها بالحب العظيم وفضلها على كل نسائه . ومن ثم أخذه الأمراء والفرسان كل واحد بدوره ينظر إليه ويقبله ويهنىء الأمير حمزة به ولما أخذه أفلنطوش ونظر بـه انفطرت مـرارته وهاجت بقلبه نيران العداوة وتذكر في داخله كيف يكون هذا ابن بدوي من بنت سيد العجم وملكهم وقد أخذها بالقهر والجبر رغما عن أبيها وكل قومها إلا أنه أخفى ذلك وهنأ الأمير به كغيره وكذلك زوبين فإنه رأى به دلائل والدته التي كان أحبها وتمنى أن يتزوج بها . وبعد أن طيف بالولد على الجميع أعيد إلى أبيه وسأل ماذا يريد أن يسميه فقال إني تركت الحق بتسميته لأمه ولذلك من الواجب أن أبعث أستشيرها على هذا ثم أرسل أحد العبيد يسألها في ماذا تريد أن تدعوه ليكون اسمه معروفاً مع قومه منذ ذلك اليوم فقالت للعبد أخبر مولاك أني أريد أن أسميه قباط حيث ولدته في غربتي . وحينئذ دعا الأمير حمزة إسمه قباط وأعاده إلى أمه وأمر أن تقيم عندها المراضع والجواري لخدمة الطفل وتربيته وهذا المولود يكبر ويسود بـين العرب ويكون له أعظم شأن وأرفع مقام ويصير ملكا عليهم كما سيأتي إن شاء الله .

وكان عموم العرب قد لاحظوا حال أفلنطوش وما وقع منه عند رؤ يته الغلام وكيف اضطرب وقلق فاجتمعوا ببعضهم وقال أندهوق إني لا أزال ألاحظ على زوبين وأفلنطوش حالهما وما هما عليه ولا ريب انهما لا يزالان على الشر والكفر لا يرضيان من نجاح العرب ولا راحتهم وظهر لي ذلك عياناً في هذا اليوم وعندي ان نخبر الأمير بذلك ونسأله ان يطردهما عنا أو يبعدهما إلى مكان آخر مع قومهما فقال النجاشي إن الأمير سليم القلب فلا يرضى ان يكون ظالماً ويغدر بهما وان كانا مملوءين من الغدر والخيانة ولذلك فليبق كل واحد محافظاً على نفسه وقومه منتبهاً في الليل والنهار خشية من الغدر حتى إذا ظهر منهما ذلك بطشنا بهما واهلكناهما مع قومهما ولا ريب ان الأمير إذا ذاك يحذرنا ويعرف خيانتهما . قال عمر الأندلسي إن خوفنا على الأمير منهما فانه سليم القلب يسلم لهما ويصدق كل ما يسمع فإذا احتالا عليه وافقهما وحينئذ

يغتنمان الفرصة وينفذان مآربهما به . فأجاب النجاشي أن الأمير محروس منه تعالى محفوظ بعنايته فلا تنفذ فيه غاية الأشرار ومع كل ذلك فإن عنده عمر العيار نقمة الانس والجان من لا تغفل له عين ولا ينام عن عدوه ولا ريب انه ساهر على حفظ أخيه لابل حفظ العرب بأجمعهم وهو يعرف أن أفلنطوش وزوبين وسائر الاعجام لم يؤ منوا بالله عن يقين وان قلوبهم مملوءة من الشر والخداع والفساد ولابد من ان تكون نقمة العجم عن يده وهكذا اصبح كل من العرب في حذر من زوبين وأفلنطوش ولكن القضاء إذا كان واقعاً لابد من تمامه مهما تحذر المتحذرون .
فهذا ما كان من العرب وأما ما كان من افلنطوش وعبد الله زوبين فانهما بعد أن تركا صيوان الأمير حمزة سارا إلى معسكرهما وقد قال افلنطوش لعبد الله زوبين اني تكدرت في هذا اليوم كثيراً فوق ما أنا متكدر لأنه ما كفانا اننا في كل يوم نرى أعداءنا ونقيم بينهم ونسمع لهم ونذل بين يدي اميرهم كسيد لنا ونراهم يتمتعون ببناتنا رغما علينا حتى اخيراً يأتوننا بـأولادهم منهم ويعرضوهم علينا لنقبلهم ونفرح مثلهم وما هذا إلا عار عظيم علينا ونفسي لا تكاد تحمله وقد ندمت على الإتيان منك اليهم والصبر على الانضمام اليهم قال قد مضى الكثير ولم يبق إلا القليل وسوف ترى ما يكون من جمرنا معهم ولابد من مسك مهردكار وطوربان وإرسالهما الى المراز به وخدمة النار لتكونا ضحيتين للنار عن ذنوبنا نحن الذين التزمنا بسببهما أن نكفر بديننا وننضم الى عبدة البطل والكفر قال افلنطوش هذا الابد منه فاني سأقبض على كل النساء اللاتي منا كدرة الصدف وغيرها ولنجعل همنا واهتمامنا أن نأخذ النساء فقط ونسافر عن هذه الديار لأن العرب منتبهون الينا كل الانتباه ويطول امرنا معهم إذا أردنا أن نغدر بهم ولولا الأمير حمزة لما قبلونا قط أن نكون بينهم ولذلك سأبعث أخبر كسرى ان بنته ولدت ولداً ذكراً ودعت اسمه قباط وهذا كان اسم احد أخوتها وقد توفي ولم يكفها ان صارت كـواحدة من العـرب حتى انتحلت اسم اخيها وهو من الاسماء المكرمة عند العجم ودعت ولدها به ولابد أنه يتكدر من ذلك ويخبرنا كيف نفعل ونطلعه على انتباه العرب وتيقظهم منا وأننا إذا أردنا أن نغدر بهم لا نقدر الا بعد زمن طويل جداً لا يعرف مقداره اي إلى حينما تطمئن افكارهم ويثبت لديهم صفاء بواطننا ويتوهمون ان لا خوف ثمة منا قال أكتب بذلك إلى كسرى وإني أؤ كد انه يفضل ان نبقى أكثر من عشر سنين وعشرين سنة بين العرب وهو بأمان منهم على أمل ان نقتل الامير حمزة .

ومن ثم كتب أفلنطوش كتاباً إلى كسرى أنوشروان يخبره بولادة بنته وأنها دعت اسم ولدها قباط وسأل منه هل يبقى على الانتظار ان يترك العرب ويعود برجاله إلى المدائن إذ أنه لا يرى وسيلة لنوال مراده في الحال ولا يقدر احد من العجم ان يصل إلى حمزة البهلوان وبعث الكتاب مع نجاب ولما وصل الكتاب الى كسرى وعرف ما فيه ارسل له بالجواب يقول له فيه أبق مكانك ولا تترك ما أنت عليه واحفظ مودتك مع العرب في الباطن الى ان تقتل حمزة وتعدمه

الحياة ولو بقيت دهراً وإني ساع في إيجاد الوسائط السرية لنوال المراد فكن مطمئناً وعندما وصلت هذه الكتابة إلى افلنطوش بقي علي ما كان عليه وما مضى على ذلك إلا أشهراً قليلة حتى ولدت طوربان ولداً ذكراً ففرح به الأمير اكثر من فرحه بولده وأمر أن تزين مدينة حلب خمسة عشر يوماً وتدار الأفراح في كل ناح ففعلوا وبعد ذلك جيء إلى صيوان اليون شاه وناوله الى الأمير حمزة فأخذه وقبله ودفعه إلى جده الآخر أفلنطوش فمد يده ليأخذه فجعلت يده ترتجف وخاف من أن يظهرامره فقال للأميرحمزةأني لا أصدق أن بنتي تأتي بولد ذكروأبقي حياً فأراه فهي عزيزة علي والآن لا اعرف ماذا اصنع فاني ارى كل أعضائي تتحرك وتحن ولما اخذ الولد اليه وجده كأنه البدر في تمامه جمع بين بهاء أبيه وجمال أمه فزاد اضطرام فؤاده إلا انه تجلد وقال لصهره بشراك بهذا الغلام فاني أراه مسعوداً وأشكر الله على مثل هذه النعمة واطلب اليه ان يعيش كثيراً وينال ما ناله ابوه وجده من الاقبال والتوفيق ثم أخذه أبوه وقبله في جبهته وقال لأبيه حمزة ماذا ندعوه قال حيث ولد في أيام الراحة والهناء فلندعوه سعداً لأن بوجهه ثم أعادوه إلى أمه ووضع له المراضع والخدم واخذ الولدان يكبران ويترعغان يوماً فيوما وفي كل مدة يؤ تى بهما الى بين الفرسان ينظرهما الخاص والعام ويقبلهما الأمير حمزة وابنه وافلنطوش ودام الأمر على مثل ذلك حتى صار الطفلان يقدران على المشي فيأتيان مع الخدم الى افلنطوش يوماً بعد يوم ويقبلان يديه وهو يكاد يقضى عليه ذلك ولكن كان يظهر في وجههما الرضا والقبول ويهش خشية من إظهار الأمر وقلبه يتمنى لهما الهلاك ومثله لأميهما حيث أنهما نجستا عبادة النار واحتقرتاها جداً ودخلتا عن حق في دين الإله تعالى .

فذات يوم نهض الأمير من نومه مرعوباً مضطرباً ودعا بفرسانه الأخصاء وقال لهم أني رأيت حلماً راعني وراعبني وجعلني قلق الافكار مضطرب البال واني من عاقبته خائف جداً ولذلك دعوتكم لاعرف ماذا ترون في أمر هذا الحلم وهو اني بينما كنت نائماً في أعمق نومي وجدت نفسي كأني في مكة المطهرة بين قومي وهناك رأيت أسراباً من الغربان تحوم حول المدينة ورأيت بعض هذه الغربان يأتي المدينة ويخرج منها ومن ثم حانت مني التفاتة إلى إحداها فوجدت واحداً كبيراً يحمل في فمه أبي إبراهيم ويسرع في طيرانه ورأيت بعض هذا الغربان ايضاً من سادة مكة وتخرج مسرعة فغاظني ذلك وأردت ان اتبع بهم وإذا بي قد استيقظت فوجدت نفسي في فراشي فحزنت جداً وتذكرت أبي ورجاله وتلك الأرض التي تفوح بمسك الطهارة وارتبت في راحتهم وقلت لابد أن يكون قد وقع عليهم أمر مكدر وفي ظني أركب وأسير إلى مكة وانظر كيف حال أمي وقومي فقال أندهوق لولا وجود الاعجام بيننا لرحلنا عن هذه الديار إلى تلك النواحي وأقمنا فيها بضع سنوات الى حين نرى ما يكون أمر كسرى غير أننا لانزال مرتابين من صدقهما ونخاف ان نذهب بهما إلى تلك الأرض فننجسها بوجودهما عليها وهما على الكفر والنفاق وقلة الأمانة وتمكنهم بالتهائنا بالأسفار من الوصول الى الغدر بنا قال

الأمير مالنا ولهذا الفكر فهذا لا يعرفه إلا الله تعالى نعم أني أرى من أعمالهما ما يجعلني في ارتياب لكني لا أريد ان أفعل شيئاً قبل ان أرى منهم دليلاً على الغدر واضحاً فلا أكون ظالماً بعد ان امنتهم على أنفسهم فقال المعتدي حامي السواحل اني ارى من الصواب أن يذهب عمر العيار بأسرع من البرق الى أرض مكة فيشاهد من بها ويخبرنا بكل ما يرى هناك ويخبر أباك أننا بخير وأن الله قد أنعم عليك بغلام فيسر بكل هذا قال عمر إني كنت أخاف أسافر فيغتنم زوبين فرصة غيابي لكني سأضع في مكاني جماعتي العيارين وأحرضهم على الأمير وعلى خدمته وأوصيكم انتم أيضاً أن تتحذروا لأنفسكم أياماً قليلة فاني لا اغيب إلا القليل وكيف كان الحال فيمكنكم أن تثبتوا على ملاحظة عدوكم الى حين إيابي وأني اودعكم من هذه الساعة .

ثم تركهم وجاء عياريه فجمعهم إليه وأوصاهم بالمحافظة والإنتباه وعلمهم كيف يجب ان يعملوا في غيابه وقسمهم إلى فرق بعضها في خدمة الأمير وبعضها حول صيوانه وصيوان ابنه وبعضها يطوف في المعسكر على الدوام في كل ليلة وسار من هناك واستلم طريق مكة المطهرة وأسرع في الجري حتى بعد نحو خمسة ايام وإذا به أقبل على شجرة كبيرة في جانب الطريق فعرج اليها ليجلس قليلاً تحتها وإذا به يرى رجلاً ملتفاً برداثة متظللاً بفيئها من حرارة الشمس فدنا منه وصاح به فوعي الرجل وإذا به الأمير عقيل رئيس الثماني مائة فارس أخصاء الأمير حمزة ففرح به عمر وسلم كل منهما على الآخر ثم سأله ما هو الذي واجب إتيانه وحده إلى تلك الأرض وهو جرى على رجال مكة شيء قال إني سائر إلى جهة حلب لأخبر الأمير بما كان من امر أبيه وما أنت قال أي جهة سائر قال إني كنت سائر إلى مكة حيث ان أخي رأى حلماً مريعاً دعاه إلى التيقظ والإنتباه وان يعرف ما جرى هناك من الأمور في كل هذه الأيام والحمد الله الذي رأيتك هنا وخففت عني ثقل السفر الطويل إذ لا أريد أن أغيب كثيراً عن المعسكر فاعد علي ما جرى عليك بعد أن فارقتنا وما جرى على أهل مكة المطهرة قال إني بعدما فارقتكم مع الأميرة سلوى أخت المعتدي حامي السواحل سرت بين يديها وفي خدمتها إلى ان وصلنا بالسلامة الى المدينة ودخلت على الأمير إبراهيم وأخبرته بكل ما جرى لنا وكيف أنا قهرنا كسرى وطردناه عنا وأبدنا كثيراً من جموعه وان الأمير حمزة تزوج بمهردكار ففرح وشكر الله على ذلك وقال كان بودي ان أكون حاضراً زفاف ولدي لافرح به وجبر كسرى شيخوختي غير أن الله سبحانه وتعالى قضى عليه ان يكون له زمانه غيرياً بعيداً عني فأشكره على سلامته وعلى تخصيصه بالسعادة والتوفيق . ثم قرب من الأميرة سلوى وسلم عليها فقبلت يديه وأقامت في بيت اعد لها وبعد ذلك ذهبنا إلى البيت وطفنا حوله ثلاثا وكل أهل المدينة يصلون ويشكرون نعمة الله على هذا النصر الذي ناله الأمير وساد به العرب وارتفع صيتهم على رؤوس الكبار والصغار. وأما انا فأني بعد ذلك ذهبت إلى مكة واجتمعت بأهلي واقمت بينهم املىء باشواقي منهم وصرت كل يوم أحضر إلى ديوان الأمير إبراهيم ابقى كل نهاري هناك واعود في المساء إلى ان كانت ذات يوم

من هذه الأيام الأخيرة جاء مكة جماعة من العرب وأظهروا ان قصدهم زيارة بيت الله الحرام فنزلوا في ضواحي المدينة وصاروا يدخلون ويخرجون ونحن بمأمن منهم وفي نيتنا انهم من العربان الذين يأتون حسب العادة لقضاء فروض الزيارة فلم نقف له على خبر وافتقدنا اولئك الزوار فلم نر لهم أثراً فشغل بالنا جداً ولا سيما عندما ثبت لدينا ان سادات مكة أيضاً قد فقدوا وغابوا عن المدينة فطفنا كل النواحي والجهات وسألنا كل من الغادي والصادي فلم نقف لهم على خبر فزاد بنا الغيظ والكدر وحسبنا ان ذلك وقع من الأعداء ففارقت مكة وصرت استخبر عن مكان وجودكم حتى عرفت أنكم لا تزالون بحلب فصرت أقصدكم لأخبركم بما كان من أمر الأمير إبراهيم . فلما سمع عمر العيار هذا الكلام قال لا ريب أنه عمل عياري الأعداء قد احتالوا على سادات مكة وفعلوا هذه الافعال فهلم بنا بسرعة نقصد فرسان العرب لنطلعهم على هذا الخبر قال سر أمامي فاني لا أقدر أن أرافقك في السفر ولا يمكن للجواد ان يجري مجريك. وقال قال إني اخفف عنك ثقلة المشي . ثم تناوله ووضعه في جراب اسماعيل وكر راجعاً مثل البرق الخاطف حتى جاء حلب ودخل بين معسكر الأعجام فوجدهم على حالهم فاطمأن باله. ثم جاء معسكر العرب ودخل ديوان الأمير حمزة فرأى الفرسان مجتمعين من حواليه وبينهم أفلنطوش وعبد الله زوبين فأشار إلى أخيه أن يتبعه ولما اختلى به على انفراد اخرج الأمير عقيل من الجراب وأمره ان يعيد القصة ثانية على الأمير حمزة ففعل. ولما سمع هذا الخبر اطرق الى الأرض متحيراً مرتبكاً وقد اسودت الدنيا في عينيه وكاد يغيب عن صوابه كيف يفقد ابوه ولا يعرف من الذي فعل هذا الفعل وخاف من أن يكون قد لحق به سوء أو أن الأعداء يقتلونه ثم قال لعمر العيار قد أشكل علينا الأمر ونحن لا نعرف من اين جاءتنا هذه المصيبة وكيف الوسيلة للاطلاع على حقيقة الأمر لنتلافاه ونرجع قومنا قبل ان يحل بهم المصاب قال إني فكرت بأمر به الخير والنجاح وهو اني أسير إلى المدائن وأدخل على الوزير بزرجمهر وأعرض عليه واقعة الحال وأسأله في ذلك ربما أن يكون عرف بما جرى إذا كان كسرى عمل هذا العمل ويدلنا على المكان الموضوع به السادات فنسعى في خلاصهم ونرى ما يدبره الله تعالى . فقال حسناً تفعل فسر عاجلاً وأتني بالخبر اليقين فودعته بعد أن أوصى ان لا يدعو عبد الله زوبين وأفلنطوش وكل جماعة الأعجام يعرفون بمثل هذا الأمر .

ولا زال سائراً حتى جاء المدائن وترقب الوزير حتى رآه خرج من الديوان وذهب إلى قصره فتأثره حتى دخل ودخل من خلفه وتقدم اليه وسلم عليه ففرح به وسأله عن العرب وعن أخيه هل هم بخير فاخبره بكل ما جرى للعرب من السعادة والاقبال والنصر والافراح . قال إني لمثل هذا أتمنى لهم وأعرف انهم سيلاقون بعد أعظم من ذلك . والآن اتيت على ما اظن تسأل عن الأمير وسادات مكة الذين سرقوا قال نعم لقد وصل الينا الخبر بذلك ونحن نجهل السبب فأتيت لاعرفه اين وجودهم حيث لم يكن لنا من سيد نصوح مثلك نلتجىء اليه ونستمد آراءه

ونطلب مساعدته . قال اعلم ان الأمير إبراهيم والسادات قبضوا وأرسلوا الى نهروان يشتغلون هناك ببناء القلع . وسبب اسرهم أن عيارين من عياري العجم وهما عمر بن شداد الحبشي وسقلان الرومي ذهبا بجماعتهما إلى مكة المطهرة ومعهما جماعة من العيارين وتزيوا جميعاً بزي العرب واحتالوا على الأمير إبراهيم فسرقوه وسرقوا أعيان قومه وجاءوا بهم إلى كسرى ففرح بذلك وانعم على العيارين وأرسل الأسرى الى نهروان وأمر أن يشتغلوا بالأشغال الشاقة هناك وأن يهانوا كل الاهانة ولو سبقت نحو ثلاثة ايام لكنت وجدتهم هنا ولكن الآن قد بعدوا كثيراً فارجع الى أخيك وأخبره وأطلعه على سر المسألة واعلمه ان هذا كان بتدبير بختك الوزير قصد به إهانة حمزة ليشغل له باله ولا يدعه مرتاحاً ويلتزم أن يسعى خلفه ويفتش عليه وهو لا يعرف في أي مكان فاسعوا في خلاصه وخلاص السادات حالاً ولا تتأخروا ولا دقيقة واحدة فشكره عمر العيار على ذلك وقبل يديه وكر راجعاً في الطريق الذي جاء منه حتى جاء حلب فدعا أخاه سر واطلعه على كل ما عرفه من الوزير بزرجمهر وفيما غيظه قال قبح الله كسرى وبختك فانهما لا يسعيان إلا بالمكر والاحتيال وإذا كان قد ظنا إني أعجز عن تخليص قومي فقد أخطأ ولابد لي من المسير في هذا اليوم إلى نهروان لارى أعدائي كيف حالهم . ثم إنه دعا بمعقل البهلوان وأخبره بغايته وقال له كن على اهبة السفر فاني مزمع أن أسير الى نهروان فأجاب طلبه وفي الصباح ركب الأمير ومعه معقل البهلوان وعمر العيار وما برحوا سائرين عدة ايام حتى كشفوا انهروان فوجدوا البناء مشتغلاً في قلاعها من كل ناح والفعلة تنقل الأحجار وتحمل التراب وكان نحو خمسة وعشرين ألف رجل يشتغلون في تلك الناحية وعليهم عمر ابن شداد الحبشي وسقلان الرومي وعياروهما ومن الجملة الأمير إبراهيم وسادات مكة وهم يهابون أكثر من الجميع فنزل الأمير عن جواده إلى الأرض وفك كربه وسقاه وأطعمه ثم عاد فركب عليه وفعل مثله معقل البهلوان ثم أن حمزة قال له أريد منك أن تسير إلى جهة الشمال وأنا إلى جهة اليمين وننحط بغتة على هذا الصيوان المنحرف الذي في طرف القلاع لأن يظهرمن أمره أنه صيوان رئيس القوم وربما كان العيارين الخبيثين اللذين سرقا أبي ومن ثم ننحط على الباقين فمن سلم عفونا عنه ومن امتنع قتلناه فأجاب معقل البهلوان أمره وافترقا وهجم كل واحد من جهة فثار العيارون وهاجوا واضطربوا ولما سمعوا أن الصياح هو صياح الأمير حمزة تركوا الاسارى وطلبوا الفرار فأدرك حمزة ابن شداد الحبشي فشد وثاقه ومعقل البهلوان أسر سقلان الرومي وبعد مضي ساعة من الزمان تفرق كل من كان في ذاك المكان وحينئذ تقدم الأمير من أبيه وترجل عن جواده وقبل يديه وبكى لما رآه بتلك الحالة وقال قبح الله كسرى الخبيث الغدار فإنه يستحق اعظم من هذه الإهانة فهو لا يراعي حرمة العظماء ولا يقدر الشرفاء حق قدرهم فقبله الأمير إبراهيم وشكر الله سبحانه وتعالى على خلاصه وقال لولده لا تتكدر يا ولدي من وصول مثل هكذا أمر إلي فما ذلك إلا بسماح منه تعالى فقد قدر على أن اشتغل بالتراب لاعرف حالة الإنسان وتعبه وأن لا فرق عنده

بين الرفيع والوضيع وبينما كنت ألاقي مثل هذه الاهانة كنت أرى نفسي مسروراً وألتذ كل اللـذة التي ما كنت أشعر بها عندما كنت في ديواني بين أعياني فأشكر الله سبحانه وتعالى تكراراً على نعمته وفضله .

ثم إن الأمير سلم على باقي سادات مكة وصرف ذاك النهار في ذاك المكان وفي اليوم الثاني قال لمعقل البهلوان أريد منك يا أخي ان تذهب من هنا مع أخي عمرالعيارإلى حلب وتخبر العرب بما كان من أمرنا وتطلعهم على سر المسألة وتوصيهم أن يكونوا على التحذر والانتباه وأنا مرادي الذهاب الى مكة لأوصل ابي وأشاهد أمي وزوجتي الأميرة سلوى ومن ثم أعود إلى حلب فقال له افعل مابدا لك ثم ركب الأمير وركب ابوه وباقي السادات وأوثقوا عمر بن شداد الحبشي وسقلان الرومي وساروا بعد ان ودعوا الأمير معقل البهلوان وعمر العيار وساروا كل فريق في طريق وأما العيارون الذين هربوا من أمام حمزة داوموا المسير حتى جاءوا المدائن ودخلوا على كسرى وأخبروه بأن الأمير حمزة قد فاجأهم إلى تلك الجهات وخلص اباه وقومه وباقي الأسارى وأسر العيارين فتكدر كسرى واغتاظ وتعجب من وصول الخبر إلى العرب في الحال مع أنهم بعيدون عن مكة وكان اعظم الحنق واقع على بختك الوزير وقد وقع في سوء التدبير واحتار في أمره وأما الأمير حمزة فإنه ما برح سائراً مع قومه حتى جاء مكة المطهرة وعرف به أهلها وكانوا باضطراب عظيم فخرجوا أفواجاً نساء ورجالاً واطفالاً وهم فرحون بـرجوع السيـد إبراهيم اليهم ولما التقوا به قبلوا أيديه ونادوا بالأفراح ولاسيما عندما رأوا الأمير حمزة سيدهم وسيد قبائل العرب بأجمعها وعادوا إلى المدينة ودخل الأمير حمزة على والدته وقبل يديها وسلم عليها فقبلته ودعت له بالبركة وطول البقاء ومن ثم جاء إلى زوجته سلوى واقام عندها ليلته وقد طيب بخاطرها وأظهر لها شوقه وأقام في مكة سبعة ايام وقد طاف بالبيت وأدى فروض الزيارة وسلم عمـر بن شداد الحبشي وسقـلان الرومي الى محـافظين من رجـال المدينـة وأوصاهم بالمحافظة عليهما وأن يكون شغلهما على الدوام تنظيف الأزقة والشـوارع ورفع الاقـذار الى الخارج الى ان يموتا وهذه الإهانة كان يراها الأمير ضرورية لهما ثم إنه ودع أباه وقومه والأميرة سلوى وهذه هي المرة الأخيرة التي يراها بها حيث لم يعد يراها فيها بعد وخرج مكة وهو مطمئن الخاطر قرير الناظر على أهل البيت ووجه بكل أفكاره الى جهة حلب وهو يود أن يصل إلى هناك ليعرف ماذا جرى على قومه وهل أن زوبين وأفلنطوش لا يزالان على الأمانة او انهما عادا إلى الغدر والخيانة ثم خطرت في ذهنه مهردكار فانفطر قلبه من أجلها وارتاع وقال في نفسه إن كان زوبين يرجع إلى الغدر والخيانة فلا ريب أنه لا يتمكن من الغدر بأحد إلا بمهردكار وطوربان وانجلت له افكار جديدة فندم على البقاء عليهما وقال ماذا يا ترى جرى علي حتى عاندت قومي وفرساني وتركت الأفاعي تسكن بينهم ولا ريب أن هذا سيعود علي بالشر والوبال ووطد العزم أن عودته الى حلب يبعد العجم عن العرب ويعين لهم مكان إقامة بلاد الشام فإذا كانوا على دين الله

يبقون على الراحة والسلام وإذا كان بينهم الغدر والخيانة فيظهر أمرهم في الحال ويرتاح منهم ولاسيما انه ليس في حاجة لأن يطلب مساعدتهم أو يرجو منهم خيراً وعوناً ثم زاد عليه الأمر وقال وربما كان زوبين غدر بمهردكار قبل ان أصل الى المعسكر وهرب فماذا يا ترى أعمل وهذا الفكر اشغله جداً وضيع له صوابه فجعل يسوق جواده وهو يتمنى أن يصل بأقل من ساعة إلى حلب ويشاهد مهردكار وابنها هل هما بخير وسلام وقد هاجت عليه البلابل فأنشد :

بكيت لتغريد الحمائم في الفجر ... وبرح بي وجدي وزايلني صبري
وملت كما مال النزيف كأنما ... سقاني حنين الورق كأساً من الخمر
وسار بما أبقين لي من تجلدي ... نسيم بريا الظاعنين أني أيسر
خذي جسداً يا ريح يحكيك رقة ... فلاقى به قلباً مع الركب في أسر
أيا جسمي البالي تجسمت من ضنى ... ويا كبدي الحرا تكونت من جمر
يراني الأسى والحزن بعد رحيلهم ... فلم يتركا مني سوى عبرة تجري
غدوا يستحثون المطي على السرى ... فهل في جمود الدم للصب من غدر
وبانوا وجسمي فيه يعض بقية ... فلم يبقى منه ما يصور في فكر
تنازع روحي للخروج يد النوى ... فتحبسها عنه الأماني في نحري
أعلل قلبي بالمنى أن سنلتقي ... وأحسبها كالآلى يلمع في القفر
سفكتم دمعي عمداً ولم تتخرجوا ... وعاقبتموني بالمنون بلا وزر
لقد رق لي مما تجرعت من أسى ... فؤاد عذولي وهو أقسى من الصخر
سهاد وسقم واشتياق ولوعة ... وصبح بلا ضوء وليل بلا فجر
ودمع بلا جفن وعين بلا كرى ... وقلب بلا أنس وسر بلا ستر
وكم قائل جهلا تسل بغيرها ... ولا تجر ذكراها بسر ولا جهر
كيف ترى ينسى العليل شفاءه ... وليس سلو الألف من خلق الحر
إلا قادر ذكراه صرفاً فانني ... أغيب به عن حالة الصحو فالسكر
أحب نمو الوجد فيه صبابة ... وإن كان يفضي بي إلى البؤس والضر
فلم تم وجد فوق وجدي لعاشق ... تمنيته أن يستحيل لي صدري
ولم أنس إذا أحيى قتيل صدودها ... وقد برزت خوفي الوشاة على ذعر
وقرطس أحشائي سهام لحاظها ... رمتني بها عمداً عن النظر الشذر
فعاطيتها كأس العتاب مشوبة ... بدمع حكى في فيضه زخرة البحر
وأخجلتها حتى تلتهب خدها ... تلتهب أحشائي من الصد والهجر
ورضت بها أخلاقها وهي صعبة ... فلانت وأهوى من قطوب إلى بشر
وحييت بمسك عطرته أكفها ... وأنفاسها أزكى من المسك والعطر

وبتنا نـدبـر الإنس والليل قـد سجى
وقـد غربت شمس المـدامـة في البـدر

وحليت بـاليـاقـوت فضـة نـحـرهـا
وجيـد الـدجى حـال بـأنجمـه الـزهـر

تـقـول وقـد أوهى الـنعـاس جفـونها
وأغمـد سيف اللحظ منهـا عـلى قسـر

أريـد أن تـعيـد الأنس قـلت لهـا متى
فيـوم تـلاقينـا أبـيـع بـه عـمـري

فقـالت وبـدر الليـل للغـرب قـد هـوى
وجفن الـدجى يبكي من الهجـر بـالقـطر

إذا امتـلأت من دمـع هـذا ثـغـور ذا
فـقـلت لهـا مـاذا قـاومت إلى الـبـدر

وأخفـت وأستـار الظـلام تـكشفـت
قليـلا وقـد كـاد الصبح بنـا يعري

سقـيـت السحـاب الجـون يا زمنـا مضـى
ولم يبـق منه للمتشـوق سـوى الـذكر

أحـبـتـنـا لم يـبـق صـبـر ولـو بـقـي
لنـا بعـدكم صبـر لكـان مـن الغـدر

طـوينـا بسـاط الأنس واللهـو بعـدكم
وهـذا بسـاط الحـزن والـدمـع في نشر

عسى تبـرد الأحشـاء مـن حرقـة الجـوى
دموع الأسى والشوق إن لم تكن تبري

تـنـاسيتـمـونـا بـعـد أنـس وإلـفـة
أحـب إلى الجـاني من الأمـن والـنـصـر

أتـاح لـنـا تفـريـقـنـا الـدهـر غـادر
ولا غـرو أن الغـدر من شيم الـدهـر

فـيـا قلب صـبـراً لـلقـضـا وتـوكـلاً
فـليس لـغـير الله شـيء مـن الأمـر

وكان ينشد وهو يسير مسرعاً وقلبه وعقله وكل حواسه تطوف في معسكر حلب يرى ما جرى هناك وهل من حادث وقع في أثناء غيابه يستدعي قلقه وقد حدثه ضميره بأن عبد الله زوبين لا بد أن يغدر بمهردكار وأن قبوله عنده كان بسماح من الله وفيما هو على مثل هذه الأفكار مطلق لجواده العنان . وإذا بـأسما بـري بنت أليون شاه قد سقطت من الجو الأعلى ووقفت أمام الجواد ومنعته من الجري وقالت السلام عليك أيها الأمير لقد نسيتني ولم أعد أخطر لك على بال فنظر فيها وعرفها فاندهش وخاف من أن تتثاقل عليه وهو على تلك السرعة إلا أنه أجابها على سلامها وسلم عليها وترحب بها وقال لها أين تقصدين وماذا تريدين . فقالت أما قصدي فأنت وأما ما أريده فهو أن تذهب معي إلى جبال قاف لأني بشوق زائد إليك وما برحت أصبر القلب وهو لا يصبر حتى عيل صبري فجئت لأذهب بك تقيم عندي بضع أيام وتنصفني منك وتعاملني كغيري من زوجاتك . قال دعيني الآن فإن مشغل الأفكار ومتى وصلت إلى معسكر حلب ووجدت فرساني بخير وما من سوء عليهم سرت معك إلى حيث تريدين . قالت إني أعرف أنك ترغب في سرعة الجري لترى مهردكار وتحب أن تصل إلى فرسانك لتقيم عندها بعض أيام فأنا أحق من الجميع وما كفاك كل هذه الأيام الماضيةحتى تريد أن تخدعني الآن لتصل إلى زوجتك ثم إنها اختطفته عن جواده وسارت به في الجو الأعلى وهو غائب الصواب لا يعرف ماذا جرى

عليه يتعجب كيف أنها جاءت إليه وهو في مثل تلك الحال حتى جاءت به إلى جبال قاف وهو يلعن ويسب الساعة التي جاءت بها وقال لها أترضين في عذابي وقهري وقد وعدتك أن تصبري علي إلى أن أشاهد قومي . قالت لا شيء عليهم فإن عندهم من الفرسان ما يجعلك مرتاح البال وأنا أريد منك أن تبقى عندي فقط سبعة أيام ومن ثم أوصلك إلى قومك فصبر على مضض وقلبه يلتهب بنار الاشتعال .

فهذا كان من الأمير حمزة وأما ما كان من العرب فانهم كانوا باضطراب على غياب الأمير وقد ظنوه في الأول أنه ذهب للصيد والقنص مع عمر العيار ومعقل البهلوان إلى أن جاءهم معقل وأخبرهم بكل ما كان من أمر الأمير حمزة وأبيه إبراهيم وسادات مكة وكيف أنهما سارا لخلاصهما وبعد ذلك ذهب الأمير إلى مكة ليوصل أباه ففرحوا بذلك وارتاح بالهم وأقاموا في حلب على ما كانوا عليه قبلا وهم ينتظرون عودة الأمير إلى أن مضت مدة أيام وذهب الأجل الذي كان عينه لمعقل البهلوان وصبروا بعد ذلك أيضاً بعدة أيام فلم يرجع فاجتمعوا مع بعضهم ودعوا عمر العيار وقالوا له نريد أن تذهب إلى مكة ترى لنا كيف حال الأمير وما السبب في تأخره عنا فأجاب وذهب عنهم وكان أفلنطوش وزوبين قد علما بما كان من أمر حمزة وخلاص أبيه فكتبا بذلك إلى كسرى ووعداه من حيث أن حمزة غائب لا بد أن ينالوا المراد بأقرب وقت وبقي عمر العيار ذاهباً في طريق مكة حتى وصل إلى نصف الطريق وهناك لاحت منه التفاتة إلى جهة البر فرأى جواد أخيه اليقظان يرعى في تلك السهول وهو نافر عن الطريق العام فارتاع وارتبك وقصده فنفر منه فصاح به فلما سمع الجواد صوته عاد إليه وجعل يشمه فقبله عمر ورأى رمح أخيه معلقاً بسرجه فارتاع وجعل يفتش بتلك الأرض عليه فلم يجد له أثراً فتكدر ووقف مبهوتاً وهو لا يعرف أين ذهب أخوه . فقال في نفسه لا ريب أنه خرج من مكة قاصداً حلب وفقد في هذه الطريق ولكن كيف فقد لأعرف ومن الصواب أن أرجع إلى العرب وأبقي الجواد هناك وأسير ومن ثم أفتش على أخي وكر راجعاً حتى جاء مدينة حلب ودخل على الأمراء وأخبرهم بما كان فخافوا جداً على الأمير وقالوا إن أمره مشكل علينا ولا نعرف ما حل به وهل هو بقيد الحياة أم مات وأصبحوا بارتباك واضطراب وشاع هذا الأمر في كل القبيلة حتى وصل إلى زوبين وأفلنطوش . فاجتمعا وقال الثاني للأول الآن وقت نوال المراد وغير هذه الفرصة لا يتيسر لنا فأن الأعداء الآن مشغلون بغياب الأمير وقد التهوا عن مراقبتنا وحمزة غائب عن المعسكر فمهما نريد أن نفعله الآن نفوز به قال نعم إن هذه فرصة كبرى لكن نحن لا نخاف من حمزة بقدر ما نخاف من عمر العيار وإني أعرف جيداً أنه ما زال بين معسكر العرب نفوز بالمطلوب لأننا قصدنا أن نبدي حركة راقبها قبل وقوعها وأظهر أمرها لقومه ولا بد أن في هذه الأيام ذهب للتفتيش على حمزة فاصبر قليلاً ترى العجائب وجعلا

يترقبان عمر منذ ذلك اليوم .

وأما العرب فانهم بعد ثلاثة أيام من رجوع عمر اجتمعوا واستشاروه فيما يفعلون فقال لهم ان صدقني حذري يكون عند اسمابري وقد لاقته في الطريق وأخذته بالرغم عنه وهو غير منتبه وفضلاً عن ذلك فإني عزمت على المسير إلى المدائن لأجتمع بالوزير بزرجمهر وأسأله عله يعرف منه خبراً أو يفيدنا بأمر يرتاح من أجله بالنا فقالوا افعل ما أنت فاعل وأسرع في الجواب فإننا على مقالي النار فودعهم وسار يقصد المدائن وبعد مسيره بقي العرب على حالهم من انشغال البال والخاطروكلهم مرتابون في صحة حياة الأمير ويتوهمون أنه ربما قتل في الطريق غدراً أو مات أو وقع في أسر الأعداء . وأما زوبين الغدار فإنه اجتمع بأفلنطوش وقال له إني في كل هذا اليوم ما رأيت عمرا في المعسكر وقد بعثت بعشرين رجلا من رجالي طافوا كل معسكر العرب ما وجدوا له أثراً ولا ريب أنه سافر للتفتيش على أخيه قال الآن قد جاء الوقت المنتظر فهلم بنا نكبس العرب في هذه الليلة فنذيقهم العذاب الأليم قال يجب أن نصبر على ذلك إلى بعد الغد لأنه إذا كان ذهب باحثاً لا يعود بأقل من شهر وأخاف أن يكون مختف يترقب أعمالنا قبل ذهابه فكن على حذر إلى بعد يومين واتفقا على مثل هذا الأمر . وفي كل يوم يذهب زوبين وأفلنطوش بين العرب ويظهران تأسفهما مع العرب والعرب في شاغل عنهما إلى أن تحقق زوبين غياب عمر العيار وبعده عن العرب فسر مزيد السرور ورجع إلى المعسكر يدبر أمره وبقي أفلنطوش إلى المساء وبعد انقضاء السهرة تفرق كل واحد من العرب إلى ناحية ودخل صيوانه على الحالة التي تقدم ذكرها وقد أشغلهم غياب الأمير عن ملاحظة أعدائهم وناموا مطمئنين من غدرات الزمان إلى أن مضى نصف الليل وإذا بعساكر العجم قد حملت من كل ناح وأكثرت من الصراخ والصياح واغتنمت هذه الفرصة فبذلت سيوفها في أعدائها وأنزلت عليهم شرار شرها وبلائها وغاصت بين الخيام ولم تترك العرب سبيلاً للرجوع إلى الحرب والصدام وزوبين الغدار يصيح وينادي اليوم يوم الأعادي وقد قصد صيوان طوربان وفي نيته أن يقتل عمر اليوناني ويأخذ طوربان ليعذبها ويذيقها كأس الهوان ولما وصل إلى الصيوان وجد عمر اليوناني قد خرج منه وبيده الحسام وعول على الركوب والمدافعة عن العرب فلم يتركه زوبين أن يستوي على ظهر الجواد حتى فاجأه من قفاه وضربه بسيفه على رأسه فجرحه جرحاً بالغاً لأن عمرا لما استيقظ ووجد الصياح قد ملأ الأرض وسمع صراخ الأعجام وعويل العرب أيقن أن زوبين قد غدر بهم وخاف من أن يحلقوه وهو في الصيوان فيذيقونه الممات ولذلك تناول سيفه ولم يعد يصبر ليفرغ عليه درعه ويلبس خوذته وفي فكره أنه إلى استوى على ظهر جواده وبيده الحسام يكفيه للدفاع عن العرب ورد الأعداء عنها إلا أنه جرح قبل أن يتمكن من غايته فغاب صوابه وضاع وعيه وما عاد

عرف حاله في أي مكان هو فشرد به الجواد وخرج من بين المعسكر ونفر في البر الأقفر وهو عليه ضائع الوعي لا يسمع ولا يرى والدم يسيل من جرحه كالأنبوب وأما باقي العرب فانهم نهضوا مرتاعين فبعضهم شرد في الفلاة وبعضهم قتل من سيوف الأعجام وأكثر الفرسان نهضوا من مراقدهم فوجدوا خيولهم مفقودة فارتاعوا وطلبوا الأمان لأنفسهم بالالتجاء إلى البراري ليروا بعد إتيان النهار ما يكون من أمر الأعداء وما منهم إلا من يلوم حمزة ويعنفه على تركه زوبين حيا ودام القتال على مثل تلك الحال حتى كاد الفجر أن يظهر للعيان وإذا ذاك أمر زوبين بأن ترجع الفرسان وكل واحد يصحب معه ما وصلت اليه يده من الأموال والخيل والأنعام وقد قبض على طوربان ومهردكار وولديها وغيرهما من النساء وقيد الجميع أذلاء حيارى وقد نكبت العرب نكبة لم تذقها قبل ذلك اليوم وتشتتوا أي مشتت وشردوا في البراري وما منهم من يعي على نفسه أو يقدر أن يعرف في أي مكان هو . ولما رجعت عساكر الأعجام إلى الوراء أمرهم أفلنطوش أن يسيروا في الحال على طريق المدائن وأن لا يتركوا عقالا في تلك الأرض قبل أن تجتمع العرب وتنضم إلى بعضها فسار وهو فرح بالنصر والظفر يشكر من زوبين ويقول له حسناً فعلت في العرب ولولا هذه الحيلة التي عملنا عليهم لما نلنا منهم المراد وعندي أنهم من بعد الآن ما عادوا يقدرون على حرب وثبات ولا ريب أن حمزة قتل ونال شر عمله ولاقى كل بؤس وضير ولا بد أن يرى ابن عمي كسرى عملنا هذا بعين الشكر والرضى . قال إني أعرف ذلك وأفرح لأجله وأعظم فرحي بطوربان ومهردكار فإني ما زلت حتى قهرتهما ولا ريب أنهما يستحقان الحرق بالنار حيث قد خانتا حقوق الوالدية وانضمتا إلى الأعداء وكل واحدة منهما طلبت ذلي وقهري ونفرت مني كيدا لي . قال لا بد أن يقدمهما كسرى تقدمة للنار لتحرقا مع ولديهما هما قباط وسعد . داموا على المسير إلى المدائن على تلك الحالة . وأما العرب فانهم في اليوم التالي أخذوا يجتمعوا ويلتمون إلى بعضهم ولا سيما بعد أن رأوا أن تلك الأرض قد خليت من الأعجام وقلوبهم تضطرم ناراً من عملهم ويعضون على ذنودهم ويتحرقون من عمل أميرهم كيف أن بعد أن كان قادراً على هلاك هذه الطائفة سلم إليها زمام أمانه وقربها منه وجعلها بينهم كواحدة منهم غير أنه كان قد أنفذ فيهم قضاء الله المقدور وتفرقوا ونهبوا وسبيت نساؤهم وأولادهم ولم يروا وسيلة إلا الصبر على هذه المصيبة إلى حين يجمع الله شملهم ويعيد اليهم النصر فيأخذون لأنفسهم بالثأر ويرون ما يقدرهم الله عليه وبعد أن مضى على ذلك عدة أيام جاءهم عمر العيار ورأى من حالة العرب وشاهد القتلى قد ملأت الأرض فناح وبكى وحث التراب على رأسه وتقدم من الفرسان وسألهم عن السبب فأخبروه بكل ما جرى وقالوا له كل ذلك جرى علينا من أيدينا لأننا لو أوقفنا بالأعجام وقتلنا زوبين وأفلنطوش لارتحنا من كل هذه

المصائب والويلات وتقدمنا في طرق الراحة والسلام خطوة عظيمة وأما الآن فقد تأخرنا وضيعنا كل النصر وأخذت طوربان ومهردكار وباقي الحريم والأولاد . قال إن هذا وقع بقضاء منه تعالى وهو الذي جعل أخي أن يرى فيهم التوبة والأمانة قالوا وماذا عرفت عن أخيك وفي أي مكان هو . قال إني لما وصلت إلى الوزير بزرجمهر وأخبرته بفقدان أخي قال لي إن حمزة حي وأن التي أخذته هي زوجته اسمابري وسيأتي عن طريق قماصيا فعدت وأنا لا أعرف شيئاً مما جرى عليكم قالوا أهل رأيت الأعجام في طريقك سائرين إلى بلادهم . قال لا ريب أنهم يسيرون في الطرقات العامة الواسعة لكثرة عددهم وأما أنا فإني في أكثر الأحيان أسير بين الشعاب والهضاب فأتسلق الآكام وأنزل الوديان اختصارا للطريق وتقربا للمسافة فإذا وصلت إلى مكان ووجدت أن الطريق طويلةوأنها مأخوذة بميلة ودورة اخترقت الأدغال وقربت الوصول إلى رأسها الثاني وعلى هذا لم يتيسر لي أن أراهم وفي كل نيتي أننا نسير إلى قماصيا للتفتيش عن الأمير وأما الآن صار لنا شاغل مهم وأريد أن أعرف أين ذهب عمر اليوناني ابن الأمير حمزة وأخاف أن يكون قتل وشرب كأس الآفات قالوا لا نعرف كيف ذهب أهل هو أسير أو هرب بالفلاة أو قتل وهمنا الآن أن نعرف ماذا جرى على نساء الأمير وأولاده فاذهب إلى الوزير بزرجمهر واسأله عنهم واستشيره في أمرهم فقال إني عزمت على ذلك ولا بد من الرجوع إلى المدائن واسأل الله العزيز الجبار أن يوصلني إلى خلاصهم أجمعين ثم أن عمر العيار ترك الفرسان في حلب وكر راجعاً وهو كئيباً حزيناً على ما حل بهم ويريد أن يعرف ماذا جرى على عمر اليوناني هل قتل أو أخذته الأعجام أسيراً وما برح في مسيره حتى جاء المدائن ووجد الناس في هرج ومرج وعساكر زوبين الغدار وأفلنطوش حول المدينة مع عساكر كسرى وهم بفرح لا يوصف فصبر إلى أن خرج بزرجمهر إلى قصره فتبعه حتى انفرد به فسلم عليه وقال له لا خفاك يا سيدي ما جرى على العرب ولذلك جئت إليك مستخبراً .

قال إني عرفت كل شيء ولذلك تراني متكدرا جداً كيف أن أخاك ترك زوبين وسمح له أن يتمكن من الغدر به وبقومه قال أنت أخبر الناس بسلامة قلب أخي حمزة وحسن طويته وقد نهيته عن ذلك فقال إن الله أخبر بما في قلبه وأنه بعد أن طلب إليه الأمان وعاهده على عبادة الله لم ير أن في قتله صواباً وما ذلك إلا حكم العزيز الجبار والآن قد مضى ما مضى وأريد منك أن تخبرني يا سيدي ماذا جرى على مهردكار وطوربان وأولاد أخي حمزة عمر وقباط وابن عمر اليوناني سعد قال أن عمر اليوناني هو مشتت الآن لم يقع قط بيد العجم وأما مهردكار وطوربان فانهما وضعا في مكان منفرد تحت الحفظ ليقدما إلى النار . وذلك أنه لما وصل أفلنطوش إلى هذه الديار وبلغت أخباره كسرى أنو شروان وأن زوبين الغدار قد شتت العرب فرح وأمر الوزير بختك أن يخرج إلى ملاقاتها

في الحال بالموسيقات والدفوف وزينت المدينة وكان لعملها هذا موقع عظيم عند عموم الفرس من الكبير إلى الصغير ولما قدمت مهردكار وطوربان إلى كسرى أراد أن يوبخهما ويجازيهما بالعذاب فمنعه بختك وقال له من الصواب أن لا نضيع كلمة معهما فيما قد خرجتا من مصاف الأعجام ونجستا دين النار وحيث أن لا غاية لنا فيهما الآن وما عاد أحد من قومنا يرضى أن يكون زوجا لواحدة منهن فمن الواجب أن تضعهما في قصر منفرد مع الأولاد والنساء وتضع عليهم الحراس بكثرة وترسل كتابا إلى هدهد مرزبان قاعدة دين المجوس وسيد المرازبة وإمام النار فيأتي إلى هنا ويأخذهم جميعاً ويقدمهم ضحية النار فتأكلهم وترضى عنا فيما بعد بحيث تعرف أننا ما بخلنا بأولادنا عليها إذا خرجوا عن عبادتها . فاستحسن كسرى هذا الرأي ولم يرض أن يرى وجه أحد منهم وأمر أن يبقوا تحت الحفظ ووضع عليهم الحرس الزائد الكثير والحجاب حتى لم يعد للطير طريق أن يمر من جهة فيرى أحداً لا من النساء ولا من الأولاد . فإذا تم ما يقصدون تكون خطيئة هؤلاء الأبرياء برقابكم لأن مهردكار وطوربان سلمتا بأنفسهما إليكم وفي نيتهما أنكم تحافظون عليهما فوضعتموهما مع أعدائهما وكان موتهما وموت أولادهما بسبب تهاملكم فأطرق عمر العيار إلى الأرض برهة وسقطت الدموع من عينيه ثم أنهض رأسه وقال في أي يوم يقدم النساء والأولاد إلى النار فقال في عيد النيروز بحيث أن في تلك الأيام يكون هدهد مرزبان قد وصل إلى هذا المكان قال وكم من المدة باق لهذا العيد .

قال بعد ستة أشهر من هذا التاريخ قال إني أعدك إلى هذا المكان وعداً لا يمكن وحياتك أن أكذب به وهو أني لا تمضي هذه الأيام حتى أكون خلصت الجميع من الكبير إلى الصغير قال إن هذا يصعب عليك جداً ولا أظنه يتم أو ينتهي لأن الاحتياط متخذ من كل جهة ولا يمكن أن تهرب بهم وتنجو قال إني أعرف كيف أقدر على خلاصهم وفي كل ذلك إني أعدك أيضاً بأن أضع في قلب كسرى حسرة لا ينساها إلى الأبد وهو أني أحتال عليه وأجعله يقبل يدي عن طوع واختيار مع وزيره بختك وكل أعيان الفرس وسوف أذكرك بكل شيء . قال ان قدرت على ما تقول شهدت لك وتكون قد فعلت ما يعجز غيرك عن فعله فاذهب موفقاً بعنايته تعالى وأنا على الدوام أدعو لك بالسعادة والتوفيق في سائر أعمالك وأدعو لمهردكار وطوربان بالخلاص فإن قلبي حزين عليهما جداً وأريد أن يتخلصا من العذاب ومن الحريق .

وبعد أن ودع عمر العيار الوزير بزرجمهر سار من المدائن إلى أن جاء حلب واجتمع بالفرسان والأبطال وطمنهم على مستقبلهم وقال لهم كونوا براحةواطمئنان ولينضم بعضكم إلى بعض وادخلوا البلد إلى أن أعود اليكم فاني ما زلت حياً أجريت غايتي في كسرى أنو

شروان وجعلت العرب على النجاح والتوفيق وأعدت لهم نساءهم وأولادهم وأموالهم وتركت حالة الفرس من أسوأ الحالات غير أني أريد أولا أن أسير إلى قماصيا وأنظر هناك الأمير حمزة قبل كل شيء ومتى عدت به تم لنا كل ما نريده ونختاره قالوا افعل ما بدا لك ولا تطل علينا غيابك فاننا في حالة تأخير نحتاج بعدها إلى الإصلاح والراحة ولا نريد أن نصبر على الاهانة والاحتقار ولما قصد السفر جاء إليه معقل البهلوان وقال له اعلم يا أخي أني أريد الذهاب إلى الأمير حمزة ولا أطيق فراقه أكثر من هذه المدة فخذني معك إلى قماصيا قال أريد أن تكون رفيقي غير أني مستعجل جداً ولا أتعوق وأنت لا تقدر على رفقتي لأن الذي أقطعه بيوم لا يمكن أن تقطعه أنت بشهر قال كيف كان الحال فإني رفيقك ومتى رأينا الأمير حمزة سرت أنت إلى قضاء ما تروم وبقيت أنا مع الأمير حمزة فالتزم عمر أن يأخذه معه لما رأى إصراره على الذهاب وسارا عن حلب يقطعان البراري والقفار والسهول والأوعار يقصدان قماصيا تلك الجهات .

فهذا ما كان من أمر العرب والعجم بعد ذهاب حمزة البهلوان عن تلك الديار وأما ما كان منه بعد وصوله إلى جبال قاف فانه أمل بعد مضي أسبوع تذهب به اسمابري إلى حلب فأقام عندها على الحظ والهناء إلى أن مضى الأسبوع فقال لها أريد منك أن توصليني إلى قومي فقد كفى أن لاقيت ما لاقيت من الاضطراب بالبعد عن العرب ولا أعرف ما جرى عليهم من بعدي قال إني فارقتك كل هذه المدة وقلبي بشوق لا يوصف إليك فهل تظن أن سبعة أيام تكفيني لأن أسلم عليك بها فأصبر بعد سبعة أيام أخر فما من خوف على العرب فكلهم فرسان يقدرون على حماية أنفسهم فقال لها إذا لم أكن بينهم لا يتوفقون قالت إنك غبت عنهم قبلا عدة سنوات وعدت إليهم فوجدتهم كما كانوا والآن إذا عدت إليهم تراهم على الخير والراحة ثم أنه أقام عندها سبعة أيام آخر وطلب إليها ان تحمله فحاولته وقالت له لابد من بقائك عدة ايام أخر إكراماً لخاطر بنتك قريشة فقد سألتني بذلك وما زالت تطيل مدة قيامه سبعة بسبعة وهو صابر عليها وقلبه يتحمل ذلك حتى ضاق صدره وعيل صبره فقال لها إلى متى هذا التطويل فإني أذهب لوحدي ماشياً على أقدامي ولاعدت أقدر ان أتحمل منك أكثر مما تحملت قالت أصبر علي إلى أن أعود فقد خطر لي أن أذهب لزيارة بعض مدني وبلادي ومتى عدت أوصلتك ثم تركته وأوصت مردة الجان والطوائف أن لا احد يوصله وفي نيتها أن تحاوله سنين وأعواماً وبعد أن ذهبت جلس الأمير مفتكراً بأهله ووطنه فبكى على فراق الجميع وكان قلبه يحدثه بوقوع مصيبة على العرب وانطبقت الدنيا في عينيه وفيما هو على مثل ذلك جاءته بنته وقالت له لما يا أبتاه تبكي هل كل ذلك لأجل أن فارقتك امي في هذا اليوم قال كلا يا ابنتي فإني أبكي لوقوعي بين يدي أمك وهي تريد أن تبقيني عندها الدهر بطوله وكنت أريد ذلك لولم يكن

عنـدي شغل مهم وقـد تركت العـرب قومي بضيق وأخـاف أن يصابـوا بضر وإذا هلكـوا قتلت نفسي لا محالة وأريد منك أن توصليني إلى اول العمار ومن ثم أسـير انا إلى بـلادي قالت اني أفعل لك ذلك إكراماً لك ومهما شاءت أمي فلتفعل فاني لا أخافها ثم إنها حملته وطارت به في الجو الأعلى ولا زالت سائرة حتى وصلت إلى أول العمار فأنزلته وقالت له أن بلادك من هنا قريبة وأنا أريد الـرجوع إلى قـاف فقبلها وقبلت يـديه وودعتـه ورجعت إلى بلادها وأقامت في قصرها إلى أن جاءت أمها وهي بشوق زائـد إلى الأمير وفكـرها مشغـل عليه ففتشت عليه فلم تجده فسألت ابنتهـا قريشـة عنه قـالت قد اوصلتـه إلى بلاده قـالت وكيف قدرت على ذلك ولم تسأليني به وأنا لا اقدر على فراقه أجـابت كفاك مـا فعلت معه هـو يتحرق عـلى بلاده وقـد ترك معسكـره في حلب ولا يعلم مـا يجـري بـه وإذا كنت لا تطيقين فراقه فاذهبي اليه وأقيمي على الدوام عنده وبين نسائه كواحدة منهن أجابت أني لا اطيق أن أراه مع غيري فكيف أوافق أن اكون عند مهردكار وهو يحبها اكـثر مني ولابد لي من أن أذهب اليه واعيده إلى هنا ولا يمكنني أن أترك ملكي وأبقى عنـده قالت قـريشة إذا أتيت به إلى هنا عدت أنا فأوصلته ولو كان ذلك ألف مرة الا ان يقبل بالقيام هنا ولابد له بعـد مضي زمن الحرب من الـراحة فـإذا جاء وأقـام عندنـا عدة سنـوات لا يكون خلفـه يشغله . فتألمت اسمابوي من كلام ابنتها إلا أنها كتمت أمرها وسكتت وعرفت ان اللازم الصبر على الأمير إلى أن يصفو له الجو ورأت أنه ليس من المناسب عناد قريشه وأما الأمـير حمزة فإنه بقي سائراً في الطريق الذي وجد عليه وهو لا يعرف من اين يسير وقـد تيقن أنه عن قريب يصل إلى إحدى المدن والبلدان ومنها يأخذ له جواداً ويسير من بلد إلى بلد حتى يأتي حلب ويجتمع بقومه وهو مسرور غاية السرور وفرح بالخلاص من جبال قاف ولا زال في مسيره إلى أن قرب من البحر المالـح فجعل يمشي عـلى الشاطىء وسيفـه وطارقتـه عليه وصرف ثلاثةأيام دون أن يرى إنساناً ويمر على بلده فضاق خلقه وفرغ منه الزاد ولعب به الجـوع فعرج قليـلاً على الشـاطىء وسار حتى دخـل بين خميلة من الأشجـار ملتفة وكلهـا مثمرة فجعل يقتطف من أثمارها ويأكل لسد رمقه وفيما هو على تلك الحـالة وإذا بـه يرى رجلاً جالساً تحت شجرة من تلك الأشجار مطرق برأسه لا ينـظر إلى ما حـواليه ولا يـرى غير بين يديه فتقدم من ورائه ونظر إليه فرآه مسنداً بظهره إلى جـذع شجرة وقـد وقع بـين يديه ورقة ينظر فيها ويتأمل بما عليها فنظر الأمير حمزة إلى تلك الورقة وإذا بـه يرى عليهـا صورة فتاة جميلة المنظر بديعة المحيا حسنة التركيب على رأسها اكليل من الزهور وفي عنقها عقـد من الجوهـر وعليها ثـوب أسود يزيد في بيـاض وجهها . فتعجب من ذلـك وغاب صوابه ورأى أن داخل قلبه وأحشائه تتحرك إلى صاحبة تلك الصورة وسبح الله الخالق، وظن في نفسه أنه لا يمكن ان يوجد في عـالم الإنس من هي توافق تلك الصـورة وفيما هـو

على ذلك انتبه إليه الرجل ورآه من خلفه فارتاع منه ونهض إليه وقال من أنت ولما أتيت إلى هذا المكان قال له إني مسافر فمررت من هذه الجهة ودخلت بين الأشجار فرأيتك جالساً فعرجت إليك وتعجبت عندما وجدتك تنظر إلى هذه الصورة بتأمل فهل هي ذات أصل او أنها صورة وهما . أجاب لا بل هي ذات أصل وصاحبتها لوعة القلوب بنت ملك قماصيا التي ضرب بحسنها المثل في هذا الزمان . فقال له من أين وصلت اليك واين صاحبة هذه الصورة أجاب أخذتها من بعض الدراويش وعندما رأيتها وجدت مكتوباً تحتها أن الصورة لوعة القلوب بنت ملك قماصيا وتحت ذلك هذين البيتين .

ألم تر أن الحسن خير بضاعة تباع وتشري بين كل الخلائق
فسبحان من خص الجمال جميعه بغادة حسن كالشموس الشوارق

فمال قلبي إلى صاحبتها ولعبت بي لواعج الغرام فتركت ملكي وسرت أطلبها فقال له وهل أنت ملك أجاب نعم واسمي شرشوح واسم مدينتي منابع الجوهر . قال وكيف وصلت إلى هذه النواحي ودخلت بين هذه الأشجار وجلست في هذا المكان أجاب إني اتخذت مركباً وسافرت عليه قاصداً قماصيا فهاجت علينا الرياح واضطرب البحر وقذفت بالمركب إلى البر فتكسر وغرق كل من فيه : إلا انا فإني صعدت سالماً إلى البر ومشيت حتى وصلت هذا المكان فأقمت إلى أن جاءني النعاس فنمت ثم قمت وتذكرت هذه الصورة وكنت قد وضعتها في قماش مطل بالقير ووضعتها في جيبي . وخفت كثيراً من أن تكون قد عدمت فاخرجتها من جيبي وإذا بها كما تراها ففرحت جداً وصرت أنتقل كل يوم إلى جهة أنتظر الفرج حتى وصلت إلى هذا المكان فأعجبني جداً وأكلت من أثماره ثم جلست أتأمل في هذه الصورة وعرفت يقيناً أن لا نصيب لي بها وإلا لما كان صار عليّ ماصار وفيما أنا أتأمل فيها وجدت مكتوباً في أربع زواياها أربعة أحرف كل حرف بزاويةففي الأول حرف ح وفي الثانيةم وفي الثالثة ز وفي الرابعة ة. وما أحد يقدر أن يعرف سر هذه الأحرف . فأحدق الأمير بتلك الأحرف فرأى كما أخبره شرشوح وقال إن هذا اسمي ولا ريب أن صاحبة هذه الصورة تقصد هذا الاسم. وشغل باله زيادة عن الأول وطلبت نفسه أن ترى لوعة القلوب ويجتمع بها ويشاهد غايتها وأخفى ذلك عن ملك شرشوح وقال له هلم بنا نسير الآن فما في جلوسك في هذا المكان فائدة عسانا نصل إلى باب الفرج فندخل منه ونجتمع بالناس من ابناء جنسنا . فنهض شرشوح صاحب مدينة منابع الجوهر ومشى مع الأمير حمزة وهما يتحدثان بشأن لوعة القلوب والأمير يسأله عن بلاد أبيها وقوته ودينه وعدد رجاله وفيما هما على مثل ذلك وإذا به يرى شخصاً يركض خائفاً من مطارد يطارده وجاء إلى تحت الأمير واحتمى به فنظر الأمير إليه

بتعجب وقال له ما بالك وممن تخاف . فلم يتمكن ذاك من الجواب وإذا به يرى صبية من الجان قد انحطت أمامه وقصدت أن تتناول خصمها وتضربه بسيفها فتقطعه قسمين فاعترضها الأمير حمزة وامتشق من وسطه الحسام وضربها به فجاء في بطنها ودخل إلى أحشائها فصاحت وتألمت ووقعت إلى الأرض مائتة وحينئذ نهض الرجل ورمى بنفسه على أرجل الأمير يقبلها وهو يتعجب من شجاعته وكذلك شرشوح فإنه خاف كل الخوف وقال لا ريب أن هذا الرجل من أشد الابطال حتى يقدر أن يفتك بالجان ولا يرتاع. ثم أن الأمير حمزة سأل الرجل عن سبب خوفه من الجنية وما هو الداعي للحاقه وقتله . أجاب اعلم يا سيدي اني منذ مدة وهذه الجنية تحاولني لتتزوج بي وأنا أمتنع عليها وفي هذه اليوم جاءت إلي إلى هذه الأرض مدة وراودتني من نفسي فحاورتها كثيراً فلم ترجع وقالت لي لم يبق لي قط درهم صبر عن وصلك فإما تجيب طلبي وإما أقتلك وارتاح من شرك ولما رأيت نفسي مغتصباً وأن لا نجاة لي أردت ان أجيبها إلى طلبها غير اني ترددت وفضلت الموت على التقرب منها حيث أن نفسي كانت تكره أن تراها وإذ رأيتكما مررتما من هذه الجهة خطر لي أن ألتجىء اليكما وقد فعلت ذلك على غير انتباه ولاقصد فكان لحسن حظي أن قتلتها وارحتني من شرها وصار لك على الفضل والجميل قال الأمير حمزة وما هو اسمك أنت . أجاب اسمي شمروخ . قال الحمد لله صار معي شرشوح وشمروخ وهذه رفقاء آخر الأيام .

ثم أنه صار سائراً معهما من تلك الناحية إلى جهة البحر فمشوا عند الشاطىء إلى قرب العصر حتى وصلوا إلى نهر يصب في البحر المالح ووجدوا عند فم النهر جماعة النوتية يملاون ماء ومعهم جماعة من التجار في قارب هناك فدنا الأمير منهم وسلم عليهم فردوا عليه السلام وسألوه عن سبب وجوده في ذاك المكان قال نحن كنا في مركب فهاجمت الارياح وغرق المركب وصعدنا على اليابسة ولنا عدة ايام نطوف في هذه الجهات إلى أن رأيناكم هنا فاسنأنسنا بكم فمن انتم ومن اين آتون : قالوا نحن تجار نقصد مدينة منابع الجوهر وقد فرغ معنا الماء فرسى المركب الذي كنا فيه وطفنا في هذا القارب على الماء حتى عثرنا على هذا النهر ونحن نملأ منه وسنرجع الى مركبنا قال الأمير هل لكم أن تكرموا علينا وتأخذونا معكم إلى تلك المدينة فتحيون نفوسنا ويكون لكم بذلك الأجر والثواب. قالوا حباً وكرامة. وبعد أن فرغوا من أخذ الماء صعدوا القارب جميعاً وساروا إلى جهة المركب فركبوه وقد فرح الأمير بمسيره إلى مدينة شرشوح ليسير من هناك إلى مدينة قماصيا ويرى لوعة القلوب وكان قلبه قد تولع بها جداً وصار في كل مدة يأخذ الصورة من شرشوح وينظر فيها ويتعجب من ذاك الحسن البديع العجيب وهو لا يصدق أبداً أن لوعة القلوب تكون في جسمها كما في رسمها وما زال المركب سائراً والريح موافقة له حتى قرب

من مدينة منابع الجوهر فرسى المركب وبعد أن استقر جاء محافظو البحر وصعدوا المركب وفتشوا فيه فرأوا البضائع التي فيه فطلبوا من اصحابها رسماً عليها يعادل قيمتها . فقال التجار ما هذا الظلم فإن كلها لا تساوي هذه القيمة ولا تباع بها وإذا كنتم لا ترحموننا نرجع من حيث أتينا .

قالوا إن هذا لا يفيدكم فإن طلبكم السفر لا تحصلون عليه ولابد من دفع الرسم المطلوب أو نحجز البضاعة ونذهب بها إلى البر فارتاع التجار وخافوا على أموالهم ولم يعد في وسعهم الامتناع ولا التسليم ووقفوا محتارين في أمرهم . وكان الأمير حمزة واقفاً يشاهد كل ما يجري وقد اغتاظ جداً من المحافظين فدنا منهم وقال لهم هل أنتم على الدوام تأخذون هذا الرسم أو ضربتم ذلك مؤخراً. قالوا كلا فإن قبل هذه الأيام كان يحكم علينا ملك عادل اسمه شرشوح فكان لا يأخذ الرسم قطعاً ويسهل للغرباء أن يأتوا بلاده غير أن هذا الملك قصد السفر منذ أيام فوكل مكانه رجلاً ظالماً غاشماً لا يخاف العاقبة ولا يراعى حرية الإنسانية فجعل يفعل الفحشاء ويضع الضرائب على العباد وزاد دخله فكأنه يسلب الأموال عياناً من أصحابها حتى ترى المدينة في قلق وضجر وكل الناس يتمنون هلاكه ولا يقدرون على الإتيان بحركة ضده وعليه يكون الرسم هذا له لا لنا ونحن لا ذنب علينا وجل ما نتمناه أن يرجع إلينا ملكنا شرشوح لنخلص من ظلم هذا وإذا ما أنفذنا أمره قتلنا وأهلكنا فقال لهم حمزة اصبروا هنا إلى أن أعود إليكم ثم أنه نزل إلى القمرة فوجد شرشوح جالساً والصورة بين يديه ينظر إليها ويبكي فلعبت به الغيرة والحمية فتناولها من أمامه ومزقها ورماها وقال له أنهض حالاً فإن بلادك قد خرجت وماذا يفيدك العشق ولا نصيب لك به فأراد شرشوح أن يدافع وقد احترق قلبه فدفعه دفعة لرعيته وسار معه إلى أن جاء المحافظين وقال لهم هو ذا ملككم شرشوح وقد عاد إليكم فانزعوا عنكم ثقل هذا الحاكم الظالم الجديد وعودوا إلى المدينة وبشروا أهلها برجوعه وها نحن في أثركم ولما رأى الرجال ملكهم فرحوا به جداً وقبلوا يديه وسلموا عليه وأخبروه بما لاقوا من الحاكم الجديد فقال لهم سيروا أمامنا إلى البر ثم نزل في القارب وأمر حمزة التجار ان تخرج بضائعها إلى البر وتبيعها بغير رسم ونزل المحافظون على الشاطىء ودخلوا المدينة وجعلوا يطوفون في أسواقها وينادون بشراكم يا أهل مدينة منابع الجوهر لقد رجع إليكم ملككم شرشوح وتخلصتم من ظلم الحاكم الحاضر إليكم الأمان والإطمئنان فكانت الناس تجتمع من مكان إلى مكان وتتبع المنادي وترى ملكها فرحة به وهو سائر إلى أن دخل دار الحكومة وإذا بجماعة العسكر قد اعترضوا حمزة وشرشوح فجرد سيفه وانحط عليهم وفرقهم وقتل منهم أكثر من عشرة أنفار ثم دخل الديوان فوجد الحاكم الجديد جالساً على كرسيه فصاح به وقال له من حيث أنك ظالم غاشم لا تراعى حرمة العباد

وراحة خليفة الله فقتلك لابد منه كيف كان الحال ولا تستحق ان تبقى في هذه الدنيا ثم ضربه بسيفه فقطعه نصفين والتفت بعد ذلك إلى أرباب الديوان وقال لهم هو ذا ملككم شرشوح قد عاد إليكم فاما ان تطيعوه وإما أن يكون نصيبكم كنصيب غيركم من المعارضين فقال الجميع أننا لا نريد لنا ملكاً غير شرشوح ونحن ما أطعنا هذا إلا خوفاً منه والحمد لله على خلاصنا وجاء بشرشوح واجلسه على كرسيه وعاد إلى حال المدينة كما كان سابقاً . ثم إن الأمير حمزة ظهر نفسه لأهل المدينة وعرفهم عن سبب وصوله إليهم وكانت أخباره واصلة إلى تلك الجهات فأكرموه مزيد الإكرام وأولوا له الولائم وعملوا له الأفراح مدة سبعة ايام وأهل المدينة يأتون إليه ويتفرجون عليه وقد نصح لشرشوح أن يترك لوعة القلوب إذ ما من وسيلة له الوصول إليها فقال له إني تركتها لأني كنت قبلاً أرى صورتها فأتذكرها والآن نزعتها عن أفكاري شيئاً فشيئاً وما من نصيب لي بها . وبعد أن قام حمزة سبعة أيام في مدينة منابع الجوهر سأل شرشوح أن يحضر له مركباً يسافر عليه إلى البصرة فأجاب سؤاله وأحضر له مركباً كبيراً واسعاً فودع شرشوح وأهل المدينة وسار من هناك على ظهر البحار مسافراً إلى جهة البصرة وقلبه يضطرب من جهة قماصيا ونفسه تطلب أن ترى لوعة القلوب بنت حاكمها وما زالت الريح موافقة والبحر ساكناً حتى رسى المركب عند شاطىء البصرة فنزل على قماصيا وصار إلى جهة المدينة وكان الوقت بعد غروب الشمس بساعة فرأى أبواب المدينة مقفلة فطرق الباب وسأل الحارس فتحه فقال له يجب ان تبقى إلى الصباح لأن الأبواب البلد لا تفتح إلا في النهار وأما في الليل فتقفل ولا يؤذن بفتحها قط لأحد فوقف الأمير مبهوتاً ثم التفت إلى شمروخ وقال له سر بنا لنلتجىء إلى كهف نبيت فيه هذه الليلة أو نرى فندقاً نأوى إليه إلى حين الصباح فعرجا وسارا مقدار نصف ساعة وإذا بالأمير قد رأى قصراً منيراً في تلك الناحية فمال إلى ناحيته وقرب منه فوجد بابه مقفلاً فجلس عند جذع شجرة هناك على مصطبة نظيفة ومكان مرتب للجلوس وقال لشمروخ اجلس قليلا هنا ولا بد من السؤال عن أهل هذا القصر وسكانه فاذا قبلونا هذه الليلة بتنا عندهم وإذا كان في ذلك تقلة عليهم بقينا هذه الليلة هنا إلى الصباح فان المكان يوافق للمنامة . وفيما هما على ذلك وإذا بثلاثة من الخدم قد حضروا أمام الأمير وقدموا له مائدة عليها ألوان الأطعمة فتعجب من ذلك وقال لمن هذا الطعام قالوا هو لكما. قال ومن أين عرفتما حتى قدمتما لنا الأكل ومن الذي بعثه. قال إن هذا القصر هو للوعة القلوب بنت ملك قماصيا تقيم فيه أيام الحر وقد أعدت هذا المكان الذي أنتما عليه الآن لجلوس المسافرين فيمرون على الدوام من هنا ويبيتون بانتظار الصباح لكي يدخلوا المدينة وسيدتنا اعتادت أن ترسل لهم المآكل بحيث يكونون قد دخلوا في ضيافتها. فإذا

سمع الأمير هذا الكلام طار قلبه فرحاً وقال لقد وصلت إلى المطلوب من أقرب طريق . ثم تذكر الصورة وما رأى مكتوباً عليها من الأحرف فأراد أن يمتحن القضية فقال للخدم هل في وسع سيدتكم أن تقبلنا لنبيت في هذا القصر باقي ليلتنا وفي الصباح نرحل عنها إلى المدينة . قالوا هذا لا يمكن قط لأنها مقيمة في أعالي القصر وليس عندها ذكر قط ونحن لا نراها إلا نادراً وعندها قهرمانتها فانوس فنخاطبها بواسطتها وما من احد من جميع الذين ضافونا طلب هذا الطلب أو بات داخل القصر بل في أعالي الشجرة قال اذهبوا إلى سيدتكم وأخبروها أن الذي ضافنا هو الأمير حمزة البهلوان ابن الأمير إبراهيم فارس برية الحجاز وطلب إلينا أن يدخل هذه الليلة إلى القصر فيبيت فيه . فلما سمع الخدم هذا الكلام ما منهم إلا من ارتاع واضطرب لأنهم كانوا يسمعون بالأمير حمزة يحارب كسرى وقد أذل العجم وخافت بأسه السلاطين والملوك فعادوا متحيرين وجاءوا سلم القصر ونادوا القهرمانة فانوس فجاءتهم وقالت لهم هل يحتاج ضيوفنا الليلة إلى شيء غير الطعام قالوا اخبري سيدتنا أن ضيفنا هذه الليلة هو بحاجة إلى أن يدخل القصر وقد ذكر لنا اسمه ونحن نكاد لا نصدق أنه هو قالت وما اسمه قالوا قال لنا أنه الأمير حمزة البهلوان أبن أمير مكة المطهرة الذي انتشر صيته في العالم من مشرق الشمس إلى مغربها ولا نصدق أن ذاك الرجل يأتي هذا المكان على مثل هذه الحالة وعنده الملوك والفرسان في خدمته وتحت طاعته فلما سمعت هذا الكلام وقفت مبهوتة نحوا من خمس دقائق وكانت لوعة القلوب قد سمعت بعض هذا الكلام فنزلت من غرفتها للاستفسار ودنت من فانوس وقالت لها ما يقول الخدم قالت لها والله ياسيدتي ما يقولونه يحير الأفكار ويضيع العقول وهو أنهم أخذوا الطعام لضيفين زارا مضيفنا هذه الليلة فطلب أحدهما أن يدخل هذا القصر وسأل الخدم أن يطلبوا إلى سيدتهم أن تأذن له بالدخول وادعى أنه الأمير حمزة صاحب البند والعلم ومذل الجبابرة والأبطال الذي لا يخفاك أمر وعلوه منزلته في هذا الزمان وهذا لا يكاد يدخل عقلنا . قالت ويلك كيف لا يدخل عقلك وهل من العجب أن يزور سيد العرب لوعة القلوب وقد سألت الله ذلك ألوف مرات فأمرى الخدم أن يطلعوه الينا ومتى رأيناه . عرفناه وفي الحال رجع الخدم إلى الأمير حمزة وقالوا له أدخل فإن سيدتنا بانتظارك . فدخل وترك شمروخاً في الخارج وحالما دخل نزلت إليه فانوس وترحبت به واصعدته إلى أعالي القصر وهي تتعجب من حسن طلعة الأمير وهيبته وقد ثبت عندها أنه هو الأمير حمزة بعينه ولما صار في الطابق العلوي تقدمت منه لوعة القلوب وسلمت عليه . وقالت له لقد شرفت فتاة صرفت أشهراً وأعواماً تتمنى لقاك وترغب أن تراك فالحمد لله على هذا الملتقى الغير منتظر وقد عملت جميع الوسائط لتعلم بي وإني عشقتك بمجرد السماع قال إن من حضر ما غاب ولو رأيت صورتك من قبل لما تأخرت

إلى هذا الأيام فالحمد الله الذي وصلت إليك ورأيتك وكنت لا أصدق أن هيئة جسمك تنطبق على رسمك والآن أراك أبدع صورة مما في الصورة ولم يقدر المصور أن يأتي ببراعة الصنعة بل قصره جداً عن الإتيان بكل معناك وها أراك الآن ربة الجمال وآلهته ثم وضعت يدها بيده وهي طائرة الفؤاد لا تعي على نفسها من شدة الفرح والمسرة ودخلت إلى غرفة فسيحة مفروشة بالأثاث الفاخر والبسط العجمية وجلست على مقعد من الحرير وأجلسته إلى جانبها وهي لا تفتر عن شرح حالها له وقد قالت ملأت الأرض صوراً وأنا متيقنة بان لابد أن تقع في يديك إحدى هذه الصور فتقصد أن تراني. قال ومن اين عرفت بي . قالت كنت ذات ليلة في قصر أبي وإذا بتاجر من نواحي حلب قد دخل مدينتنا وهو من أصحاب الفكاهات والنوادر فزار أبي حسب عادته وكان رجلاً شيخاً اعتاد الاسفار والتجارة في نواحي الأرض شرقها وغربها محبوباً من الملوك والوزراء وكان أبي سامعاً طرفاً من حديثك فسأله عنك فأعاد عليه قصتك من الأول إلى أن رجعت من جبال قاف وأن كل من رآك من النساء أحبك وقد تزوجت بعدة نساء وقهرت كسرى أنوشروان وكان يحكى الرجل وقلبي يهلع ويخفق ووقعت من قلبي موقعاً عظيماً حتى صرت أحسب نفسي من نسائك وأنا اصلي الى الله تعالى أن يقودك إلي . ولا يحرمني منك ثم خطر لي أن أصور نفسي وانشر صوري بيد الدراويش والسياح على أن واحدة منها تصل إليك فنصل للغاية وتأتي إلى فهلا وقعت واحدة منها بيدك . قال نعم لقد رأيت واحدة منها ولهذا السبب جئت إليك . وأعاد عليها قصته مع شرشوح وشمروخ حتى وصل إلى قصرها فشكرت الله وأمرت قهرمانتها أن تقدم لهما الطعام ففعلت واكلا وهما غارقين ببحر الغرام والهيام وبعد أن فرغا من الطعام قطعت لهما القهرمانة سفرة المدام والنقل والزهور وأرادت الإنصراف فقالت لها لوعة القلوب لا تنصرفي بل ابقي عندنا وأحضري العود واضربي لنا عليه فإن ليلتنا هذه ليلة حظ وما بأس بقيامك معنا فأجابتها واحضرت العود وجعلت تضرب عليه وكانت ذات صوت رخيم جداً وبارعة بضرب العود وبعد أن شدت الاوتار واصلحت شأنه ضربت به وأنشدت :

لك لا لغيرك أشتكي جور الصدود المهلك
فارحم أسيرك إنني ألقي السلاح أم افتك
أشكو إلى من لا يجيب ولا يرق لمشتكي
وأقول يا عين أسمحي فيقول يا عين اسفكي
يا معرضا فضح استتاري واستباح تهتكي
إني فنيت وإنما أمل التلاقي ممسكي

وكانت تلك الغرفة ترقص من الحظ والفرح والأمير يشرب الخمر من يدي لوعة القلوب وهي تشرب من يده وتطلب أن لا يأتي صباح تلك الليلة فيبقى حبيبها عندها وتطول حالتهما على مثل هذه الحال غير ليل الاجتماع قصير كما أن ليل الفراق طويل فداما على الحظ والمسرة والهناء ومناشدة الأشعار ومعاطاة الخمار إلى أن تبلج وجه الصباح وحينئذ قال الأمير إني رجل أود سرعة العودة إلى بلادي ولذلك أرغب في أن أذهب هذا اليوم إلى المدينة وأسعى في التقرب من أبيك فأتزوج بك وأعود إلى بلادي لأرى كيف حال قومي ورجالي مع كسرى وقومه قالت إن هذا أريده وإني مثلك أرغب في سرعة التقرب من بعضنا فافعل ما أنت فاعل وتراني مطيعة لك في كل ما تريد قال لكني أريد أن أسألك سؤالا عن قفل أبواب المدينة من حين غياب الشمس وقد تأكدت أن لا بد لذلك من سبب عظيم قالت نعم وهو أنه منذ سنة تسلط على مدينتنا أسد هائل المنظر فيدخل إليها ويفترس منها اثنين أو ثلاثة أشخاص وقد صرفوا الجهد إلى قتله فلم يقدر عليه أحد ولما أعياهم الأمر اتفقوا أن يقفلوا أبواب المدينة في المساء ويفتحوها في الصباح وعليه فقد ردوا عنهم شره فيأتي الليل والأبواب مقفلة فيطوف حول المدينة ولا يقدر على الدخول إليها إلا إنه كان يفترس كل من يصادفه وعليه فإني لا أخرج قط خارج قصري في الليل ولا أدع أحدا من قومي يخرج بعد اشتداد الظلام قال وهل يأتي إلى نواحي القصر قالت لا أعرف فإني ما علمت إنه جاء قط ولكن أتوهم أنه لا بد أن يمر من هنا قال والذين يأتونك ضيوفاً قالت بعد أن أقدم لهم الطعام أنصح لهم أن يبيتوا في جوف الشجرة فيعملون من الأغصان سريراً ويبيتون فضلاً عن أني أمرت خدمي أن يعملوا أسرة في جوف الشجرة حتى إذا مر الأسد لا يرى بشراً ولم يعتد على الأسد قط ولا أظنه يعتدي علي فلما سمع الأمير منها هذا الكلام ظهر عليه الكدر والاضطراب وقال لها كان من اللازم أن تخبريني بذلك منذ أول الليل فإن لي خادماً اسمه شمروخ وتركته في الخارج وأخاف أن يكون الأسد قد افترسه قالت إني شغلت بك ولم يخطر في ظني أن معك رفيق كما أنك شغلت بي عن خادمك وعلى ظني إنه لا يزال حيا فنهض الأمير إلى شباك القصر ونظر وإذا به يرى الأسد جالساً يفترس شمروخا ويمرش عظامه فصاح واحسرتاه عليك يا شمروخ خلصتك من الجان ورميتك بأنياب الأسد . ثم استل سيفه وكر في سلم القصر فتعلقت به لوعة القلوب وقالت له لا تخاطر بنفسك يا سيدي فإن خادمك قد هلك ومات ولا بد للأسد بعد أن يفرغ منه يذهب قال لا بد من قتله بثأر خادمي وحيث قد اصطاد إنساناً في هذه الناحية فلا بد من تكرار رجوعه قالت إن حياتك عزيزة عندي . قال سوف تريني أذبحه كالشاة فهو عندي كالهرة فقفي في الشباك وانظري إلي قبل أن يذهب وما من وسيلة للتقاعد عنه فكوني براحة من جهتي فقد قتلت مثله كثيراً وإلا كيف أكون حمزة العرب

وسيد السيف والسنان إذا كنت أرهب الأسود فتركته ورجعت إلى الشباك وإذا به خرج من باب القصر وبيده الحسام وصاح بصوت أشبه بالرعد القاصف وقال ويلك يا كلب البرية أما حلا لك غير خادم حمزة العرب أما وصلك طرف من أخباري أما عرفت ببطش وقوة ساعدي حتى قدت نفسك إلى حفرة الهلاك فلما رأى الأسد الأمير وسمع أرعداد صوته تنفض واستعد للهجوم عليه وقد احمرت عيناه منه وأزئر زئيراً عالياً جعل لوعة القلوب أن تخاف على حبيبها وقد تمسكت بيديها في جهتي الشباك ونويت إن رأت الأمير وقع بيد يدي الأسد رمت بنفسها إلى الأرض فتموت ويكون قبرها وقبر حبيبها جوف الأسد . ومن ثم قد رأت الأسد اجتمع على الأربع وانحذف بكليته على الأمير وهو مكشر الأنياب مقوم الأظافر فزاد خوفها وعولت على رمي نفسها وإذا بها قد ارتاحت إلى ضربة سيف وقعت من كف الأمير بين عيني الأسد فشقت رأسه وعنقه وصدره وجوفه إلى ما بين أفخاذه وانحذف نصفاه يميناً وشمالاً ثم مسح سيفه بجلده وقال ويلك أيها المعتدي أظننت أن حمزة كغيره يصبر على عدوه . ثم عاد إلى ما بقي من جسم شمروخ وجعل يبكي عليه وقد تكدر لأجله مزيد الكدر وذم الهوى الذي جعله أن ينسى خادمه ورفيقه ويلتهي بحبيبته وأمر بعد ذلك الخدم أن تدفنه في التراب وصعد إلى أعالي القصر فوجد لوعة القلوب لا تزال واقفة في الشباك وهي منتبهة إليه بل مأخوذة العقل والفؤاد من عظم ما نالها من الفرج فدنا منها وأخذها إلى صدره وسقاها الماء فعادت إلى وعيها وقالت له أصحيح أيها الأمير أنك تحبني وإني أستحق أن أكون زوجة لرجل باسل نظيرك تخافه الأسود وتذل لديه الأبطال . فقال لها هدىء روعك فأنا حبيبك ولا انفكاك لي عنك فسأتزوج بك وأرجع إلى بلادي وأنت تكونين من سيدات العرب وزوجة كبيرهم وأميرهم . قالت إذن من الواجب أن تذهب إلى المدينة وتدخل على والدي وتعرفه بنفسك ومن ثم تطلب إليه أن تتزوج بي فيسألني فأجيب ولا تظهر له إنك أتيت عندي أو عرفتني . قال هذا أعرفه وأفعل كل ما يرضيك فكوني في قصرك كما أنت وسأعود إليك في كل ليلة إلى أن نزف من بعضنا .

ثم أنه ودعها وخرج من القصر وهو محرق الفؤاد على شمروخ وبعد دقائق قليلة وصل من أبواب المدينة فوجد أحدها يفتح وحالما فتحه البواب وجده عنده فأظهر التعجب والاندهاش وقال له أين كنت نائماً طول هذه الليلة قال كنت نائماً عند الباب قال وكيف لم يفترسك الأسد قال جاء إلي فطاردته ففر من أمامي فأدركته وقتلته وهكذا ترونه مقتولاً في الخارج فهلموا اليه لتتفرجوا عليه وكان جماعة من أهل المدينة واقفين يسمعون هذا الكلام فتعجبوا وارتاعوا من الأمير واستعظموه في أعينهم وعادوا راجعين إلى المدينة ونادوا بها

بقتل الأسد وصارت الناس تخرج وتتفرج عليه وكلهم من الفرح على جانب عظيم وببرهة قليولة وصل الخبر إلى الأمير وسلم عليه وجلس أمامه فقال له أنت الذي قتلت الأسد قال نعم قد قتلته عند ما أراد أن يعتدي علي وهذا ليس بعجيب فقد قتلت مثله كثيراً في زمني قال من أين أنت وما اسمك وما الذي جاء بك إلى بلادي قال أما أنا فاسمي عبد الله وأصلي من بلد الله جئت هذه البلاد لأتوصل اليك وأتعرف بك والآن أسألك هل من عدو لك في كل هذه النواحي وهل من أحد من أتباعك عاص عليك وخارج عن طاعتك قال نعم إن كل القبائل التي حول جبل قماصيا لا تدفع الجزية منذ خمس سنوات وحتى اليوم خارجة عن طاعتي قال سوف أجعلها كلها عبيد كالعبيد بين يديك ففرح جداً وعمل له وليمة فاخرة ذاك النهار هذا والناس تأتي من كل ناحية للفرجة عليه وعند المساء طلب من الحاكم أن يدفع إليه مائة رجل من رجاله ليكونوا في رفقته ويستدل بهم على القبائل العاصية فأجابه ودفع اليه مائة رجل فخرج بهم وانحط على الأعداء فأنزل بهم الويل وقتل منهم كثيراً وأرغمهم على الطاعة إلى حاكم قماصيا ثم انتقل إلى جهة ثانية وفعل فيها كالأول حتى انتشر الخبر بين كل تلك القبائل المجاورة ووقع الرعب في قلوبهم وأخذوا يتقاطرون من تلقاء أنفسهم إلى المدينة صاغرين مظهرين الطاعة نادمين على ما جرى منهم والحاكم يطلب إليهم أن يدفعوا الجزية عن السنين الخمس الماضية فيدفعون إليه وهو مسرور من عمل الأمير حمزة فرح به ولما رأى الأمير أن جميع العصاة قد انقادوا إلى سيد البلاد عاد إليه وقال له لقد فعلت ما يرضيك فهل من حاجة بعد في قلبك قال إني أعرف أن بلادي قد عاشت بك بعد أن كادت تخرب وأريد منك أن تسمع مني وتبقى عندي في بلادي وأنا أشاركك في الحكم وأجعلك غفير البلاد وحاميها من الأعداء قال هذا لا أرغبه ولا أريده وإني بعد أيام قليلة أسافر عنك فإذا كان في نفسك حاجة فابدها فلما سمع الحاكم هذا الكلام تكدر وخاف من غيابه وتمنى أن يبقى عنده لترتفع به شوكته وتتسع بلاده فقال إني لا أريد أن أفارقك وصار لك الحق في البلاد أكثر مني ولا ريب أنك تسر بالبقاء هنا فإني وجميع أهل بلادي نعرف قدرك ونعترف بفضلك ولا يصير لك عند غيرنا ما يصير لك عندنا قال لا بد من السفر بعد أيام قليلة ثم خرج من دار الأحكام إلى المكان الذي أعد له ولما كان المساء ذهب تحت ظلام الليل إلى قصر لوعة القلوب فوجدها بانتظاره فسلم عليها وسلمت وترحبت به وقالت له قد مضت كل هذه الأيام وأنت بعيد عني ولم أسمع عن طلبك الزواج إلى أبي مني فلما ذلك .

قال إني أردت في الأول أن أباديه بالجميل والمعروف ليعرف قدري ويتعلق بي وحتى الساعة لم أذكر له اسمي ولا عرفته بحالي بل قلت له إن اسمي عبد الله وفي هذا اليوم استأذنته أن يسمح لي بالسفر إلى بلادي فتكدر وقدم لي بلاده لأكون حاميتها وصار لا

يقدر على فراقي ولا ريب إذا طلبت إليه الله‍ن الزواج منك أسرع فأجاب وفرح كل الفرح وفي الغد أسأله في ذلك فقالت له حسناً فعلت ثم تناولته من تحت إبطه ودخلت وإياه غرفة الطعام وجلست معه على المائدة فأكلا وشبعا ثم خرجا إلى غرفة ثانية حيث كانت فانوس القهر مانة قد أعدت سفرة المدام وصفت عليها الزجاجات والأقداح وجلست هي بالقرب منها تضرب على العود وكانت كما تقدم رخيمة الصوت ناعمته حسنة المضرب فجعلت لوعة القلوب تشرب وتسقى حبيبها وتسمع صوت الآلة وكل منهما غارق ببحر هواه ضائع العقل عند الآخر وما زالا على ذلك إلى أن فاجئتهما سنة الكرى فنهض كل واحد إلى فراشه وهو ثامل من شدة شرب العقار وعند الصباح نهض الأمير حمزة وودع لوعة القلوب وجاء المدينة ودخل على حاكم قماصيا .

قال وكان أبو لوعة القلوب بعد أن خرج الأمير من أمامه قال لقومه ماذا ترون في أمر عبد الله فإني لا أرغب أن يسافر عنا ويترك بلادنا ونحن في حاجة إليه وكيف العمل لنجعله أن يبقى طول عمره ولا يبارحنا . وقالوا إن الرأى عندنا أن تعرض عليه الزواج من بنتك لوعة القلوب وهذا الأمر يربطه بك ويجعله بالرغم عليه ملزوما وما أن يحافظ على البلاد ونطلب إلى لوعة القلوب أن تقنعه بذلك . قال أخاف أن لا يرضى عبد الله بها ويذهب عنا ويتركنا . قالوا لا ريب أنه يرضى ويكون ممنوناً ومن هذا لأن لوعة القلوب نادرةالمثال لا نظير لها في كل العالم فإذا عرف بذلك فرح وسلم أمره إليك . فاتفقوا على ذلك ولما كان اليوم الثاني وجاء الأمير إلى مجلس أبي لوعة القلوب ترحب به وأجلسه إلى جانبه وزاد في إكرامه وقبل أن يبدي الأمير كلمة تتعلق بشأن لوعة القلوب قال أبوها إني أرجوك أن تبقى في بلادنا وخطر لي أن أزوجك من بنتي لوعة القلوب التي لا نظير لها في هذا العالم وقد طلبها كثير من الشرفاء والعظماء ولم تقبل أن تكون زوجة لأحدهم وأريد منك أن تقبل هذا وترضاه ولا ريب أن بنتي أيضاً تسر بك بعد أن بلغها شدة بطشك وعظيم قدرتك وجسيم بسالتك قال إني كنت لا أرغب أن أقيم في هذه البلاد أكثر من أيام قليلة وحيث قد أنعمت علي بلوعة القلوب فإني أعرف منك هذه النعمة وأقدرها حق قدرها وأشكر لك هذا المعروف فلما سمع حاكم قماصيا هذا الكلام سر به جداً وفرح فرحاً ما عليه من مزيد وقال له أنت منذ هذه الساعة صهري ومساعدي ومعيني ولك الحق في بلادي وفي تدبير أمرها كما لي . فكن أنت المتصرف والحاكم مثلي ولي ثقة كبرى أنك تزيد في شأن قماصيا وترفع قدرها وتوسع دوائر حكومتها وتأتي لها بكل نفع .

ثم أن حاكم قماصيا أرسل إلى بنته وجاء بها إلى قصره وعرض عليها أمر عبد الله وقال أريد منك أن تقبلي بالزواج منه لأننا بحاجة إليه وإذا ذهب عن بلادنا ساء حالنا وإذا

كان صهري زوجك خاف بأسنا الملوك الكبار والفرسان والأبطال وقد رأيت من أفعاله ما أدهشني فقد قتل الأسد الذي عجزت عنه أنا وكل جيوشي وأذل العصاة وسهل لي ولبلادي طرق الاتساع فهو بدون ريب نادر المثال سينتشر صيته في الآفاق كانتشار صيت حمزة العرب وربما كان أعظم منه ثباتا في ساحة القتال قالت افعل ما بدا لك فإني لا أخالف لك أمراً في الزواج بهذا الرجل حيث إني أحب الأبطال وأريد أن أكون زوجة لرجل يدفع عني الغارة وكل معتد ويحمي بلادنا من حملات الأعداء فسر أبوها من كلامها ومدحها وهو لا يعلم ما بينها وبين الأمير وعاد إليه فأخبره بجواب ابنته .

ومنذ تلك الساعة أشهر زواج لوعة القلوب بعبد الله ففرح الناس وبدأوا بعمل العرس ودعا القريب والبعيد وقد قامت الأفراح في كل ناح مدة سبعة أيام وفي الثامن عقد للأمير على لوعة القلوب ودخل بها وسر منها سروراً لا مزيد عليه وصرف عندها وقتاً ليس بقليل واطمأن حال حاكم قماصيا من جهة عبد الله وثبت عنده أنه سيبقى إلى الممات في بلاده والأمير في قصر زوجته مجتمعا بها يشرب ويسر ويطرب وهو لا يحب أن يفارقها وأن يصرف أياما بقربها يتمتع بجمالها وعذوبة الراحة عندها وهذه تروح من الأمير حامل بولد يدعى سعد الطوقي ويكون من الفرسان والأبطال ويفرج عن العرب الشدة والضيق كما سيأتي في محله .

فهذا ما كان من الأمير ولوعة القلوب وحاكم قماصيا لنرجع إلى عمر العيار ومعقل البهلوان حيث قد تركناهما سائرين إلى قماصيا ليجتمعا بالأمير كما تقدم معنا ولا زالا سائرين من مكان إلى مكان ومن وجهة إلى جهة يخترقان السهول والأوعار ويتسلقان الجبال والآكام وعمر يلتزم أن يسير الهوينا ليساوي في مسيره معقل البهلوان إلى أن وصلا قماصيا وصادف أنهما جاءا نحو الساعة الواحدة من الليل قصر لوعة القلوب وهي فيه مع زوجها الأمير حمزة البهلوان فعرجا إليه وجلسا تحت الشجرة التي عند بابه وقد أعجبهما ذلك المكان وقال الأمير عمر لرفيقه حيث قد وصلنا البلد والوقت ظلام فننام هذه الليلة هنا وفي الصباح ندخل المدينة ونفتش على أخي .

قال له قد أعجبني هذا المكان وجلس وإياه وأخرجا ما معهما من الطعام ليأكلا وإذا بخدم القصر قد خرجوا منه حسب العادة وجاءوا لهما بالطعام فقدموه بين أيديهما فقال عمر لهم لمن هذا القصر وكيف أرسلوا لنا هذا الطعام قالوا إن هذا القصر للوعة القلوب بنت ملك قماصيا ومن عادتها أن تكرم ضيوفها فمن جاء المكان قدمنا له الطعام حيث يكون في ضيافتها فهي كريمة الفعل والطباع قال جزاعا الله خيرا . ثم تناول الطعام وذهب الخدم في حال سبيلهم فقال عمر يظهر لي أن بنت صاحب قماصيا كريمة وصاحبة فضل

ومعروف . قال لا بد أن نجازيها على فعلها هذا إذا ساعدنا الزمان ولا عجب إذا صار منها ذلك فإن أهل هذه البلاد أهل كرم وسلام . ثم صرفا ساعات قليلة يتسليان بالكلام ومن بعدها نام معقل البهلوان وعلا غطيطه فتركه عمر العيار وقال لا بد لي من أن أعرف لوعة القلوب هذه وأعرف من داخل القصر لأني أرى أنوار كثيرة فيه وأسمع أصوات الغناء والعود وجاء القصر وجعل يدور من حوله من كل جهاته حتى أدرك المكان الذي يمكنه الدخول منه فتسلق الحائط وجاء النافذة وانسحب منها ثم قلب إلى الداخل وانسل في دهاليز القصر وصعد سلالمه حتى جاء الغرفة التي فيها لوعة القلوب والأمير حمزة وكانا أوانئذ على صفرة المدام فقرب من نافذتها ونظر إلى الداخل وإذا به يرى الأمير حمزة جالسا مع لوعة القلوب وهي كأنها الكوكب الوضاح يلالىء في ظلام الليل الحالك وأمامها القهرمانة فانوس وقد وضعت العود بين نهديها تضرب به وتغني برخيم صوتها والأمير مشغل مع محبوبته بالكلام وقد سمعه يقول لها إني أسر الآن بك جداً ويفرح قلب الفرح العظيم ولكن فكري لا يزال يشتغل عند ضواحي حلب حيث أن جيشي مقيم هناك ولا أعرف ماذا صار به وأريد منك أن تذهبي برفقتي إلى هناك تكوني مع نسائي قالت لا أزال أراك مشغل البال عند قومك وهم بأمان وسلام وراحة وعندهم عمر العيار الذي حكيت لي مرارا أنه صاحب الرأي الحسن والتدبير العظيم والعرب بدونه لا تصلح بشيء ولا لشيء . قال إني أعرف أنه ما زال عمرا بينهم لا خوف عليهم ولا تصلهم أذية لكنهم لا بد من أن يضطربوا لغيابي ويلتزم عمر أن يسعى خلفي بالتفتيش علي وإذ ذاك يترك المعسكرويبعد عنهم وربما جاء هذا المكان أيضاً وأعظم شيء يدفعني إلى الذهاب هو شوقي لولدي ورجالي ونسائي ولا سيما أخي عمر . قالت دع عنك الآن هذا الحديث وخذ القدح فاشربه بصحة أخيك عمر ودع فانوس تنشدنا عليه شيئاً من الشعر تضربه على عودها فضربت القهرمانة ضرباً يحرك الحواس من داخلها ويطرب الشجي الولهان وأنشدت .

نفسي الفداء لشادن حشمته	وشفيت بالتقبيل منه غليلي
ظفرت يداي بصيده بوصيده	فأجدت ثم توصلي بوصولي
صادفته وأكفه مشغولة	بأبارق قد أترعت بشمول
فمنعته بالضم من إلقائها	وجعلتها تجنيه للقتيل

فلما سمع عمر العيار من الخارج ذاك الصوت وشاهد تلك الجلسة غاب صوابه ودخل بغتة وقال السلام يا أخي حمزة أنت جالس هنا على الحظ والانشراح وضرب العود وشرب الخمار ونحن ندور البلدان ونسأل الركبان ولم نرك قط في مكان فاندهش الأمير

ولوعة القلوب من عمر ونهض إليه وقبله وسلم عليه وقال له إني لا أزال أتذكرك فأهلا وسهلا بك . ثم سلم على لوعة القلوب والقهرمانة فانوس وقد مال قلبه إليها ورأى فيها من معاني الحسن ما جعله يميل إليها كل الميل ويحبها محبة عظيمة فقال لأخيه ابقى يا أخي على ما أنت عليه فما أتيت لأنغص عيشك بل أتيت لأطمئن عليك والحمد لله أنت بخير وسلام قال اجلس الآن معنا وشاركنا في سرورنا فهذه زوجتي لوعة القلوب وقد جئت قماصيا من وأجلها وتزوجت بها . فقال عمر لقد أحسنت فهي وقهرمانتها نادرتا المثال فأدرك الأمير غايته وأجلسه الى جانبه وهو مسرور به كل السرور وقد تناول قدحا وناوله إياه فشربه وأمر فانوس أن تنشده شيئاً من الشعر . فأخذت العود وضربت ضرباً ناعماً لطيفاً ترقص له بنات الأفكار وتطرب عند سماعه الحور والولدان وأنشدت :

رقصوا فقام الحرب واشتبك القنا ... من كل قد كالقضيب إذا انثنى
ونضوا من السود المواض صوارما ... بيضا فلم نعلم علينا أم لنا
هزوا الغصون وكلفوا أعطافهم ... حمل الجبال فكان ظلما بيننا
من كل ردف كالكثيب مجاذب ... قد أغض من القضيب والينا
صدوا وردوا سافرين وجوههم ... نحوي فشاهدت المنية والمنا
ضمنوا قرى أسماعنا وعيوننا ... للعين رقصهم وللسمع الغنا

فسكر الأمير عمر العيار عند سماع صوتها وزاد في قلبه الغرام ولم يتمالك نفسه عن أن ينشد :

شجى وشفا لما حدا وترنما ... فأنعس ايقاظا وأيقظ نوما
وجس من الأوتار مثنى ومثلثا ... فخفت بنا الأفراح فردا وتوءما
أغن كأن العود ضم صدى له ... يحاكيه في ألفاظه إن تكلما
يحاكيه في الحالين صوتا ولهجة ... فقد كاد يلقى ضاحكا متبسما
إذا رتلت ألفاظه الشعر معربا ... وعادت لنا أوتاره اللفظ معجما
له منطق يستنزل العصم عندما ... يحرك في الأوتار كفا ومعصما
يضم إلى نهديه عودا تظنه ... نسيما مجزى أو نعيم مجسما
كأن حشاه ضم سرا مكتما ... يكتم عنه أو حديثا مجمجما
يطارحنا شرح الضروب مبرهنا ... فنأخذ نقل اللهو عنه مسلما
وإن حركته الكلف أبدى تململا ... فحرك منا يذبلا ويلملما

وعندما رأى الأمير حمزة إلى حالة أخيه عمر التفت إلى لوعة القلوب فرآها تنظر إليه

كعالمة بحاله فغمزته أن يجمع بينهما فأجاب في الحال والتفت إلى عمر وقال له إني أعرف أنك أحببت فانوس وهي تستحق هذه المحبة وقد عزمت أن أزوجك بها في هذه الساعة فتكون زوجة لك وتكون أنت بعلا لها وتساوينا بالمسرة والحظ قال حسناً تفعل فإني ما شغلت زماني بفتاة ولا عشقت فتاة كعشقي لهذه الفتاة ثم قالت لوعة القلوب لقهرمانتها إني أزفك الآن من الأمير عمر العيار فتكونين عنده على الدوام لأنه سيد في العرب ونافذ الكلمة عليهم فأطاعت فانوس كلام سيدتها وفي الحال حسبت زوجة له وبعد انصراف السهرة ذهب كل بزوجته يصرف باقي الليل معها وفانوس هذه تلد من الأمير عمر ولداً ذكر يسمى الشاه ذئب ويكون لونه أحمر وسيأتي ذكر حديثه إن شاء الله .

وفي الصباح نهض الأمير واجتمع بعمر وهنأه بليلته وقال له هل جئت وحدك من حلب أو صحبك أحد من العيارين والأمراء فانتبه إذ ذاك الأمير عمر إلى حاله وافتكر بأنه ترك في أسفل القصر معقل البهلوان وقال لأخيه قد ارتكبنا غلطا عظيما وفعلنا فعلا جسيما نستحق لأجله اللوم وشغلت بفانوس وبك عن أفتكر بمن تركته في أسفل القصر وهو معقل البهلوان وقد تركته نائما وجئت أنظر من في القصر على أمل أن أعود في الحال فلما سمع حمزة ذلك تكدر وقال له يا وجه القرد كيف لم تخبرني بذلك منذ أول الليل وماذا ترى يقول عنا معقل وكر الأمير من أعالي القصر قاصدا ملاقاة صديقه ليسلم عليه ويصعد به القصر ويعتذر له عن بقائه في الخارج وكان في الصباح نهض الأمير معقل ونظر إلى ما حواليه فلم ير عمرا فخاف أن يكون قد أصيب بمصيبة أو أنه وقع في أيدي أهل القصر فقبضوا عليه ولذلك استل سيفه وهجم على باب القصر ونادى ويلكم يا أهل هذا القصر أخبروني هل أن رفيقي الأسود الذي كان معي بالأمس دخل القصر فإذا كان عندكم ردوه إلي وإلا هجمت وقتلتكم بأجمعكم وفعلت معكم فعلا يذكر لي آخر الزمان وهدمت على رؤوسكم قصركم فأجابه الأمير من الداخل مرحبا بك يا أخي معقل ثم إنه دخل القصر وجاء إلينا ثم أنه فتح الباب ونظر كل واحد إلى الآخر ورمى بنفسه عليه يقبله ويضمه إلى صدره ومعقل يتعجب من وجود الأمير في ذلك المكان ثم أن الأمير أخبره بما كان من أمر عمر العيار وقال له أرجوك المعذرة يا أخي فإني لم أطلع على أمرك إلا الآن وعمر لم يخبرني به قط وقد شغل عنك بزوجته الجديدة قال إني لا أعتب عليه فإن النساء يشغلن البال ويلهين الأخ عن أخيه والأب عن ابنه ثم أن الأمير صعد به إلى أعالي القصر وأجلسه هناك وأمر الخدم بإكرامه وأن يقدم لهم الطعام جميعاً فأكلوا وشربوا وسروا وطربوا فرحا ببعضهم وعاتب عمرا كيف نسيه وتركه لوحده في الخارج قال إني وجدت على سفرة المدام فنسيت أن أذكر له إنك في الأسفل وأرجوك المعذرة وأريد منك أن تبارك لي ولأخي بهاتين الزوجتين اللتين أمامك فإن لوعة القلوب قد تزوج بها الأمير حمزة الذي إذا طال عليه

الزمان تزوج بنساء العالم أجمعها وما ترك فتاة جميلة إلا واختارها لنفسه وتمنى أن تكون له والثانية وهي فانوس كانت من نصيبي قال بارك الله لكما بهما .

ثم إن الأمير حمزة قال أريد الآن أن أذهب إلى المدينة فهلما بنا ننزل معاً فتتفرجان عليها وتريان أهلها فأجاباه وذهبوا جميعاً ولا زالوا في مسيرهم حتى جاءوا دار الحكومة عندها خيولاً غريبة مربوطة وعليها سروج رومية مزركشة بالذهب والفضة فتعجب حمزة من ذلك وقال لا بد من أن يكون قد زار المدينة قوم غرباء لأمرهم ودخل إلى الديوان ووقف ببابه وإذا به يرى رجلاً عليه ملابس العظمة والجلال جالساً على مقربة من حاكم قماصيا وهو يوبخه ويعنفه ويلومه بكلام عال وهو مطرق الى الأرض لا يبدي خطاباً ولا يأتي بحركة فلعب الغضب بالأمير وقامت عيناه في رأسه ودخل بغتة إلى وسط الديوان وصاح بالرجل ماذا تريد ولأي سبب هذا الكلام . قال إن سيدي قد بعثني بمهمة لهذا الحاكم الغاش ولا بد من خراب بلاده وهلاك فرسانه وكل رجاله وقلع أثاره وهرق دمائه ثم أخذ الرجل في أن يبدي للأمير حمزة واقعة أمره . سبب تهكمه على حاكم قماصيا . وذلك أنه لما انتشر خبر لوعة القلوب في كل البلاد وذاع صيتها في جهات كثيرة من العالم وصل خبرها إلى الملك عج ملك الصقالبة ورأى بعض تلك الصور التي كانت تصورها فهام بها وعشقها على السماع وأرسل وزيره إلى أبيها يطلبها منه زوجة له فلما جاء الوزير إلى أبي لوعة القلوب وسأله زواجها بسيده أحضرها وأخبرها بذلك فأبت وقالت أني لا أحب الزواج ولا أريد أن أكون زوجة لأحد من الناس بل أحب أن أبقى منفردة بنفسي بعيداً عن هذا العالم صارفة كل وقتي في قصري فألح عليها أبوها بأن ترضى بهذا الملك لأنه جبار صنديد وفارس مجيد وبطل عنيد وعنده من الجيوش ما لا يعد ولا يحصى قالت إني أعرف ذلك وأعترف أن هذا الملك هو أعظم الملوك وأشدهم ولو كنت أحب الزواج ما اخترت سواه ولكنني لا أريده ونفسي تطلب البعد عنه فعاد الوزير إلى سيده وأخبره بما سمع من لوعة القلوب فقال إني لا أرغمها على الزواج فربما كانت تكره فيه لكن إذا كانت حكمت ذلك عن غش وخداع وتزوجت بغيري لا بد من خراب بلاد أبيها وسبيها بالرغم عنه ووضع منذ ذلك الحين العيون والارصاد في قماصيا وأقام الجواسيس في قصر حاكمها تخبره بما يكون من لوعة القلوب هل تريد طالباً آخر أو تتزوج به وبقي الأمر إلى أن جاء الأمير حمزة الذي كانت بانتظاره ولا ترضى أحداً سواه فتزوجت به كما جاء معنا وحينئذ عادت الرسل إلى الملك عج وأخبرته بما كان من حمزة وأن لوعة القلوب زفت عليه فقام وقعد وأرغى وأزبد وقال لا بد من هلاك أبيها وخراب بلاده فقال له وزيره إن لوعة القلوب ذات حسن وجمال وهي معظمة بنفسها وما امتنعت أو انئذ إلا كرهاً بك لا بالزواج وأراد أبوها أن يجبرها عليه فما قبلت فهي المسؤولة لديك والمخطئة

عندك فالمجازاة يجب أن تقع عليها قال أريد منك قبل كل شيء أن تذهب إلى قماصيا وتطلب من حاكمها أن يرسل لوعة القلوب معك سبية فامتنع بها زماناً ثم أراد إلى زوجها أو ابقيها عندي فإذا أجاب ذلك عفوت عنه وعن بلاده وإلا زحفت بجيشي على قماصيا وأهلكت كل ذي نفس فيها فأجاب الوزير أمر سيده حتى جاء قماصيا ودخل على أبي لوعة القلوب وجعل يتهدده بمثل هذا الكلام ويهينه ويطلب إليه أن يسلمه بنته ليأخذها ويعود بها إلى سيده وهو مطرق إلى الأرض لا يعرف ماذا يجيب وقد وقع الخوف والرعب على قلبه وارتاع واضطرب وأيقطن إما بخراب بلاده وإما بتسليم بنته . وفي تلك الحالة دخل الأمير حمزة ورأى ما رأى وأعاد عليه الوزير طلب سيده الملك فقامت قيامته وصاح بصوت اهتز منه القصر من أربع جهاته وأشهر سيفه وضربه به وهو غائب عن الصواب فأصاب رأسه فشقه ورماه إلى الأرض قتيلاً فاضطرب حاكم قماصيا وأعيانها وصاحوا بالويل والحرب وقالوا لقد رميتنا يا عبد الله بويل عظيم وشر جسيم فما أمامنا إلا خراب الديار وقلع الآثار وعما قليل تروح أرواحنا وتدوس رؤوسنا خيول الصقالبة وأن ملكهم جبار لا نظير له في جبابرة هذا الزمان وقد أعد بعشرة آلاف فارس . فقال حمزة لا بد من قتل هذا الرجل وتشتيت عساكره وهلاك رجاله وتفريقهم فقال أبو لوعة القلوب إنك لا تقدر على ذلك لا أنت ولا ألوف مثلك وعما قليل ترى رجاله مثل الجراد المنتشر حول بلادنا تهدم أسوارنا وتخرب ديارنا وتنزل بنا البلاء الجسيم . قال لقد آن الأول وصار من الواجب أن تعرف من أنا وما هو السبب الذي جئت لأجله بلادك وإذ ذاك تعرف أن الذي فرق جيوش كسرى أنوشروان وأنزل عليه ميازيب العذاب والهوان بعد أن جمع عليه جيوش الشرق والغرب وكل فارس قدر على الطعن والضرب أنا الأمير حمزة العرب فارس برية الحجاز ومذل الجبابرة ونقمة الاكاسرة وسيد الحق والعدل في هذا الزمان وقد جئت أتزوج بلوعة القلوب حيث قد سمعت بجمالها وأنا عائد من جبال قاف .

قال فلما سمع الحاكم وجماعته هذا الكلام سقطوا عن كراسيهم إلى الأرض وصاحوا بصوت واحد بشراك يا لوعة القلوب لقد نلت السعادة والإقبال وقارنت بنت كسرى أنوشروان ودنوا من الأمير يسلمون عليه سلاماً جديداً ويترحبون به وهم مأخوذون من هذه الكرامة التي أخصهم بها الله سبحانه وتعالى بأن جعلهم قريبين من رجل ذاك الزمان ووحيد العصر والأوان . فمدحهم وقال لهم كونوا براحة وأمان وسوف أرسل أخي عمر العيار ليأتي ببعض فرساني وأبطالي لكبح هذا الملك الذي ينزع مني زوجتي ثم أخبرهم بخبر عمر ومعقل البهلوان فسلموا عليهما وجلسوا جميعاً ثم أن حمزة دعا برجال الوزير وقال لهم احملوا سيدكم وخذوه إلى بلاده وبلغوا ملككم أنه إذا حدثته نفسه بالإتيان إلينا لاقى ما لاقاه الوزير فحملوه وساروا وبعد مسيرهم أمر حمزة أخاه أن يسير

إلى حلب ويسرع بالاتيان بفرسانه الاخصاء ويخبرهم أن مراده خلاص زوجته ومن ثم يعود معهم إلى المعسكر . فسار عمر إلى حلب وبعد مسيره سأل حمزة عمه أن يجمع العساكر التي عنده وينظر في عددهم . قال إن كل ما أقدر أن أجمعه هو نحو عشرين ألف فارس قال مرهم أن يجتمعوا في هذه البلد قبل أن يصل إلينا ملك الصقالبة إذ أنه لا ريب يصل قبل أن تصل عساكري ورجالي فبعث برسله إلى القبائل المتفرقة حول المدينة أن تجتمع عنده وبمدة عشرة أيام اجتمع عنده العدد السابق ذكره أي عشرون ألف نفر . وما مضى على ذلك أيام قليلة حتى وصل الخبر بوصول الملك عج برجاله وهم بعدد الرمل الذي على شاطىء البحر حيث كان رجال الوزير قد حملوه إليه وأخبروه بقتله فأرغى وأزيد وقام وقعد وحلف أنه لا بد أن يفلح قماصيا وأن لا يترك ذات نسمة فيها ونهض في الحال وسار بنحو مائة ألف فارس من فرسانه الأشداء وسار بهم في البحر إلى أن وصل إلى قماصيا فصعد البر وضرب خيامه بالقرب منها وسرح خيوله وعزم الهجوم عليها في اليوم التالي حيث تكون عساكره قد ارتاحت من سفر الطريق ولما رأى حمزة ذلك دعا إليه معقل البهلوان وقال له أعلم يا أخي أن أهل هذه المدينة قوم جبناء يشبهون نساء العجم فما من رجال بهم على القتال وأريد منك أن تبذل الجهد في قتال هذا الجمع الكثير إلى أن يصل إلينا رجالنا وأبطالنا . قال سوف ترى مني ما تعهد بي . وحينئذ أخذ حمزة العساكر وخرج بهم إلى مقابل عساكر الصقالبة وضرب خيامه وأقام ينتظر صباح اليوم التالي وأهل المدينة في اضطراب عظيم بعضهم يؤمل النجاح والفوز لما يعهده بالأمير حمزة من القوة والبطش وبعد الصيت وبعضهم يخاف من الفشل وخراب البلاد عندما يرى ازدحام الأعداء وكثرتهم .

وباتوا تلك الليلة إلى أن أشرق صباح اليوم الثاني وبسطت أنواره على البسيطة فهبت العساكر من مراقدها ونهضت إلى خيولها فركبتها وركب الأمير حمزة وحمل كأنه قضاء الله المنزل وكان منذ زمان طويل ما باشر حرباً ولا قتال ولا خاض معمعة ولا نزالا وفعل مثله معقل البهلوان فالتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وتقطعت الأوصال وطال سلطان الموت واستطال وكان ذاك اليوم كثير الأخطار . عظيم الأهوال فيه ارتفع الغبار . وحجب نور الشمس عن الأبصار . وأنزل على المتقاتلين أمطار الدمار . فلله در الأمير حمزة وما فعل وكم من فارس وسيد قتل ولم يكن الملك عج قصر في أعماله . أو تهامل في قتاله . وقد أوقع بعساكر قماصيا أي إيقاع وهم لا يحسنون على ثبات ولا دفاع ولولا حمزة ومعقل البهلوان لتشتتوا بين البراري والكثبان واختاروا الهرب على البقاء في ساحة الميدان ودام القتال إلى المساء وفيه رجع الأمير مع رفيقه إلى الخيام وبات إلى اليوم التالي فنهض القومان وتحاربا إلى المساء فضربت طبول الانفصال ورجعا

إلى المبيت ودامت الحال على مثل هذا المنوال مدة خمسة أيام حتى كاد يتفرق جيش قماصيا لضعفه وقلته والأمير يشجعه بخاطره ويعده بقرب النصر وفي الليلة الأخيرة اجتمع بمعقل البهلوان وقال له لم أر بزماني قوماً يخافون الحرب ويهابون الموت مثل هذه المدينة وأني تعبت جداً في مثل هذه الحرب حيث أريد أن أفني الاعداء وأريد أن أحميهم ولا أتركهم عرضة عرضة بأنياب الأعداء ولهذا أرى أن الحالة التي نحن فيها صعبة جداً واذا تأخر فرساننا التزمنا أن ندخل عساكر قماصيا الى المدينة ونبقى نحن نقاتل على قدر جهدنا إلى أن يفعل الله ما يشاء فقال معقل لا بد في الغد وما بعده أن تصل إلينا الفرسان لأن عمر يكون قد وصل اليهم بأيام قليلة فساروا في الحال وكيف كان الأمر فإننا قادرون على الثبات إلى أن يأتينا الله بالفرج فهذا ما كان على العرب وأما ما كان من الصقالبة فان ملكهم اضطرب وتعجب من فعل الأمير حمزة وقال الأعيان قومه أني ما كنت أظن عساكر قماصيا تثبت أمامنا ساعة واحدة واني أعرفهم وأعرف انهم من أكثر الناس جبناً ولكن زوج لوعة القلوب هذا الذي يحميهم ولم يسمح لي القتال أن التقي به لأضربه ضربة واحدة أزيل بها رأسه عن جسده وعليه فإني عولت في الغد ان أقسم عساكري قسمين فعند هجوم عساكر قماصيا ورجالها ضربهم من جهتين ونتركهم في الوسط ولا ندع لهم مجالاً ونبيدهم عن آخرهم كبيرهم وصغيرهم .

قال ثم قسم العساكر إلى قسمين وأشار اليهم كيف من الواجب ان يفعلوا الأعداء وكيف يقاتلوا وعند إقبال الصباح هبوا من مراقدهم وتقلدوا بنصولهم وركبوا على خيولهم وانقسموا إلى قسمين وفي كل نيتهم انهم في ذاك اليوم يبيدون الاعداء وينزلون عليهم ميازيب الفناء وإذا بالأمير حمزة صاح وحمل ومال إلى اليمين ومعقل البهلوان إلى جهة الشمال وقامت الحرب على قدم وساق ومدت الاسنة الرماح والبيض الصفاح طوال الاعناق ولعبت فيهم ريح وأخذ عزرائيل وقومه إلى قبض الارواح بالسباق هذا والحرب تضطرم والرجال تصطدم ورواق العذاب بنتشر من الشرق إلى الغرب ويرسل من أوتار كبده سهام الوبل والكرب ورأى الملك عج أفعال الامير حمزة في رجاله فخاف واضطرب واقسم انه لا بد من أن يضيق عليه في ذاك اليوم ولا يتركه ينجو فصاح برجاله ويلكم قوموا بمزاريقكم واسلوها الى هذا العاتي ومتى قتل انتصرنا انتصاراً عظيماً وملكنا المدينة بساعات قليلة ومن هرب منكم كان جزاؤه الموت والإعدام فقومت العساكر أعنتها وأرسلت اليه بأسنتها واحتاطت به من اليمين والشمال وكان الصقالبة من الرجال الاشداء الذين تضرب بهم الأمثال في الشجاعة والأقدام ففضلوا الموت على البقاء وأصروا أنهم لا يرجعون عن باحة القتال مالم يقتلوا الأمير حمزة ولو قتلوا عن آخرهم ورأى الأمير عنادهم فجعل ينحط عليهم انحطاط البواشق ولو كان عنده جواده اليقظان لما وقع في ارتباك

وضيق ولكن الجواد قصر من تحته ولم يجبه إلى غايته حيث كان من عادته عند ازدحام الفرسان من حواليه أن يخترقها من أولها التي آخرها يقلبها من باطنها الى ظاهرها وعليه فقد شعر بالتقصير وخاف من أن يقع من تحته الجواد إذا طال عليه الحال في ذاك المكان محاطاً بالرجال والأبطال فبذل جهده وابدى من الشجاعة ما يعجز عنه كل من حمل سيف وباشر قتال من فرسان الزمان من عهد آدم إلى ذاك اليوم وكذلك معقل البهلوان فإنه وقع بالضيق والشدة واحاط به الأعداء من كل جهة ولم يكن من فارس يفرج عنه أو يساعد في القتال ليتسع عليه المجال وعرف أنه اتكاله على نفسه وأن الأمير لا يقدر أن يصل إليه حسب عادته لبعده عنه ففعل أفعال الجان وقاتل قتال عفاريت السيد سليمان ورأى الصقالبة بدء ذاك النجاح ولاح لهم شخص النصر من خلال ذاك القتال فما قبلوا أن يضيعوا تلك الفرصة فزادوا في القتال وأبدوا اشد الأعمال وبربروا بلغاتهم ورموا بأنفسهم على الاعداء حتى سألت الدماء واكتست منها الأرض بالإحمرار وصبغت بلون البهار وفيما القوم على مثل تلك الحال والأمير حمزة ومعقل البهلوان في ضيق المجال وقد تفرق رجال قماصيا وتركوا الحرب واختاروا السلامة على الممات وإذا بعمر العيار قد خرج من بين تلك القفار كأنه السهم الطيار وهو ينادي ويلكم أيها الاوغاد جاءكم البوار وحاق بكم الدمار فخلوا عن الحرب والقتال واطلبوا رؤوس البراري والتلال حيث وصلت إليكم فرسان العربان لتلبسكم اثواب المذلة والهوان وما انتهى من كلامه حتى ظهر من خلفه أندهوق بن سعدون فوق جواده والمعتدي حامي السواحل وباقي الابطال الحلاحل كعمر الاندلسي والنجاشي وقاهر الخيل وبشير ومباشر ولما رأوا الحرب قائمة صاحوا وحملوا حملات الآساد وخاضوا معمعة البراز والطراد فاهتزت الأرض لحملاتهم واضطربت الصقالبة عند اصواتهم ودمدمتهم وظنوا أن الأرض انطبقت عليهم من كل الجهات وان أسوار العزاء احاطتهم بحيطان الشدات ولاسيما عندما رأوا رماح العرب تخترق الصدور وتلقي بالاعداء إلى وهدات صعاب الأمور وسمع حمزة صوت أخيه عمر وباقي الفرسان فعاشت روحه وانتعشت نفسه وبأقل من نصف ساعة رأى عمرا حواليه يدافع عنه ويقاتل ويحمي ظهره ولذلك صاح ونادى بالبشر والآمان وسمعت العرب صوته بعد أن غاب عنهم كل تلك المدة فسرت الراحة في أبدانهم وجودوا الطعن والضرب كل اثنين في جهة وقرب العصر التقى الأمير حمزة بالملك عج فصاح به وخبله وتجاول وإياه مقدار ساعة ثم ضربه بحسامه شقه نصفين فألقاه قتيلاً فقطع عمر رأسه ورفعه على خنجره وجعل يصيح بين الفرسان هذا رأس ملككم ياصقالبة وإذا ثبتم فنيتم عن آخركم ولما رأى الصقالبة ذلك فروا من أمام أبطال العرب وطلبوا الهرب وغابوا عن تلك الناحية والفرسان تضرب بأقفيتهم إلى أن جد الليل فرجعوا فرحين ولما رأى عسكر المدينة انهزام الصقالبة فرحوا

اجداً وأخذوا في جمع الأسلاب والغنائم والتقى حمزة برجاله فسلم عليهم واحداً بعد واحد وإذا بأبي لوعة القلوب قد وصل اليهم فسلم عليهم وترحب بهم ودعاهم الى المدينة فدخلوا بالفرح والاستبشار ولاقتهم النساء بالمزاهر والدفوف وبأيديهم المصابيح وهم يدعون لحمزة وقومه ويشكرون من اعمال العرب وقد أمر الامير أن تجمع الخيول والمؤ ن وكل ما تركه الصقالبة يعطى إلى حاكم المدينة ورجالها وصرفوا تلك الليلة مع بعضهم البعض وحاكم قماصيا يذبح لهم الذبائح ويقدم لهم الطعام والخمور وهم فرحون بسلامة الأمير ولم يرض احد منهم أن يخبره بفعل زويين الغدار وأفلنطوش خوفاً من تصديع خاطره على مهردكار وابنه عمر اليوناني بل أبقوا ذلك الى حين يعودون معاً وكانوا وهم بحلب ينتظرون عودته إلى أن جاءهم عمر ودعاهم اليه فاجتمع مائة فارس من رؤساء العرب وساروا في الحال بعد أن ادخلوا لجميع الى البلد خوفاً من أن يأتي كسرى في غيابهم ويبطش بهم ويذيقهم العذاب الأليم .

هذا والأميرفي تلك الليلةفرحان بقومه وفكره عند لوعةالقلوب لأنها كانت في القصر وحدها ولابد أنها تحب أن تراه فليطمئن بالها ويرتاح ضميرها عليه وطد العزم أنه في الصباح يذهب اليهم ومن ثم يرحل إلى بلاده وينتهي من غيبته وسفرته ولم تطعه مروءته أن يفارقهم تلك الليلة بل بقي بينهم إلى الصباح وعند الصباح ركب وخرج إلى قصر لوعة القلوب فوجد بابه مفتوحاً فدخل قليلاً وإذا به يرى الخدم مقتولين ومتروكين على سلم القصر فارتاع وخفق قلبه وخاف على زوجته فصعد القصر في الحال وفتش على لوعة القلوب وعلى قهرمانتها فانوس فلم ير لهما أثراً فزاد قلقه وفتش في كل نواحي القصر دون أن يحصل على نتيجة وحينئذ كر راجعاً في الحال واخبر أبا لوعة القلوب بما كان من أمره في القصر وكيف ان الخدم مذبوحون وهي مع خادمتها مفقودتان فاضطرب الجميع وخافوا ان سرقتا وأخذتا مع جماعة الملك عج الذين هربوا وساروا عن تلك النواحي وكان عمر باضطراب على زوجته فقال لأخيه اذا شئت أن تفتش على زوجتك وزوجتي فهلم بنا نسير في البحر على احد المراكب فنلتق بالأعداء ونفتش المراكب ومن كانتا في مركبه غرقناه ورجعنا بهما فأسرع حمزة الى البحر وركب على مركب وسار يخترق البحار وأيتما وجد مركباً سائرة عرج اليها حتى وصل الى مركب قد جمع شراعه ووقف في وسط البحر فقرب منه ودخله مع أخيه عمر وإذا هو من مراكب الصقالبة فقبضوا عليه وعلى من به وسألوهم عن لوعة القلوب فما منهم من أجاب واخيراً كان بينهم رجل يعرف الفارسية فحاكاهما بها وقال إن جماعة الصقالبة جاءوا بفتاتين الى مركبهما هذا ونزلوا معهما وساروا جميعاً وانا بينهم حتى وصلنا إلى هذه الناحية والريح طيبة معنا والمركب على أتم سرعة وإذا بفتاة من فتيات الجان قد انحدرت من الجو الأعلى إلى قاع المركب فاختطفت الفتاتين وطارت بهما في الجو

الأعلى فارتبكنا في امرنا وجمعنا شراع المركب ونحن كما ترانا متحيرين مضطربين فقال الأمير من الذي جاء بهما فدله عليهم فهجم عمر العيار ورماهم الى البحر وعاد إلى اخيه ونزلا في مركبهما ورجعا إلى المدينة حزينين ولما صارا في البر قال حمزة لعمر إني لا ارجع مالم أرجع لوعة القلوب وعليه فإني سأطلب من فرساني ان ترجع الى حلب وتنتظرني إلى ان اعود واسير وإياك نفتش على بركة الله عساه يوصلنا إلى نسائنا فنرجع بهما فقال له كفى يا أخي فإننا الآن في ويل أعظم وقد حان الوقت الذي يجب فيه ان أرجع مهردكار وابنها وطوربان وإبنها قال ويلك اين مهردكار وطوربان قال اعلم يا أخي أني لما جئت هذه المدينة وجدتك بحظ وسعادة وهناء فما أردت ان أنغص لك عيشك بل صبرت وفي نيتي أن اعود وإياك بعد زمن قريب فأخبرك بما وقع على العرب ثم كان ما كان من أمر الصقالبة والآن تحب انت ان تطيل المدة وتسير في بر الله الأقفر فتهلك زوجتك ولا تعود تراها في كل حياتك . ثم أخبره بكل ما كان من أمر العرب مع زوبين الغدار وأفلنطوش المكار. وكيف غدرا بهم وسرقا النساء وبعد الجميع عن حلب . قال ويلك واين ابني عمر اليوناني . قال لا نعرف اين مكانه ولا بأي ارض هو فاننا في صباح اليوم الذي كبس به العجم العرب افتقدناه فما وجدناه ولا علمنا في أي مكان هو وقد سرت إلى المدائن واجتمعت بالوزير بزرجمهر فأخبرني ان كسرى ارسل خلف هدهد مرزبان ليأتي ويأخذ مهردكار وباقي النساء والأولاد ليقدموا في عيد قومك فيبقى فكرى براحة والآن قد كاد يقرب زمان هذا العيد الذي تحترمه الفرس وتعتبره وتقدم ضحاياها فيه فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام غاب عن الصواب وسار إلى ديوان أبو لوعة القلوب وصار كل فكره عند مهردكار وأولاده ثم اجتمع بفرسانه وقال ويلكم كيف ما أخبرتموني منذ الأول بأمر مهردكار وما فعل بكم الأعجام فقالا له إنا ما جئناك بوقت سلام بل وصلنا إليك وقت القتال. ومع كل ذلك فان الحق عليك لأننا طالما اخبرناك أن الفرس لا يعبدون الله وان زوبين لا يمكن ان يقلع عن غدره ولو ملكته الدنيا بأسرها ولولاك لقتلناه وقتلنا أفلنطوش وكنا الآن براحة منهما . قال قد مضى ما مضى ولم يبق إلا السعي في سبيل خلاصهم ومجازاة كسرى وقومه على الغدر والخيانة . ثم إنه في الحال ودع حاكم قماصيا ووعده انه لا يترك لوعة القلوب ولابد من ان يفتش عليها وسار من هناك بكل عجلة مع قومه وأبطاله .

قال وكان السبب في فقد لوعة القلوب هو أنه كانت في قصرها عندما كانت الحرب واقعة بين زوجها والصقالبة وإذا بعشرة رجال قد دخلوا بغتة القصر وقتلوا العبد وجاءوا لوعة القلوب فحملوها وحملوا فانوس وساروا بهما إلى البحر وكان الوقت في أول الليل والصقالبة قد هربوا وركبوا المراكب وساروا متقطعين خوفاً من ان يلحقهم العرب

ويمنعوهم من دخول البحر فنزل هؤلاء في مركب كان باق بانتظارهم وساروا بلوعة القلوب وفانوس وفي كل نيتهم أنهم فازوا بالمطلوب وحصلوا على الفتاة التي وقع الحرب لأجلها وقهروا الأمير حمزة بالحصول عليها وسار المركب بهم إلى ان بعد كثيراً وقد انفرد عن باقي المراكب ليعرج الى إحدى الشواطىء وينزل الرجال هناك يتمتعون بغنيمتهم ولما أشرق النهار ووضحت الشمس نظر الصقالبة إلى لوعة القلوب فوجدوها حورية من حوريات الجنة لا نظير لها في بلادهم فمالت قلوبهم لها وتمناها رئيسهم وقال لهم إني أحب ان آخذها لنفسي ولا اترك احداً منكم أن يصل اليها وكفاكم الفتاة الثانية فافعلوا بها ما تريدون. قالوا لا بل هي غايتنا فاننا نطيع لك في كل شيء أما في ترك هذه الفتاة فلا فإننا نفادي بحياتنا من أجلها قال لابد لي من ذلك فأصروا على العناد وكاد يقع بينهم القتال وبالصدفة كانت اسمابري طائرة في الجو الأعلى ومن خلفها بنتها قريشة حيث كانت لا تفارقها خوفاً من أنها تصادف أباها فتأتي به كالعادة لتعذبه وتبعده عن قومه عند حاجتهم إليه فرأت ما هو واقع في المركب فسقطت من الجو الاعلى لما رأت لوعة القلوب تبكي وكذلك فانوس وأخذتهما من المركب الى البرية وسألتهما عن حالهم فقالت لها لوعة القلوب إني بنت حاكم قماصيا وزوجة حمزة البهلوان وحكت لها كل ما هو حاصل لها وواقع عليها وعلى قومها وزوجها وكيف أنه يحارب الصقالبة وقد كسرهم في ذلك اليوم وأبعدهم عن المدينة وفيما هم هاربين أنفرد منهم عشرة وأخذوها وهم يتقاتلون لأجلها فتكدرت اسمابري عند علمها انها زوجة الأمير حمزة وقالت لها من اين صرت زوجة له وفي اي يوم تزوج بك فأخبرتها بأمرها معه فالتفت اسمابري الى بنتها قريش وقالت لها كيف رأيت اباك وأنت تلومينني فانه أينما سار يتزوج ويقيم عند نسائه اشهراً ويحارب من أجلهن وأنا لا يقيم عندي إلا بالرغم عليه وكيداً له أريد أن اقتل هاتين الجاريتين واقتل كل نسائه كي لا يبقى له زوجة غيري قالت إن أبي حر بذاته لا تقدرين على عناده ولا ادعك تمدين يداً إلى هذه الفتاة فإنها خالتي زوجة ابي وقتلها يغيظه فاذهبي في حال سبيلك ودعيها وشأنها مع رفيقتها ثم حملتهما قريشة ووضعتهما بالقرب من قرية هناك وقالت لهما سيرا على توفيق الله فهو يعينكما على الحياة الى ان تصلا الى بلادكما وتركتهما ومضت الى والدتها وذهبتا من هناك ودخلت لوعة القلوب مع جاريتها الى مدينة صغيرة هناك وكلتاهما حاملين وصارت تبيع من حلاها وتصرف على نفسها ولنتركهما هناك إلى أن يأتي الكلام عليهما في محله .

وأما الأمير وجماعته داوموا المسير يقصدون حلب حتى وصلوا إلى وادي اسمه وادي الكمال فنزلوا فيه ليرتاحوا وقال لهم عمر العيار ابقوا هنا إلى ان اعود اليكم ومرادي ان اسير الى المدائن وأرى كيف حال مهردكار وهل وقع شيء جديد بشأنها وربما قدرت على

خلاصها وخلاص الذين معها فأرجع ومعي الجميع ولابد لي في هذه المرة من ان ألقي بقلب كسرى حسرة لاتستأصل الى آخر الأيام فأجابوه وأقاموا في ذاك الوادي ينتظرون رجوعه وسار هو الى ان وصل الى المدائن في نصف النهار فدخل حسب عادته الى الديوان ووقف ينتظر خروج بزرجمهر الى ان خرج فسار في أثره حتى دخل قصره فتأثره ودنا منه وسلم عليه وقال له اني عدت يا سيدي من قماصيا ومعي أخي والفرسان وقد تركتهم في وادي الكمال بانتظاري وجئت اليك اقبل يديك وأرى ماذا جرى في كل هذه المدة اي في حين غيابي وهل لا يزال الملك كسرى مصراً على تقديم النساء ضحية للنار قال كيف يعدل وبختك الوزير يذكره به في كل يوم وانا قائم على مقالي الجمر الليل والنهار خوفاً من إحراقهن مع الأطفال وقد قرب عيد النيروز وعما قريب سيصل هدهد مرزبان فيأخذهم الى خراسان يضحيهم جميعاً فتأكلهم النار ويكونوا قد اصيبوا بهذه المصيبة بسببكم ولابد ان الله يجازيكم عليها لأنهن قد تركن دينهن وتمسكن بدين الحق وخالفن آبائهن وسلمن بانفسهن اليكم فلا سامح الله أخاك إذا أصبن بشيء حيث تقاعد عن قتل زوبين وسلم الى غدره وخيانته .

قال لا تخف يا سيدي على النساء فاني قادر على خلاصهن وسوف اذكرك بذلك ونراني قد فعلت شيئاً عجيباً يذكر الى آخر الزمان. وأريد منك فقط ان تخبرني انه عندما يجيء هدهد مرزبان ماذا يفعل وكيف يكون مجيئه ومن الذي يرافقه وكيف تكون عبادة النار. فأخذ الوزير في أن يشرح به بالتفصيل كل شيء وكيف كل عام يأتون المدائن وماذا يكون من كسرى عند وصولهم. ثم قال له أخيراً لا تتهامل يا عمر فإن هدهد مرزبان سيكون هنا بعد عشرة ايام وقد وعد رسول كسرى بذلك وعين له الزمان فإذا تأخرت هلك الجميع واحتملتم خطيتهم وحاسبكم بها الله في اليوم الأخير ولاسيما مهردكار وطوربان فانهما عاملتان على البكاء الليل والنهار لاتنفكان وقد قطعتا اليأس والرجاء من الحياة وخصوصاً عندما تريان ان الوفاً من العساكر والحجاب تحيط بهما خوفاً عليهما من الخلاص كن براحة يا سيدي فاني قريباً اريك بعينك ما أريد ان افعله وتشهد لي بأني اقدر على إتمام ما أقول. ثم أنه ودع الوزيروخرج من عنده عند نصف الليل وهولا يريد أن يضيع دقيقة من الزمان وسابق البرق بمسيره حتى وصل إلى وادي الكمال حيث كان الفرسان والأبطال بانتظاره. فقال لاتبارحوا هذا المكان حتى أعود إليكم بالنساء وافعل ما خطر لي فعله لان عيد النيروز قد قرب والمرزبان الأكبر سيأتي المدائن ويأخذ النساء والأولاد الى المعبد ليقدموا ضحية للنار كفارة عن خطايا أولئك الأشرار .

فقال حمزة دعنا نكمن لهم على الطريق فمتى جاءوا بالنساء كبسناهم وخلصناهن

قال إن الوزير أخبرني أنه سيكون مع هدهد مرزبان نحو خمسين الف فارس فيحتاج الأمر إلى قتال عظيم بينكم وبينهن وإني اعرف انكم تقدرون على تشتيت اولئك الفرسان غير انه ربما ما قدرتم على خلاص النساء والأولاد فيهربون بهم عند شعورهم بكم ومع كل هذا فاصبروا هنا إلى ان اعود إليكم وأرى كيف تكون الحال. ثم دعا بكبير عياريه واسمه شبحان وامره ان يسير خلفه ومعه خمسة عشر عياراً من عياريه وساروا جميعاً إلى ان وصل من وادي خراسان وكشف عن بعد ضواحيه فرأى خياماً منصوبة وخيولاً تسرح في ذاك الوادي. فتأكد أنهم من الفرس فأوقف عياريه في ذاك المكان وأوصاهم ان يختبئوا إلى ان يعود اليهم وجاء الى ذاك المعسكر واختلط بينهم. ثم انفرد واحد منهم وسلم عليه وقال له أظنكم يا سيدي سائرون الى المدائن فإني منذ أربعة اشهر سمعت بأن سيدنا الأعظم وركن ديننا هدهد مرزبان سيأتي ليأخذ الكافرات اللاتي نجسن دين النار وأركبت علينا العار فيقدمهن مع اولادهن ضحية للنار فهل أنتم الآن سائرون إلى قضاء هذا الأمر. قال نعم وقد خرجنا مع مولانا لنكون في خدمته نستمد بركاته ونستضيء بنوره وندفع عنه غارات الأعداء إذا تجاسروا وان يفكروا به شراً وهو الآن في صيوانه مع مرازبته الأثنى عشر وبعد قليل من الأيام نكون في المدائن فنأخذ هدايا كسرى وكل ما يريد أن يقدمه إكراماً لعبادتنا ونأتي ايضاً بمهردكار وابنها وطوربان وابنها ومن معهما لنرميها بالنار يوم عيد النيروز ونسألها السماح والرضى عن الفرس فصبر عمر إلى ان انفرد بنفسه وجاء إلى ناحية هدهد مرزبان فوجد عند بابه اربعة من الحجاب يمنعون الناس من الدخول فوقف ونظر إلى الداخل فرأى في الصدر رجلاً مسناً جليل القدر عظيم الهيئة والوقار جالساً على تخت من الفضة محلى بالذهب وعلى جانب التخت كرسيا من الفضة أيضاً جالساً عليها رجل يقربه بالعظمة والجاه وإلى جانب هذا الكرسي ١١ كرسياً يجلس عليها ١١ رجلاً وكلهم من المرازبة في وسطهم تنور من الفضة تضرم به النيران ويفوح منها الروائح الزكية وكلما خف اشتعال تلك النار أضرمها أولئك المرازبة فصار يفكر فيما يعمل وهو يتأمل في تلك الحالة ويستفيد منها وقد عرف أن الرجل الثاني هو كاتم اسرار المرزبان الأكبر والواسطة بينه وبين باقي رفاقه وبين من يريد منه بركة أو يسأله امراً. وفيما هو على مثل تلك الحالة وإذا به رأى ذاك الرجل قد خرج فسجد له الحجاب وانفرد قليلاً لقضاء حاجة فباغته عمر ولف رأسه بعبايته وعدا به بعيداً عن الصيوان ولم يمكنه من ان يصيح صوتاً واحداً قبل ان صار في البرية وحالاً انزله الى الأرض رفع عن رأسه العباءة وقال له إذا حدثتني بكل ما أسألك إياه عفوت عنك وإلا اخترقت صدرك بهذا الخنجر فارتجف وقال له اسألني ماذا تريد أجيبك قال ما هو اسمك وما هي خطتك عند المرزبان قال اسمي هرزبان كبير مرازبين هدهد مرزبان وحافظ سره والواسطة بينه وبين الناس وكل من

يريد منه امراً حيث ان من قواعد ديننا انه لا يجوز لمن كان رئيساً للمدائن ان يخاطب حتى إذا شاء لا يخاطب كسرى انوشروان فلا يجسر على الوقوف امامه فيسأله ما يريد بواسطتي قال وإلى اين سائرين الآن قال إننا سائرون الى المدائن لنأتي بمهردكار وطوربان ومن معهما لنحرقهما يوم العيد وفي مساء امس اخبرني ان مراده يبقى المعسكر في هذا المكان ونسير به نحن إلى المدائن فنأتي بالنساء ونعود جميعاً حيث ان الطريق امان وما من عدو فيها وعند رجوعنا نقيم في هذا الوادي مدة ايام فنعمل العيد فيه ونضرم النار في كل مكان للعبادة والسجود وندعو كسرى يتبعنا إليه .

وبقي الأمير عمر يسأله كلما يحتاج أن يسأله إياه ولما فرغ ضربه بالخنجر فقتله وأوراه التراب بعد أن نزع ثيابه ولبسها ونظر في المرآة وطلب أن يصير كهرزان المقتول فصار في الحال نظيره وجاء إلى المكان الذي به شيخان وجماعته فجاء بهم وأمرهم أن يكمنوا حول الصيوان إلى أن يدعوهم ودخل هو فقام له المرازبة احتراماً ثم تقدم النار المتقدة ورمى فيها من البنج شيئاً كثيراً وسد أنفه فوقع الجميع كالأموات فدعا بعياريه أن يدخلوا وينزعوا ثيابهم ويلبسوا ثياب أولئك المرازبة ففعلوا وطلب من المرآة أن يصيروا كمرازبة النار فصار الجميع ثم تناول خنجره وقتل الجميع وطمرهم في ذاك المكان ولبس هو ملابس هدهد هرزبان وجلس على تخته وألبس شيخان ملابس هرزبان الذي قتله في الخارج وجلس الجميع حول النار وأقام أربعة من الحجاب عند الباب وهم الذين زادوا من عياريه وبعد ساعتين أصبح ذاك الصيوان يجمع عمراً ورفاقه وهم كأنهم من أعظم رؤساء أديان الفرس وناموا تلك الليلة فرحين بالفوز وعمر على ذاك التخت الفضي وعليه الملابس الذهبية وعند الصباح نهض من فراشه ونظر إلى العيارين وصار يضحك في قلبه منهم ثم نظر في المرآة ورأى وجهه وإذا هو كهدهد هرزبان الذي كان رآه في الليل وحينئذ دعا بشيخان قال له يا هرزبان قل لباقي المرازبة أن يتقدموا مني ويقبلوا يدي قبل أن يدنوا من النار ويسجدوا لها فبلغهم شيخان ذلك فتقدما وسجدوا بين يديه وقبلوا أذياله ورجعوا وجلسوا حول النار فقال عفاكم الله أتقنتم الصنعة والعبادة ثم إنه التفت إلى شيخان وقال له اخرج أنت إلى الصيوان ونـاد بقواد العساكر أن يأتوا إلي أمام الصيوان ويسجدوا للنار حسب عادتهم وبعد ذلك أخطب عليهم ما هو كذا وكذا وأعلمهم بأن غايتي أن يبقوا في هذا المكان وأسير أنا بكم إلى المدائن ومن ثم أعود بالنساء ونفعل العيد في هذا المكان مدة ثلاثة أيام ثم توسد عمر على التخت وتمدد فقال له يا شيخان بارك الله فيك من مرزبان لا نظير له بين عبدة النار ثم أن هرزبان وقف في باب الصيوان وصاح بالقواد والأعيان فحضر الجميع ومن خلفهم العساكر فقال لهم إن النار قد اتقدت فاسجدوا لها، وفي الحال خر الجميع وسجدوا بكفرهم وضلالهم إلى ذاك اللهيب وبقوا نحواً من ساعة ، ثم رفعوا

رؤ وسهم ووقفوا ينتظرون ما يأمرهم سيدهم هدهد فقال شيحان اعلموا أيها القوم الذين اصطفاكم سيدكم الأكبر قاعدة دين النار الحائز على رضاها والخادم الامين على عبادتها سيد الأتقياء وينبوع البركات أنه راض عنكم مسرور منكم (فصاح الجميع فلتنعم علينا النار ببركاته) ولذلك لا يريد أن تتحركوا من هذا المكان حيث أنه يريد أن يعمل العيد فيه فاسرحوا وأمرحوا وأحضروا ملابس العيد وانتظروه هنا إلى أن يذهب إلى المدائن ويبارك كسرى أنوشروان ويستلم منه النساء اللاتي أعددن للضحايا والأموال التي أعدها لكم لتقسم بينكم والهدايا التي تقدم اليه وحيث من عوائدكم في مثل هذا العيد المبارك أن يقدم كل منكم تقدمة النار لتحرق على نيته فتكون راضية عليه وحافظة لروح آبائه وأجداده فأحضروها إلى حين عودته وأعظم شيء أوصاني سيدي وسيدكم هدهد مرزبان أن لا يقرب أحدكم من المكان الذي ضرب به صيوانه لأنه مقدس ومبارك وغايته أن يجعل الأتون الكبير في هذا المكان فإياكم أن تدنوا منه أو تقربوا إليه فيغضب عليكم ومن قرب أو افتكر أن يقرب يكون محروماً ومغضوباً من قاعدة الدين . وأخيراً إني أطلب إلى النار ببركة هذا السيد العظيم أن تقبل أرواحكم وأن تحرق أرواح آبائكم وأجدادكم وتحفظها فيها إلى أبد الآبدين وأن تحرم منها أرواح أعدائكم وكل الذين على غير دينكم آمين .

وعند فراغ هرزبان من خطبته ضج الجميع بالدعاء للمرزبان الأكبر وحينئذ أشار اليهم أن ينصرفوا فانصرفوا شاكرين متعجبين من فصاحة هرزان ومحبة هدهد مرزبان وبعد أن انصرفوا تقدم شيخان من سيده وقال له لقد انفذت غايتك وبلغت القوم ما أمرتني فماذا تريد بعد ذلك قال أريد أن تجمع هذا الصيوان وترفعه على البغال وتتقدموا أنتم الاثني عشر مرزبان وتحملوا هذا التخت وتسيرون بي في طريق المدائن فقال له شيحان إن هذه ثقلة كبيرة تريد أن تحملنا إياها فكيف نحملك أنت والتخت إلى المدائن فقم وامش مثلنا ومتى كنت تحمل على العواتق قال قلت لك افعل ذلك وإلا أمرت النار أن تحرقكم وجعلتها تغضب عليكم إذا عصيتم لي أمراً فضحك هرزبان وقال له إننا نحملك إلى أن نغيب عن المعسكر وبعد ذلك نرميك الى الأرض ودع النار تفعل ما تشاء بنا ثم إنهم جمعوا الصيوان ورفعوه على ظهور البغال وساقوها أمامهم ومن خلفها الحجاب من عياري عمر وتقدم الاثني عشر مرزباناً فحملوا التخت على عواتقهم وطافوا به من كل جهاته وساروا عن تلك الأرض إلى أن قرب العصر فنظروا إلى ورائهم فلم يروا أحد وتأكدوا أنهم بعدوا كثيراً عن المعسكر فقال شيخان أنزل يا عمر فقد تعبنا منك قال قلت سيروا وإلا عزلتكم وجعلت النار تغضب عليكم فإني مرتاح من هذا الحمل وما ذقته بطول زماني فأمر شيخان باقي العيارين أن يضعوا التخت ففعلوا وقال لعمر جعلناك

مرزبان كذباً على الاعجام لا على العرب فقم وامش فنهض وهو يضحك منهم ورفعوا التخت وساروا على تلك الحالة حتى كادوا أن يقربوا من المدائن وحينئذ قال لهم عمر قد اشتقت للحمل وصار من الواجب أن تعودوا إلى وظائفكم وتوقدوا النار ولا تظهروا خلاف ما علمتكم لكي تتم حيلتنا ونقهر الفرس ونسترجع النساء والأولاد ففعلوا وحملوه وساروا به حتى لم يعد بينهم وبين المدينة إلا ساعة وإذا ذاك أرسل شيخان وقال له اذهب إلى كسرى وأطلعه على قدومي ومره أن يخرج إلى تقبيل يدي هو ومن عنده وأن لا يتأخر ولا دقيقة فأجاب وسار حتى دخل باب المدينة فرآه الناس وفرحوا به وجعلوا يزدحمون عليه ويقبلون يديه ويرفعون أذياله على رؤوسهم يتباركون به لعلمهم أنه كبير مرازبة هدهد مرزبان وحافظ سر النار وحامل أوامر قاعدة الدين وأساسه المتين . ولا زال سائراً حتى وصل ديوان كسرى فركض الحجاب وأخبروا الملك كسرى فأرسل وزيره بختك لملاقاته ففعل ودنا منه وزاد في إكرامه وسأله عن هدهد مرزبان فقال له قد جاء وهو خارج المدينة محمولاً على أعناق المرازبة وأرسلني لأخبرك بقدومه لتخرج إليه وتقبل يديه مع أعيانك ووزرائك فلا تخسرون البركة والرضى فاظهر كسرى الفرح والاستبشار وقال هذا فرض علي فإني أذهب منذ هذه الساعة ثم أمر العساكر أن تقيم على الطرقات من باب المدينة إلى الديوان وان تزين كل الجهات وخرج بموكبه وسار إلى أن خرج من باب المدينة وسار قليلاً وإذا به قد اشتم رائحة المسك فانتعشت روحه وروح قومه وسجدوا لعلمهم أنها منبعثة من النار التي تضرم أمام هدهد مرزبان ولما وصلوا من التخت وقفوا بعيداً عنه وقال كسرى لهزربان تقدم من سيدي هدهد وأخبره بقدومنا واسأله في أن يرضى علينا ويسمح بتقبيل يديه فدخل على عمر وهو موسد على التخت غير مهتم بمن حضر ولا بمن جاء فسأله هرزبان السماح لكسرى بتقبيل يديه فأشار بيده ألا فاصبروا فبقي كسرى وقومه واقفين منتظرين الأمر بالسماح ليدنوا منه ويقبلوا يديه ويتباركوا من أذياله ومن ألفاظه ثم بعد ساعة أشار اليهم أن يذهبوا أمامه وأشار إلى المرازبة ان تحمله وتسير إلى المدينة فتعجب كسرى من ذلك واشتعل في قلبه لهيب الخوف وقال لبختك ماذا تظن يا وزيري وأي شيء عملناه فأغضب أستاذنا وسيد ديننا فإننا بانتظار أمره لنقبل يديه فلم يقبل مظهرا غضبه منا قال لا أعرف واني محتار بذلك وأخاف أن يذهب بالنساء ولا يسمح لنا بهذه البركة العظيمة ولا بد له من رحمتنا والشفقة علينا فيأذن لنا بتقبيل يديه وبقي كسرى سائر إلى الديوان وهو مرتعب القلب خائف أن تكون النار غير راضية عنه ومن بعد ذلك أمر عمر المرازبة أن تسير به وان توقد التنور ويحمل بين يديه ففعلوا وحال دخولهم المدينة سجد الناس إلى الأرض مكرمين النار ومحترمين قاعدة الدين هدهد مرزبان يتباركون من النظر إلى وجهه والنساء تزدحم من كل الجهات وتدعو له وتسأله بأن يرضى

عليهن وعلى أولادهن وأكثرهن يرمين عليه الزهور من الشبابيك والمحلات المرتفعة وهو على التخت غير مهتم بكل هذه الأمور إلى أن قرب من الديوان فدخل والحجاب سجود إلى الأرض ووضعه المرازبة في الوسط وحينئذ نهض الجميع وقوفاً وكشفوا رؤوسهم وأطرقوا إلى الأرض ينتظرون الأمر بالاذن كي يتقدموا منه ويقبلوا يديه ويستعطفوه بالرضى ودام ذلك مقدار نصف ساعة وأخيراً قال كسرى لبختك تقدم من هرزبان ودعه يسأل لنا سيده بقبولنا ويسمح لنا بتقبيل يديه وكان شيخان يتكدر من برادة عمر وعمله فدنا منه على أعين الناس وسجد أمام التخت ودنا من يده فقبلها وقال له سر كفاك تعظياً وافتخاراً فمر كسرى وقومه بتقبيل يديك فإنهم على الانتظار وقوفاً وأرجلهم تكاد لا تحملهم من التعب ومن الخوف أن تكون غضباناً عليهم فتحرك حينئذ عمر وأبدى اشارة الرضى ثم جلس وأشار الى كسرى وقومه أن يتقدموا فتهللت وجوههم من الفرح وصفقوا بأيديهم ودنا في الأول كسرى أنوشروان وقد رفع التاج عن رأسه واطرق به قليلاً إلى الأرض ثم تقدم من السرير فمد له عمر يده فقبلها باحتشام ورجع بترتيب إلى الوراء ثم تقدم بعد افلنطوش فقبل يده وأراد الرجوع فمسكه ونظر إليه نظرة القبول وقال له إن النار راضية عنك أنت حيث فعلت مع أعدائها فعلاً يذكر أمامها فأعاد التقبيل ثانية ورجع والدنيا لا تسعه من شدة الفرح . وتقدم بعده بختك وقبل يده ثلاثاً فقال له أنت مكرم ومحبوب من النار لأنك حافظت على دينها وقواعدها لا تزال تخدمها بأمانة فرجع أيضاً مسروراً وتقدم بعده بزرجمهر وقلبه يلتهب من الغيظ والحنق وهو خائف كل الخوف على مهردكار وطوربان وثبت عنده أنهما ستسلمان إلى هدهد مرزبان في ذاك اليوم مع النساء والأطفال ولما أخذ يد عمر وأراد أن يقبلها ضغط له على يده وقلبها فانتبه الوزير وطرق ذهنه حالاً كلام عمر العيار الذي قال له من اني لا بد ان ارمي بقلب كسرى حسرة لا ينساها إلى آخر الزمان فقبل اصبعه ورجع وهو يقول لله درك يا عمر ما أشد حيلك وأكثر خداعك فقد فعلت الآن فعلاً عظيماً والقيت بقلب كسرى حسرة لا تمحى إلى آخر الأيام حيث قبل يديك وسجد لك ومن بعد ذلك تقدم زوبين فهش في وجهه والتفت إلى كسرى وقال له أوصيك أيها الملك أن تكافيء زوبين احسن مكافأة فقد نصح في خدمة النار وهي راضية عليه كل الرضى فقال سمعاً وطاعة سأجعله حاكماً في بلادي ولا اعز عنه عزيزاً .

وبعد ذلك تقدمت الأعيان والأمراء واحداً بعد واحد يقبلون يديه ويرجعون باحتشام وهو يتظاهر بالعظمة والمجد ويرضى عليهم ويشكر منهم ولما فرغ الجميع من تقبيل يديه وعادوا إلى الوراء أشار إليهم بالجلوس فجلسوا في مراكزهم ثم أخذ كسرى كأساً من الشراب وأراد أن يقدمه بنفسه له فعارضه هرزبان وقال له لا تفعل أن سيدي صائم للنار وله عشرين يوماً مـا أكل ولا شرب شراباً يواظب الدعاء لك بالنصر والظفر على العرب حتى

وعده الوحي بأن النار إكراماً لخاطره تساعدك وترسل بلهيبها فتحرق العرب وتبددهم في أربعة أقطار الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فاضطرب كسرى وقال العفو يا سيدي فإني أعرف ذلك وأرجو منه المعذرة والرضى ولا يتكدر علي ثم رجع إلى مكانه وبعد ذلك دعا هدهد مرزبان بهرزبان وبلغه أن يخطب بهم خطاباً ويدعو لهم برضى النار ذات الشرار فأجاب إلى ذلك ووقف في الوسط قال ان الاستاذ الأعظم والسيد المكرم قاعدة دين النار والواقع عن خبايا الكفر الاستار قد أمرني بكلام أقول بينكم وأعرضه عليكم وهو انكم أعزتكم النار وحفظتكم مدى الأدهار هي العبادة التي لا ينكر فضلها ولا يجحد نفعها وفعلها ظاهرة للعيان وعليها مدار الأكوان ومنها تسري الحرارة في الأبدان وتنتعش روح الانسان لولاها ما وجد الجائع طعاماً ولا حفظ في مسيره على الأرض ترتيباً ولا نظاماً فمنها تنفصل الأنوار وتنير ظلام الاعتكار فترون الليل الحالك كما في النهار مستعمرة بذاتها منفردة بآياتها لا يقدر المرء أن يدنو منها في أي وقت شاء وضرامها متصل على الدوام إلى الأعداء محبة للسلام. يزور بيوت الأصدقاء والاخصام على أمل أنهم مع التمادي يشعرون بفضلها . ويعترفون بغزارة نفعها وفعلها فيسرعون إلى عبادتها ويجودون بكرامتها فلا تمضي السنون القليلة إلا ويصير كثير من الناس على دينها القويم ويتقاطرون من كل فج مقدمين لها التبجيل والتعظيم وأن استاذي أوصاني أن أقول لكم أن بين العرب رجل كثير الاحتيال كأنه شيطان محتال اسمه عمر العيار فاحذروه كل الحذر وإذا وقع بأيديكم فأذيقوه موارد الضرر لأن النار غاضبة عليه ساعية بالشر إليه فزيدوا في عذابه ولا تقتلوه بالحال بل أبقوه واستشيروه في ماذا يريد ويكون لكم بذلك الأجر السديد ودوموا انتم ببركة النار وعيشوا مدى الأجيال والادهار محفوظين منها بأشد الحرارة واللهيب وأرواح آبائكم وأجدادكم فيها إلى أبد الأبدين .

فلما سمع كسرى وقومه هذا الخطاب صاحوا بالدعاء للأستاذ الأكبر وهم متعجبون من غزارة علمه وسعة معرفته وإذ ذاك قال هدهد مرزبان إلى كسرى أنوشروان . أني أريد منك الآن أن تسلمني مهردكار وطوربان وباقي النسوان مع الأموال التي أخذها أفلنطوش وزوبين الغدار من العرب لأسير بهم إلى وادي خراسان حيث أن مرادي أحرقهم في ذاك المكان وأما أنت فاتبعني بعد ثلاثة أيام مع كل فارس وبطل وأمير ووزير لتشاهدوا حريق الجميع واطلب من النار أن تبارككم وتقدم لها الدعاء المخصوص لتبديد العرب وتفريقهم وهلاك حمزة وأخيه عمر العيار وجميع أولئك الفرسان الأشرار . ثم ان عمر أنزل من على السرير ومسكه اثنان من المرازبة من تحت إبطيه وأمر كسرى وحده أن يسير أمامه إلى القصر المقيم به النساء فأطرق كسرى إلى الأرض وسار بين يديه ذليلاً لا يقدر أن ينظر في وجهه أو يحدق احتراماً للدين وله وكذلك الناس في الطرقات كانوا يلثمون التراب

والحجارة التي يدوس عليها ويتبركون منها ويفرقونها على بعضهم البعض وهو يظهر رضاه منهم ويباركهم ومن ثم وصل الى سراية الحريم ففر الحجاب من كل ناح وفتحوا طريقاً فدخل كسرى ومن خلفه هدهد مرزبان ولما صاروا في وسط القصر قدم إلى هدهد مرزبان سريراً من العاج فجلس عليه ليرتاح .

ثم أمر أن تقدم إليه مهردكار وطوربان وابناهما . فقدموا جميعاً ووقفت مهردكار فمد لها يده وقال لها قبلي يدي . فقالت إني امرأة عبدت الله سبحانه وتعالى وعرفت الحق فلا أميل لغيره . وليس لي في تقبيل يدك من نفع قال نعم أنت عاصية النار وقد نسيت عبادتها حتى غضبت على أبيك ولا ترضى عليه إلا بعد أن يسمح بك وتحرقين بها سوف ترين ما يحصل بك وقالت إني أعرف النار التي تعظمها أنت وغيرك من الأعجام هي من القش والحطب الذي يوجده الخالق سبحانه وتعالى فتضرمونها بأيديكم ثم تطفأ بقليل من الماء أو ببول الحمير فلذلك أنتم تعظمون ما لا نفع فيه وأني اعتقد أن الإله الذي يعبده زوجي يسهل لي الخلاص من أيديكم ويبعدني عن الضرر ويحفظ لي ولدي ويرجعني إلى زوجي فأظهر هدهد مرزبان الغيظ والحنق وقال لأبيها قد تمادت بنتك بالكفر وخرجت عن طريق الصواب وصار من الواجب حرقها بأقرب آن وإلا غضبت عليك النار غضباً ليس بعده رضى . فإني أعرف ذلك يا سيدي ولأجله أرسلت أخبرتك بأمرها وطلبت إحراقها . وكانت أم مهردكار موجودة فرمت بنفسها على رجليه وقالت يا سيدي لا تؤاخذوها بكلامها بل اعف عنها واصبر من إحراقها وإلا أفسدت دين النار ثم دفع أم مهردكار بصدرها وأبعدها عنها وقال لها أبعدي عني ولا تلمسيني بيدك فرجاؤك غير مقبول .

ثم التفت إلى طوربان وقال لها وماذا حملك أنت أن تتركي أباك وقومك وتتعلقين بالأعداء وقد رفضت الزواج بزوبين الغدار وهو من الحائزين على رضا النيران قالت حملني على ذلك الحق والسعادة وبغض الغدر والخيانة لأن زوبين الغدار أراد لي الشر وفعل القبيح فأرسل الله عمر العيار وزوجي فخلصوني ومن ثم عرفت أن الله الذي يعبده العرب هو القادر على كل شيء وهو سبحانه وتعالى يحيي ويميت خلق المخلوقات وعلمها ما لم تعلم . قال أدعي هذا الإله الذي تدعين بمقدرته على كل شيء أن يخلصك مني ومن النار التي عما قليل تأكل جسمك وتذهب بروحك . قالت أني أعرف أنها لا تقدر أن تصل إلي ولا تحرقني ولا يلبث الله أن يرسل لنا عمر العيار فيخلصنا من أيديكم ولو فعلتم معنا مهما فعلتم وإذا قتلتمونا فنموت على الحق ويبقى لنا الرجاء باليوم الأخير فاقصر يا هدهد مرزبان ولا تهددنا فإننا لا نخافك ولا بد أن الله ينتقم لنا منك فلما سمع هذا الكلام أظهر الغيظ والحنق ونهض مكدراً وقال لا بد من احراقكم جميعاً فهلموا سيرا أمامي .

فعادت أم مهردكار إلى بين يديه وبكت وشكت حالها وقالت له العفو يا سيدي فإني أحب بنتي وأرجو لها السماح منك وأني أضمن لك أنها تعود إلى عبادة النار وتترك عنادها هذا .
قال محالاً ترجين فإني لا أقبل إلا بهلاك الكافرين اتستعر النار ونحفظ من الشوائب فيرى ذلك باقي البنات فيعلمهن صدق هذه العبادة التي لا تتقاعد عن الخارجين . ثم دفع أم مهردكار وتركها تنوح وخرج من القصر وبين يديه كسرى والنساء والأولاد وهم صاغرين ولا زال في مسيره حتى جاء إلى الديوان فنهض له الجميع وقوفاً وقبلوا يديه ثانياً فباركهم وأمر أن يرفعوه على السرير ففعلوا . ثم قال أي كسرى أنوشروان مر الآن خدمك أن تسوق الأموال التي كانت مع العرب أمامي وتسير تحت أمري ولا يبقى منها عقالاً في هذه المدينة فهي من خصائص معابد النيران لا حق لك بها لأنها أخذت من الأعداء وأما أنت فإني آمرك أن تتبعني بعد ثلاثة أيام محفوفاً بالزين الفاخرة المخصوصة بمثل هذا العيد المبارك ويكون العيد في وادي خراسان . فأجاب بالسمع وفي الحال أخرج جميع ما كان سلبه ونهبه أفلنطوش وزوبين وحملوا على البغال والجمال وساق الأنعام ولم يبق منها ولا واحدة وقد ملأت السهل والوعر . ثم جاء كسرى بهدية فاخرة من الجواهر والماس والذهب الخالص وقدمها له وترجاه قبولها فأخذها ومن ثم تقدم بختك وقدم له مثل ذلك وبعده بزرجمهر وباقي الأمراء والأعيان وهو يأخذ هداياهم ويباركهم حتى اجتمع عنده ما يعجز عن وصفه القلم فأمر أن يحمل على البغال فحمل وبعد ذلك أشار بيده مودعاً الجميع فخروا له ساجدين فباركهم وفي قلبه يلعنهم وأمر شيخان أن يحملوا السرير ففعلوا ورفعوه على عواتقهم وهو موسد فوقه وقد اغمض بعينيه وجعل نفسه نائماً وسار بين يديه النساء والأولاد وأمامهم الأموال شيء كثير جداً وهو مسرور بنجاح غايته ونوال مراده وخلاص النساء والأولاد وبعد أن خرجوا من المدينة التفت فرأى الملك كسرى سائراً على الأقدام مع سائر بطانته لوداعه فأشار اليهم بالرجوع فرجعوا جميعاً وسار هو محمولاً على طريق خراسان كل ذاك النهار حتى المساء وعند المساء أنزلوه عنهم وقال له شيخان كفاك دلالاً فإننا نكاد نهلك من التعب وأنت مسرور . قال بارك الله فيكم فإنكم مرازبة أمناء على خدمة سيدكم ولا بد أن أجعل النار ترضى عليكم وتبارككم وأنت يا هرزبان سأوصي بعد موتي ان تكون أنت مكاني فيكون لكم أعظم اكراماً واعتبار ويقبل كسرى الملك الأكبر يدك ويذل بين يديك وأنت تعرف يا هرزبان أني مسموع الكلمة عند الفرس لأني قاعدة بينهم ورسول النار عندهم فقال له شيخان دع عنك هذا الهذيان فقد انتهيت أعمالنا ومن الآن وصاعداً ما عدنا نحملك ولا نسير بك وما عدنا نعرفك إلا عمر العيار. ونريد أن لا تنسانا من نصيبنا من هذه الهدايا التي وصلت اليك . قال هي لكم ولأخي حمزة ثم نصب الصيوان وجلس فيه وأمر أن تقدم اليه مهردكار وطوربان لوحدهما فقدمتا

فمسك مهردكار من يدها وقال لها أدني مني فانتشلت يدها وقالت له دعني منك أيها الكافر ومن لا دين له فلست أنا كمن تعهد وما أنت عندي إلا رجل الاحتقار والاهانة . قال اني قادر على هلاكك وبعد قليل سأقدمك للنار ضحية على التصاقك بالعرب اعداء الدين وعلى نكرانك جميل الدين الذي ولدت فيه وربيت عليه فهو الذي ألقاك بيدنا قالت كذبت فأنت وكل عبدة النار عاجزون عن إيصال الاذى إلي ما زلت اعتقد بالله سبحانه وتعالى وأعرف جيداً أنه قادر على خلاصي وأأمل أن عمر العيار أخا زوجي سهران على خلاصنا ولا يمكن أن يتقاعد عنا . قال ومن أين يقدر أن يصل اليك عمر وأنت صرت قريباً من الاحراق وبين يدي قالت وهو في ساعة قريب منا ينتظر الفرص بدون ريب ولا بد قبل أن تصل بنا الى خراسان وتحرقنا هناك ينحط عليك مع أخيه حمزة وباقي الفرسان فيهلكونك وينتشلوننا من بين أيديكم فاقصر عن غايتك ودعني وشأني فلما سمع كلامها لم يقدر أن يتمالك نفسه عن تحريك حواسه إسقاط الدمعة من عينيه وقال لها مرحباً بك يا مهردكار لقد أصبت بالحقيقة جوهرة النساء وقد شاهدت منك من الثبات والحب والطاعة لله ما لم أكن أظنه فيك قبيلاً فأنا أخوك عمر العيار وقد خلصتك وفعلت كل ما فعلت بتوفيق منه تعالى فافرحي وانفي عن قلبك الأحزان فإن أخي والفرسان قريبون من هذا المكان .

فلما سمعت مهردكار بذلك أغرورقت عيناها بالدموع لشدة الفرح ومثلها طوربان وجعلت كل واحدة منهما تشكره وتدعو له بالبقاء وطول العمر وتثني على أعماله ثم قال عمر لمهردكار هل صحيح ما تقولين من أملك بالخلاص على يدي قالت نعم إني كنت في كل دقيقة انتظر وصولك بأي حيلة كانت وهو الذي كان يقويني ويشد عزمي وهاك طوربان فإني كنت أقول لها لا تخافي الموت فإن عمرا لا يتركنا حتى ولو وصلنا إلى أتون النار لوجدناه داخله بانتظارنا ليخلصنا وما ذلك إلا لعهدي بك ورجائي بالله سبحانه وتعالى فهو يحب أولياءه ويترك نساء مثلنا تركنا أهلنا وتعلقنا به ولا يسلم بهلاك اطفال مظلومين مثل أطفالنا فيموتون محروقين بألسنة اللهيب ولا ذنب عليهم قال حقاً إنك وحيدة بين النساء واننا منذ هذه الساعة سنسير ليلاً ونهاراً حتى ندرك أخي ولا بد أنه يكون على مقالي النار في وادي الكمال ثم أمر أن يقدم الطعام فأكل وأكل الجميع وشكروا الله سبحانه وتعالى على نعمه وبعد ذلك تقدم من السرير فقطعه قطعاً صغيرة ووضعه في جراب اسماعيل فقال شيخان أعطنا قسمنا منه فقد تعبنا نحن أكثر منك قال هو كله لكم ولا أمنع عنكم شيئاً وبعد أن يراه أخي أفرقه عليكم فانزعوا عنكم ثيابكم وادفعوها إلي وقالوا كلا بل هي لنا ولا يمكن أن نتخلى عنها لأن ما عليها من الذهب يغنينا قال إني لا أحرمكم من شيء فأخذها كلها ووضعها في جراب اسماعيل وساروا من هناك إلى وادي

الكمال وسبق شيخان إلى الأمير وأخبره بكل ما فعل عمر وأنه خلص مهردكار وطوربان والأولاد ففرح مزيد الفرح وخرج إلى ملتقاهم وهو يكاد لا يصدق أن يراهم حتى قربوا من مدينة حلب فخرج أهلها إلى ملتقاهم مع من بقي من فرسان العرب الكبير والصغير وكان لهم يوماً عظيم الشأن وقد أولموا الولائم ونشروا الأفراح في كل ناح واجتمع الصديق بالصديق والصاحب بالصاحب .

فهذا ما كان من العرب وعمر العيار وأما ما كان من كسرى أنوشروان فإنه أخذ يستعد للمسير في أثر هدهد مرزبان بعد ثلاثة أيام وأمر جماعته وأعيان دولته أن يكون كل منهم حاضراً ومتهيئاً لصرف العيد في المكان المعهود فجعل كل واحد يجمع من الخمر والمأكولات ما يكفيه إلى ثلاثة أيام ويحضر الهدايا والتحف والأموال ليقدمها إلى المرازبة والنار وبعد مضي الأجل المعهود ركب كسرى وركب بختك الوزير و بزرجمهر وأفلنطوش أبو طوربان وزوبين الغدار وكل فارس عظيم الشأن رفيع المقدار وأعلنوا في المدينة أن مرادهم الذهاب إلى هدهد مرزبان ومن شاء فليتبعهم وسار كسرى وأعيانه من حواليه والموسيقى تضرب بين يديه والناس تتقاطر أفواجاً أفواجاً بعضهم ماش وبعضهم راكب وتبعهم كثيرون من كهول وشيوخ وشبان ونساء وأولاد لأن ذاك العيد عندهم من أعظم الأعياد وأفضلها ولا زال كسرى في مسيره حتى قرب من وادي خراسان وعرف بقدومه الرجال الذين تخلفوا في ذاك المكان فخرجوا وقد ملأوا السهل والوعر وفي كل نيتهم أن هدهد مرزبان وباقي المرازبة موجودون مع كسرى وبعد أن ترجلوا وحيوا ملكهم ولم يروا مرزبانهم الأكبر سألوا كسرى عنه فقال لهم أنه منذ ثلاثة أيام رحل من المدائن يريد هذا المكان بعد أن سلمته مهردكار وطوربان وباقي النساء والأموال وكل ما جيء به من العرب والأموال ولم يبقوا ولا عقالا فقالوا انه لم يصل الينا ولا رأيناه قط ونحن بانتظاره قائمين في هذا المكان كما أمرنا فطار صواب كسرى عندي سماعه هذا الخبر والتفت إلى بختك وقال له هل تظن أن هدهد مرزبان سار في هذه الطريق أو تأخر في جهة من الجهات فخفق قلب بختك لما علم بغياب هدهد مرزبان وحدثه فكره أن لا بد من وجود حيلة في سر المسألة فقال لكسرى اني لا أظن يا سيدي أن هدهد مرزبان يضيع عن الطريق أو يعرج إلى جهة ثانية وإذ صدقني حذري يكون قد راقبه عمر العيار وهو عائد ومعه فرسان العرب فبطشوا به وقتلوه مع المرازبة وأخذوا النساء والأموال .

فزاد غيظ كسرى من ذلك واضطرب وأطرق إلى الأرض لا يبدي خطاباً ولا كلمة نحو ربع ساعةثم التفت إلى بختك الوزيروقال أريد منك التحقق من هذا الأمر لأعرف أين سار قاعدة ديننا ومرزبان إيماننا وإذا كان أسره العرب أو فعلوا به شراً يكون ذلك من أكبر

الويلات وقعت علينا من هذه الطائفة الدنيئة فنظر بختك إلى جماعة خراسان وقال لهم هل رأيتم أحداً غريباً قبل سفر سيدكم من هذا المكان وهل جاءه رجل بحيلة فارسياً كان أو عربياً وكيف كان عمله قبل سفره .

قالوا ما رأينا أحداً قط ولا سمعنا بوصول أحد إليه ولكن قبل سفره خرج إلينا هرزبان المرزبان وخطب فينا وأخيراً أوصانا أن لا نقرب من المكان المضروب به صيوانه وأن نبقى بعيدين عنه ومن خالف ذلك غضبت عليه النار ورفضت روح آبائه وأجداده وأخرجتها إلى البرد والثلج فأجبناه لأمره ما قرب أحد منا من ذاك المكان ونحن متعجبين من ذلك لأن من عادتنا أن نأتي المكان الذي يكون به الصيوان ونتبارك من ترابه من آثار النار ومن ثم سار هدهد مع مرازبته ونحن حتى الساعة بانتظاره فقال لهم بختك دلونا على المكان الذي كان قد ضرب به الصيوان لنفحص هناك ما السبب من ذلك فساروا جميعاً إلى ذلك المكان وقبل أن يصلوا إليه بمائة خطوة شموا رائحة كريهة جداً فتعجبوا وارتابوا وتقدموا وإذا بتلك الرائحة تزيد حتى تكاد لا تحتمل وعندما وقفوا على مكان الصيوان المذكور أشاروا إليه فنظر بختك وإذا به يرى التراب محفوراً جديداً فأمر أن يرفع التراب ففعلوا وإذا به يرى هدهد مرزبان مذبوحاً مع جماعته ومطموراً بالتراب فغاب صوابه وحث التراب على رأسه وقال حيلة عظيمة ومصيبة أعظم يا سيدي فإن العرب فعلت بنا فعلاً قبيحاً ورمتنا بسهام الخيانة فقد قتل مرازبة ديننا ولم يبق منهم أحد قط وأن الذي فعل ذلك هو عمر العيار وجماعته ولا أحد غيره يقدر أن يتوصل لمثل هذا العمل الخطير فلما سمع كسرى هذا الكلام وقع إلى الأرض من شدة الكدر وغاب عن الوجود نحو ساعة من الزمان وقد ظن الجميع أنه فارق الحياة ثم وعى إلى نفسه ولطم على وجهه وقال أكان من قدر العرب أن تفعل بنا مثل هذه الفعال وتذبح لنا المرزبان الأكبر وجماعته ولم تبق لنا واحد منهم نقيمه مرزباناً كبيراً وفوق كل ذلك فإن هذا العبد الخبيث القبيح المنظر تجاسر بأن جعلني أنا ملك ملوك العرب والعجم والفرس والديلم وسيد هذا الزمان أن أقبل يديه وأسجد كعبد وأقف ذليلاً حقيراً فأهلكته النار ولعنته ألف لعنة وأني أقسم بالنار والنور وقبر جدي سابور ان من جاءني بعمر العيار لأقتله وأشفي غليل قلبي من عذابه أعطيته نصف مملكتي ثم صعد الزبد على أشداقه وضرب الدم من دماغه واحمرت عيناه وتفجرت أنابيب أنفيه وكان يختنق فلم يجسر أحد أن يقف أمامه أو يدنو منه أو يفوه بكلمة ومضى عليه وهو على ذلك نحو ساعتين حتى رجع إلى صوابه فبقي مطرقاً إلى الأرض برهة ثم نظر إلى بختك وقال له أنت أصل كل هذه البلايا والمصائب فما كنت أفكر أني أعادي العرب قط حتى حملتني على عداوتهم وأوصلت إلى أذيتهم فتجاسروا على خرق حرمتي وأخذوا بنتي جبراً وأرغموني على أن أسكت عنهم وقد جمعوا أموال بلادي وغنائمها ونزعوا

مني علم بيكار الاشتهار الذي أفضله على المدائن وخراسان وكل بلد عظيم في طاعتي فهم يجتمعون تحته كأكبر ملوك الأكاسرة وأخيراً احتالوا علي وقتلوا شيخ النار وسيد الدين وأهلكوا جماعته وفوق كل ذلك فإني كنت أتشوق أن أقبل يدي عبدهم النحس ولا يسمح لي بذلك فلعنت النار العرب وكل من يميل إليهم وأقسم بآبائي وأجدادي أن كل من ذكر لي العرب منذ هذه الساعة قتلته ولو كان ابني الأكبر وأعز الناس عندي ثم افتكر بما كان من عمر وتصور تلك الحالة التي كان فيها وكيف مد يده ليقبلها بعد الرجاء والامتنان فعاد وغاب صوابه ولما وعي نهض إلى جواده فركبه وترك تلك الأرض غير ملتفت إلى النار ولا إلى من يقيم مرزباناً لأن ما من أحد يقدر أن يخدم النار ويعرف قاعدة الدين إلا المرزبان الأكبر وهذا يختار لنفسه جماعة يعلمهم ويقدمهم واحداً على واحد ويدرس عليهم وإذا مات يقوم مقامه الأكبر منهم وإذا مات واحد منهم اختار عوضه من الشعب فيعلمه ويشده مرزباناً ويقدمه شيئاً فشيئاً وسار خلف كسرى جماعته وهم على تلك الحالة متكدرين مأيوسين مغتاظين يلعب الغيظ في قلوبهم حتى وصلوا إلى المدائن ودخل كسرى قصره وصرف عدة أيام على الحزن والكآبة وقد لف قصره وإيوانه بالقماش الأسود وفعل مثل ذلك كل أعيان البلد وكان الحزن شاملاً الكبير والصغير وصار عندما يخرج إلى ديوانه يجلس صامتاً لا يفوه بكلمة ولا يفكر إلا بما وقع عليه ويلوح أمامه شخص عمر العيار فيضطرب ويغتاظ وما من واحد من قومه يقدر أن يذكر له العرب أو اسم واحد منهم .

فلنترك كسرى حزيناً ونرجع إلى العرب فإنهم كانوا بغاية الفرح والسرور وما من شيء يكدرهم إلا غياب عمر اليوناني ابن الأمير حمزة فكان يفكر على الدوام به وهو يتمنى أن يعرف في أي مكان هو وهل باق بقيد الحياة أو فقد في ذاك اليوم الذي غدر به العجم بالعرب وأرسل بعض العيارين في تجسس الأخبار واستطلاع الأحاديث والبحث في الجهات المجاورة عسى أن يقف له أحد على خبر وأما طوربان فإنها كانت مسرورة جداً بخلاصها من يد الأعجام وخلاص ابنها من الحريق ولكن عندما علمت بغياب زوجها وانقطاع خبره كل هذه المدة تكدرت جداً وشعرت بضياع رجائها مخافة من أن يكون قد قتل واختفى أمره وكانت تتمنى الموت وتريد أن تكون باقية بيد أعدائها وأصيبت بأعظم المصائب أو حرقت بالنار ولا رأت تلك الوحشة ولا علمت بفقدان من أحبته الحب العظيم وجعلت كل اتكالها عليه وأملت أن تقيم وإياه كل حياتها على الراحة والسلام مسرورة بالقرب منه وكانت حالتها حالة الحزن واليأس تبكي الليل والنهار وهي على الدوام تنشد الأشعار وتندب في الآصال والاسحار ومما أنشدته :

من سحر طرفك أم من جيدك الحالي   قد حرت ما بين نظار وغزال

يا حبذا في الهوى وجد أكابده … من جوهر الثغر أو من عنبر الخال
روحي فداؤك من بدر محاسنه … قد ناسبت بين أسماء وأفعال
أهلكت قلبي بأنواع الغرام وقد … ملكته فارع حفظ المال يا مالي
كحلت عيني بميل السهد فانصلت … مسافة البعد يا عيني بأميالي
ما ضر ناظر جفنيك التي كسرى … أن لو غدا ناظراً بالخير في حالي
أفديه من ناظر ماضي الولاية بل … واحر قلباه من ذا الناظر الوالي
ناديته يا غزالاً جل عن شبه … ما كفؤ جيدك إلا عقد اغزالي
وعاذل رام يسليني فقلت له … ما عذل مثلك يسلي عنه أمثالي
إن المحبة للأهواء فائدة … وللهوى خطرات ذات أرقال
صمت عن العذل أذاني به فلذا … قد أرغم الله فيه أنف عذالي
ليت الثغور حكت برقابهم فرأوا … سحاب دمع على الخدين هطال
حسبي وحسبي الهوى أني فنيت به … أرجو البقاء بأوجاع وأوجال
آيات أوصافه أم عمر ريقته … تتلى علي بألحان وتجلي لي
أذاب جسمي بنار الهجر ثم قلى … قلبي وقال نعم هذا هو القالي
ورام يشري بغالي الهجر أنفسنا … رخصاً فأشرى رخيص النفس بالغالي

وكانت حزينة القلب على الدوام تتسلى بولدها أحياناً وأحياناً يكون وسيلة تذكرها به فتبكي على بعده مشخصة أمام أعينها تلك الأيام الملذة القصيرة العهد التي صرفتها بجانبه ولولا أملها باهتمام الأمير حمزة بالفحص والسؤال عن ولده لسلمت بنفسها إلى الهلاك بأساً واختارت الموت على الحياة من دونه .

ومضى على العرب نحو أربعين يوماً في ذاك المكان ينتظرون ما يكون من أمر كسرى ويودون أن يعلموا ماذا جرى عليه بعد علمه بحيلة عمر وموت مرازبته فلم يصل إليهم قط خبر من ذلك ولا علموا على ماذا عول وإذ ذاك قال الأمير إنه مضى أكثر من شهر ونصف ونحن نجهل تدبير كسرى ونخاف أن يكون عمل حيلة جديدة أو اجتهد في جمع الجيوش ليفاجئنا إلى هذا المكان طلباً لثأر مرازبته وانتقاماً من عمر العيار .

قال عمر إني أسير بنفسي حسب عادتي وأكشف لكم خبر كسرى أنوشروان وماذا يدبر وهل ترك أمر القتال أو لا يزال مصراً عليه قال أندهوق نخاف عليك أن تقع بأيديهم وأنا أؤكد لك أنك إذا وقعت في قبضة كسرى لا يبقى عليك وربما عذبك أشد عذاب وهو مغتاظ منك دون شك ويتمنى أن يأكل لحمك بأسنانه على ما فعلت معه .

قال إني أعرف ذلك وأعرف أيضاً أن لا أحد من الفرس أو غيرهم إذا تزينت بزيه

يقدر على معرفتي فكونوا براحة من هذا القبيل .

وصل إلى المدائن وهو ينظر يميناً وشمالاً فيرى كل إنسان في عمله وما رأى قط اهتماماً كالسابق فدخل إلى الإيوان ووقف بين الحجاب ونظر إلى وجه كسرى فرآه مسوداً وهو عابس مطرق إلى الأرض لا يتكلم في كل ساعة كلمة ولا يقدر أحد أن يكثر من الكلام أمامه والايوان بجماعته ورجاله هاد ساكت كأن رجل هناك فزاد تعجبه وشعر بأن كل ما هو جار من هذا القبيل بسببه وأن سقوط شرف كسرى أمام قومه من تقبيل يده دعاه لا ينسى ذلك بل يتذكره على الدوام وكلما تذكره تهيج في أحشائه نيران الغضب فصبر يضحك في داخله إلى أن أرفض الديوان وذهب كل واحد إلى حال سبيله فتأثر بزرجمهر حتى دخل قصره فدخل عمر من خلفه وأغلق الباب فلما رأى عمراً وقد تقدم منه وقبل يديه عرفه فهش له وقلبه بين عينيّه وقال مرحباً بك يا فخر العرب وعلة نجاحهم إني كنت أود أن أراك لأشكرك على عملك الذي فزت به ونلت المراد وقد ألقيت بقلب كسرى حسرة لا تقلع الى آخر الأيام وهو يكاد يموت من شدة الغيظ والغضب فما فعلته أنت بيوم واحد أوقعه بالحزن ورآه ثقيلاً عليه أكثر مما حاربه العرب منذ البداية إلى هذا اليوم قال إني لحظت منه ذلك وعرفت أن سبب غيظه وغضبه وسكوته عن الكلام هو أنا ولا بد أن لحظت منه ذلك وعرفت أن سبب غيظه وغضبه وسكوته عن الكلام هو أنا ولا بد أن تبقى عليه الخملة الى الممات قال لأجل هذا قد وعد أن كل من جاءه بك حياً أو ميتاً أعطاه نصف ملكه وماله وقدمه على سواه من رجاله وما قصده إلا أن يشفي قلبه منك ويراك ميتاً قال إن هذا لا يناله ولا في المنام وسوف يرى مني في حياته أعظم مما رأى فيقع في غيظ أعظم وبلاء أجسم والآن أريد منك أن تخبرني ما نيته وعلى ماذا عول وما يريد أن يفعل في هذا الشأن وهل لا يزال يصر على عناد العرب ويسمع وشايات بختك ويعتمد على آرائه قال إنه منذ يوم علمه بموت مرازبته أجمع والاخلال بقاعدة دين النار حلف الايمان ان كل من ذكر أمامه العرب قتله وأعدمه الحياة وعليه فإن هذه المدة كان كما ترى وما من احد جسر ان يفاتحه ويخاطبه أو يسأله أمراً من هذا الوجه وعلى ما أظن أن كسرى سيبقى على هذه الحال مدة غير قصيرة وكيف كان الحال فمن الواجب أن تتحذروا لأنفسكم وتحافظوا على النساء اللاتي دخلن بدين الله سبحانه وتعالى وتزوجن بكم وهذه أكبر وصية أوصيكم بها فوعده عمر بكل خير وطلب رضاه ودعاءه وسار من المدائن عائداً إلى حلب وقد التقى بقومه وأخبرهم بكل ما كان من أمر كسرى وبزرجمهر فسروا وقال حمزة فلندعه وشأنه يعض على زنوده ويحترق بنار غضبه فقد راق لنا العيش وصفا الزمان ولم يكن من شيء يكدر الا غياب ولدي عمر اليوناني ولي رجاء بأنه في قيد الحياة واني سألتقي به بعد أمد قريب .

وقال وصرف العرب أكثر من ستة أشهر وهم على السلم والأمان لا حرب ولا قتال ولا طعن ولا نزال يجتمعون في كل نهار عند أميرهم وفي المساء يتفرقون إلى بيوتهم وابن مهردكار وابن طوربان يترعرعان ويكبران والأمير يعتني بهما ويعلمهما ما يحتاجان اليه وكانت طوربان صارفة كل عنايتها واجتهادها في تخريج ولدها بطلاً من الأبطال فعلمته بنفسها كل فنون الحرب وكان وهو ابن أقل من تسع سنوات كأنه في العشرين من العمر وذلك لضخامة جسمه ومتانة أعضائه . وفي ذات يوم بينما كان الأمير جالساً في صيوانه وعنده فرسانه وأبطاله وإذا بخادم اصطبله وقد وقف بين يديه وهو مطرق إلى الأرض حزيناً فارتاب من أمره وقال له ما السبب لحضورك إليّ في مثل هذا الوقت أهل أصيب جوادي اليقظان بأمر أو جرى شيء آخر قال اعلم يا سيدي اني منذ ثلاثة أيام خرجت بالجواد إلى احدى الحقول وسرحته هناك يأكل من ربيع الأرض على حسب العادة وعدت لقضاء بعض مصالحي وأنا آمن من وجود عدو في المعسكر ومن ثم عدت إلى ذلك الحقل وفتشت فيه فلم أره فسألت عنه وفتشت كثيراً في مدة هذه الأيام الثلاثة دون أن أصل إلى علم يرتاح لي فكري من هذا القبيل فعلمت أن الجواد قد سرق وأخذ إلى خارج القبيلة وكنت أخاف منذ الأول أن أبدي لك ذلك إلا أنه لما كان لا بد لك أن تسأل عنه وتطلبه أتيت أخبرك بواقعة الحال فاعف عني يا سيدي إذا كنت تراني قد قصرت في عدم انتباهي وتيقظي غير أني مطمئن البال والخاطر من وجود لص بيننا فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وقع عليه أشد من ضرب الحسام وتكدر مزيد الكدر واغتاظ الغيظ العظيم وبقي برهة غائب الصواب ثم التفت الى عمر وقال له سر أنت وفرق عياريك في سائر الطرقات والنواحي عسى أن أحداً منكم يعثر به أو يعرف بمكانه فانطلق العيارون بالتفتيش عليه والبحث على أمره وقال حمزة لخادم الاصطبل ارجع أنت وابحث عسى أن الصدف توقعك على أمره وتعرف من الذي سرقه .

وبقي الأمير في غيظ وجرد لا يلتذ بطعام ولا بشرب المدام وهو مشغول الفكر والخاطر من اجل جواده اليقظان حيث كان يحبه محبة عظيمة ويفضله على نفسه ويتحرق ليعرف من الذي تجاسر وفعل هذا الفعل وسرق الجواد وهو وقومه على غير انتباه اليه وبعد ذلك أخذ العيارون في أن يرجعوا إلى حلب بالخيبة دون أن يقفوا له على أثر ورجع عمر وقال لأخيه إني فتشت في كل هذه النواحي فما وقفت على خبر اليقظان ولذلك عدت لأخبرك أني ذاهب إلى المدائن لتيقني أن الذي سرقه يذهب به إلى هناك ولا بد أن يطلع على أمره الوزير بزرجمهر قال سر متكلاً على الله سبحانه وتعالى فهو يدلك الى الصواب فسار عمر بعد ان غير زيه وصار كواحد من الأعجام وقد دخل المدائن ووقف في ديوان كسرى على حسب العادة فرآه كالمرة الأولى لا يبتسم ولا يضحك ولا ينظر الى احد بل رآه مطرقاً

إلى الأرض فعرف انه باق على الغضب والحنق فصبر إلى ان انصرف الديوان وخرج بزرجمهر فسار في أثره واجتمع في قصره فسلم عليه وقبل يديه فقبله وسأله عن أخيه وباقي العرب فقال له هم بخير ولكن جواد حمزة قد سرق وما عرفنا من الذي اخذه قال فجئت المدائن أكشف أمره واستعلم لعلمي انك تكون قد عرفت شيئاً من أمره قال نعم إني عرفت ذلك وأظن اخاك حرم من هذا الجواد بالكلية وما عاد يقدر ان يصل اليه ولا يراه بطول حياته قال ولما ذلك ومن الذي سرقه وسار به واين هو الآن قال ان الذي سرق الجواد هما عمر بن شداد وصقلان الرومي اللذين تركهما اخوك في مكة المطهرة يكنسان أسواقها فقد احتالا وهربا من هناك وجاء الى المدائن واجتمعا ببختك وأخبره ان مرادهما الايقاع بالعرب واستعمال حيلة يقتلان بها الأمير حمزة فقال لهما اذهبا من هنا إلى حلب ولا تخبرا كسرى بشيء من هذا وإلا قتلكما ولا تخبرا احداً بأنكما اجتمعتما بي واعلمهما بما وقع منك على كسرى كيف أنه صار يكره ذكر العرب ولا يريد ان يسمع من احد ذكر احدهم فقالوا لابد لنا من مسك عمر العيار في هذه المرة والاتيان به إلى كسرى ليقتله فقال إذا فعلتما ذلك اعطاكما ملكه وقدمكما على غيركما من سائر الناس فسارا حتى اختلطا بالعرب وأقاما فيها بينكم يختفيان في النهار ويظهران في الليل يتوقعان الايقاع بك أو باخيك دون أن ينالا مراداً لانهما رأياك ساهراً كل السهر على نفسك وعليه وفي ذات يوم كانا خارج المدينة في احدى الحقول فرأيا اليقظان جواد أخيك فقال احدهما للآخر هذا جواد الأمير حمزة وهو عنده بمقام نفسه فإذا أخذناه تركناه يتحرق عليه ولابد أنه يفتش عليه ويسير في أثرنا من أجله ويرسل عمر العيار فنقبض عليه ونمسكه وننال المراد ثم تقدما من الجواد ليمسكاه فلم يقدرا فجاءاه بفرس وقدماها منه واحتالا عليه بخبثهما حتى قيداه فجرّاه خلفهما وجاء إلى المدائن فرحين مسرورين بذلك ودخلا على كسرى ومعهما الجواد ولم يبديا كلمة فاستشار غضباً وسأل بختك من الذي ذكر لهما ان يأتيا بالجواد فانكر انه ما رآهما ولا عرف شيئاً من أمرهما فطردهما كسرى من امام وجهه وامرهما ان لا يبقيا الجواد في المدائن قط والا قتلهما فخرجا وفي المساء اجتمعا بالوزير الخبيث بختك بن قرقيش فقال لهما إن كسرى لا يطيب خاطره ولا ينزل عن غيظه مالم يقبض على عمر ويقتله ويشفي فؤاده منه فاخبروه بكل ما كان لهما عندكم وكيف انهما ما قدرا إلا على سرقة الجواد ولهما الامل الاكبر بمسك أخيك او مسكك فقال لهما حيث ان الملك الاكبر لا يقبل ان يبقى هذا الجواد في المدائن خوفاً من وقوع حيلة ثانية من عمر العيار عليه فاذهبا به إلى بلاد العبيد والسودان إلى فرهود صاحب التكرور وهو قادر أن يحميكما من غدرات الأيام وانا اعرف أن العرب لا يتركون الجواد ولابد من ان يعرفوا أنه هناك فيسيرون في طلبه وينقرضوا في تلك النواحي واني اكتب كتابة لفرهود على لسان كسرى اوصيه بكما واسأله

ان يعتمد عليكما في كل اموره فاستحسنا هذا الأمر واخذا كتابه فرهود وفي نفس ذاك اليوم عرفت بهذا الأمر واخبرني احد خدام بختك بكل ما سمع وهو من اتباعي ومحبي يظهر لدى مولاه ببغضى وبغض العرب وفي السر يحبنا جميعاً ويعبد الله العزيز الجبار وقد تكدرت من هذا الخبر لعلمي ان الجواد اخذ إلى تلك النواحي ولا يمكنكم المسير اليها لبعدها وصعوبة مسالكها وحزنت جداً على ذاك الجواد الذي لا نظير له وانا قاطع الرجاء من رجوعه إلى أخيك قال اني اعدك ان أخي يذهب الى تلك النواحي ويأتي بالجواد ويقتل فرهوداً ويجازي اللصين اللذين سرقا جواده وسوف تصل إليك الاخبار قال وفقه الله وابعد عنه كل شر وويل وقهر اعداءه بين يديه فشكره عمر على غيرته وقبل يديه وخرج من المدائن وهو يتعجب من عمل ابن شداد الحبشي وصقلان الرومي كيف أنهما كانا في حلب وأقاما بينهم عدة ايام وهو ساه لاه عنهما وما عرفهما ولما وصل إلى حلب دخل على اخيه وأعاد عليه كل ما سمعه من بزرجمهر عن الجواد وانه اخذ إلى يلاد السودان إلى فرهود صاحب التكرور فغضب حمزة وقال إني ابقيت على هذين الشريرين علة لنا ونقمة واني سأسير في أثرهما اين سارا ولا اترك جوادي ولو اخذه الى داخل البحور السبعة أو إلى ما وراء جبال قاف ثم التفت إلى قومه وفرسانه وقال لهم انكم سمعتم ان اليقظان هو الآن في بلاد السودان وعليه فاني عولت إن اذهب الى خلاصه واعيده إليّ اذ لاصبر لي على فراقه وتركه بيد اعدائي فمن منكم أراد المسير معي فليكن على حذر ومن اراد البقاء في هذه البلاد فله الخيار فقال له الجميع اننا لا نفارقك ولا نبعد عنك ولو سرت الى الموت كنا معك ولا حياة لنا الا بقربك ولابد من تأثر هذين الخبيثين وارجاع الجواد من تلك البلاد الصعبة فشكر الأمير من اهتمامهم وحبهم وأوصاهم ان يكونوا على اهبة المسير فيبارحون تلك الارض في مدة ثلاثة ايام فأخذ كل تدبير أمر نفسه وحملوا الأحمال والخيام وقادوا الجنائب وسرحوا الأغنام وكل ما يلزمهم من المؤن وفي اليوم الثالث ركب الأمير على جواده الأشقران وركب الى جانبه اندهوق بن سعدون والملك النجاشي وعمر الأندلسي والمعتدي حامي السواحل وقاهر الخيل وبشير ومباشر ومعقل البهلوان وأصفران الدربندي وكل بطل من أبطال الكفاح وساروا عن حلب بعد أن حصنوها وتركوا آثارهم فيها ولا زالوا في مسيرهم مدة ايام وليال حتى جاءوا دمشق الفيحاء وكان ذلك في زمن الربيع وقد فتحت الأزهار وفاحت الروائح الزكية واكتست الأرض ثوباً اخضر مما يبهج الأنظار ويذهب بالأفكار فسر الأمير من تلك الأرض وامر عساكره ان تنزل في ضواحي البلد وأوصى ان لا يضر احد بالمزروعات والحياض وكل ما يأخذونه من المدينة واهلها يدفعون ثمنه مضاعفاً فخرج اليه أهل البلد وقدموا له طاعتهم وشكروه على نزوله عندهم وترحبوا به كل الترحيب وقدموا له الإكرام الواجب. فعظموا في عينيه وحب القيام بينهم وصرف

مدة الربيع هناك وقد رأى منهم من الأنس واللطف والظرف ما لم يره في بلد من كل البلاد التي جاءها ودخلها وعرف أن ما كان يسمعه عن أهل تلك المدينة هو أقل من الحقيقة ولذلك قال لزوجته مهردكار إذا سمح لي الزمان وتركت الحرب ما اخترت غير هذه المدينة موطناً لأنها جنة عدن وأهلها ملائكة الوداعة والعذوبة فهم عائشون في نعيم وقد نظرت منهم ما يكاد ينسنيني أهلي وجوادي الذي أنا سائر في طلبه قالت إني عرفت ذلك وما سرورك بأعظم من سروري وإني كنت أحب ان أرجوك البقاء في هذا البلد ولو أشهر وإذا خيرتني رضيت البقاء فيها طول عمري. قال إليك ما تطلبين فهذه فرصة ولذة عيش ينبغي ان تختلسيها ويطيب قلبك فيها ولا اعلم هل يسمح لنا الزمان بالرجوع الى هذا الفردوس البهيج مرة ثانية أم لا . وصار الأمير يزور رياضها وبساتينها وفي كل يوم يسهرون إلى أن يقرب الصباح وهم على اللهو والحظ والانشراح يتمثلون بقول القائل .

دعك من نهى النهاة   وملام العاذلات
ديار خاليات   وطلول باليات
لا يروق الشعر إلا   في رقيق الوجنات
واعتبر في تركك الرا   ح بأموات الضحات
في قصور عاليات   ورياض عطرات
تحت استار غصون   فوق ديباج نبات
قولهم أفديك مولاى   خذ الكأس وهات
فاختلس فيه النصاني   سابقاً وشك الفوات
واطرح وصف الفيافي   ووحيد اليعملات
ما الذي يحسن من نعـ   ـت رسوم دراسات
فابذل المجهود في وصـ   ـف مدام واسقات
واسرق اللذات مادا   م لك الدهر موات
بين تغريد حماما   ت وانشاد روات
وندامى هم نجوم بل   بدور الداجيات
واقاح الروض في الوصـ   ـف ثغور الغانيات
واشفع اللهو بأصوات   المثاني المطربات

وما برحوا في ذاك النعيم مدةغيرقصيرةحتى قارب فصل الخريف فرحلوا من هناك آسفين على هذا الرحيل وما منهم إلا من يتمنى لو طال زمان قيامه بين أولئك الأقوام الذين ضربت بانسهم وكرمهم الامثال ما عدا طوربان فانها كانت طول تلك المدة ضيقة

الصدر مفطورة القلب باكية العين تندب بعد زوجها وغيابه كل هذه الأيام وليس عندها إلا ولدها سعد قد قارب العشر سنوات إلا انه أصبح كالغول وهو يتمنى ان يلتقي بأبيه وداموا في المسير مدة ايام وليال حتى قربوا من مصر وشاع خبر وصولهم إلى تلك الديار فجعلت العمال وحكام القطعيات تأتي اليهم وتزورهم وتقدم لهم كل احتياجاتهم والأمير يردها اليهم ويشكرهم على طاعتهم وفي كل مكان يقيم اياماً وأخيراً خرج اسمندار حاكم مصر الذي كان اقامه عليها حاكماً كما تقدم معنا فترجل بين يدي الأمير وسلم عليه وسار بين يديه إلى المدينة وقد خرج الكبير والصغير إلى ملتقاه والسلام عليه وقد زينوا له البلد وذبحوا الذبائح وأولموا الولائم وأكثروا من الدعوات والأمير يزور الكبير والصغير ويحرضهم على الطاعة والسلام ويمدح من التفاتهم وبقي هناك عدة ايام ولما عزم على المسير والرحيل وصل إلى الامير اندهوق كتاب من عمه الذي اخلفه من سر نديب يقول له فيه اعلم ايا ابن اخي انه منذ غيابك عنا والبلاد في أمان واطمئنان غير أن هذه الأيام قد طمع بنا ملوك التركمان وهم ثلاثة ومعهم العساكر الغزيرة وقد زحفوا على البلاد وفي نيتهم أن يملكوها فدافعنا الدفاع العظيم إلا اننا لم نقدر ان نمنعهم عنا ونفوز عليهم بل بالعكس انكسرت شوكتنا فتأخرنا وحاصرنا داخل المدينة مؤملين ان نبقى على هذا الحصار إلى حين مجيئك فإياك من الإهمال والتأخير فان البلاد ستخرب والنساء ستسبى والرجال ستقتل ولا يبقون على أحد وإذا وقعت بأيديهم لا بد من أن يقتلوني وينزلوا بي العبر فاسرع بقدومك والسلام .

فلما قرأ اندهوق الكتاب تكدر وأطرق إلى الأرض برهة كأنه واقع بحيرة عظيمة فقال له الأمير هيا بنا نسير يا أخي الى بلادك ونفرج عنكم هذا الكرب ومن ثم نعود إلى بلاد السودان ونخلص الجواد من آخذيه. فقال له الأمر لا يحتاج الى مسيرنا كلنا فاني اعرف من نفسي اني كفوء لهلاك المعتدين ومهاجمي بلادي غير أن غيظي وكدري من وقوع مثل هذا الأمر وانا بحاجة لأن ابقى بين يديك واقاتل في ركابك خدمة للعرب. قال إننا لا نعدم من بسالتك وإقدامك فسر إلى بلادك وأفرج الكرب عن قومك وإذا رأيت ان الأمر بحاجة الينا سرنا اليك وكشفنا عن بلادك الضيم واهلكنا التركمان عن أجمعهم. فأجاب اندهوق رأى الأمير ونهض بقومه وودع العرب وهو باكي العين حزين القلب على فراقهم وكذلك هم فانهم حزنوا جداً وودعوه بدموع الحب والمودة ودعوا لبعضهم بالبقاء والسلام وسار أندهوق لنحو سر نديب الهند بقومه ورجاله الذين جاء بهم وهو يتمنى ان يصل بأقرب آن . ومن بعد مسيره أمر الأمير العرب ومن معهم ان يركبوا ويسيروا في طريق السودان ليزحفوا من هناك التكرور فركبوا ومشوا والأمير في مقدمتهم وهو حزين

جداً لا يفوه بكلمة قط وقد لاح في خاطره ان فرحه بقومه وفرسانه المتجمعة ربما انقلب الى حزن ووبال لأنه فقد ولده وهو ركن عظيم في العرب تفتخر به وقت القتال وكذلك اندهوق بن سعدون ولا يعلم ماذا يكون من امره هل يسمح له الزمان أن يراه مرة ثانية أم لا وما بعد عن مصر إلا ساعات قليلة حتى ظهر من خلفه غبار مرتفع إلى العنان ومن تحته فرسان تسير مسرعة إلى ناحية مصر فوقف الأمير في مكانه وقال لأخيه عمر العيار سر إلى كشف اخبار هذه الشرذمة لنعلم من عليها ومن اين آتية وأخاف أن يكون قصدها نحن فإذا بعدنا عن البلاد نضيع عنهم ويضيعوا عنا فأجاب عمر سؤال الأمير وانطلق إلى أن قرب من ذاك الغبار وتبين ما تحته فإذا هم قوم من الأكراد فتقدم قليلاً ليرى من عليهم وإلى أي جهة سائرون وإذا به يرى في مقدمتهم الأمير عمر اليوناني وإلى جانبه رجل عظيم أيضاً من الأبطال فصاح صياح الفرح وصفق بيديه وتقدم نحوه فلما رآه ابن حمزة ترجل عن الجواد ورمى بنفسه عليه وجعل يقبله وهو يشكر الله على سلامته وأخبره بأن أباه ارسله لكشف خبره وانه بكدر عظيم من أجله ثم أنه كر راجعاً حتى وصل من الأمير ونادى بشراك يا أخي فقد فرج الله كربك وارجع اليك ولدك وهو سالم من غدرات الزمان ونوائب الايام فطار فؤاد الامير فرحاً وكاد يغمى عليه من شدة الفرح وما لبث حتى وصل منه ابنه فترجل وتقدم منه ففعل هو أيضاً وجعل يقبله ويشكر الله على رجوعه إليه سالماً وفعلت مثله جميع الفرسان العرب من الكبير الى الصغير وكان الفرح شاملاً الجميع وسلموا ايضاً على باقي الذين معه وقال الأمير ودعت في هذا اليوم أخي ولاقيت ولدي ومن الواجب ان افرح به وامر ان يعود الجميع الى مصر ليبقى هناك بعض ايام إكراماً ليرتاح من مشاق السير والجد في تلك الطرق المقفرة الطويلة فرجعوا ثانية إلى المدينة وقد ترحب بهم اسمندار كل الترحاب وهنأ الأميربولده وأولم وليمةعظيمةلها قدر وقيمة إكراماً له وزين المدينة زينة فاخرة وبعد ذلك سأل الأمير ابنه اين كانت غيبته وفي اي مكان بقي كل هذه المدة ومن الذين رافقوه فأخبره بقصته من الأول إلى الآخر .

قال وهو ان عمرا لما جرحه زوبين الغدار كما تقدم معنا وشرد به الجواد في البر الأفقر كان هو غائب عن الصواب لا يعي إلى أي جهة يسير فسار به الجواد ركضاً إلى ان وقف في ناحية من الأرض مقفرة بعيدة على الخوف وحينئذ انتبه الأمير الى نفسه قليلاً ورمى بنفسه الى الأرض وشعر أن قواه خائرة لأن الدم كان يسيل بغزارة من بدنه ولا يقدر على ضمد جرحه من نفسه ولم يع على مثل ذلك وقد يئس من الحياة وشعر بفقدان القوى وصار يودع هذه الحياة وكان وهو في تلك الحالة يفكر بقومه وما حل بهم واعظم همه كان طوربان وولدها سعد الطوقي كيف انه يموت ولا يراهما وماذا يا ترى يصير بزوجته إذا فارق هذه الحياة وعرفت بذلك وفيما هو على ذلك وإذا بثلثمائة من الأكراد تحت رئاسة

الأمير الغضبان قد صادف مرورهم من تلك الناحية فرأوا الجواد عن بعد فتقدموا منه فرأوه ملقي إلى الأرض وهو يئن من الوجع والألم فشفقوا عليه وتقدموا منه وحملوه معهم بعد أن ضمدوا جرحه وربطوه بمنديل وغسلوه بالماء وساروا به حتى جاؤوا قبيلتهم وكانت تلك القبيلة تحت أمرة أخت الغضبان وهي من البنات ربات الجمال قد أعطيت من الحسن أبهاه ومن الشجاعة اسماها اسمها الأميرة هدلا فعرضوا إليها امر الأمير عمر اليوناني وكيف رأوه يكابد نزاع الموت على تلك الأرض منقطعاً عن المساعدة والمعين فحنت إليه وقالت حسناً فعلتم لأن الإنسان يحتاج الى مساعدة بني جنسه ونظرت إليه وأمعنت فيه وكانت ذات فراسة وإمعان فعرفت انه من أولاد الملوك أو الامراء وان لابد أن يكون له حديث وشأن فأسرت أن يوضع في بيتها وان يلازمه الطبيب في المساء والصباح وان تبقى عنده الخدم الى ان يشفى وتذهب عنه الآلام ويمكنه الجلوس وصارت في كل يوم تأتي إليه وتخدمه بنفسها وتلازم مداراته وقد رأت فيه شاباً جميلاً وهيبة ووقاراً فأخذ من قلبها موقعاً عظيماً وصارت تتمنى ان يشفى لتسأله عن حاله وتعرف من هو وما الذي جرى عليه ومن الذي جرحه ولما كان جرحه بليغاً اقتضى له وقتاً طويلاً للشفاء وصرف أكثر من ستة اشهر في الفراش حتى صار اخيراً يمكنه الاستواء والجلوس والكلام وإذ ذاك دنت منه الأميرة هدلا وهي مسرورة السرور العظيم وقالت اعلم ايها الرجل إني لست من الناس الذين يتباهون بعمل الجميل ولا أريد ان اذكرك بأني وجدتك في البرية بحالة اليأس وقطع الرجاء فعاملتك معاملة الأم الحنون لأن الانسان ملزم بأن يعين ابن جبلته ولا سيما من كان مثلك عليه دلائل الكرامة والجلال وكنت احب ان أسألك عن نفسك ولا اريد ان اعرف من انت كي لا يقال اني عملت لأجل غاية حتى ان نفسي لا تساعدني ان اعرف من هو الذي عملت معه المعروف ويكفيني ان اعرف من الذي جرحك وبنفسي شيء آخر اريد من اجله ان اعرف اصلك وفصلك وهل إني مخطئة بظني لتأكدي انك من االسادات والعظماء قال إني لا اريد ان اباهي بنفسي وكان بقصدي ان اخفي امري إلى ان يسمح لي الزمان بمكافأتك على معروفك معي وانعطافك عليّ غير اني لا أرغب في الكذب وحيث سألتني عنه فأشرحه لديك لعلمي بأنك وضعت الجميل في محله فانا ابن من رجح ميزان العرب واخفى شمس العجم تحت حجاب الغرب فاهتزت طرباً ومالت من الأعجام وقالت انعم واكرم لقد عرفت بانك ابن فارس برية الحجاز وسيد سادات هذا الزمان الأمير حمزة البهلوان الذي طالما تمنيت ان أكون في ركابه وبين يديه ونفسي تحدثني على الدوام ان أراه وكيف هو فهل انت من زوجته مهردكار فقال كلا ثم حكى لها قصته من الأول إلى الآخر إلى ان جرحه زوبين الغدار غدراً وخيانة وشرد به الجواد وهو عليه يمسك نفسه فوقه على غير انتباه فقالت قطع الله يد زوبين الغدار وأسكنه

رمسه وإني أشكر الله الذي اوصلك الي وسمح لي أن أخدمك وأقوم بين يديك فتكون مكافأتي عندك قبولي خادمة لك وأكون على الأبد فأدرك عمر غايتها من أنها تريد أن تتزوج به وقد اعجبه حسنها وتعلقها وكرامة اخلاقها ولذلك سكت وكان يريد أن يمتنع كي لا يغيظ طوربان ولا يأخذ عليها زوجة ثانية إلا انه كان يشعر بمعروفها معه واهتمامها به وما أراد ان يبدي حركة أو إشارة بل اظهر على نفسه أنه متألم وصبر إلى حين شفائه وكانت قد أدركت ذلك بفراستها وذكائها وعرفت ان اصل تردده كونه متزوجاً بغيرها وكانت تتكدر من ذلك وتتحرق كيف سبقتها عليه طوربان وساعدها الزمان بأن تكون زوجته الأولى والمرأة التي احبها قبل كل امرأة فأخذت المركز الأول من قلبه ومع كل ذلك فقد علقت املا كبيراً بأنها ذات يوم تكون زوجته وقالت في نفسها انه لا يزال مريضاً ومن اللازم السكوت عن هذا الأمر الآن الى وقته وقد تعلقت به كثيراً وزاد هيامها وغرامها عندما تأكدتَ أنه من أشرف الناس وسادات ذلك الزمان وان اباه الأمير حمزة البهلوان شريف العمل والأصل وزادت في إكرامه وانتشر خبر ذكره في كل القبيلة فصار كل واحد منهم يرغب ان يشاهده ويخدمه ويكون بين يديه ليتوصل الى تقبيل يدي أبيه وبقي الأمير عمر على ذلك مدة شهر أيضاً الى ان شفي تمام الشفاء وصار يمكنه ان يركب ويذهب إلى البراري والقفار ويسير إلى القبائل المجاورة مع الأميرة هدلا ومع اخيها ويسطو على كل عاص حتى جعل للقبيلة صيتاً واسعاً بعيداً وكل هذه المدة وهو مع هدلا على الحظ والانشراح ورأى نفسه مضطراً لأن يحبها ويباديها على جميلها بالجميل واللطف فتكون قد اشترت حياته وخدمته لأجل نفسها ولا سيما عندما رأى من صفاتها الكريمة وما اعجبه وابهره وما تصوره بغيرها من ربات الخدور وفي النهاية اخذها زوجة له وزف عليها وسر من قربها وصرف اياماً اخرى على الحظ والهناء والسعادة الراحة وبعد ان انقضت هذه الأيام قال لها قد انتهى كل شيء ولم تبق حاجة بنفس يعقوب ولا يخفاك اني مشتغل البال بسبب اهلي ولا اعرف ما جرى عليهم في غيابي ولا ارى ماذا حل بأبي وهل رجع اليهم أو لا يزال بعيداً وهل لا يزالون مجتمعين او تفرقوا وذهب كل منهم في ناحية ومن الواجب المسير إلى حلب والانضمام الى العرب قالت اليك ما شئت فإننا كلنا الآن عبيدك وبين يديك وما من واحد يخافك وجميع من في القبيلة يرغب ان يسير إلى أبيك ليقبل يديه ويكون بين العرب في خدمته وهاك أخي الغضبان فإنه رئيس القوم واميرهم وهو منتظر امرك واما أنا فما عاد يمكنني الا الاقامة في البيوت والامتناع عن الركوب فوق الخيول ومباشرة الحروب كوني صرت مملوكة وفي الحال ركب عمر اليوناني وركب معه كل فارس من الأكراد وحملوا الأحمال ورحلوا عن تلك الأرض وداوموا المسير مدة ايام وليال حتى وصلوا إلى حلب فلم يروا هناك أحداً من العرب فخفق قلب عمر اليوناني وتقدم من

المدينة فخرج إليه نصير الحلبي صاحب حلب وسلم عليه وهنأه بسلامته واخبره بأن أباه سار بالعرب في طريق مصر على بلاد العبيد والسودان واخبره بقصة الجواد وانه سرق وأخذ الى هناك فاقام عمر اليوماني تلك الليلة في المدينة واخذ ما يحتاج اليه في سفره من المؤ ن ورحل من هناك في آثار أبيه يجد السير ويقطع الفيافي والقفار حتى وصل إلى الشام فأخبروه أنه سار عنها فرحل من هناك ولا زال يأخذ أخباره حتى اجتمع به في مصر كما تقدم معنا وفرح كل واحدبالآخر وكانت طوربان أشد الجميع فرحاً وسروراً وقد زالت عن قلبها الأكدار والأوصاب واطمأن بالها وخاطرها وسكن جأشها وصبرت إلى أن جاءها فتلقته وترحبت به وسلمت عليه وبكت بكاء الأفراح وكان من أمره أن أخذها إلى صدره وقبلها في جبينها وشكر الله الذي رآها سالمة وكذلك ولده سعدا ورآه قد كبر وصحته جيدة جدا .

ففرح به وأخبر زوجته بما كان من أمره فقالت إني سعيدة من الله الذي أرجعك إلي سالماً وفرج كربي لأني كنت في قدر عظيم وتخلصت منه بعنايته تعالى فعشت أنا وعاش ولدي ورجعت أنت بخير . ثم أنها حكت له كل ما كان من أمرها عند كسرى أنوشروان وكيف أن زوبين الغدار وأباها قصدا هلاكها وهلاك ولدها مع باقي النساء والأولاد إلى أن جاء عمر العيار وخلصهم جميعاً وحكت له كيف عمل حتى خلصهم فضحك من عمله وقال لها يا ذل العرب من بعده لأنه ساهر عليهم لا يغفل دقيقة عن صوالحهم ولا يقدر العدو أن يصل شراً الينا إلا إذا كان غائباً عنا وأما زوبين فقد نويت على هلاكه ولا بد عند وقوعه بيدي أن أهلكه وأميته شر ميتة فقد طال في غدره وتمادى في شره ولولا أبي لقتلناه في هذه المدة وارتحنا منه وصرف باقي ليليه عندها إلى الصباح وبقي الأمير حمزة في مصر سبعة أيام أخر وبعد ذلك رحل من هناك في طريق بلاد السودان بتلك الحملة العظيمة ودام في المسير على تلك الأراضي الحارة المحرقة وكل ما وصلوا إلى أرض نزلوا بها للراحة وأقاموا عدة أيام ليأخذ العسكر راحته ولا يتكدر أحد منهم من التعب وشدة الحر وانتهى المسير بعد ذلك إلى الملك فرهود صاحب التكرور فضربوا خيامهم ونزلوا في ساحة فسيحة وقد سدوا السهل والجبل وضرب الأمير حمزة صيوان اليون شاه ونصب عند بابه علم بيكار الاشتهار حتى ابتهجت منه تلك الأرض وتزينت من جماله وبهائه ولما استقر بالأمير المقام كتب رسالة إلى فرهود وبعثها إليه وانتظر الجواب .

قال وكان فرهود من الأبطال العظام أصحاب البسالة والإقدام وكان يندر وجود مثله في زمانه طاغ باغ فذات يوم جاءه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي ومعهما اليقظان فسلماه إليه ودفعا كتابه كسرى فقرأها وقال لا بد لي من الإتمام والاجابة ولا بد أن يرى ما أفعل له بالعرب إذا جاءوا بلادي وأما أنتما فعلى الرحب والسعة واكراماً لخاطر

كسرى أقدم بلادي بين أيديكما فسيروا حكماً وما من معارض يعارضكما قالا إننا لا تريد أمراً ولا نحملك نقلة بل أقبلنا في بلادك إلى حين نتخلص من ظلم العرب ولا بد أن يعلموا بنا ويأتوا إلى هذه النواحي قال سوف يظهر لكما عملي وكان قد سر جداً من الجواد اليقظان وأعجبه وأراد أن يركبه فامتنع عليه فتجاول وإياه وقتاً فلم يقدر أن يعلو ظهره وهو يضرب برجليه الأرض ويعلو بأيديه ويهجم على كل من يقرب منه حتى قتل خمسة من العبيد فغضب منه فرهود وأراد أن يقتله لولا حبه له ومعرفته أنه إذا كان على ظهره وقاتل أعظم الأبطال فاز عليه فقاده العبيد إلى اصطبل مخصوص ووضعوه فيه وجعلوا يقدمون له الأكل وصبر فرهود إلى أن ينال مراده منه وصار في كل مدة يأتي ويجرب نفسه دون ان يحصل منه على نتيجة إلى أن وصل العرب تلك الديار وأخذ مكتوب الأمير حمزة ففضه وقرأه وإذا به .

بسم الله الحي القيوم

« أعلم أيها الملك الجاهل أني أنا الأمير حمزة فارس برية الحجاز ومذل الأكاسرة وأبطال هذا الزمان قد جئت بلادك لأجل غاية واحدة لا أريد سواها وهي أنه بلغني أن عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي قد سرقا جوادي وهربا إليك فقبلتهما وأكرمتهما وأخذت الجواد لنفسك فأريد منك أن ترجع إلي جوادي في الحال وتسلمني هذين الخبيثين اللصين فأسير عنك ولا اضطر بأحد من بلادك وتكون قد حقنت دماء بني البشر ورفعت عن قومك ثقلة حرب العرب ورفعت العداوة من بيننا وإلا فإني لا أنفك عن بلادك ما لم أضربها وأقتل كل أمير وسد فيها واسترجع جوادي قوة واقتداراً فلا ينفعك العتاد ولا تؤخذ بأقوال عمر بن شداد وصقلان الرومي فهما يقصدان غشك والسلام » فلما قرأ فرهود هذه الرسالة التفت إلى عمر بن شداد وقال له سمعت ما يقول أمير العرب كأنه يظن بأني أخافه أو أخاف رجاله وسوف يرى مني حرباً لم يرها زمانه بطوله وهو يتهددني قاصداً إخافتي وفزعي . قال له اعلم يا سيدي أن العرب قوم كذابون وما هم إلا أهل بادية ومتى حاربتهم عرفت أنهم من أجبن أهل الأرض لا يثبتون أمامك ولا يطيقون حربك وخصامك فاخرج إليهم بالعساكر والأبطال حتى إذا رأوا منك ذلك خافوا واضطربوا وعرفوا أنك من الأبطال الأشداء أصحاب الصولة والعظمة فيرجعون في الحال على أعقابهم أو أنهم يفنون بسيفك وحسامك ولا ريب أنه إذا عرف الملك الأكبر بأنك قتلت حمزة وبددت العرب أنعم عليك الانعام الكثيرة ومدح منك ومن معروفك وشاع صيتك بين الناس أجمعها في أربعة أقطار المسكونة فيعترفون بأنك فارس الزمان هذا الأمجد وبطله الأوحد فيعطيك البعيد والقريب ويمكنك أن تملك على قسم كبير من العالم من مصر

إلى أقاصي الأرض فأمر فرهود في الحال بجمع العساكر والاستعداد للحرب والقتال وأرجع رسول حمزة بلا جواب وأقام العرب مدة خمسة أيام وفي اليوم السادس خرج فرهود برجاله وأبطاله السودان وهم كالجراد المنتشر ويدبر أمرهم عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وضرب خيامه مقابل خيام العرب ونزل بعساكره هناك فعرف الأمير حمزة أن في اليوم التالي ينتشب الحرب والقتال فاستعد مع قومه إلى أن كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح وخرجت الفرسان من مرابضها كأنها أسود البطاح وقد اشهرت ببعض الصفاح وهزت عوامل الرماح وتقدمت من بعضها البعض وانتظرت الأوامر بالهجوم وكان الأمير حمزة في الوسط فأخرج سيفه من غمده وأشار إلى العرب بالهجوم والقتال واقتحم تلك المعركة بقلب قد من صوان الجبال وهو ينادي أنا حمزة العرب سيد الفرسان وأبطال وحبيب مهردكار ذات الحسن والجمال وفعل مثل ذلك الأمير عمر اليوناني وهو يهدر كالجمال . ويزأر كأسود الدحال وعمر الأندلسي والمعتدي حامي السواحل الافيال . وأصفران الدربندي ومعقل البهلوان ، وقاهر الخيل ، ومباشر وبشير . فتعاظمت الأحوال وعظمت الأهوال وانتشر غبار الموت . واندفع عزرائيل إلى قبض الأرواح خوفاً من أن يفوته الفوات وأما فرهود فإنه قوم سنانه . وأطلق لجواده عنانه . وغاص بين العرب . وأنزل عليهم ميازيب العذاب والكرب وقد قلب المياسر على الميامن والميامن على المياسر . وابهج بقتاله الخواطر وحير النواظر وما قصد كتيبة إلا فرقها . ولا وقع على فرقة إلا ومحقها. هذا وقد اشتد القتال والطعان. وراج سوق الموت والهوان . ونادى سوق الموت والقلعان . ألا هبوا إلى الرحيل فقد آن الأوان . ونصبت كفة الميزان ليظهر الرابح من الخسران : والناقص من الرجحان . وقد كثر الهول وقل الأمان . وأنتشبت أظافر الهلاك في أفئدة الشجعان . فألقت بها إلى بساط الصحصحان تقلبها في حجر الفناء تقلب الموجوع السهران على فرش الضنا من لسع السنان فصمت إلى أن ينقضي النهار . ويقبل الليل بالاعتكار. ويعود متظاهراًبالقتال مفتخراً بالنزول وما برحت الحرب قائمة على ساق وقدم. ونيران الوغى تزاد وتضرم. إلى أن ولّى النهار وانهزم . وأقبل جيش الظلام، فضربت طبول الانفصال ورجع الفريقان إلى المضارب والخيام بعد أن صبغوا وجه الأرض باحمرار. وكسوا البسيطة ثوباً بلون البهار وتركوا القتلى والجرحى فيها أكثر من لون البحار . فسبحان العزيز الجبار . والواحد القهار الذي قدر على الإنسان ما شاء واختار وجعل من مزاياه حب الانتقام من الأعداء والأخصام كما جعل في قلبه حب الأمان والسلام من الأحباب والأهل والأصحاب وبات القومان وهما من التعب في هم وغم وكان قد تعجب الأمير حمزة من السودان وجلادهم على الحرب والطعان وهم لا يخافون الموت ولا يحسبون حساباً للقتل والهلاك كأن البربرية فرضت عليهم أن من الواجب على

الإنسان الموت في ساحة الميدان وعندما أشرق وجه الصباح ولاح نوره وانبسط على تلك البراري نهضت الفوارس إلى خيولها فركبتها وإلى أسلحتها فنقلتها . وتقدم الصفان . وترتب الفريقان وبأقل ساعة من ساعات الزمان حمل الجميع على بعضهم البعض . وابتدأوا يتضاربون ويتطاعنون ويبربرون بما يخيل للناظر أنه جاء يوم العرض وكان القتال في هذا اليوم أعظم من اليوم الأول والموت أشد وأعمل . حتى تحرك الظلام وأقبل فرجع المتقاتلان إلى الخيام وفي الصباح رجعا إلى الحرب والكفاح ودام الحال على هذا المنوال مدة عشرين يوماً على التمام . وفي الأخير ضجر كل من الفريقين وقد قال فرهود لقومه إني ما كنت أحسب أن فرسان العرب بهذا المقدار قوية الجأش ثابتة العزيمة فقد أهلكوا من نصف قومي وان كنت أهلكت منهم كثيراً لكني لا أرى وسيلة لانقراضهم لأنه لو بقي منهم واحد لثبت وقاتل ووقف في وجه فرساني وقد كدرني هذا كثيراً وجعلني بحالة يأس وخوف على رجالي أن يفنوا قبل أن أتمم عملي وأهلكهم جميعاً فقال له عمر بن شداد الحبشي إن العرب كثيرون وهم من عالم مختلف وبينهم كثيراً من الفرسان الذين إذا قتلوا انقرضت بسالة جماعتهم ومن الرأي عندي أن لا تلقى برجالك إلى ساحة القتال بل أبرز أنت وادعهم واحداً بعد واحد فإذا قتلتهم واقتلعت فرسانهم هرب الباقون أو سلموا ولا سيما الأمير حمزة وولده عمر اليوناني والمعتدي حامي السواحل فقال لقد أصبت ولا بد لي من أن أترقب ذلك وأباشر القتال بنفسي وأمنع قومي وسوف ترى ما أفعل بالأمير حمزة وفرسانه فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة وقومه فإنهم عند رجوعهم من ساحة القتال دار بينهم الكلام في هذا الشأن . فقال الأمير إني أريد أن أعرف فكر فرهود في أمر القتال وكيف أنه لم يحاربنا على الجواد وأخاف أن يكون جوادي قتل أو أبعد عن هذا المكان وإلا لو كان بيد فرهود لكان حارب عليه وافتخر به . فقال عمر العيار إني سأذهب في هذه الساعة وأكشف خبر السودان وأرى أين هو الجواد وإذا تسهل لي أن أصل اليه احتلت وأتيت به ولو كان دونه ألف عيار ومحتال فقال له الأمير سر على توفيق الله ونجاحه على أن الصدف تخولك في هذه المرة كما في غيرها فتأتيني باليقظان فأجاب عمر في الحال ولبس ملابس السودان وتزيا بزيهم حتى صار كواحد منهم وانطلق إلى معسكرهم واختلط فيهم وهو سائر من مكان إلى مكان حتى وصل إلى صيوان فرهود فدخله ووقف بين الخدم ونظر إلى فرهود في الصدر ومن حواليه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسمع عمر بن شداد الحبشي يكلمه بشأن العرب إلى أن قال له أخيراً وإني أكفل لك النصر يا سيدي والفوز لأنه خطر بفكري خاطر وهو أنه عندي سلسال من الحديد إذا ألقيته على الفارس ولو كان بعيداً علق به فتسحبه إليك أسيراً وحيث قد نويت على البراز فلا بد أن يكون معك فتنال المراد وأنا منذ هذه الساعة سأذهب إلى صيواني وأرجع إليك بعد قليل

ومعي السلسال فقال افعل ما بدا لك وعجل بالسلسال فنهض عمر وخرج أمام الجميع من الصيوان وبقي عمر العيار ينظر إليه ويتعجب من خباثته حتى رآه قد خرج من الصيوان وما عاد بان فأعاد بنظره إلى فرهود وهو آمن من غدرات الزمان ويخطر بكفره بأن أحداً يعرفه من أولئك الحضور ولا غيرهم من عالم الإنس والجان وفيما هو كذلك ما شعر إلا وعمر بن شداد الحبشي قد قبض عليه من الوراء وصاح هذا هو عمر العيار يا سيدي وقد وقع بأيدينا وجاء ليحتال علينا فهلموا يا خدم إلى مسكه فأسرع الجميع إليه وقبضوا عليه فانبهر كيف أخذ بغتة وكيف عرف وأراد أن يحاول وينفي عن نفسه فلم يسمع له أحد بل كتفوه وقربوه من فرهود وقال له هذا يا سيدي رأس العرب وفخرهم فلولاه لما نجحوا ولا فازوا وهو حاميتهم في الليل والنهار وطالما قصدت أن أسرق الأمير حمزة أو غيره من الفرسان فامتنعت خوفاً منه لأنه ساهر العين متيقظ الخاطر لا يغفل عن أحد ولا يرى فوزاً بالعرب بدونه ففرح فرهود غاية الفرح وقال سمعت عنه أنه شيطان في صورة إنسان ولكن أراه كواحد منا وليس من العرب ومن أين عرفته ولو رأيته ألف مرة لما تأكدت إلا أنه من قومي قال هذا لا أعرفه ولا أعرف حيله من هذا الوجه وجل ما أعرفه عنه أنه يتزيا بزي كل رجل من رجال هذا العالم حبشياً كان أو عجمياً .

ثم أخبره بما كان من أمر هدهد مرزبان وكيف قتله واحتال على كسرى فتركه يقبل يديه وخلص النساء فتعجب فرهود وانبهر وقال هذا لا بد من قتله وهلاكه لترتاح الناس من شره وكيده وفخذه واقتلـه . قال ليس في قتله فائدة الآن يا سيدي لأننا إذا ذهبنا به إلى كسرى أنوشروان وسلمناه إياه حياً يقتله وينتقم لنفسه منه أعطانا نصف ملكه وأصبح ممنوناً منك شاكراً من صدقك ومودتك وهكذا كل فارس من أسرناه سرنا به إلى المدائن ولا بد لي من الاحتيال بسرقة الأمير حمزة فإذا فرغنا من الحرب سرنا بهما إلى الملك الأكبر وسوف ترى ما يكون من الاكرام عنده والانعام . قال صدقت ولا بد من المحافظة عليه والتشديد في أسره وإني سأسلمه إلى عياري الأكبر فرار وأوكله بالمحافظة عليه الليل والنهار ولا يفارقه أبداً حتى أبدد قومه .

قال وكان السبب بمسك عمر العيار هو أن أبي شداد كان كما تقدم معنا خبيثاً محتالاً متيقظاً متنبهاً من أكبر العيارين وأعظم السلالين وقد عرف أن الأمير عمر لا بد له أن يأتي إلى صيوان فرهود في كل الأوقات ويغير زيه حتى لا يعرفه أحد وعرف هو إذا رآه ربما أشكل عليه أمره وما انتبه إليه فعد عدد الخدم الموكلين بخدمة الصيوان فإذا هم عشرة ففكر أنه متى رآهم زادوا واحداً يكون الزائد عمر لكنه بقي عليه أن يعرفه ويعرف من هو من بينهم ليقبض عليه فدعا الخدم المذكورين وأخبرهم بهذه القضية وقال لهم إني مؤكد

بأن هذا الخبيث لا بد أن يأتي يسترق منا الأخبار أو بالحرى يسرق سيدكم وإني نويت على مسكه وأخاف أن لا أعرفه من بينكم ووضعت يدي على رأسي فليقبض كل واحد بيده اليمنى أذنه اليسار واحد بعد واحد ومن لم يقبض اذنه يكون هو فيقبض عليه ولا تعفوا عنه وإياكم من التقصير وأوصاهم بذلك كثيراً وأن يكتموا هذا الأمر بينهم وجعل في كل ليلة دابة أن يعدهم في كل دقيقة فتراهم على حالهم وهو مكدر كيف لم يأت عمر لأنه يشتهي أن يقبض عليه ليأخذه إلى كسرى ويقبض انعاماته التي وعد بها وصرف نحو عشرين يوماً قلقاً ولكنه ما فترعن الانتباه في كل يوم يعيد الأمر على الخدم ويوصيهم بالطاعة ويؤمل أنه في اليوم القادم يأتي حتى تلك الليلة فعد الخدم بلحظة وهو يكلم فرهود فرآهم قد زادوا واحداً فسقط الهم عن قلبه وتأكد مجيء عمر العيار وكاد يطير فرحاً ولكنه أخفى حاله وخاف أن يظهر أمره حالاً فر وطار لا يقـدر على مسكه فمد يده الى رأسه فانتبه الخدم وجعل كل واحد بدوره يقبض إذنه ما عدا عمر العيار فإنه ما عرف هذه الحيلة وما انتبه اليها ولما عرفه أكيد نهض واحتال بقوله أن مراده يأتي بالسلسال حتى بعد عن الصيوان ثم عاد متلصصاً وقبض عليه بغتة . فانفطر قلب عمر من عمله واحتار كيف أن هذا الخبيث عرفه مع أن لا أحد في الدنيا يقدر أن يعرفه وصار عمر بن شداد الحبشي يعدنفسه بأنه ينال نصف اموال كسرى ويتقدم في دولته وقال كثيـراً في نفســه لا بـد لي من إتمام العمل وأسر الأمير حمزة ثم أن فرهوداً دعا إليه عياره فراراً وقاوله إني أسلمك عمر العيار هذا وأوصيك أن لا تفارقه دقيقة وأنا الآن غني عنك ما زال عندي ابن شداد وصقلان الرومي وإياك من الغفلة فاجعل دأبك المحافظة عليه وإذا هرب كان جزاؤك الاعدام قال يا سيدي إني لا أفارقه دقيقة واحدة فأنام عنده وأقوم عنده وأطعمه من يدي ولا أدع أحداً يراه فسلمه إياه فرهود فأوثقه بالحبال وربط يديه وشدهما إلى بعضهما وقاده إلى خيمته وأقام عنده وجعل يطعمه ويسقيه من يديه وقد شده إلى وتدين في الخيمة مربوط الرجلين والأيدي وهو يتحرق ويتحسر على ما أصابه .

فهذا ما كان منه وأما ما كان من الأمير حمزة والعرب فإنهم صرفوا قسماً من الليل في صيوان إليون شاه بانتظاره فلم يرجع فشغل بال الأمير من جهته وقال لا أعرف كيف بقي إلى الآن وما رجع إلينا فقال النجاشي ربما تأخر ليسرق الجواد ويرجع به وإني أؤكد بأن لا أحد لا يعرفه منهم لتغيير حالته وأخيراً نهض الأمير إلى صيوان منامه فنام وتفرق العرب كل إلى صيوانه على أمل أن ينهض في الصباح إلى الحرب والكفاح وأما عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي فإنهما بعد أن انصرفا من حضرة فرهود قال الأول للآخر قد تأكد لدينا النجاح ولا بد لي بعد نهاية الحرب أن آخذ عمر العيار إلى المدائن وأسلمه إلى كسرى فننال أنعامه قال لا بد أن الملك الأكبر يسر منا سروراً لا مزيد عليه ولكن ينفي

عليه عداوة العرب لأنهم لا يتركون عيارهم وعندي أن تحتال على مسك حمزة العرب فإذا فعلنا ذلك تفرق العرب بعد انكسار شوكتهم وسر كسرى سروراً كاملاً بقتل الاثنين معاً قال صدقت وإذا كان لذلك من فرصة فهي الآن لأن أمير العرب ينام مطمئناً لجهله ما وقع على عياره ولا ريب أنه بدون محافظة ولا حارس ينتظر عودة حارسه فهلم بنا إلى معسكر العرب فنأتي بحمزة فأجابه إلى ذلك وانسل الاثنين بين العرب يتلبدان من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة والعرب نائمين في حجر الأمان حتى وصلا إلى مكان الأمير حمزة فلم يريا احد عند بابه سوى خادمين تغلب عليهما النعاس وسطا عليهما سلطان النوم فهجم كل واحد على واحد وبغتة سد فمه وألقاه على الأرض وأخذ قليلاً من البنج فأشعلاه وحرقاه داخل الصيوان وصبرا برهة ثم دخلا وربطا الأمير حمزة وحملاه وسارا به في الجهة القريبة من البر ثم عرجا إلى المعسكر وهما بمزيد الفرح والمسرة وكل منهما يعد نفسه بالسعادة والاقبال ولما وصلا إلى معسكر السودان دخلا على فرهود وهو نائم وأيقظاه من فراشه ودفعا إليه الأمير ففرح غاية الفرح وقال حسناً فعلتما وكيف قدرتما على ذلك فأخبراه بعملهما وبعد ذلك أمرهما أن يعطياه ضد البنج ففعلا ولما استيقظ حمزة وجد نفسه بين الأعداء وأمامه فرهود وعدواه الالدان ابن شداد وصقلان فعض على كفيه من شدة الأسف وتأكد وقوعه بأيديهم وبقي صامتاً. الى أن قال له فرهود كيف ترى نفسك الآن فهل عرفت أن عداوة كسرى لا تطاق وأن العالم بأجمعه يخدمه وأنه إذا حاربكم إلى آخر الزمان لا يكل ولا يمل ويقدر أن يسحب بعساكره لقتالكم مهما قتلتم ولا بد من هلاكك وموتك بأقرب وقت لأريح الدنيا من شرك وأخدم الملك الأكبر خدمة صادقة . فقال صقلان سنسير به إلى المدائن ونذبحه عند أقدام كسرى مع أخيه .

ثم قال لحمزة اعلم ان اخاك قد وقع بأيدينا وما من سبيل لنجاته بعد الآن وهو مربوط الأيدي والأرجل لا يقدر احد إلى الوصول اليه . فاغتاظ حمزة من هذا الأمر وتأكد عنده ان العرب ستباد بعده وبعد أخيه وندم غاية الندم كيف انه ابقى على هذين الشقيين ولم يقتلهما ويرتاح من شرهما ولكنه اظهر الجلد وقال لفرهود إن كنت تظن حمزة وقع في اسرك وانك تقدر على هلاكه فقد غلطت لأن إلهي يقدر على خلاصي في كل دقيقة وسوف تدور الدائرة عليك فتذهب طعاماً للاسنة لأن بين جيوشي كثير من مثلي ولابد من اخذ ثاري ولو أنك اسرتني في ساحة الميدان لحق لك ان تفتخر وتباهى ولكن الحيلة عار على فاعلها ولو كنت اريد ان آخذك غدراً كما اخذتني لما صعب علي ولكني أكره الاسراف واحب ان آخذ خصمي مواجهة وجهاً لوجه فافعل الآن ماانت فاعل فغضب فرهود من كلامه وأراد أن يميته في الحال فقال عمر بن شداد الحبشي ابقه الآن تحت الحفظ حتى نهلك قومه ونسير بهما إلى المدائن. وعندي ان ترسله الى قلعة الحديد على شاطىء البحر

وتوكل به حاكم القلعة إلى ان تطلبه واوصيه ان لا يسلمه الى احد حتى ولا إلى ملك ملوك السودان وحاكم العبيد بأجمعها حتى ولا إلى كسرى انوشروان إلا انت بنفسك. فاستصوب هذا الأمر وارسله مع جماعة من عسكره الى محافظ القلعة وكتب له أن يحافظ عليه ولا يسلمه إلى احد مطلقاً .

فأخذه المحافظ وكان اسمه الأمير هداد ووضعه داخل القلعة واقفل ابوابها واعتمد ان لا يفتح لأحد ورأى الأمير حمزة نفسه مقيداً ومأسوراً في ذاك المكان فانطبقت الدنيا عليه وشعر بانسلاخ حياته وخاف كثيراً على العرب ولاسيما على اولاده وزوجاته من كيد الخبيثين واخيراً صلى إلى الله وطلب منه المعاونة والإغاثة وبقي على امل الفرج منه تعالى .

وفي صباح اليوم الثاني نهض العرب من مراقدهم وافتقدوا اميرهم فما وجدوه ورأوا الخادمين على تلك الحالة ففكوهما وسألوهما عما كان من الأمير فأخبراهم بعمل السلالين فتكدروا من ذلك وخافوا على حمزة ووقعوا باليأس والمصائب وعندما رأى عمر اليوناني أحدهم قال لهم لا ترتاعوا ولا تضطربوا فشدوا عزائمكم وقووا قلوبكم واحملوا على الأعداء فإذا فزتم خلصتم الأمير ولا ريب أيضاً ان عمر العيار وقع بايديهم وأصابه ما اصاب ابي فالاتكال علينا وإلا ذهبنا ذرى الرياح وطمع السودان فينا وأصابونا بأكبر مصيبة وإن كان أبي قد اسر فأنا مكانه وتروني أفدي روحي في سبيل النجاح والفوز .

فقالوا له إننا نقسم بالله العظيم ان تكون ارواحنا فدية عن الأمير ولا نرجع عن القتال حتى نخلصه ونهلك الأعداء او نهلك عن آخرنا . فمدح منهم وامر في الحال بضرب طبول الحرب والقتال فضربت وارتجت منها السهول والجبال وتقدمت عساكر العرب كأنها اسود الدحال.

وكان فرهود يظن بأن العرب لا تقدر بعد الأمير حمزة على القتال ولا يمكنها الثبات في ساحة المجال حتى رآهم وقد حملوا فتعجب من عدم تأثيرهم وركب بعساكره وفي كل نيته أنه يوقع بهم في ذاك النهار ويفنيهم عن آخرهم. وبأقل من ساعة حمل العرب على السودان واشتبك القتال في كل مكان وكثر الضراب والطعام. فعلت فرسان العربان افعال مردة الجان وعفاريت السيد سليمان وقد ألقت بارواحها في حفر المخاطر وألقت بأجسادها بين مشتبك الرماح والخناجر حتى تركت القتول كالتلول والدماء كمپازيب السماء وما جاء آخر النهار حتى اظهرت لفرهود عظيم فعلها وعزيز بطشها ورجعت عند المساء وفي مقدمتها عمر اليوناني كأنه شقيقة أرجوان مما سأل عليه من أدمية الفرسان وقد سر من عمل العربان بأعدائه السودان ورجع فرهود وهو متكدر الخاطر مما رأى في ذاك النهار وما حل بقومه من اعدائه إلا انه كان بطلاً صنديداً يتكل على نفسه كل الاتكال

ويعرف إنه يقدر وحده على أبادة الرجال ولو كانوا بعدد الرمال فعول أن يبارزهم فيما يأتي من الأيام إذا عادوا إلى الحرب والقتال غير أن العرب في ثاني الأيام ما باشروا القتال وقد اختاروا أن يريحوا أجسادهم أياماً قليلة من تعب ذاك اليوم حتى يتمكنوا من الثبات ومن فعل يوم آخر كذاك اليوم .

قال وكان الأمير عمر العيار عند فرار على ما تقدم معنا يلازمه الليل والنهار ولا يبعد عنه إلا قليلاً من الوقت ولم يترك له مجالاً لأن ينظر إلى احد او يحتال لنفسه في الخلاص وقد قال له بعد اسره بثلاثة ايام ان نجم سعد العرب قد افل وسوف يبادون ويبددون وتكون بطون وحوشنا مدافن لهم فقال لهم عمر ماذا يهمنا يا ابن خالتي إذا سلم العرب أو هلكوا فإني غريب عندهم وما أنا إلا عبدهم وما صدقت ان خلصت منهم ووقعت بيد اناس من السودان اعداء البيضان يخلصوني منهم ويعيدوني الى الحرية فاذا هلكوا اخلصت الود الى سيدي فرهود وخدمته معك وتعينت من رجالك لأنك على ما يظهر لي من السادات الكرام أصحاب الفضل والإحسان تغار على ابناء جنسك وتراعى حرمة الإنسانية وإني ارجوك متى لحق بالعرب مصيبة لا تخفها عني لأني افرح لها واتأمل انقراضهم بأقرب وقت لأتخلف منهم قال إنهم بويل وشدة وقد سار عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي الى معسكرهم ليلاً وسرقا اميرهم حمزة وجاء به الى ملكنا وسيدنا فرهود مقيداً ذليلاً فأرسله الى قلعة الحديد في وسط البحر ووكل به الأمير هذا وأصاه بالتشديد عليه ولا يمكن ان يتخلص من هناك ولابد أن يأتوا بالعرب واحداً بعد واحد ولا يتركوا منهم سيداً ولا خادماً وعندي انهم يتفرقون وينقرضون بعد أيام قليلة فلما سمع عمر هذا الكلام كادت امعاؤه تتمزق وتنقطع وقال في نفسه هلكت والله العرب فاذا تقاعدت عن نصرتهم وعن التحيل بالخلاص أصيبوا وانقرضوا إلى آخر الزمان وما بقي منهم إنسان إلا انه اظهر الفرح وأبدى خلاف ما أضمر وقال لفرار بشرك الله بالخير يا أخي فهذا الذي كان يجبرني إلى خدمته ولاخفاك اننا نحن السودان مهما خدمنا البيضان لا نخدمهم إلا خوفاً منهم ومتى لاحت لنا فرصة للخلاص تخلصنا ولو هلكوا وأريد منك يا أخي ان تطلق سراحي لأذهب إلى فرهود واعرض عليه خدمتي واتوقع على اقدامه عله يقبل ما اسأله إياه قال إني أكرمك واطعمك وأرأف عليك وأما إطلاق سراحك فلا أمل به لأني اعرف يقيناً ان سيدي لا يقبل بخدمتك وانه مصر على هلاكك ولابد من إرسالك الى كسرى انوشروان لتموت هناك .

فبكى عمر على حاله وقال له صدقت يا أخي فما من سبيل للحياة وقد نسيت ذلك واني لا ابكي الآن على نفسي ولكن ابكي على ما معي من الذخائر التي كنت افوز بها على

كل سيد وبطل ومولى واخاف إذا مت ان يأخذهم كسرى انوشروان او الأعداء اللئام وهي إذا أردت ان اتزيا بزي فرهود سيدكم لما صعب علي وإذا اردت ان اعرف طرقات الموت والبلاد كلها عرفتها بدقيقة واحدة وإذا قصدت الاكتشاف على خبايا العالم وكنوز الأرض ظهرت لي كأنها بين يدي وغير ذلك مما لا يوجد عند احد من العالم .

فلما سمع هذا الكلام مال قلبه إلى اخذ هذه الذخائر وحدثته نفسه ان يحتال على عمر العيار ويأخذها منه فقال لا ريب يا ابن الخالة إذا مت اخذوها منك وانتفعوا بها ولاسيما هذان الخبيثان اللصان اللذان سرقا جواد أخيك قال واين هو الآن فأخبره بقصته وجعل يقدم له الإكرام ويراعيه ويعطيه الأكل اضعاف ما تعين له حتى جاءه ذات يوم وقال له اني حزين جداً يا ابن خالتي على ما أصابك ولا اعرف ماذا يصير بك واسأل زحل النجوم السيارة وكل معبود أن يرضى عليك ويخلصك من أيدي هؤلاء الظالمين قال لا امل لي بالخلاص لكن يا أخي اريد منك ان تقبل مني الذخائر التي اشرت لك عنها فتأخذها ولا تطلع احداً انها عندك وإلا نزعوها منك واحرموك إياها فهي تساوي ملك كسرى انوشروان ولا تثمن بثمن من الأثمان فأنت احق بها من غيرك لأنك راعيتني واحترمتني واحسنت معاملتي فلما سمع فرار هذا الكلام كاد يطير من الفرح والسرور وما صدق هذا الكلام وقال له اصحيح ما تقول قال أي وأبيك فاطلق لي يدي الواحدة فقط فادفع اليك الجميع واعلمك عن كل واحدة ماذا تعمل بها وكيف تستعملها وبذلك يظهر لك صدق حبي وتعرف أكيداً اني لا اترك مكافأتك واني اعرف الجميل قال وكيف اقدر إعلى طلاق يدك وقد منعني سيدي من ذلك وأخاف ان تتخلص ويحصل لي من بعدك العذاب ويقتلني سيدي قال من اين اتخلص وانا مقيد الارجل ويدي الثانية مربوطة وانت واقف امامي لا تبارحني تنظر الي وتراقبني ومع كل ذلك فانا لا ارغب في اطلاق يدي إلا لأجلك فإذا رفضت ذلك تندم فيها بعد ويأخذ ما معي غيرك وتكون قد رفضت السعادة فتحركت عواطف فرار إلى الحصول على هذه الذخائر وقال في نفسه إذا فككت له يده ماذا يا ترى يقدر ان يفعل وأنا بين يديه ورجلاه مقيدتان ويده الثانية مربوطة ومتى اخذت هذه الذخائر وتعلمت كيفية العمل بها اعدته الى الكتاف ثم قال لعمر إني لا اخاف منك يا أخي واجيبك إلى ما تطلب وها انا الآن أفك لك اليد الواحدة واطلقها الى حريتك فافعل ما انت فاعل واعذرني على امتناعي لأني اخاف من فرهود فاقاصص على هذا العمل قال إني اعرف ذلك ولو كان لي امل بالخلاص لما سألتك هذا السؤال ورجوتك قبول ما معي ولكني مؤكد موتي فيأخذ اعدائي متاعي واكون مغتاظاً مقهوراً محسوراً فمتى اطمأن بالي اموت براحة واعرف ان اعدائي السبب الذي كنت انقلب به عليهم .

وإذا ذاك تقدم فرار من عمر وفك يده الواحدة وقال له قم بوعدك يا أخي فقد اجبتك إلى طلبك قال مرحباً بك ثم مد يده إلى داخل ثيابه وأخرج السيف ذا الشطلين وقال له هاك السيف الذي لا يوجد مثله عند كسرى أنوشروان وهو من عمل اليونان القدماء فأخذه فرار ونظر فيه فأعجبه جداً فقال جزاك الله خيراً فما معك غيره فاعطاه الخنجر وقال له هذا يصلح لك لا لغيرك فاعجبه جداً ثم دفع اليه المرآة والمكحلة وقال له هاتين الذخيرتين لا نظير لهما فانك إذا نظرت في المرآة عرفت خبايا العالم وتعلمت طرقاتها وما اختفى عليك شيء مما تريده وإذا تكحلت بالميل وأردت التزيي بأي زي كان لا يصعب عليك ذلك قال حسناً وهبت يا أخي فجزاك الله خيراً ونظر في المرآة فانبهر وتحير وكاد يطير من الفرح ثم قال لعمر وهل باق معك شيء آخر يا أخي قال نعم باقي معي ذخيرة واحدة يصعب عليَّ التسليم بها واريد ان احفظها لي قال وما هي قال هي علبة صغيرة من النحاس فيها برغي إذا حللته ورفعت الغطاء وطلبت اي نوع من الطعام حضر في الحال كأنه مغروف من الوعاء ومرفوع عن النار قال يا اخي أنت لم تبخل علي بغيرها فكيف تبخل بها ولا ريب أنك مائت لا محالة فيأخذها غيري قال صدقت فخذها الآن واحضر لنا الطعام الذي تريد لنأكل معاً ودفع اليه علبة بقدر الجوزة وفي رأسها برغي مثقوب فاخذها وقصدان يفتحها فلم يقدر فقال له عمر امسكها وشد البرغي بفمك فأخذ العلبة بين يديه وجعل يشد عليها بأسنانه وقد توجه البرغي المثقوب الى انفه وكان في تلك العلبة بنجاً فلعب في أنفه وفي فمه وفي الحال وقع إلى الأرض كالقتيل غير واع الى نفسه فتناول عمر الخنجر وقطع به وثاقه وتيقن بالخلاص وفك رجليه وفي الحال تقدم من فرار فربطه وهو غارق بالثبات واخذ منه ما كان اعطاه وخرج من الخيمة مسروراً .

وكان الوقت إذ ذاك ظلاماً فلم يقصد صيوان فرهود بل بقي كامناً إلى ان عرف الصيوان المقيم فيه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي فانتظر بعيداً مستتراً بالظلام إلى ان رآهما قد جاءا الصيوان ودخلاه فصبر ايضاً ساعة إلى ان تأكد نومهما فجاء من ظهر الصيوان ومزقه بخفة بخنجره ورمى قطعة البنج مولعة إلى الدخل وصبر قليلاً حتى تأكد فعلها بهما فوسع الخرق ودخل منه بخفة وتقدم من اللصين فربطهما واخذ خنجره وقطع آذانهما وأنفيهما واخرج من عبه مرهماً ووضعه مكان الجرح ليقطع الدم فقطع في الحال فأعطاهما ضد البنج وتركهما وخرج وهو يقول في نفسه إني لو قتلتهما لما فعلت حسناً وإذا استيقظا ورأيا حالتهما وعلما اني انا الفاعل انفطرت مرارتهما وبقيت هذه الحسرة بقلبهما الى آخر الزمان ودام في مسيره حتى وصل إلى معسكر العرب وجاء الى المكان الذي فيه العيارون فنهضوا اليه واعترضوه وصاحوا به فاظهر لهم نفسه ولما تأكدوا انه عمر سيدهم صفقوا من الفرح وقام الصباح بالافراح من كل ناح وانتشر الخبر بين الجميع وما من رجل

الا استيقظ وجاء يستخبر من عمر عن حاله ونهض عمر اليوناني ورؤساء القبائل وجاءوا جميعاً إلى الصيوان الأكبر واجتمعوا وهنأوه بالسلامة وسألوه عن حاله فأخبرهم بما توقع له حتى تخلص من الاسر فمدحوه على فعله وقالوا له إننا نخاف على الأمير من العذاب والهول لأنه تحت الحفظ وربما فعل به فرهود شراً قال كونوا براحة فما زلت مطلق الحرية اقدر على كل عمل ولا يصعب عليّ خلاص اخي واريد منكم فقط مداومة الحرب والثبات في الميدان فباكروا إلى الهجوم على فرسان العبيد إلى أن يعود اليكم فارسكم فقالوا هذا نداوم عليه وإننا ثابتون على الحرب ولو بقيت سنين عديدة، ثم أنهم صرفوا باقي تلك الليلة دون نوم إلى ان اشرق الصباح .

وكان عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي قد نهضا من نومهما في ذاك الصباح ونظر احدهما الآخر مشوهاً على تلك الحالة فجعل يضحك منه . واخيراً عرف كل واحد انه اصيب بما اصيب رفيقه فتكدر جداً من هذا العمل وضاق صدراهما وقال صقلان إني أؤكد لك أن ما فعل هذا الفعل إلا عمر العيار وقد تخلص من الاسر وجاء الينا ليترك بنا أثراً سيئاً .

قال ياليته قتلنا لكان افضل من بقائنا وكيف يمكننا ان نواجه احداً ونحن على هذه الحالة وأنا لا أخرج الآن من الخيمة . وفيما هما على ذلك وصل اليهما رسول فرهود وقال ان سيدي نهض منذ الصباح وجلس في صيوانه واجتمع عنده كل رجاله ولم تحضرا شغل باله جداً وتكدر عليكما فبعثني أدعوكما اليه وانظر في امركما .

وفي الحال نهضا وتقدما معه إلى صيوان فرهود كل من رآهما في الطريق ضحك وتعجب من حالتهما وهما صابران على ذلك حتى دخلا الصيوان ورآهما الجميع على تلك الحالة بلا أذان ولا أنوف فضحكوا من هذا العمل وهم لا يعرفون سببه وسألهما فرهود عما حل بهما فقالا إننا لا نعرف السبب وجل ما نعرفه اننا في الصباح نهضنا ونظرنا إلى بعضنا وإذا نحن على هذه الحالة وان صدقني حذري يكون عمر العيار قد تخلص وجاء الينا فارسل فرهود إلى فرار وإذا هو على تلك الحالة فحضر إليه ففك وثاقه وسأله عن أسيره فأطرق الى الأرض فقال لا تخف أخبرنا بما احتال عليك عمر العيار ولك الأمان فاعاد عليهم القصة من اولها إلى آخرها . وقال ما كان بظني انه يفعل هكذا وهو مقيد الرجلين واليد وانا إلى جانبه. فقال صقلان انه شيطان رجيم يفعل كل ما يريد وقد حذرناك كثيراً ، ونحن خائفين ان يفعل ما فعل واعظم .

وفيما هم على مثل ذلك وإذا بقبائل العرب قد تقدمت طالبة القتال حاملة من كل ناح وارتجت الأرض من وقوع حوافر خيولها فالتزم فرهود ان يحمل بأبطاله وفرسانه وفي

الحال انتشب القتال. وراح سوق المجال وبطل القيل والقال وزادت الأهوال وعظمت الأحوال فما كانت ترى إلا رأساً طائراً ودماً فائراً وجواداً غائراً وغباراً ثائراً وقد فعل عمر اليوناني في ذاك اليوم افعال عنترة بن شداد وطعن في الصدور والأوراد والقى بألوف من الفرسان على بساط الوهاد ومثله فعلت بقية الفرسان الشداد حتى تركوا الأرض مغطاة من أجسام المقتولين ودام القتال الى المساء فضربت طبول الانفصال ورجع العرب مسرورين بفعل ذاك النهار وعمر العيار يمدح من أعمالهم ويشكرهم على افعالهم ولا زالت الحرب مدة ثلاثة ايام حتى ضاقت الحرب من كثرة ماتكوم فيها من القتلى وحينئذ اتفق القومان على عقد هدنة الى عشرة ايام لترفع الأموات من ساحة القتال وكان ذلك بطلب عمر العيار حيث كان قصده أن يذهب في خلاص أخيه من قلعة الحديد وفي نفس تلك الليلة ذهب الى صيوان مهردكار ليخبرها بأنه يقصد الذهاب إلى خلاص زوجها فسمعها تبكي وتنوح وتندب بعد زوجها واسره وتنشد وتقول:

بلغ النوى مني مناه ... والشوق جاوز منتهاه
يبكي ويبكيه الحبيـ ... ـب وليس ينفعه بكاه
أهلا بطيب زائراً ... كشف الدجى عني سناه
حيا فأحيا في الكرى ... فقصى على بالانتباه
فعل الغريب بنفسه ... ما ليس تفعله عداه
أهلا بطيف طارق ... زاد الردى عني سراه
يحظى به القلب المشوق ... ومقلتي ليست تراه

وبعد أن فرغت من هذا البكاء تنهدت ثانية وقالت تخاطب نفسها كيف اصبر على بعده وهو في يد أعدائه يقاسي العذاب والأسر لا اعرف هل يبقى عليه او يقتله الاعداء وما من مجير ولا نصير غير البكاء والنواح لقد تغافل عمر العيار وتقاعد القوم عن مساعدتي فهل من منجد لي وهل من مسعف فإليك يا رب اشكو ذلي وضعفي فارحم قلبي واجبر كسري وارحمني ثم عادت فأنشدت :

يا راحتي وارتياحي ... وبهجتي وسروري
ذكراك مؤنس قلبي ... في غربتي وسميري
لي انه كل وقت ... مقرونة بزفيري
لأحرقتها بجمر ... في صدري المصدور
يا مؤنسي ونديمي ... في غيبتي وحضوري
لا تشرح الرسل والكتب ... بعض ما في الضمير

لـولا مـسـت نـار شـوقـي إلـيـك نـار الـسـعـير
قـد ضـاق عـليّ الـتـنـائـي عـلى خـنـاق الأسـير

فلما سمع عمر منها هذا النوح والتعداد حن لها وشفق على حالتها وعرف انها صادقة المودة كثيرة الحب لأخيه فتقدم منها وطمنها على مقصدها ووعدها انه سيذهب الى خلاص اخيه ولا تمضي ايام قليلة حتى يكون في معسكره عند قومه وتراه ويرتاح بالها من اجله فشكرته على ذلك ومدحته وقالت له إني رأيتك لاه عني وعنه فكدرني ذلك وإني غريبة منقطعة لا أحد يسيلني فاشكو اليه مصابي. قال إني ما التهيت قط ولكني اشغلت فرهود بالحرب حتى خسر كثيراً من قومه وتعب كثيراً ولذلك ما عاد يمكنه إلا الراحة وينشغل عن أخي بجمع العساكر ودفن الموتى وأريد منك الآن ان تدفعي إليّ كل ما عندك من الحلى والجواهر ولا تظني أنها ترجع اليك قالت اليك الجميع فإن لا أسأل عن شيء ولا ارغب في شيء وجل ما ارغبه خلاص اخيك فقط فاسعى بذلك قريباً ولو فقدت جواهري. ثم نهضت واحضرت له كل ما طلب فكان شيئاً كثيراً فأخذه منها وذهب إلى حاله بعد أن وعدها بكل خير واوصاها ان تبدل حزنها بفرح وتصبر مدة خمسة ايام او ستة فيكون عندها . وجاء بعد ذلك الى فرسان العرب وقال أريد منكم ان تجمعوا كل السلاح القديم الموجود عند العرب من سيوف ورماح ومجنات وغير ذلك فأخذ العرب في جمع ما طلب وسار هو من هناك ومعه بعض عياريه مسافة يومين حتى جاء البحر ورأى هناك مركباً راسية فنزل اليها مع جماعته بقصد الفرجة ولما صار فها امر عياريه بأن لا يبقوا على واحد من الملاحين ففعلوا وقتل الجميع وجاء بالمركَب إلى شاطىء آخر منفرد بعيد عن السكان وامر العيارين ان يذهبوا الى المعسكر ويحضروا السلاح الذي طلبه ليشحن به المركب فنقل العيارون السلاح على ظهور البغال والجمال وأنزلوه المراكب ولما امتلأ امر العيارين ان ينزلوا إليها ولبس هو ملابس ملك كبير عظيم السطة والمقدرة وأفرغ عليه تلك الحلى والجواهر من رأسه إلى قدمه واخذ المرآة في يده وتكحل بميل المكحلة وقال بحق ما كتب عليك من الأسماء أن تغيري حالي إلى حال قابض بن مخلص ملك ملوك السودان وسلطان العبيد الأكبر حتى من رآني لا يظن إلا اني هو بنفسه ونظر في المرآة فإذا هو كما قصد وحينئذ أمر جماعته ان تحل المراسي وتنشر الشراع وتسير الى ظهر البحر ففعلوا وما مضى إلا ساعات قليلة حتى غابت السفينة عن الشاطىء وبعدت كثيراً وإذ ذاك أمر عمر بأن يديروا مقدمة السفينة إلى جهة قلعة الحديد ففعلوا وصارت السفينة سائرة والريح موافقه لها تخترق البحار وقد نشرت علماً كبيراً يدل أن رجلاً عظيماً ذا قدر ومقام وفي اليوم الثاني وصل المركب من القلعة وقاربها فخرج الأمير هداد محافظ القلعة واعترض على المركب السائرة ان لا تقرب من القلعة إذ ما من إذن لأحد بالدنو منها فصاح به بعض

الملاحين وقال له ويلك ما هذا الجسارة القوية هلم الى تقبيل أيدي الملك الأكبر قابض بن مخلص سيد السودان وفخرهم وهو يدعوك إلى تقبيل يديه ويريد أن يسأل منك بعض سؤالات يحب ان تجيبه عليها . فلما سمع هذا الكلام اضطرب وخاف وبادر في الحال إلى المركب وهو يتعجب كيف أن الملك العظيم جاء تلك القلعة وما ذلك إلا لسبب عظيم ولما وصل بين يديه سجد وقبل الأرض بين يديه وقبل قدميه ووقف مطرقاً إلى الأرض ينتظر امره وهو مأخوذ مما شاهد من الحلى والجواهر كأنه الشمس المضيئة في رابعة النهار. ثم قال له ماذا تريد من عبدك يا سيدي. قال اريد ان أسألك عن الحرب مع العرب هل تعرف شيئاً عنها. قال لا اعرف إلا ان الحرب واقعة بين قومنا والعرب وقد اسروا سيد العرب وبعثوه إلى القلعة وهو أسير عندي قال: قبح الله فرهود فلابد من فصله ومجازاته على عدم اعتباري كيف يحارب العرب دون ان يبعث إلي ويسألني وقد اهلك كثيراً من السودان ولما بلغني الخبر حضرت بنفسي لطرده وحبسه في هذه القلعة إلى ان يموت واما انت أني اعرف صدق خدمتك وطاعتك لي وانه يليق بك ان تكون ملكاً وسيداً فقد أقمت حاكماً بدلاً من فرهود منذ هذه الساعة ولكن اكتم هذا الأمر وابقه في قلبك الى ان يتم وأرى ماذا يكون من أمر العرب .

فلما سمع الأمير هداد سيد القلعة كلام القابض بن مخلص فرح فرحاً لا يوصف وامل بالخير الكثير وانه بعد قليل يصير حاكماً على السودان عوضاً عن فرهود فزاد في إكرام مولاه وتعظيمه وتبجيله ودعاه الى القلعة ليتناول الطعام عنده . قال سأفعل ذلك وأتنازل إليه إكراماً لخاطرك ولكن اخبرني كم عدد الحرس المحافظين على القلعة. اعلم سيدي ان فرهوداً عهد إلي برئاسة خمسة عشر نفراً من الحراس وهؤلاء جميعهم عندي في هذه القلعة فأظهر عمراً كدراً وغيظاً وقال قبح الله هذا الخائن فإنه يريد أن يخرب بلادنا ويجعل مطمع الفاتحين نافذاً فيها فانهم إذا علموا بأن لا نفر بالقلعة إلا خمسة عشر فقد طمعوا فيها وجاءوا إليها وملكوها وهو مشغل بقتال العرب لا يرسل الي بالأخبار ولا يقدر ان يدافع عن السواحل وسوف ترى ما يحل به وأجازيه على عدم اعتباري واحترام شاني فهلم بنا إلى القلعة ثم أمر العيارين ان ينقلوا السلاح الى القلعة وامر حاكم القلعة ان يأمر جماعته بنقل السلاح وقال ابقها في القلعة الى حين يصل باقي العساكر والرجال الآتين على المراكب فيتسلحون وينزلون الى الشاطىء فأجاب امره طوعاً وقلبه يكاد يطير من الفرح ويعد نفسه بكل جميل واحسان .

ومن ثم صعد الأمير عمر وجماعته العيارين الى القلعة فلاقاهم الحرس وسجدوا لملكهم الأكبر وقبلوا يديه فتبسم في وجوههم فاندهشوا وظنوا بأنفسهم بأنهم ملكوا الدنيا

بما فيها ولما جلسوا قال الأمير هداد إذا شئت يا سيدي اتيك بالأمير حمزة العرب الذي أخبرتك عنه بأنه اسير في القلعة قال ما من حاجة لي به الآن وسوف أنظر ما أفعل به وأما انت فاصعد إلى اعالي القلعة وانظر لي في واسع البحار هل اقبلت المراكب ام لا تزال بعيدة فاني على انتظارها فصعد الجميع الى فوق ورأوا مركباً بعيدة جداً تكاد لا تظهر فعادوا إليه واخبروه لما رأوا فقال لا ريب هذه طليعة المراكب وابدى الفرح والاستبشار وكان بمدة تفريقهم عنه إلى اعالي القلعة ارسل كبير جماعته ليضع البنج بالطعام الذي كانوا يصلحونه في الأوعية وبعد قليل احضر الطعام على الموائد وصف امام عمر وجماعته فقال لهداد إن هذا الطعام هو لكم وأما انا فلا أرى أن آكل إلا من الطعام الذي اعتدت عليه واحضرته معي ثم أمر أن يؤتى بالطعام فأسرع العيارون وجاءوه به فوضعوه أمامه واخذ في ان يأكل وأمر حاكم القلعة ان يجلس على سفرة الطعام مع جماعته فامتنع تأدباً منه وقال حاشاي ان اتطرف بمثل هذا امام سيدي الأكبر فقال له إني اريد ذلك فإنك صرت منذ الآن من عظماء رجال السودان وسيد عليهم ومثل ذلك هؤلاء الرجال فسأقيم كلا منهم على مقاطعة واخص بهم السيادة والتعظم على البلاد فلم يمكنهم المخالفة وجلسوا جميعهم باحترام وابتدأوا يأكلون ويتعجبون من كرامة اخلاق ملوك السودان صاحب القدر الرفيع الشأن إلا انهم ما لبثوا ان وقعوا إلى الأرض كالاموات فأمر عمر العيار ان يذبحوا عن آخرهم ما عدا الأمير هداد فذبحهم العيارون ودخل هو إلى غرف القلعة وفتش بها فواحدةواحدة حتى رأى الأمير حمزة في حجرة في اسفل القلعة مظلمة فدنا منه فك قيوده وعرفه بنفسه ففرح فرحاً عظيماً وشكر منه وصعدوا في الحال إلى العيارين وتركوا القلعة وأخذوا معهم الأمير هداد ولما صاروا في الخارج اضرموا النار بها وركبوا المراكب وساروا عليها يتقدمون الى الشط الذي خرجوا منه وعمر يخبر الأمير حمزة بما كان من أمره مع عمرلا بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وكيف قد شوه وجهيهم وقد سعى إلى خلاصه بعد ان قاتل العرب قتالاً عجيباً وارعبوا السودان وفرهود فسر الأمير من ذلك وقال ان الله سبحانه وتعالى قد أجاب طلبنا ونظر غربتنا فلم يقبل بذلنا وإلا لو فقدت انت وانا وتمكن منا الأعداء لتفرق العرب وانقرضت هذه الدولة ، فقال له عمر اني اشور عليك شوراً به الخير للعرب وهو ان تضمهم جميعاً إلى ملك واحد تقيمه عليهم منهم فيكون للعرب ما للعجم من العظمة علو المنزلة فيصيرون أكثر من الآن انتظاماً وترتيباً لأنهم يميلون الى ذلك وعندك علم بيكار الأشتهار فيجمعون تحيهم فهم أفضل من قوم كسرى واعظم واشد بسالة قال هذا يكون عندما يروق صافي عيشنا ويطلب الفرسان ذلك واما أنا فلا اسألهم فيه ولا اريده لنا يظنون أن غايتي ان ابقيهم عندي على ذلك إلى الأبد فيتركون بلادهم وأوطانهم مع أنهم مختلفو الأجناس.وربما كان أكثرهم يرغب في الرجوع

الى اهله وملكه وخجله مني جعله ان ينضم الينا ويبقى برفقتنا في وقت القتال .

وما زالوا حتى وصلوا إلى الشاطىء فخرجوا الى البر وساروا من هناك على اليابسة حتى وصلوا إلى معسكر العرب ولما عرف الفرسان بوصول اميرهم كادوا يطيرون فرحاً وسروراً وتقدموا منه وسلموا عليه وهنأوه بالسلامة ودارت الافراح فيما بينهم وعمت الكبير والصغير والرفيع والوضيع ودخل الأمير بعد ذلك على زوجته مهردكار فوجدها منفردة تنتظره ولما رأته دنت منه وقبلت يديه وهنأته بالسلامة فشكرها وقال لها ان الله لم يسمح بذلي وإيصال الأذى الي ، قالت هو يعرف ذلي وتغربي فلا يريد أن يضر بي قط فأسأله تعالى ان يفصم هذه الحال، ويريحنا من شر الحروب والعذاب ويرجعنا إلى مكة لنقيم على الراحة أيامنا الأخيرة . قال أني اعرف جيداً ان أباك وقومه ولا سيما بختك لا ينفكون عن عداوتي الى ان ينقرضوا او اموت وتنقرض العرب ولو كنت اعرف انه يسر برد الشيء الذي اخذته وغصبته إياه وبترك عداوتنا لفعلت فكل ما نحن به من اعمال بختك الوزير لانه هو الذي دس الينا سم هذه الفتنة وبعث بالعيارين عمر بن شداد وصقلان الرومي قالت اني أظن ان أبي يرضى عنك إذا رجعت اليه علم بيكار الأشتهار. قال أني ارضى ذلك أعرف ان فرساني يتكدرون منه لأنه هو الذي يجمعهم لو كنت اعرف اكيداً انه يرضى به لفعلت ولو اغظت قومي وتفرقوا عني حيث يعودون إلى بلادهم واعود الى بلادي ويطيب لي ولهم الوقت ولو كنت اعرف ايضاً ان أباك يحسم النزاع بيني وبينه إذا أرجعتك اليه لفعلت وما ذلك إلا حفظاً لراحتك لأنك تتعذبين بسببي كثيراً ولم نر سنة واحدة وافتك براحة وامان. فشعرت مهردكار أن قلبها قد نزع من جسدها عند سماعها كلامه وكانت لا تنتظر ان تسمع منه مثل هذا الكلام القاسي غير ان حبها له جعلها ان تبتسم في وجهه وقالت وإن كان يرضى ابي ذهابي اليه لكني اعرف مؤكداً انك تفضل ان ترى الدنيا قاعاً صفصفاً وان ترى الأرض خاوية خالية وروح الله يرف على وجه المياه من ان تراني بعيدة عنك وانا ارى ان كل ما اتحمله هو هين وسهل في وجل غايتي أن اراك تاركاً الحرب كارهاً في سفك الأدمية وقتل النفوس التي حرمها الله وقطعت بعد ذلك الحديث معه . ولما انفردت بنفسها جعلت تبكي على حالها وعلى ما اصابها وخافت من ان يتم ما قاله من أنه يرسلها الى أبيها وجعلت تتردد في صدق مودته وقالت في نفسها امثل هذا الكلام يخرج من فم الأمير حمزة وانا اعهد به الأمانة وحفظ العهد. نعم لا اظن انه كغيره من الرجال الذين إذا طال زمن زواجهم كرهوا نساءهم او بالحرى أخذوا في ان يكرهونهن شيئاً فشيئاً ولا سيما إذا لم يلدن اولاداً وكان قلبها وضميرها يتنازعان في هل أن حمزة يفعل ما يقول او أنه حكى ذلك ليمتحن محبتها وليعرف هل باقية على حالها او أنها ضجرت لكثرة ما لاقت من الأهوال والعذاب والأسفار الطويلة واخيراً سلمت بأمرها إلى الله سبحانه وتعالى

وأضحت تترقب الأحوال وتلاحظ اعمال الأمير لتعرف ما هو عليه من قبلها ومع كل ذلك فانها كانت لا تفتر عن البكاء قطعاً في كل فرصة والأمير يلحظ منها ذلك ولا يريد أن يمنعها عنه وقد ظن ان هذا من جراء الغربة والوحدة وطول العذاب وصار في بعض الأحيان يعرض عنها وفي البعض الآخر يسليها وبقيت على ذلك مدة كما سيأتي معنا في غير هذا المكان ولنرجع إلى ما كنا عليه وبات الأمير حمزة في تلك الليلة إلى ان كان صباح اليوم الثاني نهض من نومه فسمع طبول السودان تضرب والعساكر تتهيأ فأمر ان تضرب طبول العرب وتركب فرسانها وابطالها وبأقل من ساعة انتشبت نيران الوغى بين الفريقين ولعبت بنحورهم اسنة البين . واحتاط بهم جيش الهلاك ولم يرغب بالتخلي عنهم والانفكاك، وباتت الارواح عرضة للفناء ، والاجساد محط للتعب والفناء . فكان ذاك اليوم عظيم الأهوال ، فيه طال حمرة واستطال. وطرح بأجساد الرجال إلى حفر الوبال . وشك بصدور الابطال. عوامل الرماح الطول . ومددهم على بساط الرمال . وفعل مثله باقي رجاله . وابطاله وأفياله . وكذلك فرهود فإنه قاتل وما قصر في ذاك النهار . وانزل على العرب شهب الخراب والدمار وأذاقهم من العذاب والبوار لأنه كان كما تقدم معنا من الفرسان الذين اشتهروا في ذاك الزمان وعند المساء ضربت طبول الانفصال فرجعوا عن الحرب والقتال ونزلوا في الخيام وكلهم من التعب على جانب عظيم وقد ملئت الأرض من القتلى والجرحى فلم يكن يسمع إلا اصوات أنين وبكاء وتشكيكاً ولا سيما عساكر السودان فأظهر فرهود من ذلك غيظه وكسره وقال لمن حوله من رجاله إني اتعجب من ثبات العرب واقدامهم فقد اهلكوا منا كثيراً ولا يزالون على حالهم وهذا يؤدي بنا إلى الخراب والدمار فقال له عمر بن شداد الحبشي لقد عرضت لك قبل الآن ان العرب قوم صناديد وجل غايتهم القتال فيساعد بعضهم بعضاً ويتسع عليهم المجال ومن اللازم ان تبارزهم واحداً فواحداً ومتى قتلت رؤوسهم هانت عليك الأذناب قال إني في الغد لابد ان افعل ذلك وكان في نيتي ان اطلب البراز في هذا اليوم غير ان الكبر منعني وعزة نفسي اوقفتني عن ذلك فانتظرت ان يكون منهم اولاً فلم يفعلوا واما الآن فقد نويت كل النية ان أباكر إلى طلب ابطالهم وفرسانهم ولي ثقة كبرى ان افنيهم عن آخرهم ولا أبقى منهم من يخبر بخبر وبات فرهود على هذه النية وفي صباح اليوم التالي نهض من فراشه فركب فرسه وتقلد بسلاحه وسبق الجميع الى ساحة القتال وكانت العرب قد ركبت وتقدمت وفي نيتها الهجوم إلا أنها توقفت عندما رأت الأمير فرهود يصول ويجول ويطلب مبارزة العرب وفي الحال صدمة الأمير حمزة صدمة جبار صنديد وأخذ معه في الحرب والقتال والطعن بالسمر الطوال وقد اتسع عليهما المجال فانتقلا من مكان إلى مكان فتارة في اليمين وطوراً في الشمال حتى تعجبت منهما الابطال وتحسرت من قتالهما الرجال وهما لا ينفكان عن بعضهما

البعض وقد جوفا بأرجل جواديهما جنبات تلك الأرض وما زالا على مثل ذلك الى ان خيم الظلام فافترقا على سلام ورجع العسكران الى الخيام وباتوا الى الصباح فتقدموا يطلبون الحرب والكفاح وإذ ذاك توسط فرهود الميدان ولعب على الأربعة أركان وأراد حمزة ان ينزل اليه وإذا به رأى الأمير سعد اليوناني قد صار أمامه ولما رآه فرهود تعجب من صغر سنه وقال له إني احزن عليك ايها الغلام فارجع الى امك ولا تخاطر بنفسك فما انت من رجال سيد السودان. فقال له سوف ترى مني ما تتحدث به الفرسان جيلاً بعد جيل كيف لا وجدي الأمير حمزة البهلوان وأبي عمر اليوناني عروس الميدان .

ثم صاح به وارتمى عليه فالتقاه فرهود بقلب أشد من الجلمود وهو يتعجب من عمله وصغر سنه مع أنه ولد امرد بديع الصورة جميل الخلقة فغاصا تحت القسطل والتحما كأنهما من أمتن القلل هذا والأمير حمزة في حيرة عظيمة من وقوع ابن ابنه بين يدي فرهود وقد خاف كل الخوف وكاد يطير صوابه فتقدم قليلاً ينتظر ما يكون من أمره يلاحظ حركات القتال وقد عزم على ان يخلصه إذا رآه وقع بين يدي خصمه او لاحظ منه التعب والإنحلال ولو كان ذلك عليه عار وشنار إلا انه كان يرى منه ما يدهشه لأنه كان ينقض على فرهود انقضاض الصواعق ويدور من حواليه كقضاء الله المنزل ولا يترك باباً من ابواب الحرب مفتوحاً وما زالا على مثل ذلك الى ان انقرض النهار ومضى بأنواره وتقدم الليل ونشر ظلامه على العباد وحينئذ افترق المتقاتلان على سلام ورجع الأمير سعد فأخذه جده وقبله بين عينيه وجاء به إلى صيوانه وهناك قال له إني اشكرك على ثباتك وإقدامك ولكني الومك على نزولك إلى فرهود وهو مجرب من الدهر وبطل عظيم وأنت لا تزال صغير السن وقد خفت عليك كثيراً وصرفت النهار على مقالي النار قال إني بعنايتك ودعاك لم يلحق بي ضرر وقد أمرتني امي ان ابرز اليه ولولا انها تعلم اني كفوءله لما سلمت معي بذلك فأرسل الأمير في الحال إلى طوربان فحضرت بين يديه فقال لها كيف تلقين بولدك الى الخطر وتسلمين معه بقتال فرهود وليس لك سواه فما ذلك إلا جنون وبغض منك له فقالت كلا يا سيدي فاني خرجت ولدي وربيته بيـدي وبـارزته كثيراً واعرف مقدار شجاعته وإقدامه قال كيف كان فهو دون فرهود الآن لأنه صغير السن وهذه المرة الأولى التي دخل ساحة القتال وكان من الواجب ان يتطرق على الحرب شيئاً فشيئاً وليس من الإصابة ان يقاتل اول مرة مثل فرهود قالت إني ارغب في ان يكون بطلاً عظيماً اي لا يكون دونك في ساحة القتال ومن يقاتل في اول مرة مثل فرهود وهو بهذا السن لا يصعب عليه فيما بعد ان يزيح الجبال وجل غايتي ان يكون له اعظم اسم بين العرب فإما ان ينال ذلك وإما ان يموت ويندثر فخير له من ان يكون جباناً او يخاف مبارزة فارس او

بطل إن كان كفرهود او كغيره فقال سعد لا تخف عليّ يا جداه فالعمر محدود وإني اعرف صغر سني وإني لست أعد الآن من الأبطال ولو كان عظمي أشد مما هو لما تركت خصمي يفتل العنان ومع كل هذا فلابد لي من قتله وأرجوك ان تسمح لي في الغد بقتاله ثانية لاريك ماذا افعل فيه فقال هذا لا اريده ولا اسمح به فأنا اعرف ان فرهوداً قليل المثال ولا اريد ان يبرز إليه سواي . واما انت فاني اقيمك اميراً على قبيلة الأكراد فتكون رئيس قوم منذ الآن .

فهذا ما كان الأمير وحفيده واما ما كان من فرهود فانه رجع الى صيوانه وهو كثير الغضب ولما اجتمع به قومه وجاء اليه عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسألوه عن حاله في النهار فقال إني اعرف واعترف بأن العرب قوم جبابرة فكل من فيهم يقال كالأسد وقد رأيتم ان الذي قاتلني في هذا اليوم لا يبلغ الحادية عشرة من العمر ومع ذلك فليس هو دون الأمير حمزة في الجولان والأخذ والعطاء وإني أقول الصدق ان حالنا مع العرب في تأخير ولابد لهم من ان يذلونا وقد مال قلبي إليهم ومن عادة الشجاع ان يحب الشجاع فلم يمكن عمر بن شداد ورفيقه يجيبا بشيء ولما اجتمعا ببعضهما قال الواحد للآخر على ما يظهر لي ان العرب ستفوز على فرهود ولابد لهم بعد ذلك من القبض علينا ولذلك ارى من الواجب ان نستعد للسفر والرحيل حتى إذا رأينا الغلبة على السودان غطسنا تحت الظلام وتعمقنا في جنبات الأرض فلا تصل الينا العرب وانا اعرف ان حمزة يطلبنا ولا يتخلى عنا وإذا وقعنا بيديه اهلكنا لا محالة فأجابه رفيقه إلى كلامه واعتمدا على السفر والهرب هذا وقد سرت طوربان بما ناله ابنها من علو الشأن مع صغر سنه وقالت قد صرت الآن اميراً على ثلاثين ألف فارس وإذا اشتد ساعدك لابد ان يزيد جيشك ويعظم امرك بين العرب قال لها سوف ترين ما يكون من امري وإني لا انفك عن طلب المجد وبعد الصيت حتى انالها .

ولما كان الصباح خرج العسكران إلى ساحة القتال واصطفا من اليمين والشمال وترتبا أحسن ترتيب وإذ ذاك سقط الأمير فرهود إلى ساحة الميدان وطلب المبارزة وأن تتقدم إليه الفرسان فصدمه الأمير حمزة وقال له هذا اليوم آخر أيامك وقد عولت أن لا أتركك إما لي وإما لك . ثم هجما على بعضهما هجوم أسود البطاح وتطاعنا بأسنة الرماح وأظهر من براعة الحرب ما يعجز عنه كل فارس جحجاح وقوم نطاح وقد حجبهما الغبار عن أعين النظار وهما مشتبكين أي اشتباك غير خائفين من الدمار والهلاك وبقيا على هذا الشأن نحو ساعتين من الزمان حتى تقصفت في أيديهما عوامل الرماح فألقياها إلى بساط الطباح . وعمد إلى البيض الصفاح لأنها أقرب إلى اختطاف الأرواح . فوقعت على

الطوارق كوقوع الصواعق وتطاير منها الشرار كما يتطاير من أتون النار . إلى قرب العصر وهما على ذاك الأمر . وقد استقتلا وهان عليهما شرب كأس الحمام ولا يرجعان من ساحة الحرب بسلام ولا سيما الأمير حمزة فإنه رأى أن المطاولة تضربه ولا ينال المراد إلا بالجد والاجتهاد فرمى سيفه بأسرع من لمح البصر وقبض على خصمه بيديه وعول أن يقتلعه من بحر السرج ويرمي به إلى الأرض ففعل فرهود كفعله وتقابضا على ظهور الخيول ووقعا إلى الأرض وهما كأسدين درغامين وبلين عظيمين حتى قرب الزوال فطال الأمير حمزة على خصمه واستطال وقد أتعبه وألحق به الكل والملال فأخذه أسيراً وسلمه إلى أخيه عمر فشد وثاقه ورجع من ساحة القتال بعد أن ضربت طبول الانفصال . وهو متعجب من شدة بأس فرهود وعظم ثباته ولما رأى عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي ما حل بفرهود أيقنا بالهلاك وعولا على اتخاذ الوسائل للهرب والفرار فطلبا إلى عساكر السودان أن ترجع إلى المدينة وتبقى فيها لبينما يريان طريقة لخلاص فرهود فرجعوا جميعاً تحت ظلام الاعتكار ودخلوا البلد وهم بحزن عظيم على ما حل بسيدهم فرهود ورجع حمزة إلى معسكره ودخل الصيوان وطلب الطعام فأكل حتى اكتفى واجتمع حواليه فرسانه وأبطاله وجلسوا في مراكزهم حسب العادة وحينئذ أمر بأن يقدموا منه فرهود فجاءوا به اليه وهو مقيد بسلاسل من الحديد . ولما رآه الأمير قال له ويلك يا فرهود لقد تعديت وأطلت العناد على حين لم يكن بيني وبينك عداوة ولا سبب موجب لإهراق دماء العباد وقد غششت بخداع عمر بن شداد وصقلان حتى ألقيت بنفسك إلى حضر الذل والإهانة فكيف ترى نفسك الآن وقد وقعت في يدي وصرت قادراً على هلاكك وان أفعل بك ما أريد فأطرق برأسه إلى الأرض حياء وسقط الدمع من عينيه لأنه رأى أن الموت أهون عليه كثيراً من سماع هذا الكلام فعرف منه حمزة ذلك فقال له وإن كنت أعرف أني لو وقعت بيدك لما عفوت عني بل قتلتني أو أرسلتني إلى بلاد العجم إلى عدوي كسرى أنوشروان فإني أرغب في خلاصك والعفو عنك لأنك من الفرسان الأشداء ونفسي تأنف أن تهين بطلاً استحق العظمة والفخار فإذا آمنت بالله تعالى وتركت الحقد من قلبك حللتك من قيدك وأطلقتك . فلما سمع فرهود هذا الكلام من الأمير حمزة زاده خجلاً فوق خجل وعلم أنه صادر عن نفس كريمة ولذلك قال له إني لا ألام أيها الأمير على قتالك فقد دفعت إليه بكتابة من كسرى أنوشروان جاء بها إليّ الخبيثان المحتالان ولم أكن أعرف ما أنت عليه من كرامة الأخلاق وحسن الطوية وسلامة الباطن وأني الآن لا أعرف بما أجيبك وقد حملني الخجل ما لا يطاق فإما أنك تقتلني فبحقك وأكون قد لاقيت شر عملي وجوزيت على طيشي وتعدي عليك وإما أنك تقبلني في خدمتك كواحد من رجالك الأمناء ومساعديك الذين في خدمتك وأقاتل بين يديك إلى أن أموت وأدفن تحت التراب . وما تطلبه إلى من

أن أعبد الله فهذا لا أمنع عنه قط بل أفعل كل ما تأمرني وأكد أن لا دين ولا دنيا تفصلني عنك منذ الآن فقد وقعت محبتك من قلبي وما عدت أقدر أن أفارقك ولا دقيقة وسأسلمك عمر بن شداد وصقلان الرومي حال وصولي إلى المدينة لأنهما بدون شك يستحقان القتل والصلب والرمي بالحجارة فلما سمع الأمير حمزة هذا الكلام وتأكد أنه صادر عن نية سليمة وقلب صادق تقدم منه واعتذر اليه وحل وثاقه وقبله بين عينيه وقال له أنت مخير بالبقاء معنا أو الذهاب إلى بلدك ومعسكرك ولا أبخل بأن أقدم لك أحسن مقام عندي قال اني لا أدخل المدينة الا وأنت معي لأنها أصبحت ملكك وصرت أنا تحت طاعتك ثم ان فرهود جلس على كرسي بقرب الأمير حمزة وقدم اليه الشراب ونهض فرسان العرب واحداً فواحداً وصالحوه وسلموا عليه وترحبوا به وقد ارتاحت ضمائرهم ورغبوا في مصاحبته ولاح لهم من معنى كلامه أنه صادق كل ما قال ثم ان حمزة سأل فرهود عن اليقظان وهل أحسن معاملته وكيف لم يركبه ويحارب عليه فقال اعلم أيها الأمير العظيم أن قلبي مال كثير إلى هذا الجواد ونويت أن أضحي بلادي وملكي في سبيل وجوده على الدوام عندي وحالما وصل إلي أردت أن أركبه فامتنع علي وكان يظهر العجائب فأخذتني الدهشة من أعماله وزادت رغبتي فيه وقلت إنه يحفظ مودة صاحبه ومن ربّاه فلا يدع غيره يعلو ظهره وقلت لا بد على طول الأيام أن ينساك فوضعته في مكان منفرد ووكلت بخدمته جماعة من العبد يقدمون له العلف جيداً ويحسنون سياسته ويعاملونه بلطف ومع كل ذلك فإني حاولت مراراً أن أقرب منه فيضرب بقوائمه كل من يقرب منه وقتل جماعة من خدمي وعليه فإني أعدك بهذا الجواد بحظ كرامة صاحبه فلا يعلوه غيرك فبشراك به وبشراه بك وقد حق له أن يفعل اكثر من ذلك فاغرورقت عينا الأمير شوقاً الى جواده وتمنى أن يراه وخاف من أن عمر بن شداد وصقلان يفعلان بالجواد شيئاً .

فقال لفرهود أطلب إليك الآن أن ترجع إلى المدينة وتقبض على الشقيين اللذين فيها قبل أن يقع منهما ما يكدرنا وفي الغد أنزل أنا إلى المدينة مع أصحابي وفرساني ونرى ما يكون هناك قال أريد أن تذهب معي يا سيدي قال هذا لا يمكن ومن الواجب أن تذهب بنفسك أولاً وتعلم قومك بما كان بيننا وبينك وتعرض عليهم عبادة الله عز وجل فمن قبل كان صديقنا ومن امتنع كان عدونا وأعظم من كل شيء أن تسرع بما أمكن للقبض على عمر بن شداد وصقلان لأشفي غليل قلبي منهما . فأجاب فرهود في الحال وودع الأمير وجماعته بعد أن عزمهم الى ضيافته وان يدخلوا في الصباح الى المدينة وسار إلى أن جاء الأبواب فوجدها مقفلة فطرقها وأخبر قومه بوصوله ففرحوا الفرح العظيم وفتحوا له فدخل واجتمعوا حواليه وهنأوه بالسلامة وسألوه عن سبب خلاصه فأخبرهم بحلم الأمير

حمزة وعرض عليهم أن يكونوا على محبته ومحبة الله فأجابوه وقالوا كلنا بين يديك نتبع أمرك وكل ما وقع عليك يقع علينا قال إني صرت من هذه الساعة من فرسان العرب وسأسير أين ساروا وأقاتل من يقاتلهم وسأختار منكم من يمكنه المسير معنا وقد عاهدته على ذلك إلى آخر نسمة من حياتي ولكني لا أرى بينكما عمر بن شداد وصقلان الرومي قالوا إننا حين دخولنا البلد ما رأيناهما وفتشنا عليهما فلم نقف لهما على خبر فثبت لدينا أنهما خافا من أن يقبض عليهما الأمير حمزة فطلبا الفرار فلم نلتفت إلى ذلك وعذرناهما لعلمنا أنه يطلبهما دون غيرهما فاغتاظ من ذلك وامر أن يعاد التفتيش والبحث في كل مكان ومن يراهما يقبض عليهما فدار البحث والتفتيش في كل ناحية دون الحصول على جدوى فثبت عنده هربهم وكان يريد أن يرضى الأمير بتسليمهما اليه ويقدم له برهاناً على خلوصه ثم افتقد الجواد اليقظان فوجده في مكانه فسر من عدم تمكنهما من أخذه وفي صباح اليوم التالي خرج فرهود وأعيان قومه إلى العرب فوجدوهم يستعدون للنزول إلى المدينة فالتقوا ببعضهم البعض ورجعوا أمامهم وبالاختصار أن ذاك اليوم كان عظيماً جداً فرحت به اهل المدينة فرحاً لا يوصف وقد أخبر فرهود الأمير بغياب اللصين فاغتاظ وقال إني لا أزال أترقبهما ولا بد من أن الزمان يساعدني فأنتقم لنفسي منهما ولكني أريد أولاً أن أرى الجواد وحين دخوله المدينة سار الى الاصطبل وامر أن يفتح له ففتح الباب ورمى الأمير بنفسه عليه وعانقه وهو يبكي من الفرح وأما الجواد فإنه جعل يصهل ويمرغ رأسه عليه وكانا كعاشقين متحابين التقيا بعد فراق طويل حتى تعجب منهما كل من رآهما .

ثم فك الأمير قيوده وأخرجه إلى الخارج وسلمه إلى سايسه الذي كان اعتاد عليه وقد هنأ الجميع أميرهم بجواده ورجعوا إلى دار الضيافة وهم على الولائم والافراح وقد سروا بنهاية الحرب وقرب رجوعهم الى الأوطان .

وبعد أن انقضت مدة الولائم والدعوات قال الأمير لفرهود انه لم يبق في وسعنا أن نبقي في هذه البلاد كثر من خمسة أيام ومن ثم نرحل إلى حلب قال إني بانتظار أمرك وسأدبر نفسي في هذه المدة .

وأخذ منذ تلك الساعة في أن يجمع العساكر التي يريد أن يأخذها معه وأقام مكانه وكيلاً على بلاد السودان من أبناء عمه وأوصاه بالعدل والحلم وأن يكتب له على الدوام عما يحصل في بلاده وفي نهاية الخمسة أيام ودع قومه وداعاً أخيراً وقد بكوا على فراقه وبعده وأخذ عياله وجميع ما يحتاج إليه من المؤن فحمل الأحمال وكذلك العرب فإنهم حملوا بأحمالهم وودعوا أعيان المدينة وقد سار مع فرهود من قومه نحو ثمانين ألف مقاتل وانضموا جميعاً إلى علم بيكار الاشتهار ورفع فوق رؤوسهم ونقلوا عن تلك الأرض

ومشوا في طريق مصر كل سيد على قبيلته يتأثرون ذاك العلم الكبير الذي كان يجمعهم وداوموا المسير إلى أن وصلوا إلى أراضي مصر فضربوا الخيام هناك ونزلوا للراحة وبلغ اسمندار حاكم مصر برجوع العرب منصورين ونزولهم في ضواحي المدينة فخرج في الحال مع أعيان قومه وسلموا عليهم وترحبوا بهم كل الترحيب وعملوا لهم الولائم والأفراح وذبحوا الذبائح وكانت أيام إقامتهم هناك على الحظ والانشراح والفرح والمسرة يأكلون ويلهون وما من أمر يكدرهم وقد مضى عليهم نحو عشرة أيام على مثل ما تقدم وفي اليوم الحادي العشر اجتمع جميع فرسان العرب في صيوان اليون شاه وأخذ كل مركزه بعد أن استقر بينهم الجلوس ودار الحديث في مسائل الملوك والسلطان وأحوال الشعوب ومن منهم الفائز ومن المذلول وحينئذ نهض المعتدي حامي السواحل وقال للأمير حمزة اعلم أيها الأمير إننا اتفقنا على أمر ونريد أن نعرضه عليك ولا أظن إلا أنك تستحسنه وتوافقنا عليه وتسعى به معنا في الحال إذا كان لا بد منه قال قل فإني أرغب على الدوام في كل ما به الخير والنجاح لكم ولقومي أجمعين قال أنت تعلم أننا لا بد أن نرجع إلى حلب ونقيم هناك نترقب أحوال كسرى أنوشروان وتعرف أيضاً أن الحرب لا بد أن تعود إلى الانتشاب بيننا وبينه ما دام بختك بن قرقيش حياً لأنه يستغنم الفرصة المناسبة ليحمله على الانتقام منا وإن كان كسرى لا يرغب في أن يذكر له أحد اسم العرب غير أن هذه الحالة لا تدوم معه ولا بد من أنه ينهض ذات يوم بهمة أشد من الماضي وهو سلطان عظيم وملكه واسع جداً حتى انه ولو ما قصدنا الحرب فلا بد أن نقصده نحن لننهي واقعة الحال ولا يمكننا أن نتفرق إلا بعد انقراض الدولة الكسروية أو وقوع المصالحة وارتياح الفكر من جهة الحرب وانقطاعها بينا ومن حيث أن الحرب لا بد منها ونحن حتى الساعة متفرقين الكلمة ولم ينتظم لنا حال كالواجب تارة يتفرق بعضنا وطوراً يغيب أميرنا وعليه فقد اعتمدنا أن يكون لنا من السلطة والعظمة ما لغيرنا ونكون كلنا تحت سلطة واحدة ورأى واحد وعلم واحد نجتمع تحته ونسير أين سار قال إني أمتعكم من ذلك فانظروا فيما يوافق قال المعتدي ان ما يوافق لبقاء ذلك هو أن نختار لنا واحداً نقيمه ملكاً علينا ويكون له السلطان المطلق فينا برضانا واختيارنا ويكون على الدوام تحت العلم الأكبر ويختار له مدبرين ومشيرين ووزراء وكما للعجم ملك عظيم واسع السلطة عند العجم يكون للعرب كذلك قال إن هذا يوافق حالتنا فاختاروا لكم ملكاً وافعلوا ما أردتم بذلك فأنا كواحد منكم أرغب في إنماء سلطتنا وعلو شأن العرب لا يكون كسرى أرفع مقاماً بل بما نقلنا العظمة والسلطان الذي له الينا . قال المعتدي إننا اتفقنا واخترنا أن يكون صاحب هذا العلم أنت ونحن بأجمعنا من أتباعك وفرسانك قال هذا لا يمكن أن يكون ولا أقبله قط وإذا كنت أنا الملك انقرضت دولة العرب في الحال ووقفنا في مضايق كثيرة لان من الواجب على الملك أن لا

يباشر بنفسه حرباً ولا قتالاً بل يبقى على الدوام تحت الأعلام ليعطي الأوامر ويدبر الملك إلى غير ذلك وأما أنا فإني رجل حرب ولا يمكن إذا وقع قتالاً بيننا وبين أحد إلا أكون بالأول وعليه فمن يقوم تحت العلم ومن حوله من الفرسان والأبطال فضلاً عن أني لا أرغب ذلك ولا أرضاه . فرأى الجميع كلامه حقاً ونظروا إلى بعضهم وتكلموا بهذا الشأن إلى أن قر رأيهم وحينئذ قال المعتدي اعلم يا سيدي أن كلامك هذا هو الصواب وقد اتفقنا أن يكون الحاكم علينا ابنك عمر اليوناني فرفض عمر هذا الأمر وقال اني كأبي أرغب في كبح أعدائي وأن لا أرى الحرب قائمة وأتفرج عليها فاختاروا لكم ملكاً غيري فعادوا إلى التفكير وأخيراً اتفقوا وقالوا للأمير اعلم أيها السيد أننا اتفقنا اتفاقاً باتاً وما من عذر فيه لك وهو من أوفق ما يمكن أن نعتمد عليه وذلك أن ابنك قباط هو ابن مهردكار ومهردكار هي بنت كسرى أنوشروان فقد اخترناه علينا ملكاً لأنه من نسل ملكي أصلي وأبوه ابن أمير مكة المطهرة وفارس العرب وأشرفهم وعليه فيكون اختيارنا في محله وما ذلك إلا من توفيق الباري .

فلما سمع الأمير كلامهم عرف أنهم أصابوا إلا أنه خاف من أن يقع تحت لوم مهردكار إذا أصيب ابنها بمصيبة فهي لا ترغب أن تفارقه ولا تريد أن يكـون إلا امام أعينها بعيداً عن الحكم والقتال ولهذا السبب منعته من ركوب الخيل ومباشرة علم القتال مكتفية بأن علمته العلوم الأدبية والسياسية ولذلك قال لهم إن ابني قباط وإن كان يوافق أن يكون ملكاً فهو صغير السن لا يحسن القيام بمثل هذه الادارة وتدبير شعب عظيم كالعرب قالوا إننا نعرف صغره لكننا نؤكد أيضاً أنه أكثر ادراكاً وأوسع عقلاً وأعظم سياسية من أكبر ملوك العالم وأفضلهم لا سيما وأنه تحت وصايتك فما يفوته تبعثه إليه وتحمله عليه فلم يرد أن من أن يظهر لهم غايته فقال لهم إني أعرف مؤكداً أنكم مصيبون الاصابة غير أني لا أرغب في أن أوقع تحت لوم مهردكار وتعنيفها فإذا وقع على قباط أمر مكره تصرف كل حياتها بالبكاء وتقول لي لولاك لما وقع على ابني ما هو كذا وكذا فإذا كان ولا بد من ذلك فاذهبوا أنتم إليها وأعرضوا عليها طلبكم فإن أجابت كان خيراً وإلا أنا فلا أخابرها بمثل هذا الأمر . فقالوا لا بد من الذهاب اليها ثم اجتمع سادات العرب جميعاً وساروا إلى صيوان مهردكار فدخلوه وسلموا عليها وجلسوا بين يديها فترحبت بهم وأكرمتهم واحتارت في سبب مجيئهم جميعاً دون أن يكون معهم الأمير حمزة سألتهم عن ذلك . فقالوا لها اننا جئنا إليك بأمر يتعلق بك وحدك ونريد أن نعرضه عليك وتوافقينا في الحال وبه الخير لنا ولابنك قباط قالت أخبروا ماذا تطلبون . فأخذوا في أن يشرحوا لها بالتفصيل كما ما أرادوا وما دار بينهم وبين الأمير حمزة من الكلام وكيف أن أمر قباط منوط لخاطرها فإذا لم تقبل لا يوافق الأمير فقالت إني أعرف أن هذا الرأي موافق للعرب ولا بد

لهم منه إلا أنه لأخفاكم أنه حتى الساعة لم يأتني غير هذا الولد فهو عندي بمنزلة عظيمة وأخاف أن يصاب بمصيبة فأقع مع زوجي بالقال والقيل لأني كارهة الدنيا وأطلب الموت لا محالة فهو أحب لدي من أن يبعد عني يوماً واحداً أو أسبوعاً ومع ذلك كيف لم يأت الأمير معكم إلي وهو ابنه وشريك الرأي فيه .

قالوا إننا عرضنا هذا الرأي عليه فأجاب أنه يوافق كثيراً إلا أنه قال لنا أن مهردكار لا توافق عليه فأخذنا على أنفسنا العهد بأن نأتي إليك ونسألك في ذلك ونطلب اليك قبوله إكراماً لخاطرنا ولا ريب إذا قبلت أنت التماسنا ورجاءنا سر هو أيضاً . قالت وكيف أيضاً لم يحضر الأمير عمر العيار قالوا لم نعرض عليه أمر مجيئنا لعلمنا أن الأمير حمزة هو أخوه وأنه لا يرضى إلا إذا رضيت أنت فرضاك هو في أول الجميع فانظري في طلبنا نظر حسن الصالح فإن العرب باحتياج إلى ذلك فأطرقت إلى الأرض برهة صامتة وقد خجلت من سادات العرب وأخيراً رفعت رأسها وقالت لهم أنتم تعلمون أن ابني اذا أجبتكم سيصير رأساً عليكم ويلتزم أن يحمل أثقال العرب جميعها ولو كنا بسلام لكان ذلك موافقاً له لكننا في حروب وأهوال وأبوه لا ينفك عن القتال وعدوكم هو من أقوى العالم وأكثر ملوك الأرض رجالاً وأبطالاً فلو حاربناه إلى آخر الزمان وفي كل يوم شتتنا له جيشاً لقدر على الإتيان بغيره وتجديد القتال ولا سيما أن عنده رجل خبيث ماكر وهو بختك بن قرقيش فإذا عرفوا العرب اتخذوا لهم ملكاً مطلقاً وسلطاناً عظيماً ليقيموه في مقام كسرى هاجوا وماجوا وجددوا والحرب والقتال وربما احتالوا على قتل ملككم أو على قتل ملككم أو أسره أو إبعاده عن أعيني فأقع في حزن وأنزل إلى قبري كئيبة ومع هذا فأنا أجيب طلبكم لكن بشرط أن يأتي معكم إما الأمير حمزة وإما عمر وتحلفون لي اليمين على محبة الملك وتكلفون السهر على راحته فهذا جل ما أريده منكم وأرجوكم بأن لا تتكدروا والسلام .

فلما سمع الفرسان والملوك كلامها سكتوا ولم يجيبوا بشيء وقد علموا أنها أصابت في طلبها هذا لأن ولدها وحيد عندها وتحبه كثيراً ولا تريد أن تسلم به ولا سيما لأنها غريبة وما من سلوة لها غيره وساروا من هناك وجاؤوا صيوان اليون شاه ودخلوا على الأمير حمزة فوجدوه بانتظارهم . فقال لهم ماذا فعلتم قالوا إننا عرضنا الأمر لمهردكار فأجابت تحت شرط أن تكون أنت معنا أو أخوك الأمير عمر فتسلمنا قباط فتكلفه لها ولذلك نريد منك أن تذهب معنا اليها . قال هذا لا يمكن ولا أريد أن أكلم مهردكار بمثل هذا الشأن فطلبوا إلى عمر وسألوه أن يذهب معهم فقال لأخيه أتريد أن أذهب وأكفل لها إبنها . قال لا تسألني بهذا الشأن فإذا شئت أن تذهب فاذهب من نفسك . فوقف عمر العيار وقال هلموا يا سادات فإني أسير معكم لعند مهردكار وأجيب إلى ما تطلبه ولو بعت في ذلك

حياتي ثم إنهم ساروا جميعاً حتى دخلوا صيوان مهردكار وجلسوا عندها وقالوا لها قد جاء معنا عمر العيار وهو يجيب إلى كل ما تطلبينه فالتفتت إليه وقالت له أنت تعلم بأن لا أولاد لي غير قباط ولم يشأ الله أن يرزقني غيره فأحبه كثيراً لكني لا أريد أن أمنعه عنكم بل أرى من الواجب عليه أن يكون معكم وفيما بينكم غير أنه لم يكن رجل حرب ليدافع عن نفسه فهل تكفل لي حياته من الأعداء وأن تحامي عنه مع الفرسان والأبطال فقال كيف وهو ابن أخي وأحبه كروحي فإذا أصيب بنائبة كنت له الفداء قالت اصبر حتى آتيكم به . ثم دخلت داخل الصيوان وجاءت بالأمير قباط وقالت هوذا سلطانكم فاقربوا مني لأسلمكم إياه فجاؤوا إليها جميعهم فأخذت اليد الواحدة وسلمتها لسادات العرب جميعاً واليد الثانية سلمتها إلى عمر العيار وقالت إني أقسم عليكم بالله العظيم رب زمزم والحطيم وأستحلفكم بكل نبي عظيم هل تخدمون ولدي خدمة أمين وتحامون عنه من أعدائه وتسهرون على حياته كما يريد الله سبحانه وتعالى فأقسموا لها جميعهم وشدد الأمير عمر الأقسام ودنا من ابن أخيه فقبله وقبلوا بعضهما وبكيا وحينئذ سلمتهم ابنها فأخذوه وساروا إلى صيوان اليون شاه وسلموه إلى أبيه فقبله وقال هذا ملككم فارفعوه عليكم وهذا الذي اخترتموه فلا أمنعكم عنه فدعوا باسمندار وسادات مصر وقاموا بالولائم والأفراح من أجل ذلك مدة سبعة أيام وقد زينت المدينة أبهى زينة إكراماً لسلطانهم الجديد وفي آخر الأيام جاءوا بصولجان الملك الذي أعدوه له فسلموه له وألبسوه تاج سليمان وثوبه ووقفوا بين يديه ودعوا له بالعظمة والجاه وكان قباط ذو ذكاء مفرط فخطب على العرب بوجوب محبتهم لبعضهم البعض لملكهم وبذلك يسودون على العالم أجمع فضجوا بالدعاء له وسألوا أن يختار له وزيراً من الأمراء ليكون مدبراً له فقال إني اخترت عمي الأمير عمر العيار وغيره لا أريد مدبراً ولا مشيراً ولا وزيراً فاستحسن الجميع هذا الرأي وقالوا لقد نظرت موضع النظر ورأيت الرأي الحسن فقال عمر هذا لا أريده ولا أحب أن أكون وزيراً فإني لا أفارق حمزة ولا أرغب مثل هذه الرتبة . فقال السلطان قباط إني أحب أن لا تفارقني فاستمد رأيك وأكون على الدوام تحت رعايتك وما من وسيلة للامتناع فأنتم أخترتموني سلطاناً وصار من الواجب عليكم طاعتي فإذا امتنعت تكون هذه أول عصاوة وقعت منك فالتزم عمر العيار أن يقبل ذلك بالرغم عنه وفي الحال رفعوه إلى كرسي بجانب السلطان قباط وأفرغوا عليه ثياب الوزراء المزركشة وباركوا له بهذه الخطة المهمة وقد أشرط على ابن أخيه أمام الجميع أن يكون على الدوام مطلق الحرية بالذهاب والاياب في الليل أو في النهار حيث لا يستغني عن محافظة العسكر والنظر في أحوالهم ومراقبة جواسيس الأعداء فاستحسن الجميع طلبه ووافق عليه سلطانهم وهكذا أقيم على العرب رئيس عام بصفة ملك عظيم ووزير أول وكتبت الرسائل وبعثت إلى كل البلدان التي دخلت في يد الأمير

حمزة بأن الملك الأكبر هو (قباط) ابن الأمير حمزة وأن الوزير الأكبر هو عمر العيار .

وصرف العرب بعد ذلك مدة شهرين في مصر وهم بالفرح الزائد وكلما يقع بين العرب يؤتى به أمام الملك الأكبر فيحكم وينهي بالعدل والانصاف وكل ما يأمر به يجري في الحال وقد طاع العرب أمر ملكهم وأحبوه حباً زائداً وسروراً من فصاحته وبراعته وذكائه مع صغر سنه . وفي اليوم الأول من الشهر الثالث أخذوا يفكرون في أمر السفر وقد استشاروا ملكهم في ذلك فقال هذا لا بد منه وسأعين يوماً مخصوصاً للرحيل وفيما هم على مثل ذلك وإذ دخل عليهم رسول وبيده كتاب وهو من الأعجام فنظر في الجميع ثم تقدم من الملك الجالس على الكرسي الكبير فدفعه إليه بعد أن قدم له شروط الخدمة فنظر فيه وإذا به من كسرى أنو شروان ففضه ودفعه إلى الوزير عمر ليقرأه فقرأه وإذا به .

(من كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان والعظمة وعلو الشأن وحاكم الدنيا بما فيها من بني الإنسان وكل ما عليها من الشجر والنبات والحيوان وناشر على البر والبحر سلطان الراحة والأمان إلى جماعة العربان وسكان البادية الذين تعدوا حقوق سطوتي وخرقوا شأن سلطاني وحرمتي .

لقد فعلتم معي الأفعال القبيحة وتعديتم علي وأخذتم بنتي بالرغم عني وسلبتم أموال مملكتي وأهلكتم قسماً من جيوشي وبالأخير تعدت عبيدكم علي فقتلوا مرزباني وأحطوا من قدري وأذلوني فغضيت الطرف عنكم وعولت أن لا يذكر لي اسمكم إلى آخر الأيام فاتركتكم وشأنكم وفي ظني أنكم ترجعون عن غيكم وتذهبون إلى بلادكم وتتركون عنكم هذا التعدي وترجعون فتفرقون فبلغني أنه كان من أمركم أن تعاظمتم واتخذتم سكوتي من باب العجز والضعف واجتمعتم وأقمتم لكم سلطانا عظيم لقبتموه بالسلطان الأكبر وبعثتم إلى البلاد التي هي في ملكي وتحت حكمي تعلنون ذلك وتدعوهم إلى طاعتكم فعرفت وتأكدت من وزيري بختك أن قصدكم نقل عظمة العجم إلى العرب ونويتم على عزلي من تختي وانحطاطي وقرض الدولة الكسروية القديمة العهد ولذلك أخطركم إني منذ الآن سأسير في أثركم واقتفي أخباركم وأحاربكم الحروب الهائلة حتى تفنون ولا يبقى منكم إنسان ولي القدرة الكافية على ذلك وأنتم تعلمون عظم سلطاني وعلو شأني وأقسم بتربة أجدادي الأكاسرة أن أفعل أعظم مما أقول إلا إذا رجعتم عن خطابكم ونزعتم التاج عن ملككم الجديد وتفرقتم وكل واحد سار إلى بلده فتحفظون بذلك حياتكم وينضم الشر والخصام وكفاكم ما فعلتم والخير والنجاح لمن نظر موضع النظر والويل والهوان لمن كابر وعمل على العصيان .

ولما سمع العرب هذا الكتاب سكتوا منتظرين ماذا يجيب السلطان قباط وما فيهم

من قبل أن يتقدم أو يبتدىء إلى أن قال أسمعتم أيها السادات ماذا يطلب إلينا كسرى فبماذا تريدون أن تجيبوا قالوا أنت الآمر فينا والملك علينا فأجب ما تختار فأمر أن يكتب الجواب كما يأتي .

(بسم الله الواحد القهار والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله)

(من السلطان قباط بن الأمير حمزة فارس برية الحجاز سلطان العرب والمصريين والأحباش ومن جاراهم إلى جده كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان) .

لقد وصلتني كتابتك واطلعت على كل ما تضمنته فإذا بها ما يدل على عتوك وتفاخرك وقد تعجبت من ذلك مع أنك تعلم أن العرب أصحاب سلطان ولهم الكلمة النافذة في كل مكان وفخرهم مثبوت منذ قديم الأزمان والأعجب من ذلك أنك تعرف يقينا أننا أعداؤك الألداء خربنا في بلادك وقللنا من سلطانك فأنزلنا من قدرك ولا تزال حتى نبيد شوكتك ونمحو عظمتك فلا يقال فيها بعد كسرى أنو شروان وتطلب إلينا ترك سلطاننا كأنك لا تزال الحاكم فينا أو كأننا ما برحنا في حوزتك وتحت أمرك وفعلنا شيئاً مخالفاً لغايتك والحاصل فليكن عندك أكبر علم أننا ما فعلنا ذلك إلا لنقل الفخر الذي كان للعجم إلى العرب ونهدم الإيوان ونقيم في المدائن حاكماً عليها من قبلنا ولا تندهش من ذلك لأننا عبيد الله نؤمن به ونسأل منه التوفيق وهو قادر على إغاثتنا ومعونتنا وإجابتنا إلى كل ما نسأله ولو كنت تعبده لما فعلنا بك شرا فكن على حذر عما قليل ترانا حول مدينتك وفرساننا تصيح بفرسانك فتشردهم والسلام لمن أحب العدل وكره في الاسراف وأطاع أمر الله بلا تشكك ولا خلاف .

وعندما قرأ الكتاب سر منه العرب بأجمعهم ففرحوا الفرح العظيم ومن ثم دفعوا الكتاب إلى الرسول فأخذه وسار يطلب المدائن وبعد مسيره قال السلطان قباط اعلموا أيها السادات أن كسرى ما كتب مثل هذه الكتابة إلا وفي عزمه أن يحاربنا ولا ريب أنه جمع القوات اللازمة وصار يعزم على حربنا واتباع آثارنا ونخاف أن يأتي حلب أو يذهب إلى مكة فيدكها قبل أن نعرف شيئاً من أخباره ونحن بعيدين من ديارنا وأرى من المناسب أن نرحل من هذه الأرض ونترقب حركات كسرى وأعماله فاستعدوا السفر حتى أننا بعد أيام قليلة نكون بعيدين عن هذه الديار فقال الجميع أننا على حضر ولا بد من مسيرنا وعلى كل فاننا ننتظر إشارة منك ثم نظروا إلى الأمير حمزة فوجدوه يبكي وقد نزل الدمع من عينيه وبل شعر ذقنه فاحتاروا في أمره وقالوا له لما هذا العمل ونحن الآن في فرح لا يوصف وكل شيء لدينا حسن ومن ولدك يخرج الفخر للعرب وربما للعالم أجمع قال إني

أعرف عظم الفرح الذي نحن فيه ولكني على الدوام أتذكر شيئاً وأنا أعد نفسي به وقد عولتم على الرحيل قبل الحصول عليه واطمئنان بالي من جهته فقالوا ماذا تطلب وأي شيء تتذكر ولا نعلمه نحن قال أنتم تعلمون جيداً أني في هذه الأرض فارقت أخي أندهوق بن سعدون وكان بعهدي أن لا تطول غيبته وأن لا أبارح هذه الأرض قبل عودته وحتى الساعة لا أعرف شيئاً عنه ولهذا تروني أبكي ومن منكم لا يعرف فضل هذا الأمير وحبه لنا وقد صرف قسماً من حياته بجد واجتهاد في خدمتنا ولولاه لما أقام شأن العرب في حال غيابي فقال الجميع لقد أصبت وإننا متأثرون من بعده مثلك ولا نعرف في أي يوم يرجع إلينا ولا ماذا صار به وربما سار إلى حلب أو إلى مكة قال هو لا يزال في بلده فلو جاء لتبعنا إلى التكرور وإني أقسم بالله لا أبرح من هنا إلا عندما يرجع إلي أندهوق بن سعدون ولا بد لي من الاستطلاع على أخباره والاستكشاف عن أحواله وأطلب إلى أخي عمر أن يسرع إلى سرنديب الهند ويطفىء من قلوبنا هذه الجمرة وكان عمر العيار يرغب في أن يعرف ماذا وقع على أندهوق لأنه كان يحبه كثيراً فأجاب طلب أخيه وقال له أبشر أيها الأمير فالذي تطلبه أنت أرغب به قبلك وأعرف أني أعود إليك بالخير المفرح إن شاء الله ثم التفت إلى السلطان واستأذنه بالمسير فأذن له وسار من هناك بعد أن ودعهم جميعاً ولا زال في مسيره إلى أن قرب من سرنديب الهند فنظر إلى بعد عن واد قريب واقع بين أكام تلك الجهة فعرج إليه وكان لابسا ملابس الدراويش حتى من رآه لا يمكن أن يعرفه ولو كان أخوه فتقدم من أحد الحراس وسأله لمن هذا المعسكر قال لأندهوق بن سعدون وهو من كرماء الناس يكرم الضيوف ويحب الدراويش وينعم عليهم فاذهب إليه ففرح عمر عند سماعه هذا الكلام وأيقن بنجاح سفرته من أولها وتقدم إلى صيوان كبير مفتوح الأبواب من الحرير الأخضر ولما قرب من الباب وقف فيه فوجد أندهوق جالساً ومن حوله ثلاثة ملوك من ملوك التركمان فدنا عمر إلى بين يديه وسلم عليه ثم طلب إحسانه ومدحه وأثنى على كرمه فأعجب من فصاحته وأمر أن يدفعوا له ستمائة دينار فدفعوها فأخذها على يديه وجعل ينظر فيها كأنه غير راض بها فقال له أندهوق كأن لم يعجبك هذا المقدار من المال فقال كلا فإنه لم يرضني وأرى من العيب على رجل عظيم مثلك أن يعطني مثل هذا العطاء القليل فتكدر أندهوق وقال غير هذا العطاء لا أعطي فإذا قبلته خذه وإلا فاتركه وتكون قد تركت نصيبك قال إني لأذهب من هنا ولا أقبل هذا العطاء وأنا رجل طماع أحب المال وعند من مثلي كثيرون ينتظرون أن أجيئهم بالمال فادفع لي حالا ما يرضيني قال وما هو المبلغ الذي يرضيك قال أخبرني أولا عن قيمة المال الموجود في خزينتك حتى أعرف ماذا أطلب وإلا أخاف أن أطلب مبلغاً ويكون في يدك أكثر فيفوتني فزادت حيرة أندهوق ولعبت نار الغضب في قلبه منه إلا أن لم يرض أن يكسر

بخاطره لأنه فقير ودرويش من رجال الله وفيما هو على مثل ذلك وإذا بشيحان كبير عياري عمر وقف في الباب وقال لا تكن طماعا أيها الدرويش فتحرم نفسك من نصيبك فخذ هذا المال فيكفي لأصحابك وإذا امتنعت ضربت بهم فالتفت عمر وراءه وعرف أنه لحق به غير أنه لم يندهش من ذلك بل قال كلا لا أبرح من هنا حتى يرضيني هذا الأمير ويذهب معي إلى حيث أقول له وأما أندهوق فإنه عرف شيحان واندهش من وجوده وقال له من هذا وقد اشتبه فيه ربما يكون عمر العيار قال هو فخر العرب ودليلهم ونبراسهم في ظلامهم الحالك . فنهض أندهوق واقعاً وسقط عن كرسيه ورمى بنفسه على عمر وسلما على بعضهما وقد ترحب أندهوق بضيفه مزيد الترحاب وأبدى من المسرة ورب الكعبة لا أمنع عنك شيئاً وكل ما هو لي تحب أمرك خذ منه ما شئت وابق ما شئت. فشكر منه عمر ونزع عنه ثوب الدراويش وتقدم من الحاضرين فسلم عليهم جميعاً وأخبر أندهوق عن كل ما وقع مع العرب في بلاد السودان من الأول إلى الآخر فتعجب من ذلك وقال لا ريب أن الأمير حمزة موفق جداً وأن الله سيعطيه أضعاف ما أعطاه وقد عملتم خيراً وحسنا بانتخاب الأمير قباط سلطانا عليكم فالآن تمت سعادة العرب ونالوا من المجد ما لم ينله كسرى لأن في معسكرهم من الفرسان ما لم يوجد في أقطار الدنيا نظيرهم ومن ثم أخذ أندهوق يخبر عمرا بكل ما من أمره بعد مفارقتهم .

وهو أنه ما زال سائراً بجماعته يجدون الليل والنهار حتى قربوا من سرنديب ولم يبق بينها وبينهما إلى مسافة يوم فنزلت العساكر في تلك الأرض وباتوا إلى الصباح وفي الصباح نهض أندهوق وركب على ظهر فيله وأمر جماعته أن يتبعوه وسار مسرعاً لوحده على أمل أن يسيروا خلفه عند إتمام ركوبهم وبعد مضي ثلاث ساعات أقبل على المدينة فوجدها محاصرة من كل الجهات وحولها ثلاثة ملوك التركمان . فقال والله مثل هذا كنت أخاف ولم يأخذه صبره ولا توان لأنه يعرف أن هؤلاء الملوك ما جاءوا بعساكرهم إلا عندما تأكدوا غيابه فأراد أن ينادى باسمه ويرعبهم بعمله فصاح فيها وحمل عليهم وهو ينادي ويلكم أوغاد غير أمجاد قد جاءكم قضاء الله الذي لا يرد ولا يدفع صاحب هذه البلاد أندهوق ابن سعدون ساقي الأعداء كأس المنون وهز الرمح بيده وانحذف على التركمان فاضطربوا وارتاعوا وهم يعلمون بعظم بطشه ومقدرته ويتأكدون أن وراءه جيوشه الجرارة وخافوا أن يخرج رجال المدينة إذا عرفوا بوصوله إليهم فقاتلوه بخوف واضطراب ثم انهزموا أمامه إلى جهة الشمال وهو يضرب في أقفيتهم ويبدد شملهم حتى بعدوا عن المدينة نحو عشرة أميال وهناك تأكدوا أن لا أحد غيره من الفرسان في أثرهم فعادوا إليه واحتالوا به وقوموا أسنتهم وصوبوا نحوه نبالهم وهو يضرب فيهم ويمدد الرجال على الرمال وقد ترك القتلى كوما أشبه بالجبال وما زال على مثل هذه الحال حتى لعب به التعب والملال لأنه كان يقاتل

ألوفاً ومئات ألوف وهو وحيد منفرد بنفسه وقد بعد عن المدينة وعن قومه وإذ ذاك تمكن منه أعداؤه فقبضوا عليه وأسروه وكبلوه بالحديد وساروا به وهم فرحون غاية الفرح مسرورون بما وصلوا إليه وثبت لديهم أنهم بعد أن يرجعوا إلى بلادهم يجمعون ما قدروا على جمعه ويجددون الحمل على سرنديب فيفتحونها أو أنه لا بد لجماعته وعمه أن يقصدونهم إلى بلادهم فيبددون شملهم ويخلوا لهم الجو .

فهذا ما كان منه ومنهم وأما ما كان من جماعته وعساكره فانهم بعد أن انتهى انتظامهم ساروا في أثره بترتيب حتى أقبلوا على المدينة فلم يروا حولها أحد فتقدموا من الأبواب فوجدوها مقفلة فطرقوها وعرفوا بهم أهل البلد فخرجوا إلى ملتقاهم وجاء عم أندهوق إليهم وسلم عليهم وسألهم عن ابن أخيه فقالوا له أنه سار إلى ملتقاهم وفي ظننا أنه دخل المدينة ، فقال لا ريب أنه يحارب الأعداء وقد أجلاهم عن البلد وسار في أثرهم ولا بد أنهم يجتمعون عليه ويضايقونه ويأسرونه قالوا لا بد لنا من الاستطلاع على خبره لنعرف أين راح وكيف ذهب وإن كان أسيراً إلى أي مدينة أخذ لأن بلاد التركمان واسعة جداً ونحن لا يمكننا أن نتفرق فيها ونخاطر بأنفسنا قبل أن نتحقق بأننا قادرون على خلاصه فتوافقوا على ذلك وبعثوا بالجواسيس يكشفون لهم الأخبار فهذا ما كان منهم وأما ما كان من ملوك التركمان فانهم أخذوا أندهوق وساروا به إلى بلادهم ووضعوه في السجن ووكلوا به الحرس والعيارين وكان السجن في قصرهم يرونه في كل يوم ليتأكدوا بقاءه وأخذوا يدبرون في جمع العساكر ليجددوا الحملة على بلاده ويفتحوها ومضت عليهم الأيام على مثل ذلك والناس ترد أفواجاً أفواجاً تتفرج على أندهوق بن سعدون وتتعجب من كبر جثته وعظم هيكله ويتحدثون بأعماله وبسالته وصارت النساء تأتي إليه أكثر من الرجال .

قال وكان لهؤلاء الملوك الثلاثة عدو قوي يقال له الأمير ماجد بن سالم وهو كثير الأعوان وفي كل مدة يسطو على بلادهم وينهب ما تصل إليه يده منها فتقوم الحروب بينهم فتارة يفوزون عليه بالنجاح وينهبون ماله وطوراً يفوز هو ولا يدع لهم راحة إلى أن كان تلك الأيام بلغ الملوك أن الأمير ماجد يستعد ليأتي إليهم فهاجوا وماجوا واتفقوا أن يجتمعوا بعساكرهم ويذهبوا إلى بلاده ويفاجئونه بغتة ولما اعتمدوا على ذلك دعوا إليهم ببناتهم وكان لكل واحد منهم بنت فقط وعند غيابه يعهد إليها بتدبير الأحكام عنه إذا كان لا يأمن لغيرها ولما وقفن بين أيديهم قالوا لهن إننا سائرون الآن إلى بلاد الأمير ماجد ولا بد لنا من الفوز عليه في هذه المرة تماما ولا نرجع عنه حتى نهلكه وتنخرب بلاده وسنأخذ معنا العساكر والرجال ونقفل عليكن باب المدينة فلا تدعن أحداً يدخل أو يخرج قبل أن نعود

نحن إلى المدينة خوفاً من أن يأتي العدو إلى المدينة أو ربما جاء جماعة أندهوق لأجل خلاصه وإياكن من أن تدعن أحدا يقرب منه أو يسعى في خلاصه فوعدنهم بكل خير وأنهن يحافظن على الأحكام حق المحافظة ولا يفعلن إلا ما يرضيهم إلى أن يعودوا إلى المدينة . وإذ ذاك رحل الملوك بعساكرهم يقصدون بلاد الأمير ماجد وهم يؤملون بالسلب والنهب والحصول على الخيرات العطيمة في هذه المرة وبعد ذهابهم صار الثلاث بنات يأتين الديوان وينظرن في أمر الدولة ويقمن مقام آبائهن إلى أن كان ذات يوم طلبت إحداهن أن يأتوا بأندهوق إلى الديوان فوافقتها الاثنتان الباقيتان وفي الحال أحضر مقيداً إلى بين أيديهن فنظرن إليه وتفرجن عليه وكن يسمعن بذكره وعظم قدره فتأكد لديهن ذلك وجعلن يسألنه عن بلاده وقومه وهو يخبرهن بكل ما كان من أمره ويحدثهن بحديث العرب مع كسرى ووقع في قلوبهن بمركز عال وكل واحدة رغبت في أن تسعى في خلاصه لتأخذه لنفسها وتسير به إلى بلاده وما من واحدة أظهرت غايتها للأخرى لكن كن لحظن على بعضهن ذلك وبعد أن أبقينه عندهن في الديوان نحو ساعة أرجعنه إلى سجنه حياء من الناس إلى أن كان المساء رجعن إلى قصورهن وأمرن أن يؤتى به إليهن وصرن يمزحن ويلعبن معه ويسألنه إذا كان يرغب الرجوع إلى بلاده وهو يجيبهن عما بفكره غير أنهن كن لا يعرفن كيف يتصرفن باقي أمره .

وفي ثاني الأيام أخبرن بأن الأمير ماجد وصل الى ضواحي المدينة وقد خالف في الطريق فلم يلتق بآبائهن فتكدرن وعظم عليهن الأمر وخفن أن يفتح البلد قبل أن تصل العساكر وتدفعه ولم يكن إلا القليل حتى حاصر البلد وجعل يرمي عليها السهام والنبال واحتاط بها برجاله من كل الجهات الى أن كاد يفتحها وحينئذ اجتمع البنات إلى بعضهن وقالت الواحدة وأنتم تعلمون أن الأمير أندهوق هو فارس عظيم وبطل جسيم وما منا ولا واحدة إلا أحبته وتمنته وعليه فلكي ننصف بعضنا أرى من الواجب أن نتفق نحن الثلاث ونعرض عليه أنفسنا ونسأله أن يتزوجنا ويكون لنا جميعاً وحينئذ نطلقه ونرد اليه سلاحه ونأخذ عليه العهد بأن يردع عنا الأمير ماجد ويستلم البلد فاتفقن على مثل هذا الرأي ودعينه إليهن وعرضن عليه ما تقدم فأجاب إني لا أرغب في الإمتناع إذا كنتن على دين الله سبحانه وتعالى وما من مانع يمنعني عن الزواج أو يمنعني عن الزواج أو يمنعكن فقلن له إننا على دين الواحد القهار ثم تقدمن إليه ففككن قيوده وسلمنه سلاحه وأخبرنه بأمر الأمير ماجد فوعدهن بكل جميل ونزل إلى فيله فركبه وأخذ جماعة من أهل البلد ومن العساكر المتخلفة للمحافظة وسار حتى وصل الأبواب فأمرهم أن يفتحوها وكان عندها جماعة من الأعداء فلم فتحت قصدوا الهجوم فصدهم أندهوق بفيله وصاح فيهم وردهم إلى الوراء وهو يضرب في أقفيتهم ويبدد شملهم ولما سمعوا صياحه وأنه على ظهر

الفيل تفرقوا عنه إلى أن خرج بمن معه وجعل يضرب فيهم بصمصامته ويدحرج الرؤوس كالأكر على الأرض حتى التقى بالأمير ماجد فتجاول وإياه ساعة من الزمان ثم ألقاه قتيلاً على بساط الأرض وهجم على جماعته ومن خلفه رجال التركمان حتى فرقوا الجميع وأجلوهم عن المدينة ورجعوا كاسبين غانمين وقد لموا العدد والخيول وكل ما كان للعدو وحينئذ جمع البنات كبار أهل البلد وقلن لهن إننا باتفاق مع أندهوق وقد سلمنه إليه البلد وعاهدناه على أن يتزوج بنا ونكون له فمن منكم يقبل ذلك كان له الخير العظيم ومن امتنع جازاه بالهلاك والإعدام فقالوا إننا بأجمعنا نرضى ذلك ونتمناه لأن مثل أندهوق بن سعدون يحب ويخدم ويفدى بالنفوس وتقدموا منه وسلموا عليه وأبدوا طاعتهم بين يديه فمدحهم ووعدهم بكل نجاح وعقد له على البنات الثلاث وتزوج منهن واحدة بعد الثانية وصار يأتي الديوان وينهي ويأمر وأصلح شأن الأحكام .

وبعد نحو خمسة أيام رجع ملوك التركمان إلى البلد وكانوا وصلوا إلى بلاد الأمير ماجد فلم يروا أحدا وعرفوا أنهم خالفوه في الطريق فانحطوا على بلاده ونهبوها وما تركوا بها عقالا ورجعوا على أعقابهم قبل أن يفعل هو كذلك في بلاده وداموا المسير حتى وصلوا إلى قرب البلد فوجدوا القتلى ممدودة وما رأوا ولا واحد من الأعداء فتعجبوا كل العجب وقربوا من الأبواب وأرادوا الدخول وكان أندهوق عرف ذلك فبعث اليهم بأعيان المدينة يخبرونهم بالواقع فإذا أجابوا سمح لهم بالدخول وإذا امتنعوا خرج إليهم وجازاهم بالهلاك لأنه غير مسرور منهم فخرج الشيوخ وأوقفوهم عند الأبواب وقالوا إن حاكمنا لا يسمح لكم بالدخول فتعجبوا من كلامهم وظنوا بأن الأمير ماجد دخل البلد فارتاعوا وسألوا من هو حاكمكم وهل لكم حكام غيرنا قالوا نعم لما جاءنا الأمير ماجد وحاصر المدينة اتفقنا مع أندهوق بن سعدون وسلمناه الحكم وزوجناه ببناتكم فخلص المدينة وقتل الأمير ماجد وحكم فينا بالعدل والإنصاف وهو كذلك يعاملكم ولا يريد أن يجازيكم على أعمالكم معه إلا بالخير والحسنى فإذا قبلتم بما فعل ورضيتم بزواجه من بناتكم فنظروا إلى بعضهم وتخابروا ملياً وقالوا إن الأمر قد وقع وصار أندهوق صهرنا وهو رجل شريف الحسب عالي النسب صاحب كرامة نادر المثال في زمانه وصار كواحد منا ولا يمكن أن نرى لبناتنا زوجا نظيره ثم أنهم أظهروا قبولهم ورضاهم من عمل بناتهم وأندهوق فرجع الشيوخ وأخبروه بما كان فخر إلى ملتقاهم وسلم عليهم وسلموا عليه وشكروه على فعله وعلى قتله للأمير ماجد وخلاص بلادهم وقالوا كان في ظننا أنك إذا ملكت قيادك تعاملنا خلاف هذه المعاملة لأننا أسأنا إليك وتعدينا عليك مع أنك لم تكن قد فعلت معنا شيئاً قبيحاً فعذرهم على ذلك وقال إن ما مضى مضى وقد صرتم الآن أنسبائي وأقاربي وبلادي وبلادكم واحدة وبعد ذلك عملوا الولائم وأقاموا الأفراح وذبحوا الذبائح ودعوا الدعوات وجددوا

عرس بناتهم وتمكنت محبة أندهوق من قلوبهم وصاروا لا يفارقونه ولا يفارقهم مدة شهر تمام وبعد ذلك أخبرهم بما كان من أمره مع الأمير حمزة وكيف أنه تركه ذاهباً إلى بلاد السودان وقال إني أرغب الآن في المسير إليه فإني لا أرغب في أن أبعد عنه أو أفارقه فهو سيد هذا الزمان وبطله وله عليّ الجميل والأيادي البيضاء فقالوا إننا نسمع بذكر هذا الأمير وأنه عدو كسرى أنو شروان وقد بدد رجاله عدة مرات وأهلك منهم كثيراً فإذا شئت سرنا معك إلى خدمته ورافقناك في سفرك ولا نرجع إلا بعد أن ترجع أنت إلى بلادك فقال حسنا تفعلون ثم أنهم جمعوا رجالهم وفرسانهم ودبروا أحوالهم وأقاموا الوكلاء على البلاد وأوصاهم بالمحافظة على الأمن والعدل وإذا جاءهم عدو يدفعونه وإذا ما قدروا عليه يستعينون بعم الأمير أندهوق ويكون البلدان بلد واحد وإذا رأوا الغلبة بعثوا بالأخبار إلى بلاد حلب ودعوا أهل البلد جميعاً وخرجوا بموكب عظيم يقصدون سرنديب الهند وكان أندهوق قد بعث إلى عمه فأخبره بخلاصه وأنه سيعود اليه بعد أيام . فلما عرف بوصوله خرج لملاقاته مع قومه وترحبوا بملوك التركمان ودخلوا المدينة باحتفال عظيم وسلموا على بعضهم البعض وأقاموا هناك مدة أيام إلى أن ارتاحوا وبعد ذلك نهض أندهوق يطلب الرحيل وقد اصطحب معه رجاله وأبطاله وفرسانه وودع عمه وسار في طريق مصر أي على الطريق الذي جاء منها حتى إذا وصل إلى أرض مصر يسأل اسمندار عن حمزة فإذا كان لا يزال في السودان سار في أثره وإذا جاء حلب سار إلى هناك وما سار إلا القليل ووصل إلى ذلك الوادي حتى جاء عمر العيار كما تقدم معنا الكلام وأخبر كل واحد الآخر ما جرى عليه وعلى قومه وقال عمر أشكر الله يا ابن سعدون حيث رأيتك بخير لأن أخي يتألم كثيراً لبعدك وهو يبكي على الدوام وكان يقصد سلطاننا السفر إلى حلب فأبى الأمير وأقسم أنه لا يفارق مصر إلا أن يعرف ماذا جرى عليك حتى إذا كنت بخير عدت إليه وإذا كنت بضيق سار هو إليك فشكر أندهوق من محبة الأمير وأمر بالمسير في الحال .

قال ولا زالوا سائرين بذلك الموكب وقد سدت جيوش الهند والتركمان الأرض بالطول والعرض إلى أن قربوا من مصر فنزلوا للراحة وسار عمر العيار ليبشر أخاه بقدوم صديقه وأخيه أندهوق ولما أقبل على صيوان أليون شاه ودخله قطب وجهه وعبس وسلم وهو مقطب فردوا عليه السلام وسأله السلطان عن أمره وعن أندهوق فلم يجب بل بقي معبساً فعرف الأمير حمزة قصده وأن له زماناً طويلاً ما أخذ لعياريه شيئاً من المال . فقال له أخبر بالخبر ولك مني ألف دينارفقال السلطان وأني أزيدك فوقها ألفين فقال اسمندر ولك مني مثل ذلك وجعل كل واحد يكرمه بقدر مقدرته إلى أن جمع مالاً كثيراً وحينئذ قال للسلطان أني جئتكم بالأمير اندهوق وقد تركته في أثري وبعد ساعتين يكون في هذا المكان ففرحوا جميعاً ولا سيما الأمير وخرجوا في الحال إلى ملاقاته واجتمعوا به وقبلوا بعضهم

البعض وكان لهم يوما عظيما جدا ذبحوا به الذبائح وضربوا بالدفوف واختلط المقيم بالآتي وعرف أندهوق ملوك التركمان بفرسان العرب وسلطانهم وترحب بهم الأمير كثيراً وعين لهم مقاماً بين الملوك في صيوان أليون شاه وصاروا منذ ذلك الحين مع العرب كأنهم منهم وأولم اسمندار وليمة فاخرة إكراما لأندهوق وللأمير حمزة وزينت المدينة بالزين المرهجة الزاهرة وكان عمر العيار قد دعا بجماعته وقال اتبعوني فقد جئت إليكم بغنيمة باردة فتأثروه فرحين بما سيغنمون ولما صار على أكمة عالية جعل ينثر الأموال وهم يلتقطونها حتى فرغ فتكدر وعاد حزينا وقال لهم يا ليت أموال العالم كلها لي لكنت أفعل بها كما ترون .

وبعد أن صرفوا أيام الأفراح في ذاك المكان ولم يعد من مانع يمنعهم عن الرحيل أمر السلطان قباط بالركوب والمسير فركبوا جميعاً بحسب مراتبهم ورفع علم بيكار الاشتهار فوق رأس السلطان وطاف به الحراس من كل ناحية ومكان ومشت بعد الطوائف على الترتيب طائفة طائفة وكل طائفة عليها أميرها وملكها وقد سدوا الفضاء شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ومعهم من الأغنام والجمال والمؤن ما انتشر إلى مسافة ثلاثة أيام ومن خلف الجميع للحماية بشير ومباشر وكان فرهود في موكبه أيضاً مسروراً بمصالحة الأمير حمزة وبمثل هذا السلطان العظيم وهو يتمنى أن يقع الحرب بينهم وبين كسرى ليقدم للعرب برهاناً على حبه وركب اسمندار لوداعهم كل ذاك النهار وعند المساء رجع إلى بلاده وساروا هم في طريقهم ينتقلون من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد حتى قربوا من حلب وعرف بوصولهم نصير الحلبي فخرج إلى ملتقاهم بقومه وهنأهم بالقدوم ورجعوا جميعاً إلى المدينة وسلم الجميع على بعضهم البعض والتقى الأحباب بالأحباب والأصحاب بالأصحاب وفي اليوم الثاني اجتمع العرب بنصير الحلبي في الديوان فسألوه عن حالة كسرى وما سمع عنه من الأخبار . فقال جل ما نعلمه عنه أنه مضطرب الأفكار وأنه الآن يجمع الرجال والأبطال بقصد الحرب والقتال وقد عاد إلى المدائن عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وأخبرا هناك بأسر فرهود وتملك بلاد السودان وبلغ هذا الخبر كسرى فاغتاظ وبلغه أيضاً أنكم أقمتم سلطاناً عليكم فزاد غيظه ونوى أن يعود إلى ما كان عليه أولاً ولا ريب أن الذي حمله على ذلك هو بختك بن قرقيش . فقال الأمير فليفعل ما يشاء فإننا لا نخافه ولا بد من كيده . ثم أمر أن تقام الأفراح في المدينة ويتزوج من يريد الزواج من بنات البلد وضواحيها وكان الأمير في كل مرة يفعل ذلك ليجعل حلب محطاً محبوباً من العرب ويزيد نسلهم ويختلط الجميع ببعضهم بسبب الزواج فيصيرون أقارب وأهلاً وأحباباً فقامت الأفراح وتزوج في تلك الأيام نحو ثلاثين ألف شاب بثلاثين ألف بنت فكانت الأعراس قائمة في كل جهة والغناء والرقص غير منقطع من الكبير إلى الصغير

وصرفوا على الحظ والملاهي نحو ستة أشهر على التمام حتى غسلوا أقذار التعب والوصب والعذاب الذي لاقوه في سفرهم إلى بلاد السودان ومعهم فرهود وقد رأى لذة عظيمة في صحبة الأمير والعرب ونسي بلاده ووطنه .

وبعد ذلك قال الأمير إننا نريد أن نعرف ماذا يفعل كسرى في هذه الأيام وقد انقطعت عنا أخباره ونخاف أن يكون سكوته هذا لدسيسة يفعلها أو خداع آخر فتؤخذ فيه بغتة . فقال عمر العيار أني أذهب أنا بنفسي كالعادة لأني اشتقت كثيراً أن أرى بزرجمهر وأقبل يديه وأرى كيف صحته فزودوه السلام اليه والشكر وسار يقطع الفيافي والقفار ويخترق السهول والأوعار إلى أن قرب من المدائن وإذا به يرى الجيوش مجتمعة خارج المدينة والخيام منصوبة حولها والخيول تسرح كأنها بعدد الكواكب . فقال في نفسه لا ريب أن كسرى يجمع العساكر لقتالنا وحربنا ونزالنا وقد أخذ بما رأى من كثرة الجيوش والعساكر فاخترق الأقوام المذكورة ومر من بين الخيام وهو كواحد من الأعجام لا يعرفه أحد منهم .

ولما وصل إلى ديوان كسرى واختلط بين الحجاب نظر إلى كسرى فوجده جالساً وإلى جانبه بختك وأعيان العجم وملوك القبائل وكلهم يتخايرون بشأن العرب ويتباحثون في شأن حروبهم وبختك يزيد الطعن في العرب ويحرك من ضغائن كسرى ما استتر وعمر يسمع ويرى ويقول في نفسه لا بد من أن نريك كيف تفعل العرب وبقي صابراً إلى أن انقضى النهار وانصرف كل إلى قصره وسار بزرجمهر إلى بيته فتأثره حتى دخل خلفه ولما انفرد به تقدم منه وقبل يديه وبلغه سلام أخيه سلطان العرب وقال له إني أتيت مستخبراً عن أحوال كسرى ولماذا يجمع هذه العساكر فقال له إني كنت بشوق اليك لأعرف منك ما تفعل العرب وأخاف أن يفاجئكم كسرى وأنتم في غفلة وينال غايته منكم وقد عزم في هذه المرة أن يجمع من العساكر ما تضيق الأرض دونه ولا يعرف له أول من آخر ومنتهى ما عرفت من الذين سيسيرون إلى حربكم أن عددهم ٢١ كرة وقد ابتنى كسرى في هذه الأيام مدينة سماها نهروان وأرسل إليها أفلنطوش وزوبين مع خمسة آلاف فارس من فرسانه لينتظرونه هناك وتعوق منتظراً داهور الهندي لا عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وأخبراه أن داهور هذا من أشد فرسان العالم بسالة وإقداماً لا نظير له في هذا الزمان فعلق به كبير أمل . قال عمر إني لا أفارق هذا المكان حتى يصل داهور وأنظره وأمتحن بأفكاري شجاعته ولكن أريد أن أسألك كيف أن كسرى بعد أن منع على أذنيه سماع ذكر العرب رجع إلى عداوتنا وعمل المحاربة قال إنه كان أصر أولاً أن يترككم وشأنكم لأنه يعرف التعب الذي يلحق به من جرى تأثركم غير أن بختك عندما بلغه ما

فعلتم في السودان تكدر جداً وجعل يدس الدسائس لينهض همة كسرى وقد وجد وسيلة كبرى عندما وصل إليه الخبر بأنكم اخترتم سلطاناً كبيراً عليكم وبلغه ذلك بواسطة نسائه فتكدر كسرى وتصور أنكم ما علمتم ذلك إلا وفي نيتكم نقل كرسي الأكاسرة إلى مكة ونزع الملك منه فخاف على عظمته وشرف دولته فعاد وتحركت في نفسه دواعي الانتقام وعزم أن يفاجئكم في هذه المرة بقوة تفوق الحد وأقسم أنه لا يرجع عنكم إما بخرابكم وإما بخرابه ولو جمع في يوم مليوناً من الأنفس . فقال عمر أننا نستعين عليه بالله خالق الليل والنهار . ولكن أريد أن أسألك هل يوافق أن أخبر أخي بالذهاب إلى نهروان قبل أن يصلها كسرى . قال إني أحب ذلك وإذا وقع بأيديكم زوبين وأفلنطوش فاقتلوهما فقد طال أمرهما لأنها من المكر على جانب عظيم فضلاً عن أن في نهروان مؤنة كسرى وعساكره وقد أرسلها إلى هناك وقصد أن يجعل تلك المدينة محطاً لانتقاله فتكون جامعة لذخائره واحتياجات جيشه على الدوام قال وبقي عمر في المدائن مدة أربعة أيام وفي كل يوم يأتي الديوان ويختلط بين الخدم والحجاب الذين كانواكثيري العدد وعند المساء يعود إلى قصر بزرجمهر ويبيت عنده يلتقط من كنوز جواهر معارفه ويتبرك من أدعيته وتقاوته وفي اليوم وصل الخبر إلى كسرى بقرب وصول داهور فأمر بختك والأعيان أن يخرجوا إلى ملاقاته فخرجوا جميعاً وخرج فيما بينهم عمر العيار ولا زالوا سائرين حتى رأوا العساكر قد أقبلت أفواجاً أفواجاً وكلها من رجال الهند الطوال القامات وأكثرهم يركب الأفيال والخيول العالية ورجلاه تكاد تبلغ الأرض فتقدم عمر ليرى داهور الهندي فوجد بختك وقد وصل اليه وسلم عليه وترجل الجميع للسلام فنظر فيه وتمعنه فأعجبه جداً فاختبره بعقله وعرف أنه من أبطال الحرب والقتال نادر المثال في زمانه ورآه طويل القامة جداً يزيد عن أطوال رجال قومه نصف ذراع عريض الأكتاف جداً واسع الصدر طويله كبير الرأس وعليه من السلاح المتين ما لا يقطع فيه السيف اليمان ولا تخترقه الصواعق الشداد وبعد أن رأى عمر ما رأى قال في نفسه لزم أولاً السعي وراء التدبير وما من الحسن أن أبقى في الديار بعد أن شاهدت ما شاهدت من صعوبة الأمر ولا بد من الاسراع إلى أخي لأدعه يأتي نهروان قبل أن يأتيها كسرى حيث لا يزال مشغلاً بالاستعداد وبداهور ثم أطلق ساقيه وضرب الأرض برجليه فخرج يجري كأنه فرخ النعام حتى وصل حلب بقليل من الأيام ودخلها بسلام وإذا به يرى العرب مضطربين عليه لأنهم رأوه وقد تعوق عن العادة فخافوا أن يكون قد وقع في أيدي الأعجام كون عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي من أكثر أهل الأرض خداعاً فيمكنهما أن يتوصلا إلى معرفته وكلهم بقلق زائد وكدر لأنه إذا فقد لا تقوم لهم قائمة لا سيما وأن كسرى أنوشروان متكدر منه جداً ويرغب في هلاكه ولو بذل نصف ملكه ولما رأوه فرحوا كثيراً وسألوه عن سبب عاقته فأعاد عليهم كل ما رأى

وسمع من الوزير بزرجمهر وأخبرهم عن داهور الهندي وعظم جثته فقال حمزة نحن لا نخاف عظام الهامات والاجسام وإني أريد الآن أن نذهب إلى نهروان ونستولي على المهمات والذخائر ونأسر افلنطوش وزوبين أو نهلكهما مع الذين معهما قبل أن تصل عساكر كسرى اليهما فمن منكم يوافق على ذلك فأجاب الجميع اننا تحت أمرك وامر سلطاننا فإذا أمرنا سرنا في الحال وما زال علم بيكار الاشتهار يجمعنا فكيف مشى نمشي من حواليه وحينئذ أمر الملك قباط أن يستعد الجميع ليرحلوا على عجل في صباح اليوم التالي وعند الصباح ركب السلطان على جواده واحتاط به حراسه وإلى جانبه عمر العيار عند الصباح وبين يديه عياروه وخدمه ورفع علم بيكار الاشتهار فوق رؤوس الجميع ومشت المواكب والكتائب أفواجاً أفواجاً وكلهم كالبحر الزواخر من طوائف مختلفة وزمر متعددة بعضهم عرب بادية وبعضهم مصريون لا مغارية وهنود وأحباش وأكراد وتركمان الى غير ذلك وداموا المسير إلى المساء فنزلوا على بساط القفار وضربوا المضارب والخيام للمبيت وبعد أن اجتمعوا في صيوان السلطان حسب العادة لصرف السهرة نهض الأمير سعد بن الأمير عمر اليوناني وتقدم من عمه السلطان وقال له أريد منك أن تسمح لي بالذهاب في مقدمة الجيوش وأن أتقدمكم أولاً لأن من اللازم أن يسبقكم أحد الفرسان ليشغل أفلنطوش بالقتال قبل أن تأتوا حيث أن كثرة عددنا لا تدعنا نسير بالعجلة الواجبة فلما سمع ذلك الأمير حمزة اعترضه قبل أن يجيبه السلطان وقال له لا يجب أن تنفصل عنا وتتركنا ولا أريد منك إلا الطاعة على الدوام واذا سرت وحدك لا يمكن أن تنال المراد وإذا قسم الجيش إلى شطرين لا يوافق ومن الصواب ان نبقى كلنا إلى بعضنا ولو تعوقنا بزيادة ثلاثة أيام .

قال إني أطيعك يا سيدي بكل شيء إلا في هذا الأمر فلا لأني عزمت كل العزم أن لا أرجع إلا بعد أن أنال مرادي ولا بد من أن أسبقكم وأسير في هذه الليلة لأن لي ثأراً على زوبين الغدار وأفلنطوش وأريد أن أشفي قلبي منهما فقال أهل أن أمك حملتك على هذا العمل وأخبرتك بما كان من أمر زوبين معها قال أني أعرف أنه عدوها وألحت على أن أركب في مقدمتكم بجيشي وأسير فوعدتها بذلك ولا يمكن أن أرجع مطلقاً ولو قطعت إرباً إرباً فغضب الأمير حمزة من عمل طوربان ودعاها إليه في الحال فجاءت وسلمت عليه وسألته ماذا يريدون قال إن ابنك أخبرنا أنك سألته الذهاب أمامنا الى نهروان ليحارب زوبين الغدار ويلقي بنفسه في مواقف الأخطار قالت نعم إني فعلت ذلك ولا أنكره قال كيف يهون عليك أن تخاطري به إلى هذا الحد فإذا قتل تعد ميتة وليس لك سواء فضلاً عن أنك تريدين أن تحمليه على العصيان ومخالفة أمرنا قالت معاذ الله من ذلك وجل ما أريد أن يسعى خلف المعالي لينالها وأنت تعلم أن زوبين أراد الغدر بي وفعل معي أفعالاً

لا يمكن أن أنساها إلى آخر الزمان ولا سيما عندما قصد حرقنا بالنار وحرق أولادنا وعليه فإن ابني كان قد مات من تلك الأيام فزيادة عمره كانت من الله وخير عندي أن يموت تحت ظل السيوف من أن أراه متقاعداً عن أخذ ثأره ومتكلاً على غيره ولا أريد قط إلا أن يذهب لوحده أولاً ويشفي غليل قلبه وقلبي فلما سمع الأمير حمزة كلامها تكدر وعنفها بالكلام وأبى أن يسمح لابنها بالذهاب فخرجت غضبى ونويت كل النية على الذهاب والسفر في تلك الليلة .

وبعد أن نام الأمير حمزة بنحو ساعتين جاءه عمر العيار وأيقظه من نومه قال له إن الأمير سعدا قد ركب بجماعة الأكراد وسار فطلبت إليه أن يرجع فأبى فهو عنيد جداً لا يسمع ولا يصغي فأمر الأمير أن يأتيه بابنه عمر فسار إليه ودعاه إلى أبيه ولما جاء قال أريد منك أن تذهب إلى ابنك وترجعه عن السفر قال إني لا أفعل ذلك وقد تهيئه فما قبل لأنه محب لأمه لا تقبل إلا أن يسير في الأول وعنده أن تدعه وشأنه ففي الصباح يسير في أثره ومهما سبقنا لا يسبقنا بكثير فلا يبعد عنا كثيراً فسكت الأمير وهو غير راض من الأمير سعد ومن عناده وخائفاً عليه أن يرمي به جهله في حفرة الخطر فيعدمه وهو من الأبطال الأشداء .

وعند الصباح أمر العساكر أن ترحل والفرسان أن تركب فرفعت الأحمال وركبت الرجال وساروا يتقدمون خلف الأمير سعد إلى جهة نهروان وكان الأمير سعد بعد رجوعه إلى معسكره أمر الغضبان رئيس الأكراد أن يستعد للرحيل ويأمر الرجال بالمسير بعد قليل ففعل وبعد أن تنصف الليل ركب وركب الغضبان وطوربان وساروا فشعر الوزير عمر العيار به لأنه كان ساهراً على المعسكر فاعترضه فلم يستنفد شيئاً وبقي سائراً بجد واجتهاد وهو يتمنى أن يصل إلى نهروان ليأخذ بنفسه بالثأر من زوبين الغدار وجده أفلنطوش المكار ولما وصلوا إلى قرب معسكر الأعجام كان الوقت ليلاً فوقف سعد ونظر إليهم ثم قال لأمه أعلمي أني لا أريد أن أضيع هذا الوقت عبثاً وفي نيتي ان أكبس الأعداء وأرميهم بالفشل قبل إتيان الصباح قالت أفعل ما أنت فاعل قال إذا ننقسم الى ثلاث فرق ونهجم عليهم بغتة فأنا أتكنى بالأمير حمزة وأنت بالأندهوق ابن سعدون والغضبان بالمعتدي حامي السواحل وإذا رأى الأعداء ذلك ظنوا أن العرب أجمعهم كبستهم فوقعوا بالارتباك وتفرقوا فاستصوبت رأيه وانقسم الأكراد الى ثلاثة أقسام كل عشرة آلاف في ناحية تحت أمرة واحد .

وبينما كان الأعجام نائمون وهم آمنون من حوادث الأيام ولم يكن يخطر لهم قط أن العرب تصل إليهم أو تعلم بهم وإذا بالأمير سعد قد انحط عليهم كأنه قضاء الله المنزل

وانطبقت العرب من كل ناحية وعملوا في أعدائهم السيوف والصوارم وأشغلوهم بالصياح والصراخ وأرعبوهم رعبة عظيمة فاستيقظوا خائفين هائمين وأسرعوا إلى خيولهم فركبوها وجعلوا يدافعون عن أنفسهم وهم بارتباك عظيم والأمير سعد يفعل بهم كما تفعل النار بالقش اليابس وينادي أنا الأمير حمزة العربان فارس هذا الزمان فيقلب الميامن على المياسر والمياسر على الميامن وقد ترك القتلى كالتلول بين يديه وكل من وقع أمامه كان جزاؤه الاعدام . ومثل ذلك فعلمت طوربان والأمير الغضبان وما برحت الحرب قائمة على قدم وساق إلى أن أشرق النهار وبان العدو من الصديق وحينئذ نظر زوبين وأفلنطوش أن عدد الآتين قليل جداً وكانا قد ركبا جواديهما وتقدما للاختباء في جهة المدينة مع كثير من قومهما ولما تحققا الخبر عند الصباح وعرفا أن لا حمزة هناك جمعا فرسانهما من كل ناح وقاتلا كل ذاك النهار إلى المساء وقد قتل في الليل نحو خمسين ألفاً من الأعجام وفي النهار ثبتوا ولم يقتل إلا القليل وفي اليوم التالي اصطف الصفان وترتب الفريقان وكان عدد جماعة افلنطوش نحو أربعمائة وخمسين ألفاً والأكراد ثلاثين كما تقدم فحملا على بعضهما البعض حملات أسود الغاب . وأضرما نار الهلاك والعذاب واشتد الدمار والوبال وعظمت الأهوال وضاقت الأحوال وكثر القيل والقال ودارت عساكر الأعجام بالأكراد وعملت فيهم بالسيوم الحداد ولولا الأمير سعد وطوربان لما ثبتوا ساعة من الزمان لأنهما كانا يفرقان الجيوش فيطرحانها على بعضها البعض ويمددانها على تلك الأرض ثم يعودان إلى جهة العساكر فيريانها قد اهتزت وتأخرت فيقويانها ويدافعان عنها إلى أن يقوما في وسط الجموع وزوبين وأفلنطوش يصرفان الجهد إلى مسك طوربان وولدها ويصيحان بالعساكر أن تهجما عليهما حتى ضاقت من الأكراد الأنفاس ووقعوا بالقنوط واليأس وأيقنوا بالهلاك لا محال إذا لم يطلب النهار سرعة ارتحال وقد خاب رجاء الأمير سعد من قومه وعرف أنه لا يبقى حياً إلى المساء إلا إن كان هو وأمه طوربان فقط وقد تعبا كل التعب لأنهما قاتلا جيشاً عرمرماً كثيراً وأرادا أن ينالا المراد وكانت طوربان عالمة بأنها هالكة فأرادت أن تموت شريفة ولا تؤخذ أسيرة وجل غايتها أن تصل إلى زوبين فتقتله أو يصل اليه ابنها فيعدمه الحياة وبعد ذلك إذا قتلت أو قتل ابنها فلا أسف عليهما وقد خافت كل الخوف من أن تعدم هذه الغاية . ومن أن يحل بها مصاب قبل هلاك زوبين وفيما هما على مثل ذلك وعساكر الأكراد ترجع إلى الوراء والأمير سعد وأمه في وسط الاعداء وقد داروا حواليهما كالبناء المرصوص ووطدوا العزم أن لا يرجعوا إلا بهلاكهما أو أسرهما وزوبين من أفرح الناس بذلك وهو يتعجب من اعمال سعد ومن حملاته التي تزعزع الجبال وإذا بالأصوات قد خرجت من طرف البر وعساكر الهند قد أقبلت وهي مسرعة طالبة القتال وحملت بأسرع من ريح الشمال وفي مقدمتها فارسها الأوحد وبطلها الأمجد وقد حمل على الأعجام حملة الذئب

الكاسر أو الأسد الزائر وقد فرق الجموع وأبلاهم بالويل والفناء وكساهن أثواب الفشل والضناء وهو ينادي أبشر يا سعد قد جاءك الأندهوق بن سعدون يسقي الأعداء كأس المنون وكان من خلفه فرسانه وملوك التركمان فحملوا من كل ناحية ومكان حتى ارتجت من حملهم الأرض واتسع على الأمير سعد وطوربان المكان فطالا واستطالا وضربا في الأعجام بالصارم الصمصام وأبلياهم بالهلاك والاعدام وصارا هما من ناح والأندهوق وملوك التركمان من ناح حتى زاد الصراخ والصياح ولحق بهم التأخر وعدم النجاح فعولوا على الهرب والفرار قبل الهلاك والبوار غير أن الأمير سعد وجماعته سدوا عليهم الطرقات وأحاطوهم بجيوش الممات وطوربان تخترق الصفوف وتبدد الألوف وتود أن تلتقي بزوبين الغدار لتسقيه كأس البوار . غير أن ابنها الأمير سعد سبقها إليه وهو مؤمل على الهرب وسد في وجهه كل مذهب وضربه برمحه فقلبه عن ظهر الجواد فأدركه بعض رجاله وشد كتافه وربطه بالحبال وبعد ذلك التقت طوربان بأبيها فعول أن يضربها بسيفه كيدا وبغضاً لما رآها تفعل هذه الأفعال فأخذت لنفسها الحذر منه ورمته إلى الأرض وأخذوه أسيراً وقرنوه إلى صاحبه وصديقه بالغدر والخيانة زوبين الغدار هذا والقتل عامل في الأعجام من كل ناح وقد سد الله في وجههم طريق الهرب فلم يعرفوا كيف يسيرون ولا في أي طريق ينجون وسعد كالأسد الكاسر لا يقع نظره على واحد إلا وانحط عليه وأعدمه الحياة بأقل من رمشة عين أو أسره وسلمه لأصحابه وكان من جملة الذين أسرهم عمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي . هذا وما جاء العصر من ذاك النار وفي الأعجام من يقدر على الدفاع وقد فنوا عن آخرهم تقريباً ولم يبق منهم إلا النزر القليل الذي لا يذكر ليوصل الخبر ومن ثم أخذ العرب في أن يجمعوا الأسلاب والغنائم والخيول وقد التقوا ببعضهم البعض وسلم الأمير سعد على أندهوق بن سعدون وشكر من غيرته وحبه وكذلك طوربان مدحته جداً وقالت له لولاك أيها البطل الأوحد لما نجحنا قط بل كان لعب المحاق بنا وخسرتمونا فقال من مثل هذا كان يخاف الأمير حمزة وقد بعثنا في أثرك في اليوم الثاني لأننا سرنا كل النهار وعند المساء أمر السلطان بالنزول والمبيت في أثركم على جانب الطريق فامتنعت أنا وأخبرت الأمير بأن في خاطري أن أسير في أثركم فاستحسن هذا الرأي وأذن لي بالمسير خلفكم وأن لا أتهامل أو أتعوق في طريقي بحيث لا يبقى بيني وبينكم إلا مسافة يوم وفي هذا اليوم لا يقع عليكم التأخير ففعلت إلى أن أدركتكم وأنتم على تلك الحالة والحمد لله الآن على سلامتكم وخلاصكم ونوال المراد من الأعداء الأوغاد ولا ريب أن الأمير وسائر العرب سيسرون جداً بالذين أسرناهم ويزول الهم عنهم وينتقمون منهم . فقال سعد كيف لا وأني أريد بيدي أن أقتل زوبين الغدار وأجازيه على فعله القبيح وكذلك جدي أفلنطوش حيث لم يشفق على أمي وعلي بل أراد أن يحرقنا وينتقم منا ظلماً

وعدواناً وبغضاً وأما نحن فإذا قتلناه فبحق واستحقاق قصاصاً على عمله وبعد ذلك رجع العرب إلى الخيام ونزلوا فيها للراحة والمنام وأكل الطعام وكان الفرح شاملاً الجميع وهم بانتظار السلطان وكان الأعجام الذين نجوا من المعركة ساروا هرباً في طريق المدائن يقصدون كسرى أنوشروان حتى وصلوا وهم منقطعون من عشرة وعشرين ينادون ويبكون ويولولون وقد عرف الجميع بما أصاب الأعجام في نهروان ولما وقفوا أمام كسرى سألهم بالتفضيل عما حل بهم فأخبروه من الأول إلى الآخر وأن ابن عمه أسر وزوبين الغدار وعمر بن شداد الحبشي وصقلان الرومي وسكاما وورقا وكثير وغيرهم من الأعيان ولم يبق من الجيش أحد فاضطرب وأي اضطراب وقام وقعد وأرغى وأزبد وجعل يلوم بختك وقال له ما قدمت رأياً إلا وكان به العذاب والهلاك فستطالبك النار بدم الذين قتلوا وهلكوا من قومنا ولا سيما أن العرب يقتلون ابن عمي في هذه المرة لأنه وقع بأيديهم فبرد الله روح آبائك وأجدادك بوادي الثلج وأبدعهم عن لهيب النار قال إني لا أستحق يا سيدي لهذا الملام والتوبيخ فما دبرت إلا حسناً ولم أكن أعرف من أين علم العرب بأن عساكرنا في نهروان وأني أعدك أن في هذه المرة ستنقرض هذه الطائفة انقراضاً تاماً ولا يبقى منها انسان وذلك من سيوفنا وسيوف داهور الهندي وقد تجمع عندنا الآن نحو ٢١ كرة وكل كرة مائة ألف عنان وهذا العدد كاف لأن يبيد فرسان الأرض قاطبة وأما خوفك على ابن عمك فهو من الأوهام لأني أعرف جيداً أن العرب لا تمد اليه يداً خوفاً منا من سطوتنا ولا يقدرون أن يرفعوا يدا على رجال الدولة الكسروية العظيمة . فأمر أن تستعد العساكر للرحيل حتى في مدة سبعة أيام نركب ونسير إلى الهلاك للعرب وخلاص رجالنا ونزع علم بيكار الاشتهار منهم وأن نجمع المؤ ن والذخائر . فأمر كسرى بذلك وأن يكون الجميع على أهبة الرحيل والسفر في اليوم السابع .

قال هذا ما كان من كسرى ولنرجع إلى العرب فإن الأمير سعد أحضر في المساء جده وزوبين وجعل يوبخهما ويشتمهما ويتوعدهما بالهلاك والموت وهما لا يفوهان بكلمة وزوبين يبكي ويتندم وهو لا يلين ولا يصغي . وقد قال لهما لو كان أمركما بيدي لقتلتكما لا محالة ولكن أمركما عائد إلى جدي الأمير حمزة وبعد قليل يكون هنا ولا ريب أنه يقتلكما ويمحو من الأرض ذكركما فقد تعديتما عليه كثيراً . وقد أذاقهما العذاب أشده وجعل يراقبهما بنفسه خوفاً من الخلاص وبقي على ذلك مدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع لاح علم بيكار الاشتهار عن بعد وأشرقت أنواره تضيء في الفلا من تكسر ونور الشمس على جوهرته الكبيرة الوهاجة وعلى عموده الذهبي المصقول الوضاح فخرج إذ ذاك أندهوق والأمير سعد وطوربان وملوك التركمان وتقدموا إلى ملاقاة سلطان العرب ومن معه ولما وصلوا ترجلوا وسلموا فالتقاهم الأمير حمزة وأولاده ومن معهم وسألوهم عما أصاب

الأعجام فأخبره أندهوق بالنصر وبالاستيلاء على كل ذخائر الأعداء وبأسر زوبين وأفلنطوش وعمر بن شداد وصقلان وسكاما فسر سروراً لا مزيد عليه وساروا جميعاً إلى ضواحي نهروان فنظر الوزير عمر في البر فاختار مكاناً عظيماً موافقاً لهم وأمر أن تضرب الخيام فيه وتنزل العرب هناك ويسرحون أنعامهم في مراعيه ففعلوا ولم يكن إلا القليل حتى امتلأت تلك النواحي وضربت الخيام كل أمير إلى ناحية وكل ملك إلى جهة وفي الوسط ضرب صيوان اليون شاه وهو أعلى من الجميع على أعمدة من الذهب متوجة بالجواهر الكبيرة التي لا يوجد مثلها بين عالم الانس الا جوهرة علم بيكار الاشتهار الذي ضرب عند بابه .

وبعد أن استقر بهم المقام عاد أندهوق فأخبره حمزة بما فعل الأمير سعد وكيف بدد شمل الأعداء وأسر زوبين .

فقال سعد إننا كدنا نهلك لولا يدركنا اندهوق ويساعدنا وينتشلنا من أيديهم . فقال الأمير نحن نعرف ذلك ونعرف ان جهلك يلقيك بالمخاطر وإن كنا نتأكد فيك الشجاعة والبسالة التي لا توجد بغيرك من فرسان هذا الزمان لكن يجب من الآن فصاعداً أن تطيع اوامرنا ولا تعصاها وإلا فلا تكون منا فقال له يا جداه انت تعرف ما فعل زوبين الغدار مع أمي في قديم الزمان وكيف قصد إذلالها وإهانتها ولو لم يخلصها ابي لكان فعل ما فعل وبعد غدر بها وبمهردكار وبنا واخذونا هو وافلنطوش الى المدائن واعتمدوا على هلاكنا بانار لو لم يسارع عمر العيار الى خلاصنا فكيف اسمع مثل هذه الاخبار واسكت عن اخذ الثأر ولا سيما ان امي تدفعني اليه وتحركني عليه ولا تريد ان احداً يأخذ لها بثأرها إلا أنا وهي لتشفي غليل قلبها من قتلهما وهاقد انقضى الأمر الآن ولم يبق الا صدور امرك بقتلهما لينا لا جزاء غدرهما فسكت وعرف ان الحق بيده وان قتل زوبين ورفاقه لا بد منه

ومن ثم أمر السلطان ان تقدم الأسارى لبين يديه فجاؤوا بهم مقيدين مذهولين مهانين ولما رآهم الأمير حمزه والعرب تحركت فيهم شهوة الانتقام وقال لهم الأمير حمزة قد آن أوان قتلكم وستجازون على فعلكم قال له زوبين وعلى أي شيء نستحق القتل وما فعلنا معكم شيئاً وقد خدمناكم مدة واخلصنا لكم الود وعبدنا عن صدق نية إلهكم الذي لا إله إلا هو فلم تقبلوا منا ذلك وكنتم تعاملونا ببرود وعدم ركون وذهبتم وتركتمونا غير ملتفتين الينا كأننا من بعض العبيد على أن لو عاملتمونا كانفستكم لوجدتمونا صادقين معكم ولا اظن انكم تجازون الأمناء بالقتل وانتم المعتدون على ما يريده الله سبحانه وتعالى ولا ريب أنه يتكدر من اعمالكم ولا يعفو لكم هذه الخطيئة إلا إذا أصلحتم معنا الماضي وصرتم تعتبروننا كأننا من امراء

العرب ويركن الينا كبيركم وصغيركم ولا أحد منكم يفكر اننا من اعدائه فقال عمر العيار إن الزمن الأول قد مضى ولا طمع لكم بالخلاص قط . فقد عرفناكم وعرفنا انكم من الاشرار الاشقياء من جبلتكم الخيانة والخداع ولو اخي حمزة لما تركناكم في ذلك الزمان لان كلامكم لا نصدقه ولا يمكن ان نصدق الكذب قط بل نعرفه واما الآن فأمركم عائد الى خاطر السلطان قباط سلطان العرب ووليهم .

فقال السلطان لابد من محاكمتكم فإذا كنتم كما قلتم وكان الحق معكم عفونا عنكم وإلا حكمنا عليكم بالقتل أو بالقصاص حسب ما استحقيتم ثم ان السلطان قباط أقام مجلساً للحكم مركباً من اسطون الحكيم والملك اسطفانوس جد عمر اليوناني وثلاثة ملوك التركمان والنجاشي وفرهود ملك السودان .

وقال هؤلاء ملوك ولا يمكن ان يحكموا ظلماً وعين في اليوم الثاني محاكمة المجرمين فمن كان له دعوى عليهم فليدع في ذلك الوقت .

ولما كان اليوم الثاني وجاء الوقت المعين جلس مجلس المحاكمةواحضر المجرمون مقيدين بارجلهم إلى الحضرة وحينئذ تقدمت في الأولى طوربان وادعت على أبيها وزوبين بأنهما كانا في الأصل على وفاق عليها وان زوبين اخذها غدراً وخيانة وقصد اغتصابها فجاء عمر اليوناني وخلصها وبعد ذلك لما غدروا بنا وقادونا الى المدائن ونووا كل النية على قتلنا وهلاكنا بعد ان اذاقونا مر العذاب فقال زوبين إني ما غدرت بها قط وان كنت قد غدرت بها فقد سامحتني في المرة الاولى ولم تطلب الانتقام مني وحيث تركت حقها فلا حق لها من هذا الوجه واما من جهة الغدر فما غدرنا قط ولكن اغتظنا من عمل العرب معنا وكدرنا احتقارهم لنا ففعلنا ما فعلنا واما إحراقهم في المدائن فهذا لا يعنينا لكن من خصائص كسرى الملك الاكبر لان امر الهلاك والبقاء عائد اليه ولا مرة ولا علاقة لنا به ومثل ذلك قال افلنطوش ثم اخبر حمزة بما فعل معه سكاما وورقا وعمر بن شداد وصقلان والحاصل في النهاية حصل حكم المجلس بوجوب قتل الجميع لأنهم خائنون وجزاء الخائن الاعدام وطلبوا الى السلطان ان يأمر بقتلهم فقال إني اوافق على ذلك لأنهم يستحقون القتل لا محالة ولا اظن ان الله سبحانه وتعالى يحاسبنا على قتلهم ولو كانوا كما يزعمون على دين الحق مع أنهم يكذبون بذلك فما هم إلا من الأشرار الكذابين غير اني لا اريد قتلهما إلا بعد ان يأتي كسرى ويتحقق وقوع الحرب بيننا وبينهم وارغب في هذا أن أقتلهم على مرأى من كسرى والأعجام فيعرفون احتقارنا لهم ونحرق قلوبهم عليهم ولا سيما كسرى على ابن عمه ليتأكد بختك أننا ما فعلنا ذلك إلا لنريه انه إذا وقع بأيدينا فعلنا معه ذلك فلم يعترض عليه احد في ذلك واخذ المجرمون الى مواضعهم الى أن يأتي كسرى وبقي

السلطان قباط وجماعته في ذاك المكان مدة سبعة أيام أخر بانتظار العجم الى ان ظهر لهم غبارهم وقد سد الفضاء وملأ الجو الأعلى فعرفوا بوصولهم وحينئذ امر السلطان ان يرافقه الفرسان الى اكمة عالية ليروا جيوش كسرى ويشاهدوا داهور الهندى الذي حكى لهم عنه عمر العيار فجاؤ وا مكاناً عالياً مطلاً على الطريق وإذا بجيوش كسرى اخذت في ان تتقدم وتتوسع في تلك الأرض وهي منتشرة كالجراد والأعلام تلوح من تحت الغبار ولا زالوا في تقدمهم حتى وصلوا من مكان متسع فضربوا خيامهم ونزلوا على جانب منهم وقد نظروا الى داهور وهو على ظهر الفيل وشاهدوا طوله وعرضه فتعجبوا منه وتأكدوا أنه من الأبطال الصناديد اصحاب البطش والقدرة العظيمة وصدقوا ما قاله عمر العيار وما منهم الا من حسب له حساباً وقال الأمير حمزة إني اقول ان في الدنيا كثيراً من الفرسان الذين امتازوا وفازوا ولا يقال ان هذا بطل الزمان فقد يوجد بدون شك اعظم منه ولا يعرف الاول بينهم . ثم أنهم رجعوا إلى الخيام ينتظرون وقوع القتال.

قال وأما كسرى فانه نظر إلى العرب وشاهد الترتيب والعظمة التي هم عليها فقال لبختك انظر إلى العرب فانهم يتظاهرون بالعظمة ويباهوننا كأنهم من الأكاسرة واني لا انظر الى علم بيكار الاشتهار إلا وينفطر قلبي ويتكدر خاطري ولا اعلم في اي زمان احصل عليه او انزعه من اعدائي قال لا ريب اننا في هذه المرة نقلع آثار العرب ونبيدهم عن آخرهم ونرجع شرف الفرس وننصب العلم أمام صيوانك فاكتب الآن كتاباً وأرسله اليهم واطلب ارجاع العلم المذكور ونهددهم بالفناء او يتفرقون ويسلمون مع العلم ومهردكار وطوربان وحمزة واولادهم من نسائنا ولا ريب انهم شاهدوا كثرتنا ورأوا ما أخافهم وأضاع عقولهم واخبرهم انك تعفو عن كل من يطيع ويرجع عن مصاحبة العرب ولا تكافيه بانعام الزائد فاستحسن كسرى ذلك وكتب كتاباً إلى سلطان العرب يأمره ان ينزع التاج عن أرسه ويحضر الى ديوانه صاغراً فيعفو عنه وعن أمه مهردكار واما ابوه حمزة فلابد من قتله وقتل عمر العيار ويطلب ان يأتيه ايضاً بعلم بيكار الاشتهار ويأمر الفرسان المتجمعة ان تتفرق كل واحد إلى بلاده فيتخلص من غضب الأعجام ومن الانتقام عند ما انتهى من كتابة هذا التحرير بعثه مع رسول الى السلطان قباط فاخذه الرسول وجاء معسكر العرب ودخل صيوان اليونن شاه ووقف باحتشام بعد ان ناوله الكتاب فاخذه قباط وفضه ثم دفعه إلى وزيره ليقرأه علنا ففعل حتى سمعه الجميع وحينئذ قال الملك للرسول اذهب إلى مولاك وقل له ان لا جواب عندنا إلا الأسمر الهندام والصارم الصمصام واننا ما جئنا هذا المكان إلا لأجل محاربته وفي كل نيتنا ننزع منه الملك ونلبسه ثوب الذل والهوان وليكن مؤكد عنده اننا سنجعل المدائن خراباً ونهدم على رأسه الإيوان ونبيد عن وجه الأرض كل من لا يعبد الله العزيز الجبار

قال فرجع الرسول إلى معسكر الأعجام ووقف بين يدي كسرى واعاد عليه كل ما سمعه وما رآه من العرب وسلطانهم فغضب الغضب الزائد واقسم بالنار ذات الشرار ان لا يبقى من العرب ديار ولا من ينفخ بالنار. وامر العساكر ان تستعد تلك الليلة وتبات على نية المباكرة إلى القتال والطعن والنزال وكذلك العرب فانهم هيأوا نفوسهم للحرب ودبروا ان يقتلوا الأسارى في الصباح فنصبوا في وسط الميدان إيواناً من الخشب يظهر من كل الجهات ويعلوا عن الأرض نحو ذراعين. ولما كان الصباح ضربت طبول الحرب والكفاح فتقدم الصفان ليأخذ كل واحد مقامه ومرتبته . وقبل ان يتم الانتظام احضر عمر العيار وجماعته الاسارى بأجمعهم ورفعوهم على ظهر الإيوان وهم موثقين بالحبال وإذ ذاك تقدم حمزة العربان وهو على ظهر جواده اليقظان ورفع صوته ونادى بأفصح لسان هيا . فانظر يا كسرى انوشروان ماذا يجري بفرسانك واعيانك وابناء عمك وسوف يحل بك ما يحل بهم عن قريب من الزمان . ثم جرد حسامه من غمدة وهجم على ذاك الإيوان وقبل ان يصل اليه سبقته طوربان وصاحت بالثارات الشرف والناموس من هذا الخائن المهان . وضربت زوبين الغدار بالصارم البتار فقسمته نصفين والقته الى الأرض قطعتين وجعلت تقطعه بحسامها قطعاً وهجم مثلها باقي ابطال العرب وكان حمزة قد قتل افلنطوش وقتلوهم الباقين وقطعوهم إرباً إرباً ولما رأى كسرى ذلك طار الشرار من عينيه وكاد يغمى عليه وصاح من ملء رأسه بفرسانه ان تحمل على العرب وهو يلعن بختك ويذم الزمان وكاد يغيب عن صوابه من جراء قتل ابن عمه افلنطوش هذا وقد حمل العرب على العجم والعجم على العرب وهاج زاخر بحر المنايا واضطرب وتحرك سلطان العذاب والكراب ونادى منادي الويل والحرب وانفتح ميزات الهلاك وانسكب واحتطم صحيح الراحة وانقلب وثبت قوى الجنان ونادى وانتسب وتأخر ضعيف القلب يبحث عن طريق الهرب وكان ذاك اليوم من الأيام المشهورة وحربه من الحروب المعدودة المذكورة بها سطا الأمير حمزة سطوة جبار ورمى الاعداء بشهب البوار وقد دخل من اليمين وخرج من اليسار واهلك في طريقه نحوا من الفين من الاعجام الاشرار ثم عاد فدخل ثانية في عباب تلك البحار وفعل مثله فرهود البطل المغوار وقد قتل كثيراً من ذلك الجيش الجرار والقى بالوف من الفرسان على بساط القفار وأما اندهوق بن سعدون الاسد الكرار فقد عمل عمل الاحرار اصحاب العظمة والوقار وارعب بفعله الكبار والصغار والمعتدي حامي السواحل فانه انزل بالاعادي الاخطار ورماهم بالذل والعار وعمر اليوناني ابن الاخيار وولده سعد صاحب البطش والاقتدار فانهما صبغا من الدماء بالاحمرار واشعلا في قلوب جماعة كسرى مواقد النار وكشفا عن ضعفهم غطاء الأسرار وتكللا باكليل المجد والفخار ولم يفعل اقل من فعلهما عمر الاندلسي والملك النجاشي وبشير ومباشر فقد كشفوا الاستار وعززوا من

العرب رايات الانتصار وكذلك باقي العرب فقد خاضوا الغبار وفعلوا افعالاً تحير الأفكار وتدهش الانظار وتؤرخ في صفحات التاريخ مدى الادهار وتذكر في محافل الملوك بأعظم أذكار ودامت الحرب قائمة الانتشار وكلما تقدمت ساعات النهار وعلت الشمس ذات الانوار كلما اشتدت افعال الحرب بالاضرار وزاد اشتباك المتقاتلين طلباً للاختصار وتحرك حقد المتحاربين الى الانتقام واخذ وطاف بهم عزرائيل الموت ودار وحام فوق رؤوسهم غراب البين وطار ونادى منادي الموت الأ هبوا إلى الرحيل عن هذه الديار فقد فرغت الآجال والأعمار وجاء يوم الحساب المسطور في دفتر الأقدار وكانت الدماء تتدفق كالأمطار وتجرى في أقنية الأرض كالأنهار وتلتقي ببعضها فتضطرب كاضطراب البحر الزخار فاكتست الأرض لوناً بلون البهار وتغطى وجهها فلم يعد يعرف له من آثار ولا زال القتال شديد الوقوع الى ان اكتست الشمس شعار الاصفرار وعولت على الاختفاء خلف حجاب الاعتكار وحينئذ ضربت طبول الانفصال وترك المقاتلان القتال وهما لا يصدقان بالخلاص من جـور ذاك اليوم الكثير الأهوال العظيم الأحوال ورجع داهور الهندي بعد ان قتل كثيراً من العرب وانزل العطب ولو وجد ثلاثة فرسان في مثله فرسان العجم لفازوا بالمطلوب ونالوا المرغوب لأنه على ما يقال من طبقة الأمير حمزة في القتال واشد منه صبراً عند النزال إلا انه لم يكن له من التوفيق ما كان لذلك .

وعندما رجع الى معسكره واجتمع في صيوان كسرى ودار بينهم حديث العرب قال بختك إني مسرور اليوم فيما رأيت من عمل داهور الهندي والحق يقال انه اعظم بكثير من فرسان العرب فما قصد كتيبة إلا فرقها ولا طلب ركباً إلا ومحقه فقال كسرى انوشروان إني رأيت ذلك وشاهدته إلا أني ما رأيت داهور قتل فارساً من العرب إلا بعد محاولة ومطاولة ولكن رأيت من العرب ما أدهش النواظر وحير الخواطر لانهم كلهم فرسان عظماء وملوك وابطال يندر وجود مثلهم فقد قتلوا كثيراً من فرساننا واوقعوا بنا التأخر والفناء وكنت اتحرق من عمل حمزة وقلبي يتكدر من صولاته وكلما قتل فارساً احترق من اجله قلبي ولعب بي الغضب وتمنيت ان اكون واصلاً إليه لاعدمه الحياة واجعل آخر ايامه من هذه الدنيا غير أني كنت لا استفيد الا زيادة تحرق فقال داهور في هذا اليوم رأى العرب أفعالي ومع ذلك فإني ما ظهرت كل قوتي ولا فعلت كما اريد بل جعلت اختبر قتال العرب وأنا في ساحة القتال ومع أني اعرف على ما رأيت من فرسان العرب انهم نخبة ابطال هذا الزمان ويندر وجود مثلهم في الهند والصين والحبشة وكل مكان لكني اعدك بالفوز والنصر عليهم وقد اختبرت كبيرهم وصغيرهم وعرفت عيار شجاعتهم وزنتها بشجاعتي فعرفت بما ازيد عليهم فسر كسرى منه وأمل بالخير والنجاح وقال له إذا

جئتني بالأمير حمزة وأخيه عمر العيار وهبتك نصف ملكي لأن الاول اذلني واخذ بنتي واموالي بالرغم عني وبدد لي كثيراً من جنودي وخرق حرمتي واخيراً قتل ابن عمي اعز الناس عندي وعمر أيضاً فقد قتل مرزباني الأكبر ورفاقه وترك بلادي حتى اليوم بلا مرزبان وما من احد يقدر ان يقوم بهذه الخدمة إلا بعد ان يدرس قاعدة الدين عشرين سنة قال لابد من قتل عمر العيار والأمير حمزة وكل فارس وبطل من اعدائك ولا ادع احداً يخاصمك .

فهذا ما كان من كسرى وقومه واما ما كان من العرب فانهم رجعوا في المساء فرحين وقد شفوا قلوبهم في ذاك اليوم وتأملوا بالنصر والظفر ونوال المراد وقد دعا الأمير حمزة اليه طوربان وقال لها حيث قد قضى غرضك ونلت مرادك من قتل عدوك فما من حاجة بعد إلى ان تقاتلي معنا لأننا لا نرغب في ان يقال عنا اننا نستنجد نساءنا مع أن ما من ضرورة تدعونا الى ذلك وكلنا ابطال وفرسان وفينا الكفاءة الى الدفاع والهجوم قالت إني اطيع امرك واصغي اليه إصغاء صحيحاً لاني كنت لا اطيق أذكر او ان أرى زوبين الغدار ، وكلما لاح في خاطري ما عمله معي وكيف غدر بي اخيراً واخذني للذبح وللحريق يطير صوابي واتمنى ان اشرب جرعة من دمه وكنت اخاف ان يقتل من غيري ولذلك كنت احرك ولدي على عداوته وبينما ارضعته كنت احكي له خباثة هذا الغادر حتى إذا صار به الكفاءة قتله وفرج كربي ثم التفت حمزة الى ولده عمر اليوناني وقال له إني لا آذن لك بعد الآن ان تدعها تباشر حرباً وقتالاً لابل تبقى في خدرها كباقي النساء قال إني اطيع امرك ولكني لا اريد ان اعارضها بشيء مما ترغب في فعله لانها سيدة كريمة ذات تعقل وآداب وبسالة وحكمة ومن كان مثلها لا يملك بل يملك فقال الأمير سعد اني لا ادع امي تباشر حرباً ما زلت حياً إلا إذا دعتها الضرورة الى ذلك وحكم القضاء به ورجعت طوربان الى خدرها ومعها ابنها الأمير سعد وهي فرحة به وقد طفئت جمرة غضبها وخمد اضطراب افكارها ونام المقاتلون في ذاك المكان يتحارسون تحت مشيئة الرحمان الى ان اشرقت شمس اليوم الثاني وضربت طبول الحرب والقتال فاصطف الصفان . وترتب الفريقان وأشار سلطان العرب بالهجوم فهمت الفرسان . كأنها اسود خفان والتقى الجيشان والتطما كأنهما بحران زاخران. فقامت القيامة من كل ناح ونادى منادي المتون وصاح وعملت في الصدور عوامل الرماح وفي الرقاب البيض الصفاح . وانقضى ذاك النهار على اليوم الأول بل أكثر . فيه ارتفع شأن العرب اي ارتفاع واتسع مجدهم اي اتساع قال وباتوا تلك الليلة على مثل ما تقدم وعند الصباح عادوا إلى القتال وداموا على مثل هذه الحال مدة سبعة ايام وفي اليوم الثامن قاتلوا الى آخر النهار وفازوا فوزاً عظيماً وقتلوا كثيراً من الأعجام

وفي المساء عادوا إلى الخيام وقد تكلموا بقرب تشتيت الأعجام وانقراضهم الى آخر الأيام .
واما كسرى وقومه فانهم اجتمعوا في الصيوان الكبير وقال كسرى اننا في كل هذه الأيام ما فزنا بنجاح ولا نلنا بعد مرام وعلى ما اظن اننا سنتفرق كما في مثل غيره ولم أر داهور البطل المشهور يفعل ما كان ينتظر منه فقال بختك إنه فعل وما قصر وهو يريد أن يترك العرب الى ان يتعبوا ويسكروا بخمر فوزهم ثم يضربهم فيبددهم ولابد من ذلك عاجلاً كان أو آجلاً. فقال داهور إن سبب التأخير هو كون رجال العرب فرسان وجبابرة وما منهم إلا من يحسن الضرب والطعن والجولان كأشد فارس عجمي وعليه فلو كان رجالك من الثابتين أثناء الحرب والقتال لفزنا بالمطلوب وحيث قد وصل الكيل الى حده فاني في الغد سأبرز بنفسي واطلب اليهم النزال وان تأتي الي فرسانهم ومن جاءني قتلته في الحال ولا ريب أني بذلك ابيدهم ويعلم العالم اجمع اني وحدي الذي كسرت شوكة العرب وانزلت سلطانهم فلا يجسر احد فيها بعد على مقاومتك ويعرف ان في خدمتك كثير من اعظم فرسان العرب .

فقال له لا تطل مدة الحرب قال فان صبرى قد فرغ وفرساني تقتل يوماً بعد يوم فوعده بختك عن داهور بكل ما يريد وانصرفت السهرة وذهب كل واحد إلى صيوانه الى ان كان اليوم الثاني وفيه نهض العرب والعجم وتقدموا الى ساحة القتال وقبل ان يتم ترتيبهم وانتظامهم خرج داهور من بين رجاله وتقدم الى ساحة القتال وبين يديه موكب عظيم من الرجال والخدم وعندما صار في الوسط وقف وامر خدامه ان تتأخر والتفت هو الى جهة العرب واشار اليهم طالباً براز ابطالهم وفرسانهم ومنادياً الأمير حمزة في اولهم .

ولم ينته من كلامه حتى سقط الأمير وصدمه صدمة جبار عنيد وبعد ان تجاولا كثيراً بالكلام واصطدما والتقيا والتحما وصاحا وهمهما . وبربرا ودمدما . وتطاعنا بالرماح الطوال. وقد احدق بهما الرجال ينظرون نهاية هذه الحال: وما منهم إلا من قوم سنانه . واوقف جواده موجهاً الى جهة العدو عنانه .

حتى إذا اصاب فارسه منكراً صاح وهجم . وحمزة وداهور في قتال عظيم ونزال حصيم من شهاب نار الجحيم . وهما تارة يفترقان وطوراً يجتمعان كأنهما كفتا ميزان وقد ارتفع فوقهما الغبار. فغيبهما عن الانظار ووضعهما تحت حجاب الأخطار وقد ضاقت منها الأنفاس ، ووقعا بالقنوط واليأس . حتى تقصفت في أيديهما الرماح . فاعتمداعلى البيض الصفاح. وجرداها في الأغماد. وارسلاها تتحيل ليغمدها في الاوراد.

فلله درهما من بطلين شديدن . وجبارين عنيدين. وأسدين درغامين. وفارسين همامين ، تعلمت منهما الفرسان . كيفية الحرب والطعان .

وقد نظرهما يدخلان من أضيق الأبواب ويخرجان . سالمين من نكبات الزمان ولم يقدر احدهما ان يرجع على الآخر في قتاله او يزيد عليه مقدار ذرة في نزاله .

وتحيرت معهما الألباب. واخذ الجميع الأعجام وكسرى ناظر إلى ما يقع بين الفارسين وقد علق املاً كثيراً بفوز داهور ولما رآه شديد اليأس امام حمزة لا يميل ولا يتزعزع وقد قال لبختك الآن يظهر فعل داهور وإذا قتل حمزة فانتهينا من حرب العرب وذللناهم الى آخر الأيام .

قال سوف ترى ما يرضيك ألا تراه شديد البطش والاقتدار قد شغل حمزة وأوقعه بالارتباك ولم يبق له من بين يديه خلاص . ولا نجاة ولا مناص وكذلك سلطان العرب والفرسان فإنهم رأوا ما لم يكن لهم في حساب ، وأضحوا في شدة قلق وارتياب . ينتظرون النهاية وانقضاء النهار ليرجع الأمير بسلام لأنهم خافوا عليه كل الخوف لما شاهدوه من شدة قتال داهور وأما الأمير حمزة فإنه بذل جهده في قتال خصمه وأبدى كل ما عنده من الشجاعة والإقدام وتأكد أن داهور من أشد الفرسان الذين لاقاهم في زمانه . وأنه يرجح عليه بالثبات والصبر على القتال .

واشتد الضرب حتى لم يعد يرى بينهما إلا شرارا يتطاير إلى الجو الأعلى من وقع السيوف على الطوارق . وتلهثا وتنهدا وتنفسا . وقد أخذهما التعب والملال وضعفت منهما الأوصال وفيما هما على مثل هذه الحال .

رأى الأمير أن فيل داهور قد نفخ بخرطومه في الأرض فأطار ترابها بكثافة ثم لاحه وقصد أن يضرب به اليقظان . فأسرع بضربة سيف من يده على الخرطوم الذي لا تعمل به الصوارم ولا تخرقه الصواعق فقطعه نصفين وفي أثناء ذلك رفع داهور يده بالحسام وتمكن من أن ضرب به حمزة بأسرع من ريح الشمال فوقع على رأسه وقطع الخوذة وأصاب الدماغ وشعر الأمير كأن رأسه قد طار . ورأت فرسان العرب ما حل بأميرها فصاحت وارتمت بأسرع من لمح البصر وفعلت مثل ذلك فرسان الأعجام وقد أمرها كسرى أن لا تتخلى عن داهور الذي رجع في الحال فقدم له قومه فيلاً آخر فركبه وعاد إلى الحرب والتقى بالأمير سعد فصدمه وأخذ معه في القتال والطعن والنزال وأما الأمير فإنه رجع وأخذه عمر إلى صيوان مهردكار ودعا له في الحال بأسطون الحكيم ليضمد له جرحه فنزع الخوذة عن رأسه وشاهد أن الجرح بليغاً فجعل يضع له الماء البارد والأمير يتوجع ويتألم ويتحرق وقد أيقن بالهلاك وقرب الأجل لأن الجرح كان في مكان مميت والضربة شديدة .

هذا وفرسان العرب والعجم في قتال شديد وحرب تفك الزرد النضديد . وقد أشعل سعد داهور والباقون أشفوا قلوبهم من الأعجام وأنزلوا عليهم سلطان الفناء والإعدام وما منهم إلا من يتمنى أن يأخذ بثأر الأمير في ذاك النهار ويشفي فؤاده من الأعداء الأشرار . غير أن قصر الوقت حال دون المطلوب . والشمس مالت إلى جهة الغروب . وطلبت الاحتجاب والاختباء . غضبة مما وقع في ذاك النهار من الهلاك والعناء وحينئذ ضربت طبول الانفصال ورجع العرب والعجم عن القتال والعرب لا يصدقون بأن يروا أميرهم حياً وقد شغلت أفكارهم واضطربت قلوبهم ولما وصلوا إليه وجدوه يتألم ويتوجع ورأوا الجرح بليغاً جداً فخافوا من قرب أجله وجعلوا يبكون وينوحون عليه ويتوجعون لأجله . ولذلك عقدوا شورى فيما بينهم . واجتمعوا عند السلطان فقال لهم اعلموا أننا إذا بقينا على القتال إما نفوذ وإما نتأخر لأن داهور يريد أن يديم البراز فيصطاد واحداً بعد واحد ولا بد من النظر في أمرنا وإن كنا نكفل النجاح ونقول لا بد أن واحداً من فرساننا تساعده العناية عليه لكن بعد أن نخسر غيره رجل ما يهمنا أن ننظر في حال أبي إلى أن يشفى ومن الصواب أن نترك هذه الأرض ونرحل إلى حلب أو إلى مكة فإذا أصاب أبي مصاب لا نفرح ولو ملكنا المدائن وقتلنا ألف رجل مثل داهور وكسرى وبختك فقال سعد إني أرغب في البقاء ودوام الحرب ولا بد من قتل داهور وأخذ ثأر جدي منه . وجعل كل واحد من الأمراء والملوك يبدي رأياً واختلفوا في ذلك وحينئذ قال عمر العيار أن الرأي في ذلك للسلطان ولا نعرف ماذا يكون لنا في الاستقبال ومن الصواب أن أذهب إلى الوزير بزرجمهر وأعرض عليه أمرنا وأستشيره في ذلك لأنه رجل خبير وحكيم عاقل ينظر في الأمور محل النظل ويعرف بذكائه وخبرته كيفية المصير فاستصوبوا رأيه وتركوا الحكم لبزرجمهر ولسلطانهم . وفي الحال غير زيه عمر وسار إلى أن وصل إلى صيوان كسرى فوجد أعيان الفرسان بحظ زائد وكسرى يضحك من داهور ويقدمه إليه ويقول له إني أعترف بأنك فارس فرسان هذا الزمان ولا يوجد مثلك قط لأن ما من فارس أو بطل قدر أن يجرح حمزة وجهاً لوجه في ساحة النزال إلا إياك وقد أشفيت لي فؤادي في ضربتك هذه . قال سوف ترى ما أبد لك في عساكر العرب وفرسانهم وأن حمزة والحق يقال من الفرسان الأشداء لم تر عيني أقدر أو أشد باعاً من باعه لأنه ضرب فيلي ضربة قطع له خرطومه وإذا لم يكن ضرب في زمانه إلا هذه الضربة فأني أعترف له بوحدانية الشجاعة لأن جلد الفيل لا تقطع فيه الصوارم ولا السهام فهو أشد من الحديد صلابة فقال بختك ان حمزة لا بد أن يموت من هذه الضربة لأن الجرح في رأسه وجرح الرأس بعيد الشفاء قال كسرى إذا مات وهبت داهور نصف مالي وملكته في ملكي وفي كل ما يريد من بلادي .

ودام الحديث بين الأعجام إلى أن انقضت السهرة وانصرف كل إلى صيوانه وسار بزرجمهر إلى صيوانه وهو متكدر الخاطر حزين القلب تكاد الدنيا أن لا تسعه وفي ظنه أن عمراً يقصده في تلك الليلة ولما دخل الصيوان دخل خلفه عمر وقبل يديه وعرض عليه واقعة الحال وما هو جارٍ على الأمير من الوجع والألم فقال إني أشور عليكم بالرحيل من هذه الديار وأن تقيموا في مكة المطهرة إلى أن يشفى الأمير وما من نفع في بقائكم في هذه الأرض فقد قتلتم كثيراً من رجال الأعجام غير أنكم لا تقدرون على قتل داهور فهو بطل لا نظير له في زمانه ولا بد أن يأتيكم الفرج وأنتم في مكة المطهرة ويظهر لي أن العناية لم تشاء الآن أن تسعدكم بل بدأ الطالع نحسا ، ثم دفع إليه قارورة دواء وقال خذ هذا الدواء وادفعه إلى أسطون الطبيب فهو يعرف كيف يستعمله وما من بأس على أميركم فسوف يشفى ويعود الحرب كما كان فمدحه عمر وقبل يديه ووعده وكر راجعاً وجاء صيوان العرب فوجدهم بانتظاره . فأعاد عليهم ما كان من أمر الوزير بزرجمهر وأنه يشور عليهم بالسفر والرحيل إلى مكة المطهرة في نفس تلك الليلة فأجاب الجميع ونهض كل إلى غرفته وطائفته ليسرعوا بالرحيل قبل الصباح وسار عمر إلى صيوان أخيه حمزة فوجده على حاله فدفع الداء إلى أسطون فأخذه وسكب منه على الجرح فارتاح الأمير وحينئذ حمله على هودج فوق ظهور البغال وهو ملقى على ظهره فوق فراشه وعنده مهردكار تلازمه وتخدمه وأسطون يعالجه ويبرد من جروحاته وعند ذلك ركب السلطان وأمر أن ترفع الأحمال على البغال وتسير العساكر بالعجل ففعلوا دون أن يخرج صوت ويسمع لهم غوغاء وضجة ولم يكن إلا القليل حتى أخلى معسكر العرب تلك الأرض وسار في طريق مكة المطهرة كما أشار عليهم الوزير بزرجمهر . وعند الصباح نهض الأعجام ونظروا الى نحو العرب فلم يروا منهم واحداً فأسرعوا إلى كسرى وأخبروه بذلك بعقد ديوانا واجتمع عنده الأعيان والملوك وقال له بختك ها قد صح ما كنا نرجوه فإن العرب هربوا من هذه الأرض لما رأوا أن لا نجاة لهم وأن أميرهم قد مات أو قارب الممات وعندي من الرأي أن نرسل خلفهم الديادبة لنعرف أين يسيرون فنتأثرهم ونقاتلهم إلى أن نفنيهم دفعة واحدة ما زال عندنا البطل داهور يزيل عنا الضيم ويقهر لنا الأعداء ولا بد من إرجاع علم بيكار الاشتهار وأخذ طوربان ومهردكار والإستيلاء على الأموال والغنائم وكل ما هو عندهم فأرسلوا الديادبة لكي تراقبهم فساروا وبعد يومين عادوا وأخبروهم أنهم رحلوا في طريق مكة ليقموا هناك فقال بختك لقد صدق قولي فإنه لا يقصدون ذاك المكان إلا بعد أن يقطعوا الرجاء واليأس ومن ثم اتفق كسرى وجماعته على المسير إلى أرض مكة وملاحقة العرب إلى أن يفنوا عن آخرهم وأخذوا يتهيئون ويستعدون للمسير خلفهم في آثارهم وكسرى يزيد من إكرام داهور الهندي ومن تعظيمه واعتباره ويعده المواعد الحسنة .

قال فهذا ما كان من هؤلاء وأما ما كان من العرب فإنهم داموا في مسيرهم مدة أيام حتى وصلوا إلى مكة وعرف أهل المدينة بقدومهم فخرج الجميع إلى ملتقاهم من الكبير إلى الصغير مع الأمير ابراهيم أمير مكة وعند وصولهم إلى العرب تقدموا من علم بيكار الاشتهار وسلموا على السلطان والفرسان وسألوا عن حمزة فأخبرهم عمر بأنه مجروح في رأسه وأن الجرح عظيم الأهمية لكنه سليم العاقبة لا خوف منه . فتكدر الأمير ابراهيم من ذلك إلا أنه كان من الأتقياء فشكر الله على كل حال وسأله أن يشفيه وعلق كل أمله به .
ومن ثم عادوا إلى تلك الأرض المقدسة فدخلوها وضربوا خيامهم فيها ومن خلفها وسرحوا بأنعامهم وأغنامهم وأقاموا للراحة وينتظرون شفاء الأمير والفرح الموعود به من عالم العناية . وما مضى إلا أيام قليلة حتى قدر الأمير على الانتباه والتمييز فرأى أمه وأباه عنده وزوجاته وفرسانه فاحتار في ذلك وقال أين أنا الآن فقالوا له في مكة عند أبيك وأمك فأظهر الغيظ وقال كيف جئتم هذا المكان وألبستمونا العار عند الأعجام ولا بد لكسرى أن يقول أن العرب هربوا خوفاً من داهور وإن كنت قد جرحت أنا فإن بينكم مثلي كثير وكلكم تقدرون على قتال داهور فلما الخوف والهرب فقالوا وحياتك أيها الأمير أن الهرب لم يكن بخاطرنا وجل ما كنا نرغب أن نديم القتال إلى أن نفنى أو تفنى الأعجام إلا أن بزرجمهر أشار علينا أن نرحل عن نهروان ونأتي هذا المكان إلى أن تشفى أنت ويأتينا الفرج من العزيز الرحمن فلما سمع ذلك قنع وعذرهم وقال لهم أخيراً أنتم تعلمون أن كسرى متقو الآن بداهور وقد رآه عمل ما عمل فزاد طمعه بنا ولذلك لا يتركنا ولا بد له من أن يأتي هذا المكان لمحاربتنا ونزع علم بيكار الاشتهار منا وأخذ مهردكار وطوربان وتفريق سلطتنا وإرجاع العرب إلى الذل والهوان ولذلك أريد منكم أن تهتموا بأنفسكم وتعتمدوا على بعضكم البعض لتلاقوه إلى أن أكون قدرت على الحرب والقتال فوعدوه بأنهم يقدمون نفوسهم أمامه إلى أن يموتوا عن آخرهم . ومضى على ذلك شهر من الزمان والعرب في ذاك المكان وحينئذ جاءت إليهم الأخبار بأن كسرى قرب من المدينة المنورة بجيوشه الجرارة ومعهم داهور الهندي فاهتم العرب وأخذوا في أن يتحصنوا إلى أن وصل الأعجام ولاحت راياتهم واحتاطوا بالمدينة وضربوا خيامهم في ضواحيها وأخذوا لأنفسهم الراحة كل ذاك اليوم وفي اليوم الثاني جلس كسرى في صيوانه واجتمع إليه كل أعيانه ووزرائه فأمر بختك أن يكتب كتاباً إلى العرب يغلظ عليهم بالكلام ويأمرهم بالطاعة ونزع العصيان فأجاب طلبه وكتب في الحال .

(من الملك الأكبر كسرى أنو شروان سلطان سلاطين هذا الزمان إلى الأمير قباط ابن الأمير حمزة البهلوان)

« أعلم أيها الأمير أنكم قد اعتديتم وجرتم وظلمتم وتماديتم وقصد أبوك عنادي فتهاملت عنه وشفقت عليه ففكر أن ذلك عن عجز مني أو ضعف في فرساني فصرف كل همته إلى عنادي والتعدي علي وفعل أفعالاً قبيحة جداً لا مجال لذكرها الآن حتى أخيراً لقي شر عمله وقتله داهور الهندي الذي لا يصطلى له بنار ولا مثيل له في الأيام وعليه فإني أطلب إليك قبل كل شيء أن تسلمني علم بيكار الاشتهار وبنتي مهردكار وبنت ابن عمي طوربان التي قتلتم أبوها أفلنطوش وأحرقتم قلبي عليه وتردوا إلي كل الأموال التي هي عندكم وفي يدكم وتدفعوا ليدي كل ما هو متأخر عليكم من الجزية منذ عشرين عام إلى الأيام وفي الأخير توثقون عمر العيار بالحبال وتسلموه عن طوع واختيار لأقتله وآخذ لنفسي منه بالثأر وبعد كل شيء تتفرقون فيذهب كل ملك إلى بلاده وقومه فاعفو عن الجميع وأحسب لا عداوة بيننا فإذا فعلتم ذلك كان الخير والنجاح لكم وسلمتم من غضبي ونلتم رحمتي وشفقتي فإني أقسم بالنار ذات الشرار وبكل نجم دوار أنه قبل أن تمضي ثلاثة أيام أزحف عليكم بجيشي وكل أبطالي وفرساني فأفنيكم عن آخركم وأسحقكم كالدقيق وأخرب مشيئتكم ولا أدع للعرب اسما يذكر مدى الأيام ولا يخفاكم أن عندي داهور الهندي وحيد عصره ونتيجة دهره وقد وعدني أن يفعل بأجمعكم كما فعل بأميركم فارسلوا إلي الجواب حالا حالا » .

وبعد أن فرغ من كتابة هذا الكتاب عرضه على كسرى فأعجبه وختمه بخاتمه وأرسله مع رسول إلى السلطان قباط فسار به حتى دخل صيوان أليون شاه وتقدم إلى أن وقف أمام السلطان فسلم بترتيب واحتشام ودفع إليه الكتاب فلم يقبل السلطان أن يأخذه منه بل أراد أن يعرفه أن أباه حياً فقال له ادفع الكتاب إلى الأمير حمزة فارس العرب وأميرها فارتاع الرسول لأنه كان يعلم أن حمزة قتل وكل الأعجام يتصورون حيث لم يكن قد شفي بعد النهاية .

فتقدم منه وقبل يديه وأعطاه الكتاب فأخذه منه وناوله إلى ابنه قباط وقال للرسول ألا يظن قومكم وملككم إني مت وانتهى عمري . قال نعم يا سيدي ولذلك تحيرت وارتبت عندما سمعت باسمك . وبعد أن قرأ عمر العيار وزير العرب الكتاب فهم الجميع معناه فما منهم إلا من اغتاظ واضطرب من كلام كسرى وتهديده . وعليه قال الأمير للرسول اذهب إلى مولاك وأخبره أن لا جواب عندنا إلا القتال والحرب والنزال وسوف نبيد ملكه ونهلك سلطانه ونجزي داهور على عمله وأخبره أن سلطان العرب لم يقبل أن يكتب إليه الجواب لما تضمنه كتابه من قباحة المعنى والتهديد والوعيد .

فأجاب الرسول بالطاعة وقبل أن يخرج قال له حمزة إني عودتك في مثل هذه الزيارة

أن أكرمك بألف دينار فخذها قبل ذهابك ثم أمر أن يعطى ألف دينار فقبضها وسار حتى دخل على كسرى ووقف بين يديه . فقال له أين جواب الكتاب قال اعلم يا سيدي أن الأمير حمزة لم يقبل أن يكتب إليك كتاباً وقد قال لي ما هو كذا وكذا وأن كتابك هو قبيح المعنى لا جواب له . فاعترض عليه بختك وقال له لا تقل حمزة فإن حمزة قد مات وشرب كأس الآفات . قال كلا يا سيدي فإني أقول أنه باقي في الحياة على حسب عادته وقد شاهدته عينا وكلمته شفاها وأنا أعرفه جيداً وفي كل كتاب أسير إليه . فاضطرب كسرى وارتاع وقال يا بختك إننا ما عملنا شيئاً وظننت أننا قطعنا رأس الحية ومن السهل سحق ذنبها فجاء الأمر بالعكس وها أن حمزة قد شفي ورجع كما كان ولا بد أن يعود إلى حرب داهور في هذه المرة ليأخذ لنفسه بالثأر منه . فقال داهور لا تخف من ذلك فأني سأقتله ولو قام من الموت ألف مرة ففي كل مرة أقدر على ارجاعه فكن براحة من هذا القبيل ومتى خرج العرب إلى قتالنا رأيت ما يسر .

ولكن أريد منك أنه إذا اجتمع الجمعان لا تهجم عساكرنا بل أبرز بنفسي قال لا يمكن أن تقاتل العرب وهم داخل المدينة لأنهم حتى الساعة لم يخرجوا لقتالنا وعندي أن من اللازم قطع الطرقات والتضييق على من هم في الداخل حتى ترى ما يكون من أمرنا وأمرهم واكتفى الأعجام إذ ذاك بالتضييق على أهالي مكة وحصروهم في الداخل لبينما يلتزم يخرجوا من المدينة لقتالهم ومحاربتهم وأما العرب فإنهم كانوا بانتظار الأمير حمزة إلى أن يشفى تماما ويمكنهم أن يحاربوا وهو معهم وكان عندهم من المؤن والذخائر ما يكفيهم إلى سنين وأعوام .

بياض هذا والأمير حمزة يتقدم ويتعافى يوماً فيوماً وهو مع زوجاته يزوره جميعهن في كل يوم وأما مهردكار فانها كانت لا تفارقه قط ولا تبعد عنه لأنه كما تقدم معنا في بداية هذه القصة أنها كانت مخلصة له الود كثيراً ومتعشقته بوجه لا يمكن أن يكون أشد منه ولا أفضل وأشرف وقد احتملت كل عذاب وكدر وتعبت من أجله وبعد أن كانت لا تخرج من قصرها في بيت أبيها وهي عائشة في الترفه والتنعم يخدمها الجواري والعبيد وكل أسباب الراحة بين يديها أصبحت مقيمة في صيوان كواحد من العرب تنتقل من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب متحملة صابرة على البرد وحرارة الشمس ومرارة السفر والعذاب فضلاً عما لحق بها من الهم والبكاء والنوح من دواعي الحرب المتواصلة ومصائب الأمير وعذابه وكانت تتمنى راحته ورجوعه عن عداوة أبيها كل هذا كانت تلاقيه مفضلة رضاه على كل شيء ومع كل ذلك فإنها كانت ترى منه بعض الأحيان برودا وفتورا وكلما رأى فتاة جميلة يميل إليها ويطلب بزواجها غير ملتفت إلى خاطرها ولا مراع مودتها ومحبتها ومن الواجب عليه لكونه أميراً ذا قوة ومروءة وبسالة وآداب أن لا ينظر إلى غيرها

قط ولا يميل إلى سواها ليقدر حبها حق قدره وأن يحفظ نفسه لها كما حفظت نفسها له ويعهد باتكاله عليها كما تعهد باتكالها عليه ولكن لم تكن كل القلوب كبعضها وقد اعتاد العرب أن يأخذوا أكثر من زوجة ولذلك لم ير أن من شرط المحافظة على أدبه أن لا ينظر إلى غير مهردكار على أن الأيام والحوادث التي قبلته لم تدع قلبه على حاله بل غيرت منه كثيراً فقسى وعصى وخصوصاً أن الله سبحانه وتعالى يقصد أمراً خفياً لتكثير أولاد الأمير ويأتوا إلى مساعدته ويقيموا في خدمته حتى بعد قضاء المقدرة عليه وإثلال عرش كسرى تتسهل طرق النجاح للعرب وتنمو بأمر الله مملكتهم وعليه فإن مهردكار كانت تلاقي أشد الأخطار وترضى بأن تعتاض على ذلك برضى الأمير منه وكان ذكاء عقلها وفرط تعلقها يحملانها على إظهار زيادة حبها له مؤملة أن المعاملة الحسنة تزيد في أمياله لنحوها مهما حال دون ذلك من الموانع والمصاعب ومهما أخذ من الزوجات وجاء من البنين عالمة أنها ارتبطت به الارتباط الوحيد الذي تنتظره البنت من حياتها وترجو من بعده الراحة والهناء والانضمام إلى مساعدة معين يشترك معها في شداتها ورخائها وتعاستها ويقاسمها أفراحها وأحزانها وكانت مهردكار ترى نفسها مع ما عليه من عدم المبالاة لا بد أن يقضى عليه ذات يوم إما بشدة الحب فيعرف عظم ما تحملته وإما بالعكس فتميت نفسها وتتخلص من هذه الحياة لأن الموت خير لها من أن ترى محبة الأمير تفتر عن صوابها أو تقل أو تكون أقل من محبتها كما هي .

وكان كل ما يقع عليها من هذا الوجه تعلل لها عللاً وأسباباً فتعذر من أجلها فما تزوج بفتاة إلا وقالت في نفسها إنه مضطر إلى ذلك وأن الظروف قضت عليه به ولا حكى لها كلمة عن ضجره من أبيها وندمه على زواجها إلا وفكرت أن الغيظ حمله على ذلك وأن قلبه لا يمكن أن يتحد مع لسانه في هذا المعنى لأنها تعرف أنه حارب كثيراً وخاطر بحياته كثيراً من أجلها ولكن شتان بين وفاء الزوج ووفاء الزوجة لأنه مهما أخلص الود وأراد المحافظة على نفسه حبا بها لا يمكن أن يكون ذلك قرين الصحة إلى الحد الأخير ما لم يكن الدين سبباً على العفة ومراعاة جانب زوجته حق المراعاة لكنما الزوجة إذا أرادت فعلاً إخلاص الود لزوجها ووطدت العزم على تخصيص نفسها به قامت بذلك حق القيام وذلك لأنه بقدر ما يكون القلب رقيقاً يكون عشقه شديداً وحبه خالصاً كلما قسا يقسو به الفواعل الحبية ومن المقرر الثابت أن قلوب النساء أرق بكثير من قلوب الرجال وإنهن أكثر شفقة ومودة وأن العشق لا يتولد بهن من نفسه إذا لم يكتسبه من غيرهن هذا إذا كان كلا منهما صحيح العقل ولا ريب أن القارىء سيطلع على ما يكون من الأمير حمزة مع مهردكار بعد زمان ليس بطويل من تلك الأيام .

ولما شفي الأمير ورجع إلى عادته وأصبح كأنه لا جرح ولا أصيب بنكبة من نكبات الحروب والأيام وأراد أن يعود إلى الحرب والقتال والطعن والنزول على حسب عادته وهو يرغب في أن يلتقي بداهور الهندي ليأخذ له بالثأر ويعدمه الحياة وحينئذ سأل ابنه السلطان قباط أن يأمر العساكر بالخروج إلى ضواحي المدينة لمحاربة الأعجام ففعل وفي الحال خرجت القبائل التي في المدينة المنورة وقد ضربوا طبول القتال واصطفوا بقصد الحرب والنزال فعمل الأعجام كأعمالهم وبأقل من ساعة حملت الطائفتان على بعضهما البعض وارتجت لحملهما جنبات تلك الأرض ووقع قتال عظيم لم يسبق له نظير قبل تلك الأيام اسودت به السماء وحجبت عن الأرض بغبار المقاتلين وما برحوا على ذلك إلى المساء وعند المساء رجع الجميع إلى الخيام وباكروا في اليوم الثاني إلى الحرب وكانت أعظم من اليوم الأول وفي اليوم الثالث كذلك إلى أن مضى نحو خمسة عشر يوماً على مثل هذه الحالة وفي اليوم السادس عشر برز داهور على ظهر فيله وطلب الأمير حمزة فبرز إليه في الحال وصدمه صدمة الأبطال وأخذ معه في الطعن والضرب والأخذ والرد والكر والفر حتى تعب كل التعب ولم يأخذ أحدهما من الآخر لا حقاً ولا باطلاً وعند المساء رجعا عن القتال وفي كل منهما نيران الإشتعال كيف لم ينل من خصمه ما يطلبه ويرجوه ويرغبه في اليوم السابع عشر عادا لى مثل ذلك وفي المساء انفصلا وداما في القتال مدة عشرة أيام دون أن ينال الواحد من الآخر مراما أو يلوح فيه وجه مطمع وفي اليوم العاشر رجع الأمير حمزة غضباناً جداً ومتكدراً من ثبات داهور دون أن يقدر على أخذ ثأره منه وعرف أنه أشد بأساً من فرسان العرب بأجمعهم . ولما اجتمعوا عند المساء في صيوان أليون شاه دار الحديث فيما بينهم بشأن داهور فقال الأمير إني والحق يقال أكاد أعجز عن قتاله وحربه ونزاله وما قاتلت في زماني فارساً مثله ولا أظن أنني ألاقي ولا أعرف كيف أقدر أن أتخلص منه وأخلص ثأري ولا أعرف هل أن النصر يكون في الآخر لي أو له .

وحينئذ نهض أندهوق بن سعدون وقال اعلم أيها الأمير أني كنت أحب قبل الآن أن أستأذن منك بقتاله غير أني كنت أخشى من ذلك ولا سيما أني أعرف مؤكداً أن داهور أشد مني بأساً ولولا ذلك لما قدر أن يثبت أمامك يوماً واحداً والآن حيث أني أريد أن أفديك بنفسي أرجوك السماح لي والإذن بقتاله فإما يقتلني وإما أقتله وأريح الدنيا من شره ومن بعده يتفرق العجم وإذا قتلت أنا فعندك مثلي فرسان وأبطال كثيرون ولكن إذا قتلت أنت فما عندنا مثلك قط .

فقال الأمير إن ذلك رابع المستحيل فقد عرفت أن داهور بطل نادر المثال ولا أريد أن أخاطر بأحد من فرساني لأجله فكل واحد عندي منكم يساوي ألف داهور لأنكم

تعبدون الله سبحانه وتعالى وتخدمون مكة المطهرة ولا بد لي من مداومة القتال بنفسي ولو أن الله سبحانه وتعالى يريد لي مكروهاً لما شفاني من تلك الضربة المميتة ، وحينئذ قال الأمير سعد إني كنت أحب أن أجرب نفسي مع داهور يا جداه فأتعلم منه ما ينفعني فارتاع الأمير من ذلك لأنه يعرف عناد سعد وقال له إياك من أن تفكر بمثل هذا الأمر فما من أحد يقاتله غيري لأن لي ثأراً عليه . قال اسمح لي ولو يوماً واحداً فإذا نجوت لا أعود إلى قتاله وإذا قتلت يكون بمسعدة من الله وبدعائك ، قال هذا لا يمكن قط ولا تفعل مالا نريده ، فقال عمر العيار إن أمر قتال داهور مفوض لخاطر الوزير بزرجمهر فأريد أن أذهب إليه وأستشيره في هذا الأمر وأعرض عليه واقعة الحال ولا بد له من فكر بيديه ولو كان داهور يموت عن يد أخي حمزة لما بقي إلى اليوم وأخاف أن نقع في مصيبة جديدة وكان عمر قد قال ذلك ليقلل من أمل سعد ببراز داهور ويمنع أخاه عن برازه لأنه خاف عليه وربما فكر بعمل حيلة لخلاص العرب فأجاب الجميع طلبه وشكروه على رأسه وحينئذ نهض عمر وتزيا بزي واحد من حجاب كسرى وخرج في الحال بأسرع من ريح الشمال واختلط بين الأعجام وبأقل من ربع ساعة وقف بين يدي كسرى كواحد من حجابه وصغى إلى ما يقولون وسمع كسرى وقومه يتباحثون بشأن العرب وقد قال له داهور إني تعبت جداً من قتال حمزة وأعترف أنه بطل عظيم فهو خصمي في الميدان ولو صرفت الدهر في قتاله لما قدرت أن أصل إليه أو يقدر أن يصل إلي لأننا كلانا متساويان وأريد أن نترك الحرب مدة أيام إلى أن أرتاح مما لاقيت لأن ليس من الأعجام واحد آخر يحمل عني الأثقال أو يحميهم من ضربات الأعداء بخلاف العرب فانهم كلهم فرسان وأبطال فإذا قتل الواحد قام الآخر مقامه وإذا مرض أحد سد غيره مسده فقال بختك أننا سنحمل في الغد بالعساكر فيمكنك أن ترتاح ولا تقاتل معنا يوماً أو يومين ومن ثم أطلب البراز فيأتيك حمزة ويكون في هذا القتال غير مرتاح لأنه يكون قاتل وناضل فاستصوب كسرى كلامه وأجاب طلبه وأنه في الصباح إذا نهض العرب إلى القتال يباكرهم رجاله ويقاتلونهم إلى المساء .

وبعد انقضاء السهرة سار عمر العيار في أثر بزرجمهر حتى دخل صيوانه فدخل خلفه واجتمع به على انفراد وقبل يديه وبلغه سلام العرب وأخبره عن صحة أخيه واستشاره في أمر القتال وأنه جاء مخصصاً إليه بهذا الشأن قال لو جئتم إلي وسألتموني في الأول لما تركتكم تقاتلون أبدا لتأكدي أنكم لا تأتون بالمطلوب وما من أمل بالنجاح لكم في هذه الأيام وما من فارس منكم يقدر على قتل داهور لأن منيته على يد فارس شاب أشقر اللون طويل القامة وهذا وحده الذي يقدر على خلاص العرب ويكون له بينكم شأن عظيم جداً

وتفتخر به العربان جيلاً بعد جيل لأن الزمان لم ينشأ مثله الآن متى ذهبت إلى أخيك وسلطانكم فبلغهم سلامي ودعهم ينزلون إلى المدينة إلى حين يأتي الفرج الذي هو عن قريب من الزمان يصل إلى هذا المكان وإلا لو قاتلتم إلى آخر الأجيال لما نلتم من داهور غرضاً ولا مراما قال لقد أحسنت يا سيدي وما من العرب من يقدر أن يخالف لك قولاً فهم يعتبرون كلامك ويأخذونه دستوراً لأعمالهم فلو أمرتهم أن يسلموا إلى كسرى في هذه الساعة لفعلوا ولو كان في ذلك ذلهم وهلاكهم جميعاً ثم أن عمر قبل يد الوزير بزرجمهر وخرج من صيوانه وجاء إلى العرب ودخل على السلطان وعنده الفرسان بأجمعهم ينتظرون عودته فلما استقر به الجلوس أعاد عليهم كل ما سمعه من بزرجمهر وحرم عليهم القتال الآن وقال إن من يقتل في هذه الحرب يكون ظلماً وغدر لأن الله لم يقض بعد بقتل داهور فتربصوا وادخلوا المدينة وأقيموا بها للراحة وأعاد عليهم ما سمعه من داهور وأنه يريد الراحة وقد اتفق مع الملك وبختك أن لا يحارب في مدة يومين فقال حمزة لولاأمر بزرجمهر وشوره لما تركت القتال فإذا تخلى داهور عن الأعجام مدة يومين بددت شملهم بفرساني وما أبقيت منهم أحداً ولو كانوا بعدد الرمال ثم أن السلطان أمر الفرسان بأن تحمل وتدخل المدينة إلى أن يأتي الله بالفرج ففعلوا ودخلوا المدينة ولم يبق في الخارج أحداً وعند الصباح نهض كسرىٰ وقومه فلم يروا أحدا من العرب قط فقالوا إنهم عرفوا بعجزهم وتقصيرهم عن قتالنا فما أرادوا أن يخاطروا بأرضهم وقال بختك إننا إذا ثبتنا على عزمنا في هذه المرة أهلكنا هذه الطائفة وفرقنا كل الجموع المتجمعة معها ويمكننا أن نقيم في محلنا إلى ما شاء الله حتى تفنيهم الأيام ويحتاجون الطعام فيموتون جوعاً وهذه أشد الميتات. ونبعث إلى بلادنا فنأتي بكل ما يلزمنا من طعام وخمر وملابس ونحو ذلك .

وأما العرب فانهم بقوا في المدينة مدة ثلاثة ايام ينتظرون وفي اليوم الرابع خرج الأمير عمر إلى البراري والقفار وصعد الفرج تلة عالية ووضع المرآة في وجهه وجعل ينظر فيها إلى البر عساه يرى الفارس الذي اشار اليه بزرجمهر وفيما هو ينظر رأى عن طريق مكة فارساً ابيض اللون اسود العينين اشقر طويل القامة مسربلاً بالحديد والزرد النضيد وهو كانه الليث في عرينه يخب الأرض بجواده وبين يديه غلام اسمر اللون دقيق القوائم مدجج بالسلاح مضيق اللباس والرباط كأنه عفريت من عفاريت السيد سليمان ينطق في الطريق فيرتفع الغبار الى ما فوق رأسه حتى يغيب عن الفارس ثم ينعكف راجعاً راكضاً كأنه السهم إذا انطلق من يد الفارس الجبار حتى يجتازه مولاه ويفعل ذلك بأسرع من لمح البصر ثم يعود فيدور من حول الجواد وهو مداوم على ذلك لا يأخذه هدوء ولا توان ولا تعب ولا ملال حت يتعجب عمر من ذلك واحتار بأمر ذلك الفارس وعياره وقال لابد لي

من الاستطلاع على خبرهما ومن يكونان ثم أدخل المرآة في عبه ويكون تقدم في الطريق حتى المساء فتبين الفارس والعيار يتقدمان بسرعة عن بعد تلك الطريق فأكمن في جب الشوك ينتظر ما يكون منهما وهل يداومان على المسير او ينزلان للمبيت في تلك الأرض . وبقي كامناً الى ان قرب الفارس منه وعول ان يجتازه فتحرك في الجب وحينئذ تأخر فرس الفارس ووقف وشخر فصاح الفارس للعيار يا سيار انظر لي ما في الطريق امام فرسي سلمى فإذا كان اسداً فاقتله في الحال أو عفريتاً فاخبرني لأنزل اليه واعدمه الحياة او انسان فانصحه ان لا يعترض لرستم فرتم بن الأمير حمزة البهلوان ثم نخس الفرس واراد ان ينط به الجب إلى الناحية الثانية وعمر يتحايل له تحت الظلام وهو بلون الليل الدامس وفيما هو كذلك لم يشعر إلا وسيار العيار قد قبض عليه من اكتافه ورماه الى بعيد أمام الجواد فصاح به الفارس وقال من هذا قال عفريت أسود من عفاريت البراري يريد أن يوهمنا في الليل الحالك ولكني قد عولت ان اقتله في الحال كي لا يعوقنا من الوصول الى مكة قبل الصباح قال إياك من ان تمد اليه يداً قبل ان انظره ثم أنه قفز الى الأرض كأنه الغزال في الخفة والسرعة فرأى سيار واقفاً امام عمر وبيده خنجره يتهدده بالقتل إذا هرب أو فر وعمر يضحك غير مكترث بما فعل فلما رآه الفارس صاح به وقال له ويلك ماذا تعمل هنا في هذا الوقت فما أنت من الجان بل من بني الانسان فأخبرني الصحيح تنجوا وتنال العفو والامان وإلا قتلتك في الحال قال إني لا اخاف منك ولا من الف فارس مثلك ومثل عياريك ومثل عيارك هذا الغلام ولكن ما وقفت بهذا المكان إلا لغاية سأخبرك بها الآن بل أشرط عليك ان تجيبني إلى ما اسألك وهو ان تخبرني عن إسمك وابن من أنت قال إسمي رستم فرتم علامة شامي الرومي مكيد الفرسان في يوم الطعان ابن الامير حمزة البهلوان قال واسم امك ومن هي وبنت من قال إن امي هي مريم بنت الملك قيصا قال وهذا الغلام من يكون قال هو عياري سيار ين الأمير عمر العيار الذي لا يوجد اخف منه في هذا الزمان لأنه يسبق الريح في الجري ومهما بالغت فيه لا أقدر ان اذكر لك شطارته وعيارته فليس هو إلا آفة من آفات الزمان قال إني أراه كما تقول غير أنه قليل التربية عديم الآداب قال ولما ذلك ومن اين عرفته قال حيث يمد يده إلى أبيه ويجسر ان يشهر عليه السلاح وإني اعرفه الآن بنفسي فانا عمر العيار وزير العرب وأبو سيار وقد جئت بانتظار الفرج للعرب وهو انت فتوقفت من اقرب قريب طريق فلما سمع رستم فرتم لهذا الكلام تقدم من عمر وسلم عليه وكذلك سيار قبل يديه واعتذر اليه عن عمله .

ثم سأل رستم عمراً عن أبيه وعن سبب قيامه في تلك الجهة فاعاد عليه القصة من اولها الى آخرها واطلعه على كل ما هو واقع على العرب من داهور الهندي والفرس وان فرسان العرب مقيمين في مكة على اليأس فهاج وماج وأرغى وازبد واقسم بأبيه انه لا

يمكن ان يدخل المدينة قبل ان يقتل داهور الهندي ويلقي على الاعجام الوبل والهوان وقال لعمر سر أنت الى مكة المطهرة واعرض على ابي ما رأيته واخبره بقدومي واما انا فإني سأسير رأساً الى معسكر الاعجام واباكر معهم الحرب والقتال وقتل داهور وكسرى وبختك وكل نفر كبير كان او صغيراً من الاعداء فقال له إن اباك لما جرحه داهور قتل ولو كان حياً لما كان العرب بضيق فزاد غضب رستم ونزلت الدموع من عينيه وصاح بصوت مالت له الجبال من مراكزها واخذ الصوت في ان يردده من كل ناحية ومكان تارة من الشرق وطوراً من الغرب وجفل كل وحش في بريـة الحجاز رعباً وخوفاً ونهض في الحال إلى ظهر جواده وقال إذا كان الزمان لم يسمح لي ان ارى وجه ابي قبل ان يموت فقد سمح لي ان لا اترك ثأره وسار مسرعاً وهو يبكي والدموع تنحدر على خديه بين يديه عياره سيار يقطعان الأرض نهباً وركضاً ورجع عمر العيار متأثراً مما شاهد ورأى من الأمير رستم وقد عرف أنه من صناديد زمانه وما قال له ان اباك مات إلا ليتحـرق داخلـه إلى أخـذ الثأر فيقتل داهور وبقى مسرعاً الى ان جاء مكة وكان الوقت قبل الصباح فدخل على أخيه حمزة وانهضه من فراشه وسأله أن يجتمعوا إلى صيوان اليون شاه فجاء الصيوان واجتمع جميع الفرسان ينتظرون ما يكون من امر عمر ولما دعاهم في مثل تلك الساعة مع انه لم يبق للنهار الا نحو ساعة ولما تم انتظامهم قـال اعلموا ايها السادات إننا مقيمين في هذه المدينة على انتظار الفرج منه تعالى ليبدد شمل كسرى ورجاله والآن قد عرفت كل المعرفة وثبت لدي ان الفرج قد أذن به الله سبحانه وتعالى ولم يرض بأن نبقى تحت الحصار والكفار طامعة بنا فليذهب كل واحد الى خيامه ويستعد للقتال بعد ساعتين من الزمان فاخرجوا برجالكم وعساكركم إلى ضواحي المدينة واصطفوا كالعادة وترون النصر بدون شك فيوم الغد هو اليوم الفاصل ولا ريب بمعونته تعالى تندفع عنا قبائل الأعجام ويهرب كسرى ويقتل داهور العاتي المتكبر .

فصغى الجميع إلى كلامه وانصرفوا الى قومهم واخذ كل سلاحه ودعا رجاله إليه وعند إشراق نور الصباح رفع علم بيكار الاشتهار فوق رأس السلطان وتحركت ركابه من المدينة إلى الخارج وسار من حواليه حراسه وابطاله ولما صاروا في الخارج امر أن تضرب طبول الحرب والكفاح فسمع كسرى ذلك وقال لبختك ها أن العرب قد خرجوا للحرب ولا اعلم السبب الذي دعاهم إلى ذلك مع أنهم هربوا من ساحة القتال عن عجزهم وضعفهم قال لا ريب ان الزاد فرغ منهم فيطلبون ليهلكوا بها افضل من ان يهلكوا جوعاً وعندي أننا نسأل داهور البراز فيميت ابطالهم ومن ثم يحمل على الباقين فنبيدهم وندخل المدينة ونجعلها معابد للنار وندعو العرب الى السجود لها فمن اطاع عفونا عنه ومن أبى احرقناه بها وكان داهور حاضراً فقال إني سأبرز إلى حمزة في هذا النهار على ان النار

تساعدني عليه فأقتله وإذا قتل هان علينا كل شيء .

وبعد ذلك امر كسرى بأن تضرب طبول الحرب والكفاح وترفع رايات الشمس والأسد وتتقدم الجيوش الى وسط المجال ولم يكن إلا القليل حتى اصطف الصفان وترتب الفريقان ووقف كل فارس في مركزه وقد استعد لصدور الأوامر بمشاجرة القتال وإذا بداهور الهندي قد تقدم الى وسط الساحة وهو على ظهر فيله كأنه البرج المشيد فكان لطوله وارتفاع الفيل بيان من كل مكان وعلى رأسه خوذة من الفولاذ مصقولة تضيء من تكسير الشمس عليها كأنها جوهرة لامعة وعليه صدرية من الحديد مزرورة لا تعمل فيها الصوارم الحداد وبعد ان استقر في الوسط امر جماعته ومن حواليه من العبيد والخدم ان ترجع الى الوراء وتقف باحتشام فرجعوا وحينئذ اشار بيده الى العربان وطلب اليهم ان يبعثوا بأميرهم ليعدمه الحياة وينهي عمره في ذاك اليوم وكان حمزة على اليقظان فأراد ان يسقط اليه ويأخذ معه في القتال إلا انه سمع صوتاً اشبه بالرعد القاصف قد خرج من أطراف جيوش العجم ثم انحدر من هناك فارس على فرس ادهم كأنه الليل الحالك عالي القوائم واسع الكفل عريض الظهر اصبح الوجه ونظر إليه فرآه ابيض اللون اشبه بالبدر التمام وشعره يميل إلى الشقرة وهو مدجج بالسلاح وعيناه تقدحان شرار النار فمال جميع الفرسان الى ذاك الفارس وهم متعجبون منه ولا سيما عندما رأوه غريب عن المعسكرين وعليه ثياب الملوك القياصرة ثم اطلق ذاك الفارس عنان جواده فخرج كأنه البرق الخاطف وبين يديه سيار العيار المتقدم ذكره يسبق الجواد على الدوام بأميال حتى حير عقول الرجال وبقي تاركاً لجواده العنان حتى جاء آخر الميدان .

وكان عمر العيار قد عرفها حق المعرفة فترك مقامه وانطلق يجري الى ان وقف أمام الأمير حمزة وجعل ينظر الى رستم حتى رآه قد عاد من جولاته ووقف امام داهور وامتشق من وسطه الحسام واراد أن يهجم عليه فقال له داهور كيف تقاتلني وانت لم تعرفني ولا اخبرتني من أنت ومع انك صغير السن اراك قوي الجنان فتخاطر بنفسك عن غير هدى ولا قياس ولا تعرف معيار نفسك قال اما انا فاني اعرفك بنفسي انا الملك قيصر ملك الرومان واسمي رستم فرتم علامة شامي الرومي واسم ابي الأمير حمزة البهلوان واما قولك بأني صغير السن فهذا هو الفخر العظيم والمجد الذي يشهد به كل جبار كريم لأني بدون سيف سأقتلك وانال بقتلك غايتي وآخذ بثأري على قتل ابي قال إن اباك الأمير حمزة وهو مشهور بالحرب والبسالة في رجال هذا الزمان ومع ذلك فقد جرحته واهنته ولم يكن في العرب من يقدر على الثبات امامي فهربوا وتخبوا داخل المدينة فكيف تقدر أنت على قتالي والثبات امامي قال سوف ترى مني ما تتعجب منه وتتذكر تفاوت الفرسان .

ثم انه هجم عليه وصدمه بقلب كأنه فصل من حجر الصوان لا يخاف من طوارق الحدثان ولا يرتاب كثرة اوقات الشجعان فالتقى داهور وحمل عليه كأنه قضاء الله المقدر وقد قوما السمر الطوال ولعبابها على ما تعلما من فنون القتال وهما يصيحان كالذئاب الكاسرة ويهمهمان كالأسود الزائراة وقد أبهر النواظر وحيرا الخواطر حتى غابا عن الأبصار واختفيا تحت الغبار وقد اعجب الأمير حمزة قتال هذا الفارس الأشقر وتحير عندما رأى سرعة طعانه وقوة ضربه وجولاته وقد مال قلبه إليه كل الميل فالتفت الى من حواليه من الفرسان وقال هل رأيتم إلى قتال هذا الفارس وتحققتم أنه اشد بأساً من داهور وانه لا يلبث أن يلقيه قتيلاً تحت اقدام جواده لأنه لا يزيد الدرهم قنطاراً وما رأت عيناي شبيهاً له قط زماني بطوله واريد ان اعرف من هو ومن اين جاء لأنه على ما يظهر غريب الزي ولم يكن بيننا واحد مثله ثم التفت الى عمر وقال اصدقني الخبر فانك عارف به عالم بحاله ولولاه لما أخرجتنا من مكة فلم يبق لي صبر عن معرفة اسمه وحاله قال اعلم ان هذا ابنك رستم فرتم ابن مريم بنت الملك قيصر التي تزوجت بها اثناء جمع المير وأنت في بلاد قيصر والذي تراه امامه يدور من حواليه كأنه الشيطان الرجيم هو يسار ابن عمر العيار من الجارية التي تزوج بها هناك فلما سمع حمزة ذلك كاد يطير من الفرح وتساقطت الدموع من عينيه ولهف قلبه إلى معانقة ولده وفطرة كبده وأراد ان يلقي بنفسه عليه وهو مع خصمه في القتال ويقبله ويبل رؤ ياه منه . فقال عمر اصبر وانظر فإن ابنك لابد أن يقتل خصمه بوقت لانه بين يديه كالشاة امام الذئب وحينئذ تحمل العجم فنلتزم ان يحمل ايضاً الحملة الأخيرة وكان الفرسان يسمعون كلام عمر وما منهم الا من تعجب وتحير من سعادة الامير ولا يعلمون ما كان من قصته مع مريم في بلاد قيصر الا القليل منهم كاندهوق ابن سعدون ومعقل البهلوان واصفران الدربندي والأمير عقيل والملك النعمان ومن كان معه في ذلك الزمان غير انهم كانوا لا يعرفون ما جرى لمريم بعد زواجها بالأمير وسفره عنها وكا كان من قصة ابنها .

قال اننا كنا ذكرنا هذه القصة بوقتها عندما تزوج الأمير من مريم واقام عندها عدة ايام ثم رحل من هناك وبقيت هي الحاكمة على البلاد القيصرية الرومانية وقد ظهر عليها الحمل بعد اشهر قليلة وانتهت اشهر حملها فوضعت غلاماً كأنه القمر عند تمامه وتبين من يومه انه سعيد الطالع موفق الأعمال وبعد نحو خمسة عشر يوماً البسته المعضد الذي اخذته من الأمير حمزة ودعت اليها كل رجال مملكتها واعيان دولتها. وقالت لهم انتم تعلمون ان زوجي الأمير حمزة قتل والدي واقامني مكانه فهو حاكم هذه البلاد وكان لولا حروبه مع كسرى انوشروان والعداوة التي بينهما أخذني معه ولا ريب إذا عرف ابني هذا ان أباه حمزة تركنا وسار اليه ومن الموافق ان نكتم عليه خبر ابيه ولا يذكر له اسم حمزة بل

نقول له إن أباه كان الملك قيصر فمات وأقمت انا مكانه وإلا عدمناه ولحق بأهله فوعدوها بذلك وما عاد ولا واحد من قومها يذكر امامه اسم ابيه ودعت اسمه رستم وهو يكبر وينمي فوضعت له المربين والاساتذة وكان قوي العصب شديد القوى والحيل إذا رفس حائطاً قائماً هدمه او مسك قضيباً من الحديد قصفه وامه تتعب من قوته وتعرف انه سيخرج مثل ابيه لا بل اشد بسالة وإقداماً ولما كبر صار يتعلم ركوب الخيل وفن الحرب والقتل حتى اتقنها غاية الاتقان وصار يخرج الى البراري والقفار.

وكان كما تقدم ايضاً ان عمر العيار تزوج بجارية من جواري مريم فحملت منه وجاءت بولد دعته سيار احمر اللون ما بين السمرة والبياض إلا ان تركيب جسمه كتركيب جسم أبيه دقيق الرجلين واليدين رفيعهما صغير الرأس كبير الوسط والجسم ومع أن اشتداد قواه كان لا عظم فيه فتربى وكبر مع رستم بن الأمير حمزة وصار يرافقه في كل وقته ولا يفارقه دقيقة لا في النهار ولا عند المنام ولما صار عمر الأمير رستم نحو ١٤ سنة دعته امه اليها وقالت اعلم يا ابني اريد ان اترك الملك فتحكم انت على كرسي القياصرة ويكون مرجع الأمر اليك فأجابها الى طلبها وحينئذ دعت أكابر قومها واعرضت عليه ما نوته ففرحوا جداً لأنهم كانوا يحبون رستم محبة عظيمة جداً ويتمنون ان يكون الملك عليهم فنادوا باسمه وأجلسوه على كرسي القيصرية وألبسوه التاج وصار منذ ذلك اليوم ملكاً إلا أنه كان يحب الحروب والغارات فصار يركب في اكثر الأحيان ويقصد الفرسان والابطال وكل بلد او مدينة كانت عاصية من قديم الزمان او امتنعت عن دفع الجزية لأسباب سار اليها واذلها واعادها الى طاعته واعظم شيء كان مولعاً به ملاقاة الفرسان فكان كلما سمع بأن فارساً اشتهر وامكنه الوصول اليه سار في الحال وحاربه فاما يقتله وإما يذله وكان في نواحي دمشق الشام بطل من الابطال المشهورين اسمه الصيصان قد انتشر صيته وفاق على أقرانه ولم يقدر فارس في كل ايامه ان يذله او يقهره فسيمع بذكره رستم فقصد ان يسير الى بلاده فدعا بأمه واقامها مكانه وجمع جيشاً يبلغ عدده الاربعين الفاً وسافر يقصد مدينة الشام وجبال حوران وكل تلك النواحي ليلتقي يامير صيصان فيذله ويتفرج على تلك الجهات ولا يترك عاصٍ قط ولا خارج عن طاعته

وبلغ الخبر الصيصان هذا فجمع جيشه وسار على طريق قيصرية على امل ان يلتقي به في الطريق وفي نيته انه يأسره او يقتله ومن ثم يسير إلى بلاده فيملكها ويجلس مكانه وقبل منتصف الطريق التقى الفرسان فضربا الخيام في تلك الناحية وفي اليوم التالي نهضا وتبارزا في ساحة القتال على مرأى من الجيشين وكان الصيصان يعد بألف فارس من الفرسان الشداد إلا أنه لم يكن من درجة رستم ولا يعد من رجاله فذل بين يديه وسلم

نفسه اليه وطلب أن يكون في خدمته كل عمره فاجاب طلبه ووعده بكل خير وجميل وقربه منه جداً وتصالحا وعاد رستم الى بلاده ومعه الصيصان فجعله وكيلاً عنه في دولته وصار إذا غاب هو قام مقامه وإذا حضر جلس بين يديه والناس فرحة به تتحدث بأفعاله وما من واحد منهم أخبره بأن اباه الأمير حمزة بل كان يعرف ان اباه قيصر وأمه مريم وذات يوم قصد الخروج للصيد حسب العادة فوكل مكانه صديقه الصيصان واوسع في البريطارد الأسود والذئاب والنمور والفهود وما وقعت عينه على واحد منها إلا وطارده وضيق عليه المذاهب ثم اصطاده وجاء به الى خدمه وفيها هو على مثل تلك الحالة وقد انفرد في جهة مقفرة عن قومه وإذا بأمرأة قد اعترضته وكانت هذه الامرأة اسمابري زوجة الأمير حمزة وقالت له إني بك مستجيرة أيها الأمير فاجرني يجاريك الله فقال ومما أجيرك. قالت اعلم اني اسمابري حاكة في جبال قاف ففي هذه الأيام طمع في بلادي الشاه ياقوت الأزرق حاكم المقاطعة الثابتة فجردت جيوشي ومردتي ففرقهم وتقوى علي فدعوت بكهاني وارهاطي واستشرتهم في أمره لانه ملك اكثر بلادي وكاد يطردني من ملكي فقال لي احد الكهان ان الشاه ياقوت الأزرق قوي لا يقتل إلا من يد فارس ظهر في بلاد الإنس اسمه رستم فرتم وحكى لي عن ابيك فقصدتك في الحال لآخذك معي لتقتل لي هذا العدو وإذا فعلت ذلك أخبرتك عن أبيك واطلعتك عن قصة امك معه وعلى قصته معي ايضاً .

قال إن ابي مات واي شيء تهمني قصته وانا لا اعرفه ومات قبل ان ولدت فقالت له إن اباك لا يزال حياً وهو فارس فرسان هذا الزمان وسيدها وهذا الذي تقول إنه أبوك هو جدك أبو امك فغضب من ذلك وقال لها كانك تريدن ان تقولي ان امي اخذت واحداً بالحرام فجاءت بي ولذلك اخفت اسمه عني قالت كلا بل تزوجت به حلالاً وحكت له قصة امه مع الأمير حمزة العرب من الأول الى الآخر وقالت له إن أباك هو الأمير حمزة فارس برية الحجاز الذي اشتهر صيته في كل مكان وناح وقد ذل بين يديه كل جبار عنيد وفارس صنديد وكاد يهلك دولة الأكاسرة وقد نزع منهم علمهم الأكبر وأذلهم الى آخر الأيام ولا ينفك عنهم إلا ليبيدهم وهو زوجي ايضاً وحكت له قصته معها وكيف تزوج بها اخيراً ففطن رستم الى هذا الكلام وخطر له الصحيح وفكر ان امه كانت على الدوام تبكي وكل ما جاء اليها رآها باكية فيسألها عن السبب فتقول له إني اتذكر ابوك واتمنى ان يكون حياً وعارفاً بك فكم كان يفرح لذلك فيبكي هو ايضاً ثم قالت له ولكي تصدق مني ما اقوله فانظر في المعضدالذي بيدك فهو منه وقد اهداه الى أمك وعليه اسمه فنظر فيه وتحقق ذلك وقال لها إنك لا تذهبين أنت إلى أبي وتستمدين معونته حتى جئت إلي قالت إلى ان الكهين قال لي إنك انت وحدك الذي تقدر على قتل الشاه ياقوت الازرق فلو جئت بألف واحد كابيك لما قدر على ذلك . فقال إني كنت لا أرغب في ان اذهب معك

بل أريد ان اذهب إلى أبي لكن حيث الأمر كما قلت فاذهب معك لأرى أختي قريشة واقتل لك الشاه ياقوت الازرق وأعود في الحال فرفعته على عاتقها وجاءت به جبال قاف ودخلت به المقاطعة الثالثة فاوقفته هناك واحضرت له سيفاً من الفولاذ مكتوب عليه اسماء وطلاسم من صنعة حكماء اليونان إذا ضرب به الصخر قطعه او الحديد ابراه وقالت له خذ هذا السيف فإنه يقتل به وجاءت به حتى اوصلته الى المكان المقيم به الشاه ياقوت الازرق واشارت إليه واختفت هي فتقدم رستم وهو كانه الأسد الكاسر غير خائف من كثرة المردة والارهاط التي كانت تحيط به ولما قرب منه صاح به وقال له ويلك يا شاه ياقوت لقد جئت لأقتلك وآخذ روحك من جسدك واخلص اسما بري منك فصاح به الشاه ياقوت ويلك يا أنسى من أدخلك بلادي فلابد من قتلك، انحدف عليه ورماه بعمد من الحديد لو سقط من جبل لدكه فمـال عنه باسرع من البرق وتمكن منه بضربة من حسامه جاءت في صدره خرق السيف فيه وخرج من ظهره فصاح من الألم ووقع إلى الأرض مائتاً فصاحت الارهاط واحتاطت به من كل مكان وقصدت ان تفاجئه لتأخذ بثار سيدها منه فاشهر بيده الحسام وعول على المدافعة وقتالهم وإذا باسمابري ظهرت وصاحت ويلكم اخلوا عنه وإلا اهلكتكم عن آخركم وما عاد أحد منكم يقدر ان يعصي لي امراً ومن خالف اهلكته واحرقته بالنار فلما سمعوا صوتها تفرقوا واستجاروا وطلبوا الأمان فأمنتهم على ارواحهم وادخلتهم في طاعتها وامرتهم ان يحرقوا جثة ملكهم ثم ان الأرهاط دنوا منها وقبلوا يديها وتقدموا من الأمير رستم فخدموه واحترموه وبعد ذلك اخذته الى قصورها الشامخة واولمت له الولائم واجتمع بأخته قريشة وسلم عليها وسلمت عليه واحبته حباً زائداً وقالت له إن هيئتك كهيئة ابي قال وهل رأيته انت فأخبرته بقصة ابيها وكيف ان أمها كانت ترغب في ان تبقيه فخلصته وأرسلته إلى بلاده وهو يقاتل الاعجام فقال لها إني أحب ان ارجع الى بلادي حالاً لأخذ عساكري واسير اليه واقيم عنده ولا اعرف كيف ان أمي اخفت عني امرها وماذا تقصد بذلك قالت لا ريب انها تخاف من ان تترك بلادك وتذهب اليه وهو في عداوة عظيمة مع كسرى ملك الإنس الأكبر وله اكثر من عشرين سنة وقد لاقى اموراً كثيرة فتارة خاسراً وطوراً فائزاً ولكن اخبرك انه اشد العالم بسالة ونشاطاً وكرامة وإني اتمنى ان اكون عنده لو كان يمكني ذلك لأن امي لا تفارق ملكها ولا تترك بلادها وليس لها غيري فالتزمت ان ابقى عندها وبعد ذلك جاءت اسمابري بسيف الشاه ياقوت الأزرق ودفعته الى رستم فرتم وقالت له إن هذا هذا السيف لا يثمن بثمن فهو اعجوبة بين سيوف الإنس والجان قال لها حسناً فعلت وأشكرك على ذلك ثم جاءته بفرس أدهم وقالت له ان هذا اسمه سلمى الدهماء وهو أشبه بفرس ابيك اليقظان فلما رآه زاد فرحه وسر سروراً عظيماً وقال جزاك الله خيراً فإني بحاجة الى مثل هذا السيف والجواد

ثم انها اخذته ودارت به كل النواحي حتى تفرج على كل ممالكها وصرف نحو أربعين يوماً وبعد ذلك طلب اليها ان ترجع به الى بلاده فأجابت إلى ذلك وامرت خادمها كنداك المارد ان يطير به إلى بلاذه فحمله وحمل الجواد وسار بهما في الجو الأعلى حتى وصل الى قيصرية فأنزله في الخارج وودعه ورجع الى جبال قاف فركب الجواد وهو من تحته كالبرج المشيد ونزل البلد فوجد قومه وجماعته باضطراب عظيم وقلق زائد ولما رأوه انحدروا اليه وسلموا عليه وهم يتعجبون من فرسه وحاله وسألوه في اي مكان كان فاعاد عليهم القصة من اولها إلى آخرها ومن ثم انصرف إلى امه فوجدها باكية نائحة فقال لها لما هذا البكاء قالت له من اجل فراقك فاني كنت مشغلة الفكر بسببك قال إني جئت ولا لزوم للبكاء بل للفرح وكثيراً ما رأيتك على مثل هذا الحالة فاسألك فتقولين لي تذكرت اباك الى غير ذلك من التقولات الفارغة مع أنك تخفين الحقيقة وتزعمين ان ابي مائتا فاخبريني من هو أبي وكيف كانت قصتك معه لأرى هل ان ما سمعته صحيحاً فتأكدت انه اطلع على حالة ابيه وعرفه فقالت لم يبق من وجه للاختفاء واني اريد ان اطلعك على حال ابيك ولو ما أطلعك احد عليه لأن الوقت حكم بذلك فأبوك هو الأمير حمزة ابن الأمير ابراهيم امير مكة وقد جاء هذه البلاد وتزوج بي وحكت له القصة من اولها الى آخرها وقالت له إني كنت ناوية كل النية ان لا اخبرك بامر ابيك خوفاً من ان تترك بلادك وتذهب اليه لأنه في غنى عنك وهو رجل يحب الحروب والغارات وقد عادى اكبر ملوك هذا العالم وسيدهم الملك كسرى انوشروان صاحب التاج والايوان واخذ منه بنته بالرغم عنه وتركه ذليلاً حقيراً الى آخر الأزمان ولما غبت في هذه الأيام وشغل فكرنا من أجلك خفت ان تكون اطلعت على سر المسألة وعرفت ما هو مخيف عليك فذهبت الى هناك ولم تعلم احداً بذلك فأرسلت رسولاً الى حلب فغاب اكثر من شهر ثم عاد إلي واخبرني ان العرب ذهبوا الى نهروان فقتلوا ابن عم كسرى وجماعته ثم رجع عليهم كسرى ٢١ كرة من العساكر فحاربوهم عدة ايام وكادوا يبددون شملهم غير أن في الأخير تبارز ابوك مع فارس من الهنود يركب الأفيال فجرحه وبعد أن جرحه رحل العرب كلهم إلى مكة ولم يأتوا حلب مع ان نساءهم واولادهم هناك ولا يعلم احد ماذا صار به ولذلك تراني ابكي وانوح واندب حظي كيف اني لم اكن عنده لأخدمه واداوي جرحه واكون قادرة على الحصول على رضاه كغيري وربما يكون هذا الجرح يمينا فيموت ولا اراه ولا يرى ولده رستم ويسر به وندمت كثيراً على ما سبق مني فلما سمع رستم هذا الكلام قال لقد صح ما سمعته يا اماه من ان ابي الأمير حمزة واعتب عليك كيف اخفيت عني امره وكيف تقبلين وانا اجلس هنا براحة وحظ وهو يقاتل الفرسان الكبار الذين اتمنى ان القاهم في الميدان وخصوصاً ركبة الأفيال الا ان مثلي إذا كان عند ابي يفوز به العجم ولا ريب اني عضده واساعده فقالت له اني اعرف ذلك

ولكن عند أبيك نحو ثلاثين فارس مثلك من نخبة الفرسان وأبطالها كل واحد يتكفل بمائة الف فارس عند القتال بعضهم يقاتلون على الإقبال وبعضهم على الخيول ولاسيما ان عندهم عمر العيار ابو عيارك سيار فانه آفة العرب ومديرهم ومنجيهم من الشدائد والأخطار لا نظير له في العالم قاطبة إلا إذا كان ابنه سيار فاذا تعلم منه فن العيارة نفع العرب كثيراً ثم اطلعته على ان عمراً قد تزوج احدى جواريها فجاءت بهذا الولد فأخصته لخدمته كما اختص ابوه فقال لها كوني حاضرة فان لا صبر لي على فراق ابي واني بعد ثلاثة ايام اسير الى مكة المطهرة وارى ابي هناك فان كان حياً اجتمعت به واقمت عنده كل الايام واي شيء ارتجى في هذه البلاد واذا كان قد مات سرت الى بلاد كسرى وقتلته ونزعته عن الإيوان عدت فجمعت العرب من جديد ولا ارجع مالم آخذ بثأر ابي من قاتله .

وفي اليوم الثاني جاء إلى سرايته واجتمع بالأمير صيصان وقال له نبه على رجالك أن تستعد إلى السفر فإني قد عزمت على الرحيل إلى مكة المشرفة . قال ماذا تريد أن تفعل هناك . قال مرادي أن أذهب إلى أبي الأمير حمزة البهلوان فأقيم عنده حياتي بطولها ولا أفارقه . فقال له من أين حمزة البهلوان والدك وهو فارس برية الحجاز وبطل هذا الزمان ومذل كسرى أنوشروان وعنده من الأبطال والفرسان ما لا يوجد مثلهم في هذه الأكوان . قال وهل تعرفه قال كيف لا وقد مر من بلادنا مراراً فأضفناه وترحبنا به خوفاً من سطوته لأنه جبار لا يصطلى له بنار ولا يقف أمامه لا صنديد ولا جبار وعنده فارس اسمه أندهوق ابن سعدون من الهنود يقاتل علي الافيال وعنده أيضاً المعتدي حامي السواحل وهو نادرة هذا الزمان وقد تزوج بأخته سلوى وعنده بشير ومباشر وقاهر الخيل ومعقل البهلوان واصفران الدربندي وانضم إلى خدميه الملك النجاشي ملك الجيش وعمر الأندلسي أمير المغاربة وفارس الغرب وملوك التركمان والاكراد وعنده ابنه عمر اليوناني ابن بنت ملك اليونان وابنه الأمير سعد فارس هذا الزمان من طوربان بنت ابن عم كسرى الذي لا يلقاها فارس في ساحة الميدان وعنده ملك القسطنطينية وملك اليونان وغيرهم من الملوك العظام وفي الأخير انضم إلى خدمته وتحت رايته فرهود صاحب التكرور وملك السودان وهو من الجبابرة العظام أصحاب البطش والاقدام ولو كنت أعرف بأن أباك الأمير حمزة لأخبرتك من زمان ولا تركتك تبقى هنا ولا يوماً واحداً وأنا على الدوام استقصي أخباره وأسأل السياح والسعاة عما جرى بينه وبين كسرى لأن هذه العداوة تهم العالم أجمع وأصبح كل الناس من الشرق إلى الغرب ينتظرون نتيجتها ليعرفوا نهايتها ولم يسمع أن حرباً اتصلت الى أكثر من عشرين سنة وكم هو جميل أن تكن مع أبيك وأختك فزاد شوق رستم إلى ذلك وقال لا بد من المسير فهل سمعت أن أبي مجروحاً قال سمعت ذلك وأنه أخذ إلى

مكة وسمعت الجرح غير مخطر وأنا أنتظر أن أسمع ماذا جرى بعد جرحه قال سنسعى نحن خلف ذلك واشتهر في المدينة ان الملك ووكيله الصيصان سيسيران إلى مكة وقد أخبر بأبيه الأمير حمزة فأخذ كثيرون منهم أن يستعدوا للسفر معه إلى مكة المطهرة وبعد ثلاثة أيام ركب فرسه وتقلد بسلاحه ورفع أمهوجاريتها أم سيار على هودج من الحرير وسار عن قيصرية بعد أن اقام عليها حاكماً من قبله وأوصاه بالعدل والانصاف وسار في ركابه نحو ثمانين ألف فارس ما عدا العبيد والخدم وسار بين يديه سيار العيار كأنه السهم الطيار وركب العساكر وما برحوا في مسيرهم ورستم يتمنى أن يطير ليصل إلى مكة ويشاهد أباه واخوته وأهله وهو يتصدر كيف يجتمع بأبيه إذا رآه حياوكم بفرح به إذا رآه وشاهد منه فارس عظيم ثقيل العيار وهو يسأل الله أن يكون أباه في قيد الحياة ولما بقي بينه وبين مكة نحو يومين واستلموا الطريق القويم قال رستم للصيصان سر أنت على مسير العساكر واعتني بوالدتي وأنا أرغب أن أسبقكم واجتمع بأبي وأعرفه بنفسي فلم يقدر على مخالفته وسار كما تقدم معنا وبين يديه سيار العيار إلى أن التقى به عمر وجرى ما جرى وأخبره بأن أباه قد مات فزاده حسرة وضاعت كل آماله ولم يبق همه إلا أن يأخذ لنفسه بالثار فهذا ما كان من قصة رستم فرتم ولنرجع إلى سياق الحديث فإنه بقي في قتال داهور هو يصول ويجول من حواليه كأنه القضاء المنزل حتى أتبعه وأكربه وضيع منه صوابه وشاهد تقصيره وعرف أنه ما عاد يقدر على الثبات وإذ ذاك سد عليه طرقه وطرائقه وصاح بصوت أشبه بالرعود القواصف رن آذان تلك الجموع الغزيرة التي كانت مع كثرتها ساكتة لا تبدي حركة منتظرة نهاية القتال مأخوذة من افعال الامير رستم الذي لم يخلق على وجه البسيطة في ذاك الزمان أقدر منه بالجولان وسرعة الضرب والطعان فكان من هذا الصوت أن استدعى انتباه الجميع وسمعه البعيد والقريب من جيوش مملكتي الفرس والعرب وقال في صياحه هلموا أيها العرب أصحاب الشرف والحسب وكل من إليهم انتسب وانظروا فعل ابن الأمير حمزة البهلوان في عدوه داهور الهندي والقرنان وتذكروا هذه الضربة إلى آخر الزمان وتناقلوها لساناً عن لسان وانساناً عن انسان ثم رفع بالحسام حتى بان ما تحت أبطه وصاح يا لثارات الأمير حمزة ويا لثارات الأمير حمزة ونزل السيف يهوي كأنه الرعد القاصف ورأى داهور ذلك فارتبك ولم يعد يعرف يمينه من شماله ورأى الموت عياناً سديده بالطارقة ليلتقي سيف الأمير وهو سيف الشاه ياقوت الأزرق فوقع السيف على الطارقة تقطعها نصفين وأصاب الخوذة فأبراها وأصاب رأس داهور من أعلاه ففلقه ونزل السيف بأسرع من لمح البصر حتى أصاب ظهر الفيل فنزل به نحو شبرين فوقع داهور قطعتين وضرب الفيل بخرطومه الأرض من شدة الألم وأراد أن يضرب رستم به وينتقم لنفسه منه فأسرع بأن ضربه ضربة ثانية ألقاه مائتا وسمع صوتاً من عموم العرب لا شلت

يدك يا نسل الاخيار وبالعكس صاحت رجال الأعجام وتمنت تطع يداه ووقع كسرى وبختك بالغيظ والكدر وفي تلك الدقيقة صاح الأمير حمزة بفرسان العرب أن تحمل من كل ناحية ومكان وحمل هو في مقدمتها كأنه الأسد الريبال فارتمت العربان على الأعجام واشغلوا فيهم ضرب الحسام وقد ترجح لهم الفوز والنجاح في ذاك اليوم العظيم الاخطار الكثير الزحام فدافع العجم دفاعاً قوياً وقاتلوا قتالاً شديداً على أمل الثبوت إلى آخر النهار ومن ثم يطلبون الهرب تحت ظلام الاعتكار فقامت القيامة وقلت السلامة وأخذ الجبان الندامة فاندفقت الأدمية كالسواقي من كل ناحية ومكان تجدولت في حفر الأرض كالغدران ولم يسبق أن سمع بمثل ذاك اليوم منذ قديم الأزمان لأن رستم فرتم فعل أفعال الجان فأفنى جموع كسرى وشردها . وأضاعها وبددها . وفعل مثله الأمير حمزة البهلوان وهو مسرور القلب فرحان بأعمال ابنه عروس الميدان . وبطل الدهر والأوان وكذلك عمر اليوناني فإنه من فرحه بأخيه طال واستطال . وأجهد نفسه في القتال وفرق الجموع من اليمين ومن الشمال وتركهم عبرة لمن يأتي بعده في الاجيال وهكذا الأمير سعد فقد أكثر الكر والفر والقرب والبعد وهو يمدد بالرجال على بساط الوهاد ويضرب فيهم ضرباً يذهب بهم إلى راحة الرقاد . أما اندهوق والمعتدي وباقي الفرسان الأفيال فقد فعلوا أفعال أسود الدحال . ووطدوا العزم بأن لا يرجعوا عن ساحة القتال إلا بعد تفريق الأعجام الأرزال .

وفيها الحرب قائمة على ساق وقدم وقد اختلطت ببعضها تلك الأمم مسلمة بأرواحها إلى سلطان العدم . وإذا بالأمير صيصان قد وصل ورأى المعركة مشتبكة فحمل وحملت من خلفه فرسان الرومان من خلف الأعجام وعملوا في أقفيتهم بالصاروخ الصمصام . فتوهموا أن الأرض كلها رجال وخاف كسرى من أن يقع في أيديهم أو يصاب بمصاب فأمر حراسه أن تسرع به من ذاك المكان وكر راجعاً يركض ومن خلفه بختك وبزرجمهر وباقي أعيان الفرس ولما رأى قومه أن ملكهم قد هرب ألووا أعنة خيولهم وطلبوا الفرار وأملوا بالخلاص من العرب فلم يمكنهم منه حق التمكين بل داوموا القتل في أقفيتهم الى الظلام وقد قتلوا منهم كثيراً ومن ثم رجعوا إلى المدينة سالمين غانمين فرحين إلا الأمير رستم فإنه جعل يبكي وقد تقدم منه الأمير حمزة وقال له يا ولداه هلم إلي لأسلم عليك فقال له قبل كل شيء وقبل أن أسلم على أحد منكم دلوني على قبر أبي الأمير حمزة لأنزل وأبكي هنالك فلا أكون عرفت أحداً قبله لأني محروق على أن أراه ولم يسمح لي الزمان أن أقبل يديه وأريد أن أبشر تراب صريحة بأني أخذت له بالثأر من عدوه الغدار واعده أني لا أرجع حتى أفني الاكاسرة والاعجام ولا أدع واحداً من عبدة النار وإذا كان ذلك لا يكفي لحقت بني الانسان والذين لا يعبدون الواحد الديان فلما سمع حمزة تأكد

أنه يظنه مائتاً فرمى بنفسه عليه وقال أبشر يا ولدي فقد نلت من زمانك ما تمنيته فأنا هو أبوك حمزة وجل يقبله فقبل يديه وهو يتعجب ويكاد لا يصدق أنه أبوه بعد أن تحقق موته وحينئذ وصلت مريم بنت قيصر فنزلت عن الهودج وسلمت عليه باحتشام وقالت لابنها هوذا أبوك يا ابناه فقال اعجب من ذلك لأن عمي عمراً أخبرني أنه قتل وان الذي قتله هو داهور الهندي فقال عمر لا تصدق ذلك فهذا أبوك وما قلت لك ذلك إلا لأزيدك ميلاً للانتقام والحمد لله فقد قضيت الغرض وشفيت المرض .

قال ومن تقدم اليه جده الأمير إبراهيم وسلم عليه فقبل يديه وتبرك من بركته وسلم عليه أخوه عمر اليوناني والملك النجاشي وباقي فرسان العرب وملوكها وساروا به إلى صيوان اليون شاه والتقى بأخيه السلطان قباط فقبل كل منهما الآخر وسلم عليه وجلس بقربه وهو مأخوذ من كثرة فرسان العرب وجعل كل واحد يهنيه بدوره ويسلم عليه وقد عاد فقبل يد أبيه ثانياً وقال له لا تلمني يا أبتاه على تقاعدي عن خدمتك إلى هذا اليوم فإني كنت لا أعرف أنك أبي وقد كتمت أمي عني حديثكم ولو عرفته منذ الأول لكنت من زمان هنا وأي شيء أحب لدي من أن أكون مع أبي وأخوتي وأهلي . فقال له إن أمك معذورة في ذلك لأنك وحيد عندها وحيث كنت صغيراً كان لا يسعها أن تشغل فكرك بغير ما يفيدك فأخفت عنك خبرنا وأما عندما رأت أنك صرت كافياً وافياً بالمطلوب جاءت بك وأقام الأمير رستم هناك باقي السهرة وقد أعاد عليهم قصته من الأول إلى الآخر وبعد ذلك ساروا إلى صيوان ضرب له بين قومه الرومان وفي اليوم الثاني عملوا له الولائم والدعوات وذبحوا الأغنام وأصبحت المدينة المنورة زينة في الوجود ترهج وتبتهج بأولئك الأبطال والفرسان وسادات ذلك الزمان وصرفوا نحواً من شهرين على مثل هذه الحال وقد غنم الكبير والصغير من أموال الأعجام وغنائمهم التي تركوها وصار صغيرهم وخادمهم يحوي على خيول وجمال وبغال وأغنام إلى غير ذلك كأنه من الأغنياء وبعد مضي شهرين جمع السلطان السادات وملوكهم وقال لهم أنتم تعلمون أن كسرى لا يستخف به ولا يهمل فإذا تركناه على حاله عاد فجمع العساكر والأبطال أكثر من الأول بأضعاف وعاد إلينا لأن ما دام الوزير بختك عنده لا يتركه أن يسكت عن قتالنا ، ومن الموافق أن نسير بأجمعنا من هذا المكان وننزل في ضواحي المدائن ونطلب إلى كسرى أن يسلمنا بختك وأن يصالحنا على شروط ونطلبها اليه فإن أجاب قتلنا بختك وعدنا من هناك وإلا حاصرنا المدائن وهدمنا الأبواب ونزعنا ملك كسرى الى آخر الأيام . فاستصوب الجميع كلامه ورأيه وعولوا عليه إلى أن كان بعد عشرة أيام ركب الملك العربي وهو قباط ابن الأمير حمزة ابن ابراهيم ورفع فوق رأسه علم بيكار الاشتهار ومشى بين يديه الخدم والعيارون واحتاط

به الحرس من كل ناح ومشت الفرسان كل قبيلة تحت أمر سيدها وتحت علمها المخصوص فمن مصريين وأحباش ورومان ويونان ومغاربة وسودان وسوريين وهنود وأكراد وتركمان الى غير ذلك من كثرة الأجناس وتنوعها وما زالوا في مسيرهم عدة أيام وليالي حتى وصلوا إلى المدائن وهناك ضربوا خيامهم وسرحوا بأنعامهم ووصل الخبر إلى كسرى وفي الحال فخاف أن يهجموا على المدينة فيدخلوا اليها ويملكوها وأمر بأن تقفل الأبواب جيداً ولا تفتح فيها بعد وحاصر في الداخل ينتظر الفرج وملاقاة أمره مع العرب وهو حزين جداً على ما لحق به من الفشل والخسارة والذل والعار وقد قلت قيمته وضعفت سلطته وكسرت شوكته وبعد أن استقر بالعرب الجلوس أخذ الملك قباط فكتب كتاباً إلى كسرى يقول له فيه .

(بسم الله الواحد القهار العزيز الجبار . خالق الليل والنهار . لا إله إلا هو . رحيم رحمن له وحده الملك والعظمة والسلطان من الملك قباط ابن الأمير حمزة ملك ملوك العربان الى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والايوان) .

« اعلم أيها الملك الأكبر أننا وإن كنا قد فزنا عليك واستظهرنا ونلنا ما نتمناه إلا أننا ما زلنا نعتبرك ونحترم قدرك لأنك سلطان جليل القدر عظيم الشأن وجدي أبو أمي وأبي هو صهرك ولذلك لا نرغب في اخراق حرمتك ونحب أن نستأصل هذا الشر والعناد من بيننا وذلك لا يمكن ولا يرتفع القتال وتعود الحال إلى مجاريها إلا بعد قتل بختك الوزير الذي كان السبب في كل ما جرى حتى قتل ألوف وألوف ألوف بسببه منذ أو يوم دخل أبي المدائن إلى هذا اليوم ولذلك نريد منك أن تسلمنا إياه لنقتله بأيدينا وبعد ذلك تعترف بسلطة العرب واستقلالهم التام وان لا يكون للفرس عليهم فيها بعد لا جزية ولا ضريبة وأن الملك والبلدان التي دخلت في أيدينا تكون لنا مع ملحقاتها وتوابعها ومن شاء من الأمراء والملوك أن يترك سلطة الفرس ويدخل تحت سلطة العرب يكون لهالخيار فلا أحد يعترضه في ذلك ومن شاء من الذين مع العرب أن يخرج عن طاعتهم الآن وينضم إليكم فلا نمنعه فإذا تم ذلك رحلنا عنك وتركنا لك بلادك وسالمناك إلى الأبد ونحن نأمن على ذلك ما دام بختك لا يوجد في ديوانك وإلا ما زال حياً فإنه لا يلبث أن يعود إلى الأفساد فسلمنا إياه تسلم بلادك إلا وزحفنا عليك وخربنا ملكك وأهلكناك ونزعنا تاج الاكاسرة منك وحملنه إلى العرب ونقلنا الدولة الكسروية الى العربية وأبدنا كل عبدة النار إلى آخر الادهار فإذا أجبت كان خيراً وسلاماً وإلا فتلاقي ضيراً وانتقاماً .

وبعد أن فرغ من هذا الكتاب طواه وبعثه مع رسول الى كسرى فأخذه وسار به إلى الايوان فصعده وتقدم من كسرى وهو في ديوانه وسلمه التحرير فقرأه وعرف رموزه ومعناه

والتفت إلى بختك وقال له ماذا أجيب والعرب يطلبون إلينا أن نسلمهم إياك ليقتلوك ويعدموك الحياة وقد أصابوا في ذلك لأنهم كانوا عبيدي وتحت طاعتي فعملت على هلاكهم حتى خرجوا عن طاعتي وعملوا على عداوتي وساعدهم الزمان وإذا لم أجبهم هلكت إلى الأبد وخسرت الأعجام السلطة أبداً قال اصبر يا سيدي على بعض أيام أنا أتعهد لك بارجاع العرب عن بلادك ريثما أنظر في طريقة تريح بالك وتحفظ حياتي وحياتك ولا تصدق أن العرب يرضون بي لأنهم كذابون ويعلمون إني بتدبيري أقدر على انقراضهم وكبحهم فرغبوا في قتلي وبعد ذلك يسهل عليهم كل ما يطلبون وربما بعد قتلي طلبوا قتلك وحينئذ لا يعود يقف أحد في طريقهم فاصرف الرسول الآن إلى أن نرى ما هو حسن فسمع كسرى إلى كلامه وخاف من أن يسلمه إليهم فيفقد تدبيره ومشورته ويعدم من فطانته وذكائه . والتفت إلى الرسول وقال له اننا سنرسل الجواب إلى مولاك في غير هذا اليوم بحيث يكون قد فكرنا بطلبه فرجع الرسول وأخذ بختك في التدبير والتفكير مدة ثلاثة أيام وهو يجهد نفسه ليرى طريقة يتخلص بها من العرب ويخلص المدائن وفي اليوم الرابع جاء ديوان الملك كسرى وهو باسم الوجه مسرور الخاطر فقال له في ما فكرت فإن الوقت حرج ونحن تحت الحصار . قال إني صرفت الجهد ولم أر إلا طريقة واحدة وهي أن تبعث بوزيرك بزرجمهر إلى سلطان العرب ويكون الواسطة لصرفهم عن المدينة لأنهم يعتبرونه ويحبونه كواحد منهم ولما كان الأمير حمزة يحضر في ديواننا كان لا يخالف أبداً بزرجمهر ولا ريب أنه إذا سألهم الانصراف انصرفوا وإذا بقوا فيكون هو قد حملهم على ذلك وهذا اعتقادي ويقيني . فلما سمع كسرى هذا الكلام تمسك به وقال لبزرجمهر أي وزيري إني أفوض اليك هذه المهمة وأسألك دفع العرب عن المدينة وإذا قصدت ذلك فإنك تقدر عليه لا محالة . قال سأبذل جهدي فيه وأنت تعلم إني أرغب في حسم النزاع بينك وبينهم وكلما اجتهدت في إطفاء جمرة العدوان اجتهد غيري في اشعالها ولذلك لا أظن أن العرب يصغون إلي إذا لم يوافقهم كلامي قال لا بد من مسيرك اليهم فأنت أمين على بلادي فدبر ما شئت من هذا الوجه واصرف الغاية الى اقناعهم فنهض بزرجمهر وركب بغلته ومشى خدامه في ركابه وخرج من المدينة سائراً حتى وصل إلى معسكر العرب . وهناك وصل الخبر الى الأمير بقدومه فأسرع في الحال إلى ملاقاته مع فرسان العرب اجمع ولما وصلوا إليه ترجل وسلم عليهم فسلموا عليه وقبلوا يديه ومشوا أمامه باحتشام واحترام حتى دخل صيوان اليون شاه فلاقاه السلطان إلى الباب وسلم عليه وأجلسه إلى جانبه وأمر أن يؤتى له بالشراب وقال له الأمير لم تأتنا إلا لغاية مهمة لا نعلمها فأفدنا عنها هل أن كسرى قبل أن يسلمنا بختك ويقبل الشروط التي أشار بها ولدي قباط سلطان العرب قال اعلم أن بختك طلب إلى كسرى أن يرسلني إليكم بشأن

الصلح وأدفعكم عن المدينة وكنت أحب أن لا أجيئكم في ذلك لكنه ألح علي به فقال السلطان قباط انظر أيها الوزير الحكيم في كل شيء تريده فإننا بأجمعنا طوع أمرك وتحت إرادتك ولا نعصى لك أمراً قط فإذا أمرتنا بالرحيل رحلنا وإذا أمرتنا بالبقاء بقينا .

قال إني مرتاب في هذا الأمر لأن بختك إذا رحلتم يعود إلى إضرام نار البغض في قلب كسرى فيعيده إلى الحرب والقتال ويجمع ضدكم الفرسان والأبطال وربما أكثر من الأول بأضعاف ولا أعلم ماذا تنتهي إليه فيما بعد أحوالكم مع أنكم الآن قادرون على اجباره على كل ما تريدون وجل غايتي ان تقرضوا الدولة الكسروية لا لقلة أمانتي لها ولا بغضاً بها بل أنها تبغض كل من يعبد الله سبحانه وتعالى وعاملة على عبادة النار في المساء والصباح وباقي الأوقات وأي شيء أحب لدي من أن أرى الأعجام بأجمعهم يسجدون لله ويوحدونه ويسمعون كلمته ويهدمون معابد النيران .

ومن وجه آخر أريد أن لا أرجع بالخيبة والفشل ويشتبه كسرى أمانتي ويظن أني اتفقت معكم على دوام العناد .

فحينئذ قال له الأمير حمزة إننا نحترم قدومك علينا فلا نعيدك بالخيبة فأخبر كسرى أننا صالحناه ولا نريد منه شرطاً غير أننا لا نرحل عن بلاده بل نبقى نحو شهرين بعيدين عن المدينة مقدار نصف ساعة فيمكن لرجالنا أن يدخلوا المدينة ولرجال الأعجام أن يأتوا معسكرنا دون أن يكون بيننا من العداوة ما يمنع ذلك ومن ثم نرى ما يكون من أمره وهل أن باطنه صفى إلى الغاية ويمكن في هذه المدة ان نرتاح نحن أيضاً من أتعاب السفر .

وأسارك أيضاً أن بختك لا يمكن أن يرانا بالقرب من المدينة ويسكت عن عداوتنا فإذا بدأ منه شيء جديد يكون الحق عليه ونحتج أمام كسرى بأنه ما عمل على الوفاء بل يقصد لنا الشر فاستصوب بزرجمهر ذلك وأقام عندهم نحو ساعتين وقد تناول الطعام وشرب الشراب وودعهم وعاد إلى المدينة ففتحت له الأبواب ودخل وسار الى الديوان فقال له كسرى أخبر أيها الوزير العاقل هل قبل العرب وأجابوا إلى الصلح قال إني صرفت وقتاً بالمخابرة معهم وجل ما قدرت أجرية هو أنهم قبلوا الصلح وأن لا يطلبوا لذلك شرطاً ولكن لم يقبلوا بالرحيل لخوفهم أن بختك يعيد إليك جرثومة الانتقام فتجمع عساكر بقصد حربهم فاعتمدوا ان يقيموا مدة شهرين بعيدين عن المدينة مقدار نصف ساعة وما من مانع يمنع اختلاط العسكرين اذ لا يكون بينهما لا حرب ولا قتال ولا طعن ولا نزال وكل ما مضى يكون منسياً من الطرفين فقط لا يحضرون إلى ديوانك ولا يحضر أحد من قومنا إلى ديوانهم فلما سمع كسرى ذلك سر سروراً لا مزيد عليه وقال لا بد من

أن في هذه المدة نرى طريقة إلى مراضاة العرب وحيث وعدوا بعدم القتال فإنهم يوفون وعدهم كذلك بختك فإنه رأى أن العرب قد تنازلوا عن قتله فلم يعد يهتم إلا بهلاكهم وأمن على نفسه من الموت والهلاك .

انتهى المجلد الثاني من قصة حمزة العرب
ويليه المجلد الثالث وأوله وأجلى